تحقيق عن ندوة الحضارة الإسلامية

فى ذكرى المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فكرى (*)

بقلم

الأستاذ الدكتور / عبد المنعم ماجد

رئيس قسم التاريخ ، بكلية الآداب

بجامعة عين شمس

هذه الندوة فى ذكرى المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، هى من باب الوفاء له كعالم له مقداره ، وأستاذ له حقوق على تلامذته ، ورائد من رواد علماء التاريخ الإسلامى ، الذين تربوا تربية حديثة ، جعلتهم ينقلون إلى بلادهم منهجاً حديثاً من مناهج علوم أوربا المتطورة ، هو منهج علم التاريخ الإسلامى .

حقاً إن العرب كانت لهم اليد الفضلى على هذا العلم ، الذى إزدهر على

(*) جرت العادة بنشر أنباء المؤتمرات والندوات العلمية فى القسم المخصص لها بالمجلة ، ولكن نظراً ، لمكانة المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فكرى العلمية ننشر هذا التحقيق عن ندوة الحضارة التى أقامتها جامعة الاسكندرية بمناسبة ذكرى وفاته الأولى .

أيديهم ؛ بحيث لا يقارن تطوره عندهم - وحتى عدد المؤرخين الذين شغفوا به وتخصصوا له - بما كان يوجد قبلهم ، فهم الذين درسوه بجدية حينما أضافوا إليه السند أو الأسانيد ؛ وهى أشبه بالتهميش فى وقتنا ؛ كما أنهم هم الذين دعوا إلى تحرى الحقيقة التاريخية فى ذاتهـــا ، وليس فقط إستيعابها ؛ بحيث أن ابن خلدون - المؤرخ الحصيف - كان أول من أوجد نظرية لتفسير التاريخ ، سبق بها ما عرف فى وقتنا بفلسفة التاريخ .

ولكن هذا العلم تدهور عند المسلمين ؛ بسبب تدهور أحوالهم السياسية ووقوعهم فى براثن الإستعمار ، ولم تظهر له نهضة إلا من عهد قريب جداً ؛ حينما بدأت مصر ترسل بعثات إلى أوربا ، فى التاريخ الإسلامى ، مثلما أرسلتهم فى علوم أخرى ؛ على أساس أن يتعلموا المنهجية قبل كل شيء . حقاً إن مصر هى مركز الثقل الإسلامى ، إلا أن التاريخ فيها كان يعالج بنفس الطريقة التى يتناول بها فى العصور الوسطى ؛ دون نظر إلى تطوره فى أوربا ، مثلما تطورت بقية العلوم . . وقد أرسل الدكتور المرحوم أحمد فكرى ، إلى باريس قبل الحرب العالمية الثانية ؛ ليدرس فيها منهجية علم الفنون الإسلامية الشامخ ؛ فاختار رسالته فى موضوع : المؤثرات الإسلامية على الفن المسيحى ، فى بعض مقاطعات وسط فرنسا ، مع دراسة تفصيلية لمسجد القيروان الجامع - أى المسجد الرئيسى - الذى اعتبر بناؤه مؤثراً فى الفن المعمارى ، سيما فى المغرب والأندلس ، فكان للدكتور أحمد فكرى فضل السبق بربط الحاضر بالماضى ، ومنذ ذاك وقد بدأت تنتشر مدرسته فى الاهتمام بآثار الإسلام ، سيما فى مصر ، ظهر أثرها فى موسوعته الأثرية عن مساجـــد مصر ومدارسها فى ثلاثة أجزاء ، هى : المدخل ، والعصر الفاطمى ، والعصر الأيوبى .

كذلك كان للدكتور أحمد فكرى أنشطة متعددة أخرى ، تتعلق بدراسة

التراث الإسلامى ، منها تصويره لكنوز مخطوطات متعددة ، بعضها فى دير كاترين بسيناء ؛ وإنشائه معملا لصنع الخزف على الطريقة الإسلامية ؛ هذا فضلا عن أنه شرف مصر بمحاضراته القيمة فى جامعات العالم المختلفة ، سيما السربون ، حيث حضرت له إحداها ، حضرها أكثر من ألفى شخص ؛ كما مثل مصر فى هيئة اليونسكو مدة طويلة .

* * *

وقد دعى علماء من جامعات مصر والعالم العربى ، لإحياء الذكرى السنوية الأولى لوفاته ، فى شكل ندوة أختير لها عنواناً هو : « الحضارة الاسلامية » ، تبنتها كلية الآداب ، بجامعة الاسكندرية ، بقصد جمع الأبحاث التى تلقى فيها ، كى تطبع فى كتاب يهدى إلى ذكراه ، وقد افتتحت الندوة بآيات من القرآن الكريم ؛ وكلمات من عميد كلية الآداب ، ورئيس الجامعة ، ومحافظ الاسكندرية ؛ تتضمن الوفاء السكندرى نحو ابن من أخلص أبنائها ، أما جلسات الندوة فقد كانت صباحية ومسائية .

وتتبين أهمية الأبحاث التى ألقيت فى هذه الندوة - على مدى خمسة أيام - من عناوينها الآتية : المؤثرات الاسلامية فى الفن الرومانسكى فى أوربا الغربية كما نراها فى أعمال الدكتور أحمد فكرى ، الحضارة العربية الاسلامية عند ملتقى الطرق ، المدارس الاسلامية فى العصر العباسى وأثرها فى تطور العلم ، واللقاء الحضارى بين حضارتين وأثر الحضارة الاسلامية فى أوربا الغربية ، نظام المواطنة فى الاسلام ومنجزاته للحضارة العربية ، العمران نظرية لابن خلدون فى تفسير التاريخ ، جماليات الفن الاسلامى بين الدين والمد الحضارى ، مظاهر الحضارة فى بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، دور المغاربة فى الحروب الصليبية فى المشرق العربى ، القيم الجمالية فى الخط العربى ، روايات تاريخية

متأخرة عن هجرة الفينيقيين إلى مصر ، مدينة عمان الأردنية فى التاريخ الاسلامى الوسيط .

فمثلا البحث عن المؤثرات الاسـلامية على الفن المسيحى المعروف بالرومانسكى ، فى أوربا الغربية كما نرى فى أعمال الدكتور أحمد فكرى ؛ شدّت الإنتباه لاستهدافها بيان التأثير المتبادل بين حضارات الشعوب ، سيما فى القرن العاشر الميلادى إلى القرن الثانى عشر ؛ حيث أن الفن الرومانسكى المنسوب إلى الرومان ، لاقتباسه منه ؛ فقد أخذ مظاهر الفن الإسلامى ، من مقرنصات وعقـود ونقوش مورقة وتلوين وخطوط ، وطوّرها لأغراض الكنيسة ، ظهر أثرها فى آثار وسط فرنسا وإيطاليا وصقلية واليونان وأسبانيا المسيحية ؛ مثلما أخذ الفنان المسلم عناصر بنائه من بيزنطة والقبط وغيرهما ، ونفث فيهما من روحه حتى أصبحت إسلامية .

والبحث الذى قُدم عن اللقاء الحضارى فى الأندلس ، وهى التى صارت موطناً للقاء طويل بين حضارتين ؛ حضارة إسلامية عربية مشرقية من جانب ، وحضارة مسيحية لاتينية أوربية من جانب آخر ؛ مما كان له آثاره فى حياة أسبانيا وسيطها وحديثها ؛ وفى حياة أوربا ؛ اهتم على الخصوص بقضية التأثير العكسى ، أى تأثير الحضارة المسيحية اللاتينية فى الأندلس العربية ؛ مما جعله بحثاً طريفاً للغاية .

والبحث عن مظاهر الأصالة فى بنيان المسجد الجامع بقرطبة ؛ الذى يعتبر من أروع العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء فى العصور الوسطى ، متمثلة فيما تضمنته بنيته من إبتكارات معمارية ، وثروات زخرفية ، وازدواج عقود بلاطاته ، واستخدام الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها ، كهيكل أساسى تقام عليه كسوة القباب ؛ مما كان له أثره فى معظم الكنائس والمساجد بعد ذلك .

أما بحثى عن: نظرية العمران لابن خلدون فى تفسير التاريخ ، حيث أوجد قواعد ومعايير جديدة فى فهم المجتمعات البشرية بعامة ، والإسلامية بخاصة ، فانها نابعة من مجتمعنا وتاريخنا الإسلامى ، من يعقلها تبعده عن نظريات حديثة فى تفسير التاريخ ، يحاول البعض اقتباسها ، سيما تلك النظرية المادية ؛ التى تفسر التاريخ على أساس الصراع بين الطبقات ؛ بينما الذى كان يحرك التاريخ الإسلامى — ولا يزال روح الدين والمجتمع الإسلامى نفسه ؛ ثم إن نظرية العمران عند ابن خلدون ، ليست نظرية متحجرة منغلقة محددة الحدود ؛ إنما هى نظرية قابلة للأخذ والإعطاء فيها مرونة وتفسيرات متعددة ، مما يجعلها دائماً سنداً لتفسير التاريخ الإسلامى فى وقتنا أو بعد وقتنا .

ومع ذلك ؛ فلنا الملاحظة عن تفسير الازدهار والتقدم عند ابن خلدون، أثارت نقاشاً حامياً بين الحاضرين لا نرى ما يراه ابن خلدون من أن للحضارة أعمار كالأشخاص ، وإنما بالأولى هى أسلوب لحل مشاكل الحياة ، ولذلك فجيئها وذهابها بسبب تطور الحياة . يضاف إلى ذلك أن طبيعة الخلق أن يسهم البشر كل منهم بنصيب ، فى تقدم الحضارة البشرية ؛ فلا يستحوذ عليها جنس دون الآخرين ، فالنهاية هى للبداية لحضارة أخرى . ثم أليس الحضارة بتقدمها وتدهورها دليل جديد على أن الخير والشر من مستلزمات الإنسان ؛ فالتقدم دليل على عمله وإجتهاده والتدهور دليل على تقصيره ، مما يدعو إلى العمل من جديد . كذلك معنى وجود التدهور بعد التقدم ، أن العالم إلى آخر الكون سيمر بالازدهار ، وأن نهايته الانحلال ، وأن كل ما مر به من ازدهار وكأنه لم يكن ، وإن كنا نعرف بالإيمان أن ما فعلناه فى الدنيا هو زاد الآخرة ؛ مما سيبقى إلى الأبد كذكرى للجهاد الإنسانى .

وقد اختُتمت الندوة بتوصيات متعددة ؛ منها ضرورة مواصلة البحث

والكشف عن الأصالة فى الحضارة الإسلامية ؛ ونشر تراثها بإنشاء مركز دائم يكون مقره مدينة الاسكندرية ، تشرف عليه جامعتها ، هذا بالإضافة إلى ضرورة جمع الأبحاث التى لم ينشر منها الدكتور أحمد فكرى فى حياته ؛ ثم ألقت الأستاذة الدكتورة درية فهمى ؛ رفيقة حياة صاحب الندوة ؛ ورئيسة قسم اللغة الفرنسية بجامعة الاسكندرية سابقاً ، كلمة مؤثرة عبرت فيها عن امتنانها للجامعة السكندرية ، وتلامذته الأبرار ؛ فكانت بحق مسك الختام لهذه الندوة .

البيت فى مصر القديمة

بقلم
دكتور فرنسيس عبد الملك غطاس
أستاذ مساعد تاريخ قديم
رئيس قسم التاريخ كلية التربية — جامعة المنصورة

(ا) المنازل[1]

ويعرف المنزل بالمصرية القديمة pr [2]

وكان الفلاحون والفقراء من قدماء المصريين يعيشون كما هو مشاهد فى جميع البلاد الحارة فى الهواء الطلق معظم يومهم . ولذلك فإنهم كانوا يكتفون بمنازل بسيطة ساذجة تتكون فى العادة من أربعة جدران يعلوها سقف مستو من أغصان النخيل يشدها جذع وتغطيها حصر تطلى بطبقة سميكة من الطمى ولها باب واحد ونوافذ قليلة ضيقة ، ولما كان المطر قليلا فى مصر فإن هذا السقف من الطين لم يكن معرضاً للتهدم إلا فى القليل النادر . وكان هذا المنزل أقرب إلى أن يكون ملجأ يحمى ساكنيه من الشمس ومستودعاً يضعون فيه محصولاتهم منه إلى الغرض العادى فى البلاد الأخرى . وكانوا ينامون على السطوح فى معظم أيام السنة .

وكان ترتيب منازل المدن يختلف عن منازل الأرياف تبعاً لذوق أصحابها . فتصميم منازل المدن كان يتكون أحياناً من عدد من الغرف تحاط من ثلاثة جوانب بفناء يغرس بالأشجار وأحياناً يتكون من صفين من الغرف على جانبي ممر طويل ولها مدخل من الطريق العام إلى الفناء ؛ وأحياناً توجد فيه الغرف حول ساحة فى الوسط تغرس فيها الأشجار حول بحيرة . وتلك المنازل تتكون من طبقة واحدة أرضية ولو أن البعض منها كان يعلوه طبقتان . وفى أغلب الأحيان كانت توجد طبقة واحدة علوية .

وكانت الغرف الأرضية تستعمل على الخصوص كمخازن أو كأمكنة لجلوس البواب وأخرى لاستقبال الزائرين أو لمن يأتون لأمر من الأمور على حين يشغل أفراد العائلة الدور العلوى .

ولقد وردت على جدران بعض مقابر طيبة رسوم لعدد من المنازل ذات طابقين أو ثلاثة ففى مقبرتى « تحوتى نفر » رقم ١٠٤ ورقم ٨٠ فى طيبة (من عهد أمنحتب الثانى) بقايا رسم لمنزل نستطيع من دراسته أن نحكم بأنه يتكون من ثلاث طبقات . السفلى تضم المطابخ وبعض الغرف التى يعمل فيها الخدم . وقد أظهر الرسام بعضهم ينسج على أنوال ؛ وفى جزء آخر انهمك بعض الخدم فى إعداد الطعام .

وفى الطابق الذى يعلوه أظهر الرسام صاحب المنزل بين عائلته تقدم زوجته له كأساً من الشراب على حين يتقدم ابنه نحوه بباقة من الزهور . وفى منظر آخر للمنزل نفسه نرى الخدم يتقدمون حاملين المآكل لأن صاحب المنزل كان يحتفى بضيوفه فى هذا الطابق المرتفع الجدران والذى كانت سقوف ردهاته محمولة على أعمدة جميلة متناسبة ؛ وفى أعلى الجدران نوافذ صغيرة للضوء .

أما النساء فكن يقطن الغرف التى فوق الطابق المعد لاستقبال الزوار ،

وعنى الرسام بإظهار زوجة «تحوتى نفر» جالسة على مقعد ويتقدم منها وصيفتها يحملن مروحة ومذبةو بعض الشراب وفوق سطح المنزل نرى الغلال موضوعة فى صوامع كما يحدث الآن فى منازل الفلاحين .

(ب) أثاث المنزل والأدوات المنزلية[٣] Mobel

يعد السرير من أهم قطع الأثاث المنزلية . ففى أقدم المقابر عثر على أسرة كانت أكثر انخفاضاً من الأسرة التى أتت بعد ذلك ولكن أرجلها كانت محفورة على شكل سيقان الثور .

وفى أحد منازل الأسرة السادسة الخاصة ذكر سرير من أحسن أنواع الخشب كالقطعة الوحيدة التى تستحق الإبراز فى القائمة . وكانت تزين ألواح القدمين بأشكال جميلة للإله «بس»[٤] واسمه بالهيروغليفية :

- Bes - : Der Gott für Musik und Tanz

والإلهة «تاورت»[٥] : T3-wr.t

وهى إلهة كان من المعتقد أنها تحمى النائم وتحرسه . وكانت أرجل الأسرة تصنع فى المعتاد على شكل الحيوان (الثور أو الأسد) . أما الجزء المستعمل للنوم فقد كان يتكون من شبكة من الألياف المجدولة والخيوط الكتانية المضفورة تشد إلى إطار من الخشب .

أما الكراسى والمقاعد فكان منها البسيط والفخم وكانت أرجلها تخرط على شكل قوائم الثور أو الأسد وتصنع الأجزاء والإطارات المختلفة والظهر من الخشب ثم يغطى بعضها بالذهب أو تنقش بأشكال مختلفة تطعم بالعاج

والأبنوس وبعض هذه المقاعد كان طويلا بحيث يتسع لاثنين يجلسان عليه فهو من قبيل ما يسمى «الشازلونج» الآن .

وبعضها له مساند جانبية أى أذرع يشبه بها ما يسمى الآن « الفوتيل » وبعضها كان بدون مسند للظهر وبعضها كان يشبه الصنف الذى يطوى الآن .

وكانت أرجله تصنع فى المعتاد على شكل رءوس الإوز أو البط . وكانت الكراسى تغطى فى المعتاد بوسائد من الجلد أو القماش الموشى بالذهب والفضة رسمت على بعضها أشكال متعددة لأشخاص أو نباتات أو زهور أو أشكال هندسية ملونة ؛ أو تغطى أمكنة الجلوس فيها (مقاعدها) بشبكة من السيور أو الحبال المجدولة تشد إلى إطار المقعد .

وعوضاً عن الأصونة (الدواليب) المعروفة لدينا الآن فإنهم كانوا يستعملون الصناديق الخشبية لحفظ الملابس والحلى وأدوات الزينة كالعطور والأمشاط والمرايا وما إليها .

وكان لهذه الصناديق أرجل وهى فى المعتاد مستطيلة الشكل ولها غطاء مقبب من أحد طرفيه ومسحوب من الطرف الآخر . وكان للصندوق فى العادة مزلاجان (أكرتان) أحدهما فى الجزء المقبب من الغطاء ؛ والآخر على حافة الصندوق العليا . وكان يشد إليهما حبل أو خيط يلف ثم يختم عند قفل الصندوق .

ولكى نكون لأنفسنا صورة حقة لما تحتويه غرفة الجلوس المصرية يجب علينا أن نذكر الحصير الملون والمواقد المنبسطة التى كانوا يستدفئون بها شتاء فى ساعات الصباح والمساء الباردة والأوعية الفخارية للماء التى كانت تستخدم فى الوقت الذى يشتد فيه قيظ الصيف وحرارته للإتبراد والترطيب . والقناديل التى كانت تستعمل للإنارة . وهى عبارة عن صحاف وأوانى كانت

تملأ بالزيت وتطفو فيها الذبالة (الفتيلة) . توضع أحياناً على قواعد عالية للانتفاع بضوئها الضعيف إلى أقصى حد ممكن . كما تدل على ذلك صور تل العمارنة .

(جـ) أدوات الزينة(6) Shmuck

تمتلىء متاحفنا الحديثة بمختلف أدوات الزينة التى عثر عليها فى مقابر المصريين القدماء ، وأهمها أحقاق وأوانى للعطور والطيور والزيوت الثمينة (من المرمر غالباً) . ومكاحل مع مراودها ؛ ومرايا من المعدن مع العلب التى كانت تحفظ فيها ودبابيس الشعر والأمشاط وملاعق مساحيق الزئبق وغيرها .

١ — والأمشاط المصرية كانت تصنع فى العادة من الخشب وذات حدين أحدهما أسنانه كبيرة والآخر أسنانه صغيرة وهى تشبه بوجه عام فى شكلها أمشاطنا البلدية الحالية (الفلايات) مشط ذو حدين .

أما الجزء الأوسط منها الذى يقع بين الحدين فينقش فى المعتاد بنقش محفوراً ويطعم على أن بعضها الذى كان يصنع من حد واحد كان يزخرف بأشكال الحيوانات التى تركب فوق المشط لتزينه .

مشط ذو حد واحد .

٢ — أما المكاحل فقد كانت تصنع فى المعتاد من الحجر أو الخشب أو العظم أو العاج أو الفخار . وبعضها كان يحتوى على عينين أو أربع أو خمس عيون يوضع فى كل عين منها مسحوق يختلف فى لونه أو نوعه عن الآخر .

وأهم أنواع الكحل نوعان الكحل الأسود واسمه بالهيروغليفية :

msdm.t = Black eye - paint. (٧)

والآخر الكحل الأخضر(٨) واسمه بالهيروغليفية

w3dw = green eye - paint.

وبعض المكاحل بسيط الشكل لا يعدو أن يكون علبة صغيرة أو أنبوبة بسيطة أو إناء صغير والبعض الآخر كان يزين بأشكال حيوان الإله «بس» [إله المرح والسرور والموسيقى يمثل وكأنه يمسك بالمكحلة] .

٣ — أما الدبابيس فهى فى المعتاد طويلة ولها رءوس من الذهب أو من النحاس أو البرونز وتستعمل فى شبك الشعر عند عقصه وحبكه .

٤ — ويجدر بنا ألا ننسى أداة هامة من أدوات الزينة هى المرآة(٩) .

واسمها بالهيروغليفية : Spiegel

ᶜnḫ n m33 ḥr = a mirror for seeing the face.

وكانت تصنع فى مصر القديمة من المعدن الذى يكون عادة النحاس أو البرونز أو الذهب أو الفضة . ويصقل صقلا تاماً بحيث يصبح شديد اللمعان . وتوضع المرآة التى تكون عادة شبه مستديرة فى يد أو مقبض من الخشب أو العاج أو المعدن أو الحجر . ويد المرآة تتخذ أشكالا طريفة فمنها ما يكون على شكل ساق النبات w3d الذى يدل على الشباب

والفتوة والنضارة ، ومنها ما يكون على شكل امرأة أو زهرة أو عمود أو ساق تعلوه رأس حتحور آلهة الحب والجمال . أو برأس الإله « بس » إله المرح والسرور .

وكانت تحفظ المرايا فى علب أنيقة تتخذ أشكالا مختلفة بعضها على شكل ꜥnḫ ☥ رمز الحيـــاة وبعضها على شكل رمز ملايين السنين

ḥḥ الجريدة اسمها (Millions of years hh)

وتحتها علامة rnpi وهى على شكل ضفدعة ومعناها ملايين . أى ملايين hfn السنين . وهذان الشكلان وجدا بمقبرة « توت عنخ آمون » . وهما من الخشب المكسو بأوراق من الذهب . وكان الكثير منها ينقش برسوم الزهور والطيور أو برسم فتاة تحمل باقة من الأزهار ، كالمثال الذى عثر عليه فى مقبرة الملكة « حنت تاوى » .

المراجـــع

(١) Helck; Otto, Kleines Wörterbuch der Aegyptologie, Otto Harrasovoitz, Wiesbaden 1956. 2. I4I, 142.

a. MacIver. El Amrah pl. 10. (Haus).

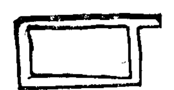
b. Quibell, Hierakonpolis II, S 16/8; Abydos III pl. 6.

c. Arbeitersiedlung sur Pyramide Sesostris, II., Petrie, Ilahun pl. 11; Kahun pl. 15.

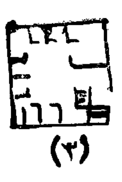
d. Ricke, Entwickluug des Amarna - Wohnhauses:

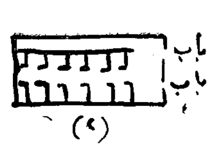
Pendelburry, City of Akhenaton I - III.

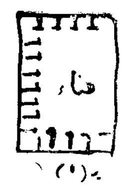
e. Vgl, D,Orbiney 6, 1.



قالب اللبن مصنوع من الخشب


(٣)


(٤)


(٥)

(٢) Raymond O. Faulkner, A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford 1964, p.89.

(٣) Helck, Otto, Kleines Wörterbnch der Aegyptologie. Otto Harrasonrtz, Wiesbaden 1956.S.227. (Möbel).

(٤) Helck, Otto; Kleines Wörterbnch der Aegyptologie Wiesbaden 1956, S 62 (Bes),

Helck, Otto, S, 378 (Toeris) T 3—wrt (٥)
" die Grosse ".

Helck, Otto, Kleines Wörterbuch der Aegyptologie, (٦)
Wiesbaden 1956. (S.318) (Schmuck.)

L.4. : Wolf, Kunstgewerbe, in Geschichte des Kunstgewerbes;
hg, von Th. Bossert, Berlin 1930.

V. Bissing. Ein thebanischer Grabfund, Berlin 1900,

Vernier, Bijoux et Orfevreries, CG. Kairo 1927.

Raymond. O, Faulkner, S. 118: (blackeye - paint). (٧)

Raymond O. Faulkner. S. 55. (green eye-paint) (٨)

Helck, Otto, S 347 (Spiegel). (٩)

a. Scharff, A. Handspiegel, Antl. Ber, preuss- Kunstsamnl.
42; 127pl.;

Altester Baleg aus Fruhzeit Bonnet, Fruhgeach.

Gräberfeld Abuair pl, 32.

ذهب
فضة } معدن
نحاس

علامة النضارة — والشباب

من — الخشب
الرمح
العاج
الأحجار

المرآة



العلاقات المصرية الفلسطينية

فى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد

للدكتور خالد طه الدسوقى
مدرس تاريخ مصر والشرق القديم
كلية البنات — جامعة عين شمس

لقد بدأت الأضواء تسلط من جديد على العلاقات بين مصر وفلسطين منذ أواخر الأسرة الحادية والعشرين وبالتحديد فى عهد الملك أمنموبى (حوالى ٩٩٣ — ٩٨٤ ق.م) رابع ملوك هذه الأسرة(١) بعد أن خيم الظلام عليها قرابة قرن ونصف من الزمان . وبينما لا تعطينا المصادر المصرية الكثير عن نوع العلاقات التى سادت فى ذلك الوقت بين فراعنة مصر وحكام فلسطين ، تمدنا المصادر الأخرى بمعلومات توضح نوع هذه العلاقات وتحددها . ففى حوالى عام ١٠٤٠ق.م أى فى أوائل حكم بسوسنيس الأول (حوالى ١٠٢٩ - ٩٩١ ق.م.) ثانى ملوك الأسرة الحادية والعشرين بدأ الموقف السياسى فى فلسطين يتبلور متخذاً شكلا محدداً . فبينما سيطر الفلسطينيون(٢) والزيكالو(٣) على المدن والموانى الساحلية ، كانت المملكة العبرية وعلى رأسها الملك شاؤول تكافح من أجل وجودها ضد هجمات الفلسطينيين وبقايا الدويلات الكنعانية(٤) وفى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. أصبح داود

حاكما على كل القبائل العبرية وملكا على إسرائيل ويهوذا ، فى الوقت الذى استولى فيه على بيت المقدس التى اتخذها عاصمته السياسية والدينية . بعد ذلك استطاع داود السيطرة على الطرق التجارية التى تربط فلسطين بسوريا والساحل الفينيقى وشبه الجزيرة العربية ومصر محققا لمملكته ثروة كبيرة ، علاوة على الجزية التى فرضها على الدويلات المتاخمة لمملكته مثل مؤاب وعمون وادوم ، وآرام — زوباه وآرام — دمشق . كما استطاع احتواء الفلسطينيين بعد عدد من الحملات التى شنها عليهم(٥) . وهكذا تكونت فى فلسطين مملكة قوية متحدة بعد أن ظلت لعدة قرون قسمة بين دويلات صغيرة متنازعة ، ولم يحدث أبدأ منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد حينما كانت حازور(٦) — فى شمال فلسطين — تسيطر على اتحاد كبير من الدويلات ، أن قامت على حدود مصر الشمالية قوة كبيرة بدأت تعمل لها حسابا .

فى خلال النصف الأول من حكم الملك داود استطاعت قواته فتح آدوم وذلك بفرض السيطرة على الطريق التجارى الذى يصل ما بين شبه الجزيرة العربية ودمشق ولم يجد أميرها الصغير هداد إلا الفرار إلى مصر مع بعض خلصائه حيث اعطاه فرعون « منزلا وطعاما وأرضا »(٧) . لقد كانت هذه الأرض التى خصصت لهداد بمثابة إقطاعه الخاص الذى يمده بدخل منتظم(٨) . وحينما شب الأمير الصغير عن الطوق وصار يافعا ، نال إعجاب فرعون الذى لم يتردد فى مصاهرته وذلك بالموافقة على زواجه من شقيقة ملكة مصر تحفنيس(٩) . وأنجب هداد ابنا أسماه جنوبيث الذى يحتمل أن فطامه بدأ عندما بلغ الثالثة من عمـــره(١٠) . ثم اتخذ مكانه « بين بنى فرعون »(١١) وبموت داود رجع هداد وأعوانه إلى آدوم للوقوف فى وجه الحكم الاسرائيلى واسترجاع مملكته على غير رغبة فرعون . فلو فرضنا أن جنوبيث كان فى ذلك الوقت فى الخامسة من عمره (أى حوالى عام ٩٧٠ق.م.) وكان قد رأى النور حينما كان هداد فى الثامنة عشرة من عمره ، وإذا افترضنا

أيضا أن هداد حضر إلى مصر وهو فى سن الثانية أو الثالثة فيكون الوقت الذى جاء فيه إلى مصر حوالى عام ٩٩١ أو ٩٩٠ ق.م.(١٢) . وبذلك يكون أمنموبى هو فرعون مصر الذى استضاف هداد وخصص له أرضا وبيتا بينما تزوج وانجب ولده فى أوائل حكم سيامون (حوالى ٩٧٨ - ٩٥٩ ق.م.) وهكذا تمسك أصابعنا بأول خيط للعلاقات الودية بين البلاط المصرى فى تانيس وامراء فلسطين(١٣) .

لقد اتبعت مصر أيام الدولة الحديثة سياسة الردع بقوة السلاح ضد كل من سولت له نفسه تهديد مصالحها فى آسيا(١٤)، ولكن يبدو أن سياسة جديدة قد بدأت تظهر فى أفق العلاقات المصرية الفلسطينية ببداية الأسرة الواحدة والعشرين . لقد تركت سياسة القوة والبطش جانباً لتخلى السبيل لسياسة «الوفاق» بين فرعون ومراكز القوة فى فلسطين فى ذلك الزمان. فها هو أمنموبى قد رحب بالأمير هداد الذى رباه فى قصره وزوجه من شقيقة ملكة مصر وحينما فكر هذا الأمير فى العودة إلى فلسطين لاسترجاع ملكه أثناه فرعون عن عزمه(١٥) حتى لا يفسد ما بينه وبين سليمان خليفة داود على عرش المملكة العبرية ويحافظ على سياسة «الوفاق» بين القوتين الكبيرتين . لقد قامت هذه السياسة نتيجة للظروف السياسية التى سادت مناخ الشرق القديم فى ذلك الوقت . لقد واجهت مملكة داود منذ قيامها قوتين معاديتين هما قبائل الشاسو القاطنين شرق الأردن والفلسطينيين الذين كانوا يتمركزون فى الشريط الساحلى بين غزة جنوبا ويافا شمالا والذى كان يسمى فلسطيا . وفى نفس الوقت كانت هاتان القوتان أعداء لمصر . فلقد كان الشاسو يعملون من خلال غاراتهم المستمرة عبر الصحراء العربية وصحراء النقب على قطع الطريق التجارى الذى يصل ما بين مصر وسوريا الأمر الذى لم يجد ارتياحا عند فراعنة مصر(١٦) . لذلك لا بد أن فرحة المصريين كانت كبيرة عندما أهلك يواب رئيس جيش الملك داود أعدادا كبيرة من المؤابين والادوميين(١٧) لأنهم وجدوا فى عمله هذا حلا لمشكلة أقلقتهم زمنا ليس بقصير . علاوة على

ذلك فقد عمل الفلسطينيون ، بعد أن سمح لهم المصريون بالاقامة فى السهل الساحلى على توسيع حدودهم حتى وادى الأردن شرقا(١٨) ، الأمر الذى ازعج كلا من مصر والمملكة العبرية لأنهما وجدا فيه تهديدا مباشراً للطرق التجارية التى كانت تصل مابين مصر وسوريا وفينقيا عبر فلسطين . لم يقف داود مكتوف الأيدى ازاء هذا الخطر الجديد ، بل نراه وقد كبح جماحهم وأجبرهم على منحه حق الاشراف على طرق القوافل المارة فى أرضهم علاوة على نصيب من مكوس الطريق[١٩] .

ومصر أيضا حاربت الفلسطينيين فى عقر دارهم . إذ قد عثر بين مخلفات الفراعنه فى تانيس على نقش بارز على جدران مبنى شيده بسوسنيس الأول وسيامون جنوب معبد آمون الرئيسى(٢٠) . ويصور هـذا النقش سيامون وهو يضرب عدواً راكعاً أمامه وقابضاً فى يده على فأس للحرب مزدوجة من النوع الذى كان يتخذه الايجيون فى أسلحة الحرب . وإن دل هذا النقش على شىء فيدل على أن سيامون قاد حملة ضـــد الفلسطينيين وشعوب البحر المتوسط فى جنوب غرب كنعان . وهناك مايدل على أن سيامون أرسل جيوشه إلى الجنوب الغربى من فلسطين لمحاربة جيرانه الفلسطينيين ووصلت حتى جزر أحد المراكز الكنعانية التى تقع على الحدود بين فلسطيا وإسرائيل . وفى ذلك يقص علينا سفر الملوك(٢١) أن فرعون مصر استولى على جزر ودمرها وأخلى سكانها قبل أن يعطيها بائنه لسليمان الذى تزوج ابنته . وأن هذا الحادث الأخير لابد أنه وقع أوائل حكم سليمان وأن الاستيلاء على جزر لابد أنه وقع قبل منحها بائنة له ، أى فى العشر سنوات الأولى من حكمه (حوالى ٩٧٠ — ٩٦٠ ق.م.) وهناك احتمال كبير أن يكون ذلك قد تم فى الأربع سنوات الأولى من حكمه (حوالى ٩٧٠ — ٩٦٦ ق.م.)(٢٢) وهذا يضع كلا من غزو مصر لجزر (وفلسطيا) والصلة بسليمان فى العقد الأخير من حكم سيامون (حوالى ٩٧٨ – ٩٥٩ ق.م.) ويجعله الفرعون الذى قام

بعملية الغزو(٢٣) . علاوة على ذلك فحوالى منتصف القرن العاشر كان من ضمن الهبات الجنازية لمعبد أبيدوس أسرى حرب من أصل فلسطينى(٢٤)، كما حمل بسوسنيس الثانى آخر ملوك هذه الأسرة لقب « قائد ... على رأس الجيوش(٢٥) » مما يوحى بأنه سار على سنة أسلافه فى اخضاع الفلسطينيين وكسر شوكتهم .

إن وجود هذا الخطر المشترك الممثل فى قبائل الشاسور الفلسطينيين حتم ضرورة التقارب والتفاهم بين مصر والمملكة العبرية وجعل سياسة الوفاق أمرا لا مفر منه . ولعل الخوف من تهديد الطرق التجارية وتوقف انسياب المواد التجارية هو الذى أوحى إلى كل من مصر وجارتها الشمالية إلى تفضيل سبيل المهادنة عن سبيل المواجهة . وهناك احتمال كبير أن تكون دوافع حملة سيامون ضد جزر اقتصادية أكثر منها سياسية . فمنذ أيام سمندس ودعصر النهضة ، أصبحت تانيس مدينة تجارية مرتبطة بموانى شرق البحر المتوسط وحلت محل بى — رمسيس فى هذا المضمار، كما يتجلى ذلك من قصة وينامون. لذلك فقد يكون من أغراض حملة سيامون القضاء على منافسة نشاط الفلسطينيين التجارى(٢٦) الذى كان يواجه منافسة النشاط الفينيقى المتصاعد. ولقد كانت جزر قلعة فلسطيا التى تقع فى أقصى الشمال الشرقى وإلى يمين حدودها مع إسرائيل . ولقد كان وصول الجيش المصرى على حدود إسرائيل أمرا قد يؤدى إلى المواجهة بين قوات سليمان وقوات سيامون . ولكن يبدو أن كلا الملكين وجدا أن من المصلحة المشتركة أن يكونا حليفين .

ويرى Malamat أن سيامون كان ينوى غزو اسرائيل لولا أنه روع بقوة سليمان ، الأمر الذى جعله يتساهل فى اعطائه مساحات كبيرة من أراضى فلسطيا (٢٧) ولكن هذا الرأى لا يدعمه دليل حاسم . ولم يكن تنازل فرعون عن جزر لسليمان نوعا من الاستضعاف

كما رأى البعض(٢٨) ولكنه كان بمثابة نقل ملكية عقار العروس إلى زوجها . إذ أن هناك احتمال كبير فى أن سيامون قد أغدق على إبنته مساحات كبيرة من الأراضى فى المناطق المفتوحة فى فلسطيا(٢٩) . ولم تكن جزر التى تقع فى أقصى الحدود الشمالية الشرقية لمصر ذات أهمية خاصـــة لسيامون ولكنها كانت حيوية بالنسبة لسليمان ولذلك كان منحها له . ولقد حققت مصر وسليمان من هـــذا التقارب الذى قويت أواصره بالمصاهرة أهدافاً هامة ، منها القضاء على فلسطيا كقوة حربية وكمنافس تجارى بينما ساد المنطقة جو من الأمان والهدوء ساعد على تأمين الطرق التجارية وانتعاش الحياة الاقتصادية فى ربوع البلدين .

ولا يمكن إغفال عامل آخر جعل من سياسة الوفاق ضرورة لكلا البلدين . لقد التقت سبل المصالح الاقتصادية لكلا البلدين عند الساحل الفينيقى الذى كان خشب الأرز أهم صادراته اليهما . ولا ننسى العلاقات الودية التى كانت بين داود وبين ملك صور ، المدينة الرئيسية فى فينيقيا فى ذلك الوقت(٣٠) ، كما استمرت هذه العلاقات أيضاً فى أيام سليمان التى شهدت مقدم بحارة حيرام حاكم صـــور حاملين الأخشاب اللازمة لمعبد الإله(٣١) . ولقد كان من السياسة الحكيمة الإبقاء على الصلات الودية مع مدن الساحل الفينيقى حيث نهاية الطريق التجارى الذى يبدأ من الجنوب إلى الشمال ماراً بغزة . ولعل استمرار تحصيل المكوس على طول هذا الطريق من جانب المملكة العبرية بعد الانتصار على الفلسطينيين حتم على داود ومن بعده سليمان العمل على استمرار سريان هذا الطريق شمالا فى الأراضى الفينيقية . وباستثناء الفلسطينيين انحصر نشاط داود الحربى ضد الدويلات التى تقع فى داخل سوريا(٣٢) ، الأمر الذى كان يرتاح إليه المصريون الذين كانوا يسعون لكسب صـــداقة الجيوب الكنعانية على الساحل الفينيقى منذ الألف الثالث ق . م . ، خاصة تلك التى تحيط

ببلوس التى كانت تسيطر على المنطقة المنتجة لخشب الأرز(٣٣) . إن العلاقات القديمة بين ببلوس والمصريين أدت إلى تسرب الثقافة والعادات المصرية إلى الشاطىء الفينيقى . وإن مد داود وابنه سليمان يدهما لكسب صداقة مدن الساحـــل الفينيقى قد قوبل بالتأكيد بروح الرضا من جانب المصريين الذين اعتبروا ذلك احتراماً لمنطقة لها فى نفوسهم تقدير وتقديس منذ زمن بعيد(٣٤) .

إن الخوف من خطر مشترك كان يهدد المصالح الاقتصادية لكل من مصر والمملكة العبرية والتقاء هذه المصالح عند منبع واحد حرص الجانبان على إبقائه ينبوعاً متدفقاً بالخير والنفع المشترك ، خلقاً نوعاً من التقارب والوفاق بين مصر والمملكة العبرية ، توجا آخر الأمر بمصاهرة سليمان لفرعون مصر سيامون(٣٥) . ولقد استفادت إسرائيل كثيراً من وراء ارتباطها بمصر فبجانب استيرادها العجلات الحربية من مصر خاصة فى عهد سليمان(٣٦) ، فقد قلدت أنماط الوظائف التى سادت فى البلاط الإسرائيلى أيام حكم داود وسليمان منها ، مثل وظيفة « المازكير » أى « المذكر » التى كانت تقابل وظيفة « وحمو » المصرية والتى تعنى « المقرر » ومثل وظيفة « سوبير » أى « الكاتب » التى تقابل وظيفة « سش » المصرية والتى تعنى « كاتب » أيضاً . ثم هناك أيضاً وظيفة «صاحب الملك» التى تقابل الوظيفة المصرية « سمروعتى » والتى تعنى « السمير الوحيد » وهو منصب كان شائعاً فى البلاط الفرعونى . كما كان هناك أيضاً وظائف أخرى لها أشباهها فى الهيكل الوظيفى المصرى مثل منصب « رئيس الجنود المرتزقة » و « المشرف على السخرة » . وإن العبارات المتفرقة التى تصف حريم الملك داود وتذكر المغنيين والمغنيات فى البلاط الملكى تشير أيضاً إلى نوع من الاقتباس عن البلاط الفرعونى(٣٧) . لقد قيل أن عرش سليمان المصنوع من الذهب والعاج والذى كان يوضع فى حجرة استقبال الملك ، تميزت

فى صناعته بعض التأثيرات الفنية المصرية كالإسراف فى استخدام الذهب الذى يمكن ملاحظته بسهولة فى كرسى توت - عنخ - آمون(٣٨) .

بوفاة بسوسينس الثانى ، آخر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين ، تربع على عرش مصر فرعون من أسرة جديدة بل من جنس آخر . فقد كان شوشنق الأول مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (حوالى ٩٤٥ — ٩٢٤ ق . م .) ليبيا من قبيلة المشوش المحاربة(٣٩) ، التى حاولت منذ قرنين من الزمان غزو مصر بقوة السلاح . وبالرغم من هزيمتهم على الأقل ثلاث مرات فى المعركة ، فقد استطاع المشوش أن يثبتوا للمصريين أنهم جنود أقوياء الشكيمة . وفى غضون قرن من الزمان بدأوا يتسللون سلمياً داخل البلاد ويملأون المناصب داخل الجيش(٤٠) . وقد جاء أيضاً إلى مصر رئيس المشوش(٤١) ، وفى نهاية الأسرة الواحدة والعشرين ، استطاع هـذا الزعيم الأجنبى السيطرة على القوات المسلحة المصرية وأخيراً تولى عرش البلاد . ومنذ البداية أصبح سلطان شوشنق معترفاً به فى تانيس ومنف بفضل روابطه مع الأسرة السابقة ومع كبار كهنة بتاح فى منف ، وأخيراً اعترفت به طيبة رسمياً كفرعون على البلاد(٤٢) . ولضمان بقاء منطقة طيبة موالية له ، نراه قد عين أفراداً من الأسرة المالكة فى المناصب القيادية فى كهنوت طيبة وخاصة منصب كبير كهنة آمون الذى حمل فى نفس الوقت لقب « قائد جيش الجنوب »(٤٣) . علاوة على ذلك فقد حرص شوشنق الأول على ألا يترك السلطة الفعلية جنوب منف فى يد رجل واحد ، لذلك عين أحد أبنائه « قائداً لكل الجيش » وجعل مركزه مدينة هيراقليوبوليس على مقربة من الفيوم(٤٤) .

وهكذا استطاع شوشنق الأول أن يوطـد مركزه فى مصر كلها ويضمن ولاء الأسر القديمة بل وينشر السلام فى ربوع البلاد وبذلك

تهيأت له الفرصة لأن يتطلع إلى الخارج ليحقق أطماعه فى الشمال والجنوب .

لم يحاول شوشنق الأول الدخول فى صراع مع مملكة سليمان (حوالى ٩٧٠ — ٩٣٠ ق . م .) التى كانت تسيطر فى ذلك الوقت على سوريا وفلسطين ، ولكنه فى نفس الوقت كان ينظر إليها كمنافس خطير وكعائق أمام تحقيق أطماعه السياسية والاقتصادية وبدأ يتحين الفرصة للعمل . وقد واتته حينما انشطرت مملكة سليمان بعد وفاته إلى قسمين مستقلين . وقصة ذلك أنه بعد السنة الرابعة والعشرين من حكم سليمان (بعد عام ٩٤٥ ق.م.) نودى بيروبعام ابن نبات الذى كان سليمان قد عينه مشرفاً على الأعمال فى الشمال ، ملكا على معظم إسرائيل ولكنه هرب خوفاً من بطش سليمان ويمم شطر مصر(٤٥) . استقبل شوشنق الأول يروبعام ومنحه الأمان والحماية وبهذا فقد ساعد على إقامة « حكومة إسرائيلية فى المنفى » كان عليها أن تنتظر حتى تسنح الفرصة وتعود إلى فلسطين . وبوفاة سليمان (حوالى ٩٣٠ ق. م.) استدعى يروبعام إلى فلسطين من جانب أنصاره الذين أخذوا يناصبون رحبوعام بن سليمان العداء . وهكذا انقسمت المملكة العبرية إلى قسمين متعاديين ، مملكة يهوذا التى تركزت حول بيت المقدس ومملكة إسرائيل التى اتخذت شكم عاصمة لها فى بداية الأمر(٤٦) .

هناك احتمال كبير فى أن يكون الترحيب الذى أبداه شوشنق ليروبعام حينما التجأ إلى مصر قد أحقد عليه قلب سليمان ومن بعده إبنه رحبوعام الذى أخذ يفكر فى الانتقام . وربما أخذ رحبوعام يحرض القبائل الرعوية التى كانت تقطن الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين على التوغل فى شرق الدلتا ، الأمر الذى أدى إلى أن يرسل شوشنق الأول حملته لغزو فلسطين. ويجب ألا نغفل النزعة العسكرية التى كانت تسرى فى عروق هذا الأجنبى

الذى كان يوماً ما رئيساً لقبيلة المشوش المحاربة . ولأنه كان أجنبياً ، لم يحافظ هذا الفرعون على الصداقة القديمة التى أرسى أسسها ملوك الأسرة الحادية والعشرين بين مصر وجارتها الشمالية فلسطين .

لقد كانت حملة شوشنق الأول ضد فلسطين فى السنوات الأخيرة من حكمه(٤٧) ، ويحتمل أن الحـــرب بدأت بمناوشات بين الجانبين عند البحيرات المرة ، أعقبها هجوم عنيف من جانب الجيش المصرى . ويقص لنا شاهد الكرنك(٤٨) طرفاً من هـذه المناوشات المبدئية عند البحيرات المرة قائلا : « الآن وجد [ج]لالتى أن[هم] يقتلون . . [جنودى ؟ و]قواد جيشى . وقلق جلالته من أجلهم . . ، . . [وفعل ؟ كما] يحبون . ثم قال جلالته لحاشيته [ما يلى] : [انظروا . . . .] هذه الأعمال الشريرة التى اقترفوها ! . ثم أجابوا [لجلالته ، . . .] [ثم تقدم جلالته . . .] ، وفى صحبته مركباته الحربية بدون أن يعلم (أى العدو) (ذلك) . انظر . . لقد أقام جلالته مذبحة بينهم . . . [ذبح]هم على الشاطىء ، طرف البحيرات المرة (كم و . .) . إنه والده [آمـــون الذى كتب له النصر . . .] » . إن عبارة « هذه الأعمال الشريرة التى اقترفوها » تشير إلى أن الملك كان قد تلقى معلومات عن الاضطرابات التى حدثت ما وراء الحدود .

وبعد ذلك واصـل شوشنق وقواته عبر الحدود المصرية وتوغلوا فى مملـكتى يهوذا وإسرائيل فى ربيع وصيف عام ٩٢٥ ق . م . حتى أنه « فى السنة الخامسة للملك رحبعام صـعد شوشنق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس (دروع) الذهب التى عملها سليمان »(٤٩) وأتى ومعه(٥٠) « ألف ومئتين مركبة وستين ألف فارس ولم يكن عدد للشعب الذين جاءوا معه من مصر ، لوبيين(٥١) وسكيين(٥٢) وكوشيين(٥٣) وأخذ المدن الحصينة التى ليهوذا

وأتى إلى أورشليم » . إن خط سير حملة شوشنق ليس معروفاً لدينا بصفة مؤكدة وبصورة تفصيلية ، ومن المصادر الأثرية والكتب الدينية نعرف أن هذه الحملة وجهت ضد كل من يهودا وإسرائيل كما يمكن إعطاء صورة تقريبية لخط سير الحملة كما يلي(٥٤) : عند غزة ، أرسل شوشنق « قوات خاصة » عن طريق « يورزا(٥٥) وشاروهين(٥٦) إلى منطقة النقب جنوب يهوذا وسيمون . وبعد شاروهين ، يحتمل أن تكون القوة الرئيسية قد انقسمت إلى أربعة فرق ، ربما سارت إحداها إلى طريق قلعة فتيس(٥٧) ثم شرقاً وشمالا فى حبرون جنوب يهوذا وسيمون وهاجمت قلعة الجاد(٥٨) وتابوا [ح](٥٩) وبيت عنات(٦٠) واشنا(٦١) . أما الفرقة الثانية فربما سارت شرقاً إلى بير سبع ومنها إلى قلاع « أراد الكبير »(٦٢) وأراد بيت يروحام(٦٣) وأراضى شرق النقب الخاصة بالكنيثيين والشوحائيين(٦٤). ثم أغارت فرقة ثالثة على أزم(٦٥) وربما يروحام الجنوبية(٦٦) . وربما تكون هذه « القوات الخاصة » قد وصلت إلى أزبون - جبر(٦٧) التى تقع على بعد مائة ميل جنوب البحر الميت على خليج العقبة ، ولكن المسافة الطويلة ووعورة الطريق يجعل هذا أمراً بعيد الاحتمال .

وفى هذه الأثناء واصل شوشنق على رأس الجيش الرئيسى السير فى إتجاه الشمال الشرقى على طول حدود فلسطيا ويهوذا وتوغل فى الداخل حتى وصل أولا ماكيزاه وروبوتى (٦٨) . وبهذا بدأ هجومه على « مدن يهوذا الحصينه » . ثم سار عبر التلال مارا بعجلون وبيت حورون إلى جيبون وكلها تقع على طريق معروف يصل إلى التلال على حدود يهوذا الشمالية على مسافة من بيت المقدس . وهنا انتظر شوشنق بقواته الكبيرة قرار رحبعام إما الإستسلام أو الحرب فى الوقت الذى نصح فيه النبى شمعيا بالتسليم « قد تذللوا

فلا أهلكهم بل أعطيهم قليلا من النجاة ولا ينصب غضبي على أورشليم بيد شيشق، لكنهم يكونون له عبيداً ويعملون خدمتي وخدمة ممالك الأراضي»(٦٩)

وأخيراً دفع رحبعام جزية كبيرة عبارة عن كنوز المعبد والقصر الخاصين بداود وسليمان في بيت المقدس، ثم انسحب شوشنق شمالا حاملا أسلابه. لم تفتح بيت المقدس لأنها لم تذكر في قائمة المدن التي غزاها هذا الفرعون.

وانطلاقا من هذا الإنتصار، تحرك شوشنق شمالا في إسرائيل عن طريق زمرايم (٧٠) إلى شكم وتيرزا. لقد فضل يربعام الفرار شرقاً حيث نزل وادي الفرعا وعبر نهر الأردن ثم صعد وادي اليابوك حتى وصل إلى بنول ومحانايم. (٧١) لم يصمم فرعون على تعقب عدوه، بل آثر السير تجاه الشمال الغربي، بينما أرسل فرقة ثانية من «قواته الخاصة» عبرت الأردن عند مخاضه أداماه (٧٢) ثم واصلت السير حتى سكوث لتلحق بيربعام عند بنول ومحانايم. وبعد أن حققت هذه القوات أهدافها، ربما عادت إلى نهر الأردن أو سارت شرق ماناسه ثم إلى الأردن ومنه إلى رحوب وهافارايم وخاصة بيت — شان حيث انضم اليها فرق أخرى كانت قد أخضعت في نفس الوقت تاعاناش وشونم (٧٣)، بينما قام شوشنق نفسه بعمليات أخرى من مجدو.

ومن تيرزا يحتمل أن يكون شوشنق قد واصل السير مباشرة إلى شمال إسرائيل حتى وصل إلى وادي يزريل «العاموق»، ثم إلى مجدو. وهناك انتظر عودة فرقة قواته الخاصة المنتصرة من شرق الأردن التي من المحتمل أن يكون قد أرسل قوة عن طريق تاعاناش وشونم لمقابلتها كما ذكرنا آنفا. وفي أثناء وجوده في مجدو يحتمل أن يكون قد أرسل فرقاً من جيشه إلى سهل عكا وإلى الجليل. وفي مجدو أقام شوشنق شاهدا تذكارياً لم يكتشف إلا جزءاً من قمته (٧٤). وأخيراً تحرك شوشنق جنوباً عبر الطريق القصير

فى أعلى الكرمل – إلى عرونه (٧٥) وبوريم (٧٦) وجيتى – بادالا (٧٧) ويحم (٧٨) وسوكوه (٧٩) حتى وصل إلى غزة حيث لحقت به قوات النقب الخاصة وعاد كل الجيش عن طريق رفح ولبنا (٨٠) ومنها على طول الطريق الساحلى حتى وصل إلى مصر ليحتفل بالنصر فى تانيس .

ربما ترك شوشنق الأول وراءه على عرش يهوذا وإسرائيل ملكين ضعيفين كما ترك وراءه أيضا بعضا من المدن الخربة مثل تل بيت مرسيم (٨١) وربما بيت شمش (٨٢) ويورزا (تل يمّة) (٨٣) ومدن أخرى (٨٤) . بالإضافة الى أذيون – جبر التى سبق ذكرها . كما نسبت الى شوشنق قلعة اكتشفت فى شاروهين (تل الفرعا الجنوبية) (٨٥) والتى يحتمل أن يكون إنشاؤها بهدف أن تكون قاعدة حربية متقدمة لغاراته فى المستقبل (٨٦) . اذ ربما عقب حملة شوشنق ، بدأت المملكتان يهوذا وإسرائيل فى إتخاذ إجراءات وقائية ضد أى هجمات فى المستقبل . ففى إسرائيل أقام يربوعام فى تيرزا (٨٧) وأعاد بناء شكم (٨٨) بل ذهب إلى هناك وبنى بنول (٨٩) لتكون حصنا ضد أى غزوات فى المستقبل . وفى يهوذا حصن رحبعام سلسلة من المدن ، فى أغلب الظن بعد حملة شوشنق . ولم تذكر الاعجلون فى قائمة شوشنق (٩٠).

لقد فسر البعض حملة شوشنق الأول على أنها محاولة لاعادة النفوذ المصرى فى آسيا الذى كان قد بدأ يضعف على أثر الضعف الداخلى الذى منيت به مصر بعد عصر الامبراطورية (٩١) . ولكن ليس هناك دليل على أن شوشنق الأول قد حاول الاحتفاظ بالممتلكات التى غزاها . وبخلاف فراعنة عصر الامبراطورية التى كان هدف حملاتهم « توسيع حدود مصر » لم تكن حملة شوشنق أكثر من حملة تأديبية وللحصول على الغنائم لتقديمها للإله آمون الذى بدأت ثروته فى الاضمحلال (٩٢) . لقد أثبتت الحفائر الأثرية أن التدمير الذى لحق بالمدن الفلسطينية كان على أثر الغزوة المصرية (٩٣) . ولكن لم

يستطع المصريون ولم يرغبوا فى الاحتفاظ بأى من الممتلكات التى استولوا عليها . علاوة على ذلك فلم يحاول شوشنق المضى فى فتوحاته شمالا فى سوريا، مما يوحى بأنه لم يقصد التوسع . لقد اعترف شوشنق على جدران معبد الكرنك(٩٤) بأن الجزية التى أحضرها من فلسطين قد وهبها لآمون كما شيد المبانى الكثيرة لهذا الإله . وأن النقش والنص اللذين يزينان معبد الكرنك يوضحان مدى التضرع والتوسل من جانب شوشنق للإله آمون . لقد كان يدرك شوشنق أنه من أصل أجنبى ، ولا بد لكى يكسب تأييد المصريون ويوحد المملكة وراءه أن يرضى إله منطقة طيبة ، رب الفتوحات وواهب الانتصارات . من هذا نرى أنه كان من وراء حملة شوشنق هدفان ، أحدهما تأديب الشاسو وثانيهما الرغبة فى توطيد حكمه خاصة فى منطقة طيبة التى كانت شبه مملكة منفصلة منذ نهاية الأسرة العشرين(٩٥) وذلك بإعادة مجد آمون وملء خزائنه الخاوية بالغنائم والأسلاب .

لقد اتبع أوسركون الأول (حوالى ٩٢٤ — ٨٨٩ق . م .) سياسة والده تجاه فلسطين فيقص علينا سفر أخبار الأيام الثانى(٩٦) كيف « خرج إليهم زارح الكوشى (النوبى) بجيش ألف ألف وبمركبات ثلاث مئة وأتى إلى مريشة » . وهناك حاربه ملك يهوذا آسا وهزم المعتدين وتعقبهم حتى جرار القريبة من حدود يهوذا الجنوبية وفلسطيا . ويمكن أن تؤرخ هذه الحادثة بالعام الرابع عشر من عهد آسيا أى حوالى عام ٨٩٧ ق . م .(٩٧) ويوافق هذا التاريخ العام الثامن والعشرين من حكم أوسركون الأول . وليس هناك مجال للقول بأن زارح هو أوسركون لأن الإسمين مختلفين تماماً بجانب أن أوسركون ملك من أصل ليبى بينما زارح لم يكن ملكا كما أنه من أصل نوبى . ولكن يمكن القول بأنه فى عام ٨٩٧ ق.م. أصبح أوسركون رجلا هرماً فأناب عنه قائداً نوبيا(٩٨) فى حملته إلى فلسطين لإحضار أسلاب وغنائم من هناك ولتحطيم قوة الملك أسا الحربية . لا نعرف على وجه اليقين إذا كان زارح

قد حقق مآربه من حملته ، إذ لم يترك لنا أوسركون الأول أى نقش له على جدران المعابد يصور انتصاره على عدوه . ولكن يحتمل أن أوسركون قد أحرز النصر على أسا ملك يهوذا إذا أخذنا فى الاعتبار ما حدثته به الآلهة موت على جدران الكرنك قائلة : « أقمتك سيداً أوحداً على شعب الشمس ، كل البلاد الأجنبية تحت قدميك ...»[99] .

وإذا كنا لا نعـــرف أى نشاط حربى قام به الملك تاكلوت الأول (حوالى ٨٨٩ – ٨٧٤ ق . م .) فان سياسة مصر الخارجية تجاه فلسطين فى عهد أوسركون الثانى (حوالى ٨٧٤ - ٨٥٠ ق. م.) قد عادت إلى الخط الذى التزمه ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، أى سياسة التقارب والوفاق . لقد عثر على بقايا إناء كبير من الألبستر فى قصر عمرى واحاب فى ساماريا تحمل خرطوش أوسركون الثانى وعلامة الكمية «٨١ هين»[100] . وأن وجود مثل هذا الاناء فى مملكة إسرائيل يصبح له دلالته إذا عرفنا الصورة الحقيقية للظروف السياسية داخل مصر وخارجها . فإذا كانت الأحوال الداخلية فى مصر فى عهد شوشنق الأول وأوسركون الأول قد تمتعت بنوع من الاستقرار والوحدة الوطنية ساعدتا على أن يقوما بأعمالهما الحربية بشىء غير قليل من النجاح ، فإن عهد أوسركون الثانى شهد قلاقل داخلية تمثلت فى تحرك الوجه القبلى ومنطقة طيبة نحو نوع من الاستقلال عن الحكومة الفعلية فى تانيس ، بحيث أخذا يتوجهان نحو هارسيس الذى كان كبير كهنة آمون ثم انتحل الألقاب الملكية[101] ، الأمر الذى يوحى بنزعة الاستقلال فى منطقة طيبة .

وهكذا لم تكن الظروف الداخلية لتسمح بالقيام بأى مغامرات حربية خارج البلاد إلا فى حالة الدفاع عن سلامتها . هذا فى الداخل أما فى الخارج فقد أصبحت دويلات غرب اسيا عرضة لأن تقع فريسة فى يد قوة

جديدة بدأت تظهر فى سماء الشرق القديم فى ذلك الوقت ألا وهى أشور . لذلك فقد كان من السياسة الحكيمة وبعد النظر أن تسعى مصر إلى إعادة سياسة التقارب بينهما وبين جارتها الشمالية فلسطين لتعبئة الموارد لدرء الخطر المشترك الرابض على الحدود فى الشمال . وأن السعى لتحقيق هذه السياسة يفسر لنا وجود الإناء الألبستر (الذى بالضرورة كان يمتلىء بعطر ثمين) فى قصر ساماريا(١٠٢) كأحد الهدايا التى أتى بها المبعوثون المصريون إلى بلاط وايزابل .

لقد نشطت آشور فى عهد أشورناسيربال الثانى (حوالى ٨٨٤ — ٨٥٩ ق . م .) وفى عهد شالمنصر الثالث (حوالى ٨٥٩ — ٨٢٤ ق . م .) وأخذت فى إخضاع ممالك سوريا والشرق لسلطانها(١٠٣)، وفى عام ٨٥٣ ق.م. اتحد كل من حكام سوريا الجنوبية وفينيقيا وفلسطين لمقاومة الغازى الأشورى ، وأرسلت حماه ودمشق وإسرائيل جيوشها بجانب ٥٠٠ جندى من بيلوص وألف جندى من مصر وفرق من ست حكام آخرين(١٠٤) . وفى تلك السنة تمكن الحلفاء من تحطيم القوة الآشورية عند قرقر ولكن بعد أن منيت جيوشهم بخسائر فادحة . لقد كان اشتراك مصر فى هذه المعركة متمشياً مع سياسة مصر فى عهد أوسركون الثانى المبنية على أساس التقارب مع إسرائيل وكذلك مع بيلوص بغرض الوقوف فى وجه عدو مشترك كاد يهددها جميعاً . وهكذا جعلت مصر من فلسطين درعاً يقيها من أى هجوم أشورى فى المستقبل وذلك بالمساعدة الحربية والسياسية الودية عن طريق إرسال الهدايا .

وفى أثناء حكم تاكلوت الثانى (حوالى ٨٥٠ — ٨٢٥ ق . م .) استمر النزاع بين دويلات الشرق القريب تارة أو الاتحاد مع بعضهم البعض ضد آشور تارة أخرى خاصة فى عهد شالمنصر الثالث . ويبدو

أن مصر ظلت ترسل فرقاً لمساعدة أعداء آشور بالرغم من عدم وجود دليل مباشر على ذلك . وفى هذا الوقت أيضاً قامت الحرب بين دمشق وإسرائيل التى استنجدت بالحيثيين والمصريين(١٠٥) .

ومهما كان الأمر فحوالى عام ٨٤١ - ٨٣٨ ق. م. أصبحت كل الأراضى الغربية مهددة من آشور التى أصبح لها اليد العليا فى ذلك الوقت . لم يجد يهو ملك إسرائيل بدأ من دفع الجــزية مع آخرين لشالمنصر الثالث . وفى ذلك الوقت أيضاً يسجل شالمنصر الثالث أيضاً « جزية أرض موصرى (مصر) » والتى تكونت من جمال ذوات سنامين وفرس بحر ووحيد القرن ووعل وفيلة ونوعين من القردة(١٠٦) . ومن هنا نرى أن سياسة مصر كانت تجرى مع تيار السياسة الفلسطينية فى شراء آشور حتى لا تتعرض لهجومها .

أما فى المجال الاقتصادى فقد كان لمصر تأثير كبير خارج حدودها ففى خلال القرن التاسع قبل الميلاد وجدت مملكتا يهوذا وإسرائيل أن من مصلحتيهما الاقتصادية اتخاذ الأرقام الهيراطيقية المصرية(١٠٧) وإعادة تقييم الموازين والمقاييس لتوائم النظام المصرى(١٠٨) . وفى أغلب الظن أن هذا يرجع إلى استعادة مصر مركزها التجارى فى فينيقيا خاصة فى بيلوص فى عهد الأسرة الثانية والعشرين ، وليس أدل على ذلك من العثور فيها على تماثيل لشوشنق الأول وأوسركون الأول وأوسركون الثانى(١٠٩). لقد كان موقع تانيس كميناء تجارى فى الطرف الشمالى من مصر جعلها فى فى مركز تسيطر منه على التجارة عبر الحدود ، علاوة على ذلك فليس لدينا أى دليل على أن الملوك الليبيين قد شجعوا سكان فلسطين على التجارة البرية مع مصر . وفى عهد الأسرة الثانية والعشرين الليبية ، سمح لبعض الجيوب السامية بالاستقرار فى مصر . فتشير حوليات أوسركون ، كبير الكهنة

فى طيبة ، إلى معسكر للشاسو الفلسطينيين بجوار نبتج ، أطفيح الحالية ، والذين كانوا مرتبطين بخدمة معبد آمون(١١٠) .

وفى عهد الملك أوسركون الرابع (حوالى ٧٣٠ — ٧١٥ ق . م .) آخر فراعنة الأسرة الثالثة والعشرين البوباسطية ، سارت مصر فى سياستها مع فلسطين على نفس الخط الذى رسمه لها أوسركون الثانى . ففى عام ٧٢٦/ ٧٢٥ ق . م . رفض هوشع ملك إسرائيل دفع الجزية للملك الأشورى شالمنصر الخامس لاستيائه من الضريبة التى كان قد فرضها سلفه على الخشب اللبنانى . وفى نفس الوقت أرسل رسلا يطلب المعونة من « سو » ملك مصر(١١١) ، إن طلب ملك إسرائيل المساعدة من مصر لدليل على استمرار التحالف الذى بدأه أوسركون الثانى ، برغم مضى ما يقرب من قرن من الزمان شهدت فيه مصر تنازعات على السلطة وانقسمت فيه البلاد إلى عدة أقسام كل له حاكمه وصاحب الأمر فيه . لقد كان لهذا التحالف أن يستمر مادام الخطر الأشورى مازال قائماً ، ولا بد أن مصر قد رحبت بتقديم المساعدة خاصة وأنها قد أضيرت بالسياسة التى اتبعها الملك الأشورى تيجلات — بيلزر والخاصة بمنع تصدير الخشب اللبنانى إلى مصر(١١٢) ، ولكن شالمنصر الخامس حاصر ساماريا عاصمة إسرائيل ثلاث سنوات سقطت بعدها وهجر قبائل إسرائيل العشر إلى ولاية جوزان والمنطقة الواقعة جنوب شرق بحيرة أورميا(١١٣) .

لقد طالت المناقشات وتعددت الآراء حول معرفة من هو الفرعون « سو » الذى استنجد به هوشع ملك إسرائيل . لقد اقترح البعض أنه « سيبا » قائد جيش مصر والذى ذكره سرجون الثانى ملك أشور عام ٧٢٠ ق . م .(١١٤) . ولكن هذا لا يمكن قبوله إذ أن « سيبا » قائد جيش وليس فرعوناً . كذلك لا يمكن اعتباره الفرعون شاباكو الذى لم يحكم مصر حتى

حوالى عام ٧١٥ ق . م . وقد اقترح البعض أيضاً أنه الفرعون تفناخت أحد فراعنة الأسرة الرابعة والعشرين (حوالى ٧٢٨ — ٧٢٠ ق.م.) على أساس أن الإسم العبرى SO, ما هو إلا تصحيف للإسم الحوريسى (Sl, – lb) (١١٥) . ولكن ما يعارض هذا الرأى أن الكتاب والحكام الأجانب كانوا دائماً يشيرون إلى الفراعنة بأسمائهم التى تكتب داخل الخراطيش ، وفى العصر المتأخر بأسمائهم الشخصية(١١٦) . وهناك اقتراح ينادى بتعديل قراءة النص الوارد فى سفر الملوك الثانى (١٧ : ٤) كالآتى : « أرسل رسلا إلى سايس [إلى] ملك مصر »(١١٧) أى إلى تفناخت الذى أغفل ذكره . ولكن يرد على هذا الاقتراح بأن موقع سايس جغرافيا ليس مناسباً لإرسال نجدة سريعة إلى ملك إسرائيل علاوة على ذلك فإن قـــراءة « سو » على أنها « سايس » تحتاج إلى تصحيح فى النص وهذا ما لا حاجة لنا به لو اعتبرنا « سو » اسم شخص وليس اسم مكان . كما أنه يجب ألا ننسى ان هناك تحالفاً قائماً منذ أيام أوسوركون الثانى وتاكلوت الثانى من ملوك الأسرة الثانية والعشرين وإسرائيل، وليس هناك أى مملكة فى سايس كانت معروفة قبلا لدى البلاط العبرى . والأمر الأخير أن أنبياء ذلك الزمان فى إسرائيل كانوا دائماً ينددون بالرسل الذاهبين إلى تانيس وليس إلى سايس ، فاشعيا ذكران « رؤساء صوعن (تانيس) أغبياء »(١١٨) فبالنسبة له كانت تانيس هى عاصمة فرعون مصر ولم تكن أبدا عاصمة تافنخت .

ولعل المرشح المفضل لاسم « سو » هو الملك أوسوركون الرابع الملك فى تانيس وبوباستيس . والذى يرجح ذلك أنه يمكن اعتبار الاسم « سو » اختصاراً لـ(أو) سو (ركون)(١١٩) وقد يكفينا هذا التفسير عن تصحيح النص العبرى فى التوراه . علاوة على ذلك فقد حكم أوسوركن الرابع من تانيس التى ترددت دائماً على لسان الأنبياء اليهود ، كما أن مملكة أوسوركون

فى شرق الدلتا وبلاطه وقصور أسلافه والمعابد التى شيدوها ، كل ذلك قد يثير الرسول اليهودى أكثر من تفناخت ومركزه فى سايس فى شمال الدلتا. كما أن وجود أوسوركون فى شرق الدلتا وعلى مقربة من فلسطين تجعله أسرع من يمكنه تقديم المساعدة إذا طلبت منه . ولا ننسى التحالف الذى كان قائماً بين ملوك الأسرة الثانية والعشرين (منذ عهد أوسوركون الثانى) وإسرائيل .

وحينما هاجم شالمنصر الخامس هوشع ملك إسرائيل حينما رفض دفع الجزية ، أسرع هذا الأخـــير بطلب المساعدة الحربية من « سو » (أوسوركون الرابع) تنفيذاً لشروط التحالف الذى بينهما . وإذا كانت التوراة لم تذكر أى مساعدة من جانب أوسوركون الرابع ، فلعل هذا يرجع إلى أنه لم يكن عنده الموارد الكافية لتجهيز جيش مثلما فعل شوشنق الأول أو أوسوركون الأول. لقد كان لعدم إرسال النجدة المصرية إلى إسرائيل أثره فى سقوط ساماريا فى يد آشور وتهجير سكان إسرائيل بل وأسر هوشع نفسه حوالى عام ٧٢٤ قبل الميلاد . وإذا كان أوسوركون الرابع عجز عن إرسال المدد لحليفه هوشع ملك إسرائيل لقلة موارده فقد استطاع باكنرانف (حوالى ٧٢٠ - ٧١٥ ق . م .) أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين فى سايس من مد يد المساعدة للفلسطينيين الذين أخضع بلادهم سرجون الثانى حتى وصل إلى غزة عام ٧٢٠ ق . م . فقد أرسل فرعون مصر « Raia » قائد جيشه بقوة لمساعدة هانون ملك غزة ولكن الحلفاء منيوا بالهزيمة وسقطت غزه فى يد الملك الآشورى وهرب « Raia » إلى مصر ثم سقطت رفح[١٢٠] .

وأخيراً فى عام ٧١٦ ق . م . عاد سرجون الثانى مرة ثانية وهاجم فلسطيا وتوجه نحو مصر بعد أن أخضع العرب المحليين وعين شيخا تابعاً له

عند لابان جنوب رفح ليدير شئونه من « ناخال موصور » (وادى مصر) بالقرب من العريش[١٢١] . وبذلك أصبح الجيش الآشورى على بعد ١٢٠ ميلا من تانيس نفسها وأقل من ١٠٠ ميل من قلعة تشارو على الحدود الشرقية لم يجد أوسوركون الرابع مفراً من شراء العاهل الآشورى بأن أهداه اثنى عشر حصانا مصريا كبيراً « ليس لهم نظير فى البلاد (اشور) » على حد قول سرجون نفسه[١٢٢] .

لقد ظلت مصر أيضاً الملجأ الأمين الذى يلجأ إليه الفارون من ملوك وأمراء فلسطين فى أيام الأسرة الخامسة والعشرين النوبية ، مما يدل على استمرار التحالف والصداقة بين مصر وفلسطين . ففى عهد الملك شاباكو (حوالى عام ٧١٦ — ٧٠٢ ق . م .) ثالث ملوك هذه الأسرة أرسل الملك الآشورى سرجون الثانى عام ٧١٢ ق . م . قائد جيشه لتأديب المدينة الفلسطينيـة أشدود التى حاول ملـكها يامانى رفع النير الآشورى عن كاهلها[١٢٣] . وأخيراً سقطت أشدود وعين عليها ملك جديد وبجواره حاكم لمراقبته كما أقيم شاهد يدل على الانتصار الآشورى على المدينة[١٢٤] ، وهرب يامانى إلى مصر ولـكن « برو ملك موصرو (فرعون مصر) التى تنتمى (الان) لـكوش (النوبة) » أضطر إلى تسليمه لاشور[١٢٥] . وبالرغم من التعاطف الذى أبداه شاباكو تجاه أحد أمراء فلسطين ، إلا أنه كان ينظر دائماً إلى مصلحة مصر التى كان يريد أن يجنبها أى صدام مع آشور القوية وذلك على الأقل — بتحييد موقفه منها . وقد يؤيد هذا الـكشف فى نينوى عن ختم يحمل ألقاب شاباكو وصورته فى وضع منتصر بجوار ختم آشورى . وقد يكون هذا الختم قد استعمل فى توثيق معاهدة دبلوماسية أبرمت بين ملك مصر وملك آشور ونسخت على ورق البردى ولـكنها تلفت مع الزمن[١٢٦] .

وإذا كان شاباكو قد تفادى الصدام مع آشور على حساب فلسطين ، فقد كان من سياسة خليفته شبتكو (حوالى ٧٠٢ — ٦٩٠ ق . م .) أن يسير على الخط القـــديم وهو التعاون من أجل مصلحة مشتركة كما لم يأل الفلسطينيون جهداً فى سبيل إحياء التحالف القديم بطلبهم المعونة من مصر . لقد انتهز حزقيا ملك يهوذا وآخرون عام ٧٠٢ ق . م . فرصة انشغال سناخريب ملك آشور فى إعادة تثبيت الحكم الآشورى والوقوف ضد محاولات حكام فلسطين الصغار فى الإطاحة بهذا الحكم وبدأوا فى الاتصال بالملك شبتكو ليحصلوا على تأييده ضد أشور . وبخلاف سلفه ، اتبع شبتكو سياسة هجومية فى غرب آسيا وأعد قواته بقيادة أخيه طهارقة للحرب فى فلسطين ضد الآشوريين . وفى عام ٧٠١ ق . م . توغل سناخريب فى فينيقيا(١٢٧) ، وفلسطيا ويهوذا واستعد الحلفاء تعضدهم القوة المصرية للقاء الجيش الآشورى عنـــد التقية(١٢٨) . وفى أول الأمر أسر سناخريب صدقيا ملك عسقلان ثم حاصر جيش الحلفاء وهزمه عند التقية ثم استولى على تمنة وعقرون(١٢٩) . وبعد ذلك قفز إلى لاخيش . وفى ذلك الوقت أرسل سناخريب قائده مع قوة كبيرة من الجيش(١٣٠) إلى بيت المقدس لإجبار حزقيا ملك يهوذا على تسليم نفسه . وفى هـذه الثناء تم الاستيلاء على لاخيش(١٣١) وبدأ الهجوم على لبنا . وأخيراً اضطر حزقيا إلى دفع الجزية(١٣٢) كما استسلم بادى ملك عقرون(١٣٣) بينما ظلت أبواب بيت المقدس موصدة فى وجه القوات الآشورية(١٣٤) . ويبـدو أنه بينما كانت القوات الآشـورية موزعة بين بيت المقدس ولبنا ، انتهز المصريون وعلى رأسهم طهارقة الفرصة لمهاجمة الجيش الآشورى(١٣٥) ، الأمر الذى يرجح أن انتصار سناخريب على المصريين وحلفائهم فى التقيـــة لم يكن حاسماً . وأخيراً أعاد سناخريب توحيد جيوشـه ورجع بها إلى فلسطيا . لم يجد طهارقة مفراً من إنقاذ جيشـــه إلا الانسحاب بسرعة إلى مصر بينما قوى

الأشوريون قبضتهم مرة أخرى على فلسطيا ولكنهم سرعان ما عادوا إلى أشور ونينوى .

أدرك أسارحدون — خليفة سناخريب — أن طهارقة فرعون مصر حوالى (٦٩٠ — ٦٦٤ ق . م .) هو اليد المحركة وراء ثورات أتباعه فى فلسطين وفينيقيا . لذلك صمم على غزو مصر ، فجرد حملة هزمت على يد جيوش طهارقة(١٣٦) ، ولكنه عاود الكرة عام ٦٧١ ق . م . واستطاع هزيمة جيش طهارقة عند مدينة أسخوبرى ودخل منف . وفر طهارقة إلى طيبة ولكن ما كاد الجيش الأشورى ينسحب من البلاد حتى عاد طهارقة واستولى على منف . سار أسارحدون عام ٦٦٩ ق . م . للقضاء على طهارقة ولكنه توفى فى الطريق . وأخيراً تمكن ابنه أشوربانيبال من غزو مصر عام ٦٦٧ ق . م . وعام ٦٦٤ ق . م . وأصبحت فى قبضة أشور . ولكن فى عام ٦٥٦ ق. م. تمكن بسمانيك الأول من توحيد البلاد بإخضاعه أمراء الدلتا ومنطقة طيبة لسيطرته ، بل استطاع تحرير بلاده من السيطرة الأشورية بتحالفه مع جيجيس ملك ليديا(١٣٧) . وفى عهده بدأ السوريون واليهود يكثرون فى مصر وهناك احتمال كبير فى أن الجالية اليهودية فى أسوان التى لعبت دوراً كبيراً فى القرن الخامس قبل الميلاد إبان الحكم الفارسى لمصر ، قد نشأت فى أيامه(١٣٨) . على أى حال فيحتمل أن بسمانيك الأول قد ظل حليفاً للأشوريين حتى نهاية عهده التى شهدت سقوط نينوى فى يد الملك البابلى نابوبولاسار والميديين عام ٦١٢ ق.م.(١٣٩) .

مد نخاو الثانى (٦١٠ — ٥٩٥ ق.م.) يد المساعدة لأشور — أوباليت الملك الأشورى الذى اتخذ من حران قاعدة له بعد سقوط نينوى العاصمة ، بأن سار على رأس جيشه واتجه إلى فلسطين . ولكن الدبلوماسية الكلدانية نجحت فى تأليب فلسطين ضد آشور ، إذ واجه نخاو الثانى ثورة

فى غزة كما حاول ملك يهوذا يوشيا التعرض للجيش المصرى وهو فى طريقه إلى الشمال ولكنه هزم وقتل عند مجدو(١٤٠)، وبالتالى أصبحت مملكته تابعة لمصر بصفة مؤقتة . واستطاع نخاو فى النهاية الانضمام إلى قوات آشور — أوباليت عند قرقميش. انهزم الجيش المصرى على يد نبوخدرزار الثانى خليفة نابوبولاسار على عرش بابل عام ٦٠٥ ق. م. وانسحب إلى مصر تاركا كل سوريا وفلسطين تحت رحمة الملك البابلى(١٤١) . لقد كان لانتصار العاهل البابلى أثره المباشر على مجريات الأمور فى فلسطين ، إذ نجد يهوياقيم ملك يهوذا ، الذى عينه نخاو ملك مصر فى منصبه ، يعلن خضوعه لنبوخدرزار(١٤٢) ولكنه سرعان ما تنكر لهذا الأخير حينما هزمه المصريون فى محاولته الثالثة لغزو مصر عام ٦٠١ ق. م. لم يسع نبوخذ رزار إلا أن أرسل جيشاً حاصر به بيت المقدس عام ٥٩٧ ق. م. ومات يهوياقيم أثناء الحصار بينما أخذ ابنه يهوياكين أسيراً إلى بابل مع جنوده وصناع مملكته وأعيانها(١٤٣) . وهكذا أصبحت سوريا وفلسطين مرة أخرى فى يد قوة معادية لمصر مما كان له أسوأ الأثر على تجارتها التى كانت تتخذ من موانى فينيقيا مرفأ لها . ولعل هذا ما يفسر لنا الخطوة التى اتخذها إبريس فرعون مصر (٥٨٩ — ٥٧٠ ق. م.) ، من المسارعة لتأييد صدقيا ملك يهوذا حينما أعلن الثورة على الملك البابلى . أرسل إبريس جيشه إلى فلسطين الذى نجح فى الاستيلاء على صيدا بينما أجبر الحامية البابلية على الانسحاب من بيت المقدس وبعض المدن الأخرى تاركة وراءها رجالا مخلصين لمصر أمسكوا بأيديهم مقاليد الحكم . ولكن نبوخذرزار لم يقف مكتوف اليدين ، إذ سرعان ما أرسل جيشاً أجبر المصريين على الانسحاب وحاصر بيت المقدس لمدة ثمانية عشر شهراً واستسلمت فى النهاية عام ٥٨٦ ق. م. أخذ صدقيا آخر ملوك يهوذا أسيراً إلى بابل بينما تم تهجير الجزء الأكبر من السكان إلى بابل(١٤٤) . ولكن فى زمن لاحق ، حينما شعر

من بقى من السكان أن حياتهم فى يهوذا أصبحت لا تحتمل هربوا إلى مصر مصطحبين معهم النبى أرميا(١٤٥) .

لم يعد اهتمام نبوخذ رزار بسوريا وفلسطين عسكرياً فقط بل أصبح كذلك اهتماماً تفرضه دوافع اقتصادية . لقد كان اتحاد الميديين فى دولة واحدة سبباً فى أن فقدت بابل السيطرة على الطرق الشرقية ، لذلك اتجه الملوك البابليون نحو الغرب فى محاولة للاستيلاء على الطرق التجارية القادمة من شبه الجزيرة العربية صوب الشمال . لقد حاولت مصر دائماً إضعاف قبضة بابل على سوريا وفلسطين لأنها كانت تعتبرها المسئولة عن تدهور تجارتها لسيطرتها على الساحل الفينيقى وساحل قيلقيا(١٤٦) . ويحدثنا سفر الملوك عن مقتل جداليا ، الحاكم الوطنى الذى كان قد عينه نبوخذ رزار على بيت المقدس بعد أن أسر صدقيا(١٤٧) وذلك بإيعاز من مصر التى كان يحكمها فى ذلك الوقت الفرعون أمازيس (٥٧٠ — ٥٢٦ ق.م.) . لذلك صمم الملك البابلى على تجريد حملة لغزو مصر عام ٥٦٨ ق.م. لا نعرف عن تفاصيلها شيئاً(١٤٨) . لقد كان تزايد قوة الفرس سبباً فى تقارب المملكة البابلية والمملكة المصرية بعد ذلك ، ولكن سرعان ما ابتلعت القوة الجديدة كلا المملكتين ، الأولى فى عام ٥٣٩ ق.م. أيام نابونيدس والثانية فى عام ٥٢٥ ق.م. أيام بسماتيك الثالث .

خلاصة القول ، فقد كانت العلاقة بين مصر وممالك فلسطين فى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد يشوبها الود والإخاء فى معظم حالاتها والبعد والجفاء فى أقل حالاتها . فباستثناء حملتى شوشنق الأول وأوسركون الأول (أسرة ٢٢) اللتين لم يكن الهدف منهما الغزو والفتح بقدر ما كان لتوطيد دعائم حكمهما — باعتبارهما حكاماً أجانب — فى مصر بإعلاء شأن آمون وإرضاء كهنته بالغنائم والأسلاب

والظهور أمام المصريين بمظهر الفراعنة الغزاة الفاتحين لاستقطاب إعجابهم باستعادة أمجاد الدولة الحديثة . أقول باستثناء هاتين الحملتين كانت العلاقات بين الجارتين تسير على خط واحد وهدف مشترك . لقد كانت مصر الملجأ الآمين الذى يلجأ إليه المغضوب عليهم والمطرودون والمظلومون من أبناء الممالك الفلسطينية حيث كانوا يجدون المعاملة الطيبة والضيافة الكريمة . فهذا هداد أميرادوم لم يجد أمامه إلا مصر ليفد إليها بعد استيلاء داوود على مملكته ، فأكرمه ملك مصر ورباه فى قصره بين الأمراء وأخيراً تزوج من شقيقة ملكة مصر آنذاك أيام سيامون (أسرة ٢١) . كما ترحب مصر بيربعام ابن نبات حينما هرب إليها خوفاً من بطش سليمان (أيام الأسرة ٢٢) كما التجأ يمانى ملك أشدود إلى مصر حينما غزاها الملك الآشورى سرجون الثانى (أيام الأسرة ٢٥) .

كما لجأ كثير من اليهود أيام بسماتيك الأول (أسرة ٢٦) ويحتمل أنهم عاشوا على الحدود الجنوبية كأفراد من حامية عسكرية وكونوا لهم جالية هناك . كما لم يجد أرميا وصحبه مكاناً خيراً من مصر يذهبون إليه بعد أن سقطت عاصمتهم فى يد العاهل البابلى (عام ٥٨٦ ق.م.) .

كانت السياسة المصرية والفلسطينية تلتقى فى معظم الأحوال على خط واحد وهدف مشترك . ففى عهد الأسرة (٢١) كان تأمين الطرق التجارية المارة فى فلسطين من الجنوب والمتجهة نحو الشمال ، الهدف الأول الذى ربط بين المصالح المصرية والفلسطينية وجعل الجارتين تعملان سوياً للقضاء على غارات قبائل الشاسو وهجمات سكان فلسطيا . ولتأكيد هذا التحالف تمت مصاهرة سليمان لفرعون مصر سيامون الذى لم يتردد فى إعطائه مدينة جزر هدية له باعتبارها بائنة لابنته . ولقد كان لظهور آشور كقوة كبرى فى

القرن التاسع قبل الميلاد ومحاولاتها المتعددة للاستيلاء على سوريا وفلسطين أثره فى زيادة التقارب بين أوسركون الثانى (أسرة ٢٢) وأحاب ملك إسرائيل لدرجة أن تبادل الملكان الهدايا التى نعرف منها ذلك الإناء الألبستر الذى عثر عليه فى قصر الملك فى سماريا . وحينما تصدت دويلات سوريا وفينيقيا وفلسطين للهجوم الأشورى عليها فى عهـــد شلمينصر الثالث ، أسرعت مصر بتقديم المساعدة وكان تحطيم القوة الأشورية عند قرقر ٨٥٣ ق.م. وعندما وجدت إسرائيل ومصر أن قوة أشور تفوق قوتهما ، اتفقا على شراء آشور بأن قبل يهو ملك إسرائيل دفع الجزية بينما أهدت مصر الملك الأشورى بعض الحيوانات الإفريقية الثمينة . لم يتباطأ أوسوركون الرابع (أسرة ٢٣) فى إرسال المساعدة إلى هوشع ملك إسرائيل حينما تحدى السلطان الأشورى أيام شلمنصر الخامس . وكذلك فعل باكنوانف (الأسرة ٢٤) بإرساله جيشاً لمساعدة هانون ملك غزة حينما تعرضت للهجوم الأشورى فى عهد سرجون الثانى . وحينما طلب حزقيا ملك إسرائيل المساعدة من شبتكو فرعون مصر (أسرة ٢٥) ، أرسل له جيشاً بقيادة أخيه طهارقة . ولما وقعت سوريا وفلسطين مرة أخرى فى يد العاهل البابلى نبوخذ رزار ، سارع إبريس (أسرة ٢٦) إلى نجدة صدقيا ملك يهوذا لأن المصلحة المشتركة فى جعل الطريق مفتوحاً إلى موانى فينيقيا حتمت عليه ذلك .

وإذا كانت سياسة نخاو الثانى (أسرة ٢٦) مساعدة آشور كانت ترمى إلى كسر شوكة القوة البابلية المتصاعدة ، فلم يكن من السياسة الحكيمة أن تثور غزة فى وجه الجيش المصرى الزاحف صـــوب الشمال ولا أن يقف يوشيا ملك يهوذا معترضاً طريق المصريين ولا أن يستسلم يهوياقيم الذى نصبه نخاو الثانى على عرش يهوذا لنبوخذ رزار .

هذا فى الوقت الذى ضحت فيه مصر باستقلالها من أجل فلسطين حينما غزاها أسارحدون ملك آشور معتقداً أن وراء الثورات فى فلسطين يداً مصرية وأخيراً وقعت مصر فريسة بين أنياب العاهل الأشورى العظيم آشوربانيبال عام ٦٦٧ ق٠ م٠

فلتقرأ إسرائيل القرن العشرين تاريخ الأجداد لتعرف الدين الكبير الذى تدين به لمصر وللمصريين ٠

الاختصارات

ANET	J.B. Prtichard (ed.), Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament. 2d ed. revised. New Jersey. 1955.
ASAE	Annales du service des Antiquités de l'Egypte.
BA	The Biblical Archaeologist.
BAR	J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, 5 vols.
BASOR	Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
BIFAO	Bulletin de l'Institut Français d'archéologie Orientale.
CAH	Cambridge Ancient History, 2d ed. revised.
JARCE	Journal of the American Research Center in Egypt.
JEA	Journal of Egyptian Archaeology.
JNES	Journal of Near Eastern Studies.
LB.	Y. Aharoni, The land of the Bible; 1966.
PM.	B. Porter and R.L.B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings 7 vols.
RHJE	Revue de l'Histoire Juive en Egypt.
URK.I	K. Sethe, Urkunden des Alten Reichs, 2d ed
URK.IV.	K.Sethe. Urkunden der 18. Dynastie. Historischbiographische Urkunden. 4 vols.
VT	Vetus Testamentum.

مراجع البحث

(١) لقد كان أمنموبى فرعوناً فى تانيس وكان يشغل فى نفس الوقت منصب كبير كهنة آمون بها كما لم ينازع سلطانه فى طيبة منازع ، اذ أن اسمه وجد منقوشاً على قلادات وأربطة عثر عليها — على الأقل — فى تسعة مقابر خاصة برجال الدين فى طيبة .

Cf. Daressy, ASAE,8 (1907). 23ff.

(٢) هم شعب من شعوب البحر المتوسط حاولوا الهجوم على مصر والاستيطان فيها فى بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد وأيام أن كان يحكم مصر رمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ ق . م .) ولكنهم ردوا على أعقابهم بعد هزيمتهم فى معركة بحرية حاسمة . (A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 283 ff) ثم سمح لهم بالاستيطان فى فلسطين كأتباع للمصريين وقد استقروا فى السهل الساحلى من غزة جنوباً إلى يافا شمالا ثم جاهدوا لتوسيع ممتلكاتهم فى الشمال والشرق على حساب القبائل العبرية القاطنة فى هذه المناطق . انظر :

Albright, " Syria, the Philistines and Phoenicia " CAH, Vol. II, chap. 23,28 f.

(٣) هم أيضاً جماعة من شعوب البحر المتوسط وقد شاركوا الفلسطينيين فى الهجوم على مصر وجاء ذكرهم فى النصوص المصرية باسم « تشككر » وأخيراً استقروا معهم فى الساحل الفلسطينى فى منطقة سهل شارون . ومن قصة وينامون التى ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر قبل الميلاد نعرف أنهم كانوا يحتلون مدينة دور ، علاوة على ذلك فقد اشتهروا بالقرصنة بعد قرن أو يزيد من استقرارهم .

(Ibid.).

(٤) O. Eissefeldt, " The Hebrew Kingdom ", CAH, Vol. II, Chap. 34,22 ff.

(٥) Ibid. 46–48.

(٦) لقد كانت حازور أكبر مدينة فى المنطقة فى العصر البرونزى المتوسط كما كانت من القوة لدرجة أنها ذكرت فى نصوص اللغة المصرية :

(Cf. Pesener, Syria, 43 [1966], 277. ff.)

كما ذكرت أيضاً فى خطاب مارى الأمر الذى يؤكد صلاتها الدبلوماسية مع مدينة مارى . انظر :

Y.Yadin, BA, 19 (1956), 2.

(٧) الملوك الأول ١١ : ١٤ — ٢٢ . أما بخصوص منح اللاجئين أرضاً وطعاماً ، فقارن قصة سنوهى التى تبعد عن العصر الذى نحن بصدده بحوالى ألف عام :

J.A. Wilson in ANET, 22a.

(٨) قارن الاقطاعات الخاصة بأعضاء الأسرة المالكة والخاصة باعاشة الموظفين :

Helck, Materialen Zur Wirtschaftsgeschichte des Neven Reiches. II, 1960, 2II—15,

(٩) عن أصل هـــذا الإسم الذى يعنى « زوجة الملك » باعتبـاره تصحيفاً بالعبرية للعبارة المصرية « تاحت — يا — نسو » انظر :

Grdseloff, RHJE, I (1947), 88—90,

(١٠) لقد كان فطام الرضع فى مصر الفرعونية يبدأ عند بلوغهم سن الثالثة وكذلك كان الحال بين العبرانيين : قارن :

A. Bertholet, A History of Hebrew Civilization, 1926, 162 and n. 8.

لذلك فليس من المستبعد أن تـكون هذه العـادة قد اتبعت عند فطـام ابن هداد أيضـاً .

(١١) الملك الأول ١١ . ٢٠ ، ولعل تربيـة جنوبث فى بلاط فرعون وبين أبنائه يرجع إلى تقليد مصرى قديم حيث كان الفراعنة يرحبون بتربيـــة أولاد النبلاء والعامة والأجانب فى بلاطهم . ففى الدولة القـديمة نجد أن بتاح — شبسس من الأسرة الخامسة قد « تربى بين أولاد الملك داخـل القصر » (URK I,51) وفى الدولة الوسطى نسمع عن آخر نفرت (ANET,239) أما عن الأجانب ومنهم الأمراء فقارن :
(ANET,239) .

(١٢) ولذا ترجمنا هذا إلى لغة الحساب يصبح لدينا المعادلة الآتية :
٩٧٠ + ٥ + ١٨ (— ٢ أو ٣ سنوات) = حوالى ٩٩١ أو ٩٩٠ قبل الميلاد .

(١٣) لم تـكن العلاقات بين مصر وآدوم جديدة كل الجـدة بل سبقتها علاقات أيام رمسيس العاشر أو الحادى عشر ، انظر :

M. A. Korostovtsev, An Uupublished Ancient Egyptian Literary Text. Moscow, 1960 (25 th. Congress of Orientalists).

(١٤) فعلى سبيل المثال كم كان استياء تحتمس الثالث شديداً حينما عـلم أن دويلات الخارو قد انفقت فيما بينها على الثورة ضـد مصر ، لذلك نراه وقد قام بحملته الآسيوية الأولى وذلك لأن « (المنطقة) ابتداء من يردج حتى المستنقعات (الشمالية) قد ثارت ضد جلالته » (URK. IV, 648 : 6—7.) كما كانت حملة سيتى الأول فى آسـيا بناء على تقرير بأن الشاسو « قد اتحدوا ووقفوا على جبال فلسطين وبدأوا فى الهياج والتنازع ، كل رجل يقتل زميله متجاهلا قوانين القصر » :

K.A. Kitchen, Kamesside Inscriptions, Historical and Biographical (Oxford, 1969), I,I,9: 4 -5.

(١٥) الملوك الأول ١١ : ٢٢ .

(١٦) عن الشاسو فى الوثائق المصرية انظر :

R, Giveon; Les Bedouins shosou des Documents Egyptiens (Leiden, 1971).

(١٧) صمويل الثانى ٨ : ٢ ، ١٣ — ١٤ .

(١٨) Albright. CAH, Vol. II, Chap. 34,26.

(١٩) Ibid., 46 f.

(٢٠) Montet, Osorkon II, 36 and pI.I.

(٢١) الملوك الأول ٩ : ١٦ .

(٢٢) لقد عاشت إبنــة فرعون التى تزوجت سليمان فى مدينة داود حتى انتهى (أى سليمان) من بناء قصره ومعبد الاله وحائط بيت المقــدس (الملوك الأول ٣ : ١) فواضح هنا أن إبنة فرعون كانت متزوجة من سليمان وتعيش فى « مدينــة داود » بينما كان تشييد المعبد قائماً على قدم وساق . لقد استغرقت عملية تشييد المعبد المدة من السنة الرابعة حتى السنة الحادية عشرة من حــكم سليمان أى من حوالى ٩٦٦ حتى ٩٥٩ ق . م . وقد أشار (Grdseloff) أن الأخشاب اللازمة للمعبد والتى أحضرها بحارة حيرام حاكم صــور ، قد أحضرت إلى يافا ومنها إلى بيت المقدس عن طريق جزر . (RHJÉ,I (1947),91) وبذلك يكون إعطاء جزر بائنة لسليمان (بعد فتح مصر لها) قد وقع قبل اتفاقية الأخشاب مع جزر لبناء المعبد أى قبل السنة الرابعة التى توافق عام ٩٦٦ ق . م . ويجب أن نلاحظ أيضاً أن ذكر قصة الزواج جاءت مباشرة بعد الحديث عن إجراءات الأمن التى شهدتها السنوات الثلاث الأولى من حكمه (الملوك الأول ٢) انظر أيضاً :

Malamat, JNES,22 (1963), II.

(٢٣) قارن : Ibid, I ff

(٢٤) Blackman, JEA, 27 (1941), P1. 10 — 11, P. 89, n. 40—42.

(٢٥) M. Murray, the Osireionat Abydos (London, 1904) P1. 21.

(٢٦) لقد تم القضاء على أسدود على الساحل فى هذا الوقت أيضاً ، قارن :
Malamat, JNES, 22 (1963), 12 and n- 49 ، وفى الداخل عثر على جعــل لسيامون فى تل فرعه (ربما شاروهين القديمة) قارن :

Ibid , 12 and n. 43.

(٢٧) Ibin 13, 16 f.

(٢٨) Ibid 17.

(٢٩) ومن المهم فى هـذا المجال أن نذكر الممتلكات الواسعة التى كانت تمتلكها السيدات ذوات الشأن فى المملكة فى الأسرة الواحدة والعشرين إما بالوراثة أو بالشراء . قارن :

Gardiner, JEA, 48 (1962),57 ff.

(٣٠) صمويل الثانى ٥ : ١١ ، الملوك الأول ٥ .

(٣١) الملوك الأول ٩ : ١١ — ١٤ . وهناك احتمال كبير أن معاهدة سياسية اقتصادية قد عقدت بين سليمان وصور ، انظر :

F. C. Fensham, Vt, 17 (1969), 71 f.

(٣٢) Malamat, JNES, 22 (1963), Iff.

(٣٣) قارن : W. S. Smith, Interconnections in the Ancient Near East (New Haven and London, 1965).

(٣٤) إن أقدم العلاقات بين مصر وبيلوس ترجع إلى أيام سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة : URK, I, 235.17

(٣٥) وليس أدل على أهمية هذا الحدث من كثرة الإشارة إلى « ابنة فرعون » فى رواية سفر الملوك ، قارن : الملوك الأول : ٣ : ١ و ٧ : ٨ و ٩ : ١٦ ،

Malamat, Ba, 21 (1953), 98, n. 13; JNES, 22 (1963), 9 – 10.

كما كان هذا الزواج أيضا خروجا عن القاعدة التى سادت أيام الدولة الحديثة حيث كان زواج أميرة مصرية من ملك أجنبى أمراً مستبعداً . (Ibid,)

(٣٦) Eissfeledt, CAH, Vol. 11, Chap. 34, P. 57.

(٣٧) Ibid., P. 49.

(٣٨) Ibid,, P.6I.

(٣٩) لقد عرف المصريون هذه القبيلة منذ الأسرة الثامنة عشرة : قارن :

W. C. Hayes, JNES, 10 (1951), 50 fig. 10; 130: Hölscher, Libyer and Aegypter, 42 f., 60 f.

(٤٠) Cerny, "Egypt from the Death of Ramesses 111 to the End of the Twenty-first Dynasty" CAH (1965), 11, 13 ff,

(٤١) Yoyotte, Mélanges Maspero (1961), 1,4,122 f.

(٤٢) Von Beckerath, JARCE,5 (1966), 44,49 ; 1.3.

(٤٣) Gauthier, Livre des rois d'Egypte (Cairo,1914),111, 321 ff.

(٤٤) Gauthier, ASAE, 18 (1919), 246 – 50.

(٤٥) الملوك الأول ١١ : ٢٦ — ٤٠ .

(٤٦) الملوك الأول ١٢ .

(٤٧) J. Bright, A History of Israel (Philadelphia,1959), 213: Drioton-Vandier, L'Egypte 4, 671.

(٤٨) BAR, IV, Sec. 724, A.

(٤٩) الملوك الأول ١٤ : ٢٥ - ٢٦ .

(٥٠) أخبار الأيام الثانى ١٢ : ٣ — ٤ .

(٥١) إن وجود عناصر ليبية ليس أمراً مستغربا فى جنود شوشنق الذى ينتمى هو أصلا إليهم .

(٥٢) إن هذه الـكلمة ترادف الـكلمة المصرية Tjk (tn) ، انظر : R. A. Caminos, Late-Egyptian Miscellanies. 1954, 176 – 7.

وبناء على المعلومات المعروفة لدينا من القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبـل الميلاد يبدو واضحا أن (tn) Tjk عبارة عن قوات ليبية من واحات الصحراء الغربية .

(٥٣) لقد كانت الجيوش المصرية على مر العصور تضم عناصر نوبيـة ويحتمل أن هؤلاء النوبيين الذين اشـتركوا فى حملة شوشنق أسرى حرب جاء بهم بعـد حملته ضد النوبة .

(٥٤) عن حملة شوشنق فى فلسطين وتحديد الأماكن التى مرت بها ، انظر : Y. Aharoni, LB, 283 - 90 : Mazar, VT' 4 (1957), 57 — 66,

(٥٥) انظر : حوليات تحتمس الثالث (URK. IV.648.6) ، وربما تـكون عند تل يمه (LB,140 - 1,n 48).

(٥٦) قارن ، يشوع ١٩ : ٦ .

(٥٧) من المحتمل أن تـكون فونيس ، خربة فوطيس (وموقعها القـديم عند تل العصيفر) حوالى خمس عشرة كيلو متراً شمال غرب بير سبع : (LB, 228 and n. 17).

(٥٨) يحتمل أن تـكون حصر — جدة فى يهوذا أوسيمون فى النقب الغربيـة (يشوع ١٥ : ٢٧) . ثم انظر : Mazar, VT,4 (1957), 65.

(٥٩) قارن ، تفوخ بالقرب من حبرون (الأخبـار الأول ٢ : ٤٣) ، LB, 289.

(٦٠) بالقرب من حبرون (يشوع ١٥ : ٥٩) .

(٦١) يحتمل أن تـكون أشنه التى تقع فى يهوذا (يشوع ١٥ : ٣٣و٤٣) .

(٦٢) فى أغلب الظن أنها تل الأراد .

(٦٣) ربما تكون تل الملح القريبة من تل الأراد .
(LB, 289, cf. 185).

(٦٤) قارن ، أخبار الأيام الأول ٤ : ١١ ، LB. 289

(٦٥) تطابق هذه المدينة عصام (يشوع ١٥ : ٢٩) التي تقوم مكانها الآن أم العاظام التي تقع على بعد ١٠ كم جنوب أورويز .
(LB, 288.)

(٦٦) يمكن مقارنتها ببير حشبيل (الأخبار الأول ٢ ، ٩ و LB,289) وفي بعض الأحيان تقارن ببيرر خما في النقب .

(٦٧) لقد عزى البعض الدمار الذي لحق بالمستوى الأول في أزيون — جبر الى شوشنق ، انظر :
Mazar VT, 4 (1957), 65, LB, 288, n, 18.

(٦٨) يحتمل أن تكون بيت شمس ، قارن : LB 286 - 7.

(٦٩) أخبار الأيام الثاني ١٢ : ٥ — ٨ .

(٧٠) تقع في ممتلكات بنيامين على مقربة من بيثل .

(٧١) قارن الملوك الأول ١٢ : ٢٥ .

(٧٢) خربة تل الدمية الحالية .

(٧٣) تقع كل هذه المدن في وادى لزدرايلون ويزريل .

(٧٤) Olmstead, History of Palestine and Syria, 1931,355, fig, 142,

(٧٥) نفس هذا المكان ذكر في حوليات تحتمس الثالث :
(URK, IV, 650 : 6) ، ومكانها الآن خربة عرا (LB,46).

(٧٦) يحتمل أن تكون خربة بوريم الحالية (LB,46,288) .

(٧٧) تسمى الآن جت (LB,163).

(٧٨) قد ذكرها أيضاً تحتمس الثالث ويحتمل أن يكون مكانها الآن خربة عـا (تل ياهام) .
انظر : LB,141.

(٧٩) مكانها الآن خربة شويكة الرأس . (LB, 45 – 6)

(٨٠) تقع جنوب رفح ، قارن : LB,290, and n 23,24

(٨١) G.E. Wright, Biblical Archaeology, 1957,149.

(٨٢) G. E. Wright, Journal of Biblical Literature, 75 (1956). 216.

(٨٣) Wright, Biclical Archaeology, 1957, 148—9.

(٨٤) مثل مجدو ، انظر : D. W. Thomas (ed)., Archaeology & Old. Testament Study, 1967, 323.

وشكم ، المرجع السابق ص ٣٦٦ .

(٨٥) Wright, Biblical Archaeology, 1957,148-9.

(٨٦) J.Bright, A History of Israel. 1960,214.

(٨٧) قارن الملوك الأول ١٤ : ١٧ .

(٨٨) الملوك الأول ١٢ : ٢٥ .

(٨٩) الملوك الأول ١٢ : ٢٥ .

(٩٠) قارن أخبار الأيام الثانى ١١ : ٥ — ١٢ ، Lb.290—3, Map.25,

(٩١) Bright, A History of Israel, 213 f., Drioton et Vandier, L'Egypte, 4 thed , 525.

(٩٢) Cf. Hall, The Ancient History of the Near East (11 th. ed., London, 1950), 439.

وإن القول بأنها « لم تكن مجرد غارة بل احتلال بالقوة » ، انظر : Wright, Bihlical Archaeology (2nd. ed., Philadelphia, 1962). 150. لا يؤيده أى دليل .

(٩٣) Ibid , 149 f.

(٩٤) G.R. Hughes, Reliefs and Inscriptions at Karnak, Vol. 111. The Bubastite portal (Chicago, 1954), PI.2; Barguet, Temple d'Amon—rê à Karnak, 1962, 122 - 3.

(٩٥) حيث كان كبار كهنة آمون يمارسون سلطات دينية كبيرة . وقد استمرت العلاقات بين شطرى المملكة أيام الأسرة الثانية والعشرين تتأرجح بين الصداقة أحياناً والعداء أحيانا أخرى ، انظر :

Gardiner. Egypt of the Pharaohs, 325.

(٩٦) أخبار الأيام الثانى ١٤ : ١٩ — ١٥ .

(٩٧) لقد أعقب انتصار آسا دعوة النبى عزريا للقيام بالإصلاحات وقد كان هذا فى السنة الخامسة عشرة من حكم آسا (أخبار الأيام الثانى ١٥ : ١ — ١٠) .

(٩٨) هناك احتمال فى أن الحملة التى أرسلها شوشنق الأول إلى النوبة (BAR,IV,Sec 723) قد أحضرت معها فرقة نوبية انضمت إلى الجيش المصرى (قارن ، أخبا ر الأيام الثانى ١٢ : ٣) .

(٩٩) Hughes, Reliefs and Inscriptions at Karnak, V. lo 111, The Bubastite Portal, PI.I3.

(١٠٠) G. A. Reisner and others, Harvard Excavations et Samaria, 1914. 1, pp. 132, 243, 247, 334 : 11, pls. 546, 569.

(١٠١) H. Gauthier. Le livre des rois d'Égypte,3, p. 250; cf. Gardiner, Egypte of the Pharaohs, P. 331.

(١٠٢) لقد عثر على أمثال هذه الأوانى فى قصور ملوك أوجاريت فى القرنين ١٤ و١٣ ق م. مهداة من اخناتون وحرمحب ورمسيس الثانى ، قارن :

C.F.A. Schaefer, Syria, 31 (1934),41.

(١٠٣) G. Ronx, Ancient Iraq: 1966,261—71.

(١٠٤) ANET, 278—9.

(١٠٥) الملوك الثانى ٧ : ٦ .

(١٠٦) ANET,281 ، ونذكرنا هذه الهدية بهدية رمسيس الحادى عشر لآشور — بل — كالا والتى كانت عبارة عن تمساح وقرد كبير :

A. R. Millard, IRAQ, 32 (1970): 168-9.

(١٠٧) Y. Ahnroni. BASOR, 184 (1966), 13 ff.

(١٠٨) Aharoni, BA,31 (1968). 24.

(١٠٩) Montet, Byblos et l'Egypte, P. 53, Fig. 17; 56 Fig. 18; pl.36—63.

(١١٠) Hughes, Bubastite portal, pl.22, lines 18-19.

(١١١) الملوك الثانى ١٧ : ٤ .

(١١٢) A,W.F. Saggs, The Greatness that was Babylon, P. 110.

(١١٣) Ibid. P. 111.

(١١٤) على سبيل المثال : انظر . ANET, 285 and n.3

(١١٥) Cf. Ramadan Sayed, VT, 17 (1967), 116-18.

(١١٦) على سبيل المثال شيشاك (شوشنق الأول) ، تيرها كاه (طاهرقا) .

(١١٧) انظر : H. Goedicke, BASOR. 17 (1963), 64—6

(١١٨) أشعيا ١٩ : ١١ .

(١١٩) قارن ، فى الدولة الحديثة الإسم « سيس » كاختصار معروف لإسم رمسيس الثانى (ANET, 477 f.) و « موس » كاختصار لإسم الملك أمنميسيس ، قارن :
Cerny, JEA, 15 (1929), 255.

(١٢٠) Cf. ANET, 285.

(١٢١) Cf. ANET, 286.

(١٢٢) Ibid.

(١٢٣) Cf. ANET, 287–88.

(١٢٤) Cf. Tadmor, BA, 29 (1966), 94-5,Fig5. 9-11

(١٢٥) إن الملك شابا كو هو المقصود بفرعون هنا وليس بمنخى الذى لم يحكم من منف أبداً كما فعل الأول . كما أن الإشارة إلى أن مصر والنوبة تخضعان لحاكم واحد لايجعلنا نفكر فى أى ملك من ملوك هذا العصر سوى أحد ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (تفنخت وباكنرانف لم يحكموا أو ادعوا أنهم حكموا النوبة) .

(١٢٦) See, PM, VII,397.

(١٢٧) من صيدا حتى عكا معينا لولى بدلا من أتوبعل الثانى كملك على صور وصيدا (See, ANET,287,288).

(١٢٨) قد تكون تل الشالاف التى تقع على بعد ١١٠ ميل شمال شرق أشدود . قارن : Mazar,IEJ,10(1960),72 - 7

(١٢٩) Cf. ANET,287 - 288.

(١٣٠) أشعيا ٣٦ : ٢ ، الملوك الثانى ١٨ : ١٧ .

(١٣١) ANET, 288.

(١٣٢) قارن ، الملوك الثانى ١٨ : ١٤ — ١٦ .

(١٣٣) ANET, 286.

(١٣٤) كما وعد أشعيا (قارن ، أشعيا ٣٧ : ٣٣ — ٤٥) .

(١٣٥) قارن ، أشعيا : ٣٧ : ٣٦ .

(١٣٦) ANET, 290,302 - 303.

(١٣٧) Gardiner, Egypt of Pharaohs, P.353.

(١٣٨) انظر ، خالد الدسوقى ؛ الجالية اليهودية فى اسوان فى القرن الخامس ق . م . ، ص ٦ .

(١٣٩) D. J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings (626 - 556 B. C) in the British Museum, 1956, P. 19 ff.

(١٤٠) الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ .

(١٤١) Cf. Wiseman, Chronicles, 23 ff., 66 ff.

(١٤٢) الملوك الثانى ٢٤ : أو ما بعدها .

(١٤٣) الملوك الثانى ٢٤ : ١٠ — ١٧ .

(١٤٤) قارن ، حزقيال ١٧ : ١١ — ٢١ ، أرميا ٣٧ : ٥ وما بعدها .

(١٤٥) Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 360.

(١٤٦) Saggs, The Greatness that was Bobylon. P. 143.

(١٤٧) الملوك الثانى ٢٥ : ٢٢ — ٢٦ .

(١٤٨) حزقيال ٢٩ : ١٩ — ٢١ ، ANET, 308



سيراف وكيش (قيس) وعدن

(من القرن الثالث الهجرى حتى السادس)

بقلم الدكتور عطية القوصى

حرص الخلفاء العباسيون ، منذ أن أقاموا خلافتهم فى بلاد العراق ، على أن يجعلوا هذه البلاد مركز الثقل السياسى والحضارى فى الدولة الاسلامية(١) . ولتحقيق ذلك كان عليهم أن يحولوا طريق تجارة العالم من البحر الأحمر والبلاد المطلة عليه إلى الخليج العربى وبلاد العراق .

ونجح العباسيون ، فى عصر خلافتهم الأول ، فى تحقيق هذه السياسة ففقد طريق البحر الأحمر نشاطه وأصبح دوره التجارى ثانوياً . وانتقل هذا النشاط تدريجياً إلى الخليج العربى وازدهرت الموانى التى تقع عليه . ومن ثم حلت موانىء هذا الخليج وهى : سيراف والبصرة والأبله ثم كيش محل ميناءى الفرما والقلزم فى استقبال سفن الشرق الأقصى(٢) . وتدفقت سلع ومتاجر الشرق على هذه الموانىء ، وغدت التجارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهراً من مظاهر أبهة الاسلام ، وأخذت سفن المسلمين وقوافلهم التجارية تجوب كل البحار وتصل إلى أقصى البلاد(٣) .

وأصبحت مدينة سيراف ، بسبب هذا التحول التجارى ، أهم مدن العالم التجارية فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجريين . وصارت محطة للسفن

القادمة من الهند والصين والمتجهة إليها من ميناء كانتون ومركز تجميع وتصريف للتجارة العالمية(٤) .

ولقد بنى الخلفاء العباسيون هذا الميناء على الجانب الشرقى من الخليج العربى(٥) لتسهيل وصول سفن تجار الصين الكبيرة التى لم تكن تستطيع الوصول إلى مدخل دجلة بسبب الرمال التى تأتى مع هذا النهر وتترسب عند مدخله(٦) . وذكر « ياقوت » أن السفن القادمة إلى سيراف لم تكن ترسو فيها ولكن بالقرب منها عند موضع يقال له « نابد » وهو خليج ضارب بين جبلين على بعد ميلين من المدينة ، « وهو ميناء جيد للغاية وإذا وصلت المراكب إليه أمنت جميع أنواع الرياح »(٧) .

وكانت السفن فى العادة حين تترك سيراف تصل إلى مسقط ومنها إلى كولون وتستغرق هذه الرحلة مدة شهرين . ومن كولون تسير السفن إلى شبه جزيرة الملايو ومنها إلى الصين وميناؤها خانفو(٨) .

ولقد حدد سليمان التاجر السيرافى مسار السفن التجارية الخارجة من ميناء سيراف إلى الصين بقوله(٩) : « إن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف فيعبى فى السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه . والمسافة بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخاً(١٠)، فإذا عبى المتاع بسيراف استقدموا منها الماء وخطفوا(١١) إلى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان والمسافة من سيراف إليــــه نحو مائتى فرسخ . وفى شرقى هذا البحر من البلاد فيما بين سيراف ومسقط سيف بنى الصفاق وجزيرة ابن كاوان ، وفى هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذى يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية . وإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان

ومنه تخطف المراكب إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملى والمسافة من مسقط إلى كولم ملى شهر على اعتدال الريح إلى بحر هركند ».

ولقد ذكر المؤرخ الجغرافى المسعودى أن سفن سيراف كانت تلتقى مع سفن عمان عند ميناء كاه Kolah على الشاطىء الغربى من شبه جزيرة الملايو حيث تلتقى هناك بسفن الصين . وقد كانت بخلاف ذلك قديماً إذ كانت تصل إلى الصين كما كانت مراكب الصين تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبله والبصرة(١٢) .

وكانت سفن سيراف كبيرة الحجم وتدهن عادة باللون الأبيض(١٣) ، وكانت تتجنب الإبحار فى البحر الأحمر بسبب كبر حجمها وخطورة الملاحة فى هذا البحر . وكانت تكتفى بالإبحار فيه إلى جدة التى كانت تفرغ فيها حمولتها وترسل منها إلى مصر(١٤) فى مراكب البحر الأحمر (جلاب القلزم)(١٥) .

ولقد أفادت سيراف من التجارة فائدة كبرى وأصبحت كما يقول عنها الاصطخرى « الفرضة العظيمة لفارس وأغنى بلادها »(١٦) ، وذلك بسبب المكوس التى كانت تحصلها من سفن التجار الواردة إليها والصادرة منها على البضائع العالية القيمة التى كانت تحملها . ويضيف الاصطخرى عن هـــذه البضائع قوله : « ... وكان يحمل من سيراف ما يقع إليها من أمتعة البحر من العود والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل والصندل وسائر الطيب والأدوية والتوابل التى يكثر تقصيها إلى جميع فارس والدنيا كلها وسيراف فرضة لهذه المواضع »(١٧) .

ولقد انعكس غنى مدينة سيراف على مساكنها فبدت فى غاية البهاء بسبب مغالاة أهلها فى الإنفاق على عمارتها . فكانت مبنية من خشب الساج المستورد من زنزبار ، وكانت تتكون من عدة طوابق وتصل إليها المياه

من ينابيع منحدرة من جبل الجام الذى تقع عند سفحه(١٨) . وامتدت مساكن المدينة على طول الساحل متشابكة مع بعضها كعقد متصل . وكان الرجل من أهلها ينفق على عمارة داره زيادة على ثلاثين ألف دينار(١٩) .

وذكر الاصطخرى انه برغم جمال مبانى سيراف فإنه ليس فى هذه المدينة من جميل سوى الأبنية(٢٠) . ولم يكن بها زرع ولا ضرع ولم تحط بها بساتين أو أشجار أو نخيل . ولذلك فأهلها يستوردون خضرهم وفاكهتهم وحاجياتهم المختلفة من خارج المدينة(٢١) ، من قلعة السامران الواقعة على جبل الجام(٢٢) . وأضاف الاصطخرى أن مناخ هذه المدينة حار طول العام وشديد الحرارة فى فصل الصيف وذلك لاحتضان جبل الجام لها(٢٣) .

وكانت التجارة هى كل ثروة أهل سيراف . فلقد اتقن أهل سيراف هذه الحرفة وعملوا فى تجارة الشرق سنين طويلة حتى صاروا الغالبين على سواحل كل الخليج وكل مدنه(٢٤) . وكان أهل سيراف يغيبون فى تجارة الشرق أحياناً سنوات عديدة يقضونها خارج سيراف ويعودون إلى بلادهم بالأموال الكثيرة ، لذلك كونوا من وراء هذه التجارة ثروات طائلة(٢٥) . وأورد الاصطخرى أن من أهل سيراف من أحب ركوب البحر حتى أنه قضى به كل عمره . ولقد بلغه أن رجلا من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه . وكان فى كل مدينة يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو تشققت فاحتيج إلى إصلاحها(٢٦) . وتظهر ثروات تجار سيراف من الأرقام التى ذكرها المؤرخون . فلقد ذكر أن تاجراً واحداً من تجارها أحضر فى مرة إلى شركائه من مدينة خانقو بالصين بضاعة قيمتها نصف مليون دينار(٢٧) . وذكر أيضاً أن ثروة أحد تجار سيراف بلغت أربعة ملايين دينار(٢٨) . كما أورد الاصطخرى أنه بلغه أن من أهل سيراف من يجوز ماله على ستين مليون درهم لم يكتسبها إلا من تجارة البحر(٢٩) .

ورغم غنى أهل سيراف وعظم ثرواتهم فلقد كانوا يتميزون بالبساطة فى ملبسهم حتى أنك لا تستطيع أن تميز السيد عن أجيره لأنه لم يكن يتميز فى لباسه عنه(٣٠) . كذلك اتصف أهل سيراف بضحالة تفكيرهم رغم احترافهم التجارة(٣١) . وفى الوقت ذاته اتصفوا بتدينهم الشديد وعدم تعصبهم الدينى وتسامحهم مع سكان بلدهم من أهل الملل المختلفة(٣٢) . وكان يسكن المدينة بعض النصارى وبعض تجار اليهود . فلقد ذكر الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار بلاد الشرق الإسلامى فى القرن السادس الهجرى (١٢م) أنه كان يعيش بسيراف خمسمائة يهودى كانوا يعملون بالتجارة(٣٣) . كذلك أورد أن عامل سيراف فى أوائل القرن الرابع الهجرى كان يهودياً يدعى « روزباه »(٣٤) .

وأورد المسعودى أنه سافر من الخليج العربى مع تجار سيراف مرات عديدة وأشاد بمهارة البحارة السيرافيين وتحديهم للأخطار التى تعترض الملاحة فى أعالى البحار . ومن هؤلاء النواخدة الذين ركب معهم : محمد ابن الزيدوم السيرافى وجوهر بن أحمد المعروف بابن نسوة الذى غرق بمركبه فى البحر . كذلك ذكر أنه ركب مياه الخليج لآخر مرة سنة ٣٠٤ هـ من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان على مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم ابن جعفر السيرافى(٣٥) . وأضاف المسعودى بأنه كان صديقاً لأبى زيد السيرافى(٣٦) ، الذى يعتبر هو وأستاذه سليمان التاجر السيرافى أشهر الملاحين المسلمين فى القرنين الثالث والرابع الهجريين(٣٧) . ويستمد أبو زيد شهرته من إتمامه لكتاب صلة الصين والهند الذى ألفه سليمان التاجر(٣٨) . ولقد عاش سليمان فى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وقام برحلات عديدة إلى الهند والصين وكانت نقطة انطلاقه مدينة سيراف(٣٩) . وهو يعتبر من أشهر رجالات سيراف ويستمد شهرته من كتاب رحلته الذى كتبه سنة ٢٣٧ هـ ويعرف بكتاب صلة الصين والهند(٤٠) . ولقد سلك سليمان فى

رحلاته طريق التجارة إلى الهند الذى كان متبعاً فى العصر العباسى الأول ، وكان الملاحون يبدأون فيه رحلاتهم إلى بلاد الهند والصين إما من بغداد والبصرة أو من سيراف حتى ساحل ملبار وجاوة ثم الصين[٤١] .

ولقد نبغ أهالى سيراف فى علم البحار والملاحة وتوارث الأبناء عن الآباء أسرار هذه المهنة حتى أصبحت هنالك عائلات متخصصة فى هذا الشأن صار لها تاريخ طويل فى هذا المضمار . فنجد فى كتاب « عجائب الهند »[٤٢] يرد ذكر اسم عائلة سعدان التى اشتهر فيها بهذا الفن الأخوان محمد وعلى ثم أبناؤهما من بعدهما . كذلك أورد البحار الشهير « ابن ماجد »[٤٣] أسماء ثلاثة شيوخ من سيراف كان لهم ولأسرتهم من بعدهم نبوغ كبير فى فن علم البحار والملاحة . وهؤلاء الشيوخ الثلاثة هم : لحى بن كهلان (منتصف القرن الثالث الهجرى) ، وسهل بن أبان (النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى) ومحمد بن سعدان (النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)[٤٢] .

ونبغ من أهل سيراف عدد من الكتاب وأصحاب الوظائف الكبرى فى الدولة ومنهم « ماهان بن بهرام » الذى كتب لعلى بن الحسين بن بشر ومحمد بن واصل وجمع له الدواوين واستقل بها . كذلك أخوه كامل بن بهرام ويكنى بأبى الليث وكان رئيس ديوان الرسائل . ومنهم الحسن بن عبد الله ويكنى بأبى سعيد[٤٥] . ومن رجال النحو والفقه والحديث نبغ أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافى[٤٦] ، الذى كان يقوم بالإفتاء فى جامع الرصافة فى بغداد مدة أربعين عاماً . وكانت تصله الرسائل من الحكام والوزراء من مختلف بلاد العالم الإسلامى[٤٧] .

وظلت سيراف مزدهرة حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وبدأت تفقد مكانتها التجارية العالمية حين تحولت السفن التجارية عنها إلى ميناء جزيرة كيش (قيس) ، فافتقرت المدينة وخلت من معظم

سكانها وأصابها فقر بعد غنى وذل بعد عز . ويرجع تدهور سيراف ونهاية أمرها إلى عوامل ثلاث :

أولها : تدمير الزلازل لها ، وثانيها نهاية نفوذ البويهيين فى العراق ، وثالثها : ازدهار ميناء جزيرة كيش وتحول السفن إليه .

أما عن الزلازل ، فلقد تعرضت المدينة فى سنة ٣٦٦ أو ٣٦٧ هـ/٩٧٧م لموجة زلازل عنيفة استمرت لمدة سبعة أيام متصلة دمرت الميناء تماماً(٤٨)، وبعد هذه الحادثة بوقت قليل انتهى نفوذ حكام الفرس البويهيين فى بغداد، وكانوا يرعون ميناء سيراف ويعملون على نشاطه وازدهاره فلم يجد الميناء ، بفقدان مكانتهم ، من يعمل على إعادة عمرانه(٤٩) . أما عن العامل الثالث فهو ما سنتعرض له بشىء من التفصيل .

ولقد أشار ياقوت الحموى إلى التدمير الذى أصاب سيراف ، وذكر أنه حين زارها (بداية القرن السابع الهجرى) لم يشاهد شيئاً قائماً من مبانيها سوى جامعها . وأنه وجدها خاوية من السكان إلا من قلة فقيرة ما أوجب لهم المقام بها إلا حب الوطن(٥٠) . ويقول صاحب كتاب « فرس نامة»(٥١) أن نهاية سيراف التامة وقفر مينائها كان فى عهد ركن الدولة خمارتكين أمير جزيرة كيش (قيس) الذى فى عهده تحولت التجارة تماماً إلى جزيرته ، والذى اتخذ ميناء سيراف قاعدة لبناء سفنه الحربية(٥٢) . كذلك أورد نفس القول المؤرخ الفارسى حمد الله المستوفى صاحب كتاب « نزهة القلوب »(٥٣) .

* * *

هذا عن سيراف ، أما كيش فهى جزيرة صغيرة فى الخليج العربى تقع بالقرب من حدود إيران على خط ٥٤° شرقاً ، ٢٦,٣٠° شمالا ، ويطلق عليها

العرب اسم قيس[٥٤] . ولقد أدى الموقع الممتاز لهذه الجزيرة فى الخليج إلى ازدياد أهميتها التجارية وخاصة حين تدهور أمر سيراف وجعلها تحتل مكانتها كمحطة كبرى لتجارة الشرق[٥٥] . ويقول ياقوت أنه منذ أن عمر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهنــــد وإليها منقلب التجار[٥٦] . ويضيف ياقوت بأنه شاهد هذه الجزيرة مراراً وأنها مليحة النظر ذات بساتين ونخيل وعمارات جيدة[٥٧] . وأن بها مغاص على اللؤلؤ وفى جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش . ويشرب أهلها من آبار فيها ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات[٥٨] . والطقس فى كيش شديد الحرارة فى فصل الصيف ، ورغم ذلك فلقد ظلت من أعمر بلاد فارس وأكثرها ازدحاماً بالسكان حتى القرن السادس الهجرى[٥٩]. فلقد كان يسكنها حوالى ١٥٫٠٠٠ نسمة وهم من أصل عربى[٦٠]. قال ياقوت أنه شاهد فيها جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل وأنه كان بها رجل صنف كتاباً جليلا فيما اتفق لفظه وافترق معناه ويقع فى مجلدين ضخمين[٦١] . وقد نسب المحدثون إليها اسماعيل بن مسلم العبدى الكيشى قاضيها الثقة والذى روى عنه يحي بن سعيد ووكيع وعبد الرحمن بن المهدى[٦٢] .

أما عن البيت الحاكم الكيشى فيذكر ياقوت أنها كانت تتبع صاحب عمان ، وأن صاحب عمان يملك بحرها وله مسكن فيها وله ثلثا دخل البحرين. وأن لملكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ، وهو يتشبه بملوك الديلم فى شكله ولبسه وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة[٦٣] . وأصل البيت الحاكم الكيشى من عرب بنى قيس من جنوب الجزيرة العربية ، وكانوا يقلدون الحكام البويهيين الفرس (الديالمة) فى ملبسهم ومظاهر أبهتهم[٦٤] .

وظلت كيش مزدهرة ومحطة تجارة الشرق العالمية فى النصف الثانى من

القرن الرابع وطول القرن الخامس الهجرى . وانعكست مظاهر الثراء على حكامها وعلى أهلها وعلى مظاهر العمران بالجزيرة فى ذلك الوقت[٦٥] . وكان حكام كيش يعاملون التجار فى بادىء الأمر الواردين إلى جزيرتهم معاملة طيبة وكانوا لا يتعسفون معهم فى جمع المكوس . إلا أنهم مع بداية القرن السادس الهجرى تغيرت معاملتهم للتجار المسافرين فى بحر عمان فقسوا عليهم وغالوا فى تقدير المكوس المفروضة على بضائعهم وزادوها زيادة كبيرة[٦٦] . ولقد أدى ذلك الأمر إلى أن يتحول كثير من تجار الشرق عن ميناء كيش إلى ميناء عدن وتفقد الجزيرة بذلك أهم موارد ثروتها .

وكان ميناء عدن قد بدأ فى استعادة مكانته التجارية السابقة[٦٧] ، وأخذ يسرق الأضواء عن موانىء الخليج العربى ، وجاء ازدهار عدن وبالاعلى ميناء كيش الذى أخذ فى فقدان مكانته التجارية العالمية بسبب تحول سفن تجار الشرق إلى عدن[٦٨] . ولقد زار كيش الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى فى منتصف القرن السادس الهجرى ، وهو الوقت الذى بدأت كيش فيه خريف عمرها ، وذكر نضوب مواردها وخلو موانيها[٦٩] .

ولم يتحمل حاكم كيش أن يحدث لجزيرته ما حدث لميناء سيراف وأن يسمح لميناء عدن أن يحرمه من مصدر ثروته خاصة وأن سعر البهار فى ذلك الوقت قد زاد بمقدار الثلث[٧٠] . لذلك قرر أن يوقف هذا الأمر بالقوة وأن يستخدم أسطوله فى تدمير عدن وإجبار سفن تجار الشرق على العودة قسراً إلى ميناء بلاده . ولقد قام حاكم كيش بالفعل بتنفيذ مخططه وهاجم بأسطوله مدينة عدن .

وكان يحكم عدن فى ذلك الوقت (النصف الأول من القرن السادس الهجرى) بنو زريع الاسماعيليون والموالون للخلفاء الفاطميين[٧١] ، نيابة

عن ولاة اليمن الصليحيين(٧٢). وكانوا يرسلون مايحصلونه من مكوس على سفن التجار إلى السيدة الحرة الصليحية(٧٣). وكان يتقاسم حكم المدينة بيتان من هذه الأسرة وهما بيتا أبناء العم العباس ومسعود . ولقد حكم من فرع العباس أبناؤه زريع (٤٨٠ - ٥٠٤ هـ) ثم أبو سعود، ثم سبأ (ولاه الخليفة الفاطمى الحافظ سنة ٥٢٥ هـ) . وحكم من فرع مسعود أبناؤه أبو الغارات ثم محمد ثم على . وظل البيتان الزريعيان يتقاسمان حكم عدن مناصفة حتى سنة ٥٣٣هـ . ففى هذه السنة قام سبأ بعزل ابن عمه على وانفرد بحكم عدن(٧٤) . ورغم أن سبأ توفى فى نفس العام(٧٥) الذى استبد فيه بحكم عدن إلا أن أبناءه من بعده واصلوا ما فعله أبيهم وظلوا فى حكم عدن دون مشاركة أبناء عمومتهم(٧٦) .

وحسب رواية ابن المجاور (ت٦٩٠هـ/١٢٩١م) بأن الهجوم على عدن وقع سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥م أى أنه وقع فى الفترة التى كان يحكم فيها عدن أبناء العم سبأ بن أبى سعود وعلى بن أبى الغارات مناصفة (٥٢٥ - ٥٣٣ هـ/ ١١٣١ - ١١٣٨ م) . ولقد كان من نصيب سبأ قلعة الخضرة التى تتحكم فى مدخل البحر والميناء بينما كان ابن عمه يتحكم فى مدخل المدينة من ناحية البر .

ورغم عدم معاصرة ابن المجاور لهذا الهجوم إلا أنه لدينا مايؤيد صحة هذه الواقعة وصحة التاريخ الذى ذكر أنها حدثت فيه . فهنالك وثيقتان من وثائق الجنيزة لشاهدى عيان شاهدا المعركة التى دارت فى ميناء عدن أثناء مرورهما به تقريباً فى نفس التاريخ الذى ذكره ذلك المؤرخ وتحدثا عنها فى خطاباتهما . والشاهدان هم تاجران من تجار الكارم كانا فى طريق عودتهما من رحلتهما بالهند مارين بعدن . والوثيقتان عبارة عن خطابين أرسل الأول شخص يدعى « باما » إلى سيده « ياجو » التاجر الذى كان بالهند . ولقد أرسل « باما » الخطاب من عدن أثناء مروره بها . والخطاب الثانى مرسل من عدن أرسله تاجر عائد من رحلته بالهند إلى تاجر آخر شريك له بالقاهرة يدعى أبو سعيد الدمياطي(٧٧) . والخطاب الثاني يؤكد صحة التاريخ الذي

ذكره ابن المجاور عن الحادثة ، ذلك لأن اسم الشخص المرسل إليه الخطاب هو الإسم العربي للتاجر اليهودي « حلفون بن نيثانيال » وهو من أكبر تجار الهند الكارمية في العهد الفاطمي آنذاك(٧٨) . ووجدت رسائل كثيرة باسم هذا التاجر في وثائق الجنيزة ، كذلك ورد في هذه الوثائق أن حلفون نفسه كان في عدن في ربيع ٥٢٩ هـ/١١٣٤ م وأنه أرسل في سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م خطابين إلى المغرب وإلى أسبانيا وصلا إلى هذه البلاد وهو في طريق عودته من عدن . وأيضاً أرسل حلفون من ميناء عيذاب خطاباً إلى أخيه رئيس القضاة اليهود في القاهرة ذكر فيه ضمن ما ذكر أسماء التاجرين اللذين أرسل خطابات لها . كل هذا يحملنا نصل إلى أن خطابنا ، الذي به واقعة الهجوم على عدن ، أرسل في سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م ، وهذا يتفق تماماً مع ما ذكرته المصادر الإسلامية عن تلك الواقعة(٧٩) .

وكان هـــذا الهجوم الذي وقع على عدن يعد من أكبر الأخطار التي تعرضت لها المدينة والتجارة والملاحة في جنوب البحر الأحمر .

وعن أحداث الهجوم ذكر ابن المجاور أن « ولد العميد » حاكم كيش قام بالهجوم على عدن وقت أن كان يحكمها سبأ وعلى بن أبي الغارات من بني زريع وذلك بقصد تدميرها والقضاء على تجارتها وإعادة طريق التجارة إلى ما كانت عليه ، أي إلى ميناء جزيرته كيش(٨٠) . وأن حاكم كيش أرسل إلى ميناء عدن أسطولا مكوناً من بعض سفن لم تكن معروفة في عدن وهي عبارة عن اثنين من البرام الكبار (سفن كبيرة) وثلاثة شفارات (سفن صغرى تصطحب السفن الكبرى) وعشرة جاشوجيات (سفن صغيرة خفيفة) وعدد من الدوانج (اسم شائع لسفن صغيرة خفيفة تسير في المحيط الهندي)(٨١) . ورست السفن المهاجمة تحت جبل صرح مرمى السفن القادمة إلى عدن . وأرسل قائد الأسطول المهاجم رسائل إلى قائد القلعتين بطلب التسليم واستعمل قائد قلعة الخضرة (سبأ بن سعود) الحيلة والخداع مع العدو إذ أسرع بإرسال طعاماً وشراباً لهم وأرسل لهم رسالة تظاهر فيها

بالإستسلام وقال فيها : « أنا عبدكم والبلد بلدكم ولكم أن تختاروا ما ترون حاكماً عليها » ، ولما وصل هذا الرد لرجال كيش فرحوا به واحتفلوا بالطعام والشراب المرسل لهم . ولقد خاف قائد الأسطول الكيشي من أن يكون وراء الأمر خديعة فحذر رجاله من عدم التمادى فى التفاؤل . لكن تحذيره كان دون جدوى فلقد تمادى الرجال فى شربهم حتى الثمالة . وصدق حدس هذا القائد فلقد استنجد قائدالخضرة بأسطول البحار « رامشت »(٨٢) الذى كان راسياً بسفنه بالقرب من عدن . فوصل بسفنه والقوم سكارى فهجم برجاله عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً وقطعوا رؤوسهم . وهرب من نجى من الموت إلى سفنهم منهزمين ، وانزاح بذلك الخطر عن عدن . وأطلق اسم « الجاجم » منذ ذلك الوقت على هذا المكان الذى دارت فيه المعركة بسبب كثرة من قتل فيه(٨٣) .

هـذه رواية ابن المجاور ، أما رواية وثيقتى الجنيزة فنحن نوردهما بنصهما لما فيهما من فائدة . وجاء فى الوثيقة الأولى الآتى(٨٤) :

« ... وكان هـذه السنة أول الوقت جرز ولد العميد صاحب كيش إلى عدن طلب قطعة من عدن ولما لم يعطوه أخذ الجهاز . وكان جهازه برمتين كبار و٣ شفارات وعشرة جاشجيات وفى الجميع تقدير ٧٠٠ رجل . وقعدوا فى مكلا عدن ينتظروا المراكب ولم يدخلوا البلد فكان فى البلد خوف كثير منهم فلم ينصرهم الله ولم يوفقهم وقتل منهم خلق كثير وزلحت مراكبهم وماتوا عطش وجوع . وكان أول جهاز وصل البلد مركبين الناخدا رامشت فقاتلوهم ولم ينصرهم الله . فلما دخلوا المركبين إلى البندر أطلعوا فيهم الديوان الكثير فانطردوا من البندر وصاروا يدوروا فى البحر ولم ينصرهم الله ومضوا على أقبح صورة مقتولين خاسرين » .

وجاء فى الوثيقة الثانية ما نصه(٨٥) :

« ... وأما أخبارنا وما طرأ علينا بعد سفركم فهو شيء يطول شرحه ولو أجريت عشرة ورقات حتى أصف به بعض ما طرأ علينا لا يكفى ذلك غير أنى أختصر بما أكتبه وجميع أصحابنا المسافرين يعرفوكم بما كان وسمعوا ورأ[وا انـ]ـما كنا نقاضى العدو شهرى زمان هم فى البحر ونحن فى البر ولم يبق فى البلد كبير ولا صغير إلا فى الحصون وماتحت الحصون إلا بيوت فارغة ومقاساه عدو ينظرنا وننظره وهم لا يجسروا يخرجوا إلينا وأهل البلد ما معهم جهاز يدخلوا إليهم به إلا كان يخاف من صاحبه . واجتمع فى البلد تقدير الف رجل ولو كان قبل معهم فى البلد ٥٠٠ رجل لما هربوا الناس من بيوتهم إلا وصلوا والعدو فى المكلا والناس قد هربوا من بيوتهم حتى ظفر الله بهم ونزع البحر وهم فى صيرة مع الصباح واقتتلوا وأهل البلد وقتل مع ديارهم جماعة وهزت روسهم ونهب ما كان قد نزل لهم بصيرة لأنهم كانوا قد ملكوا صـ[ير]ه ونزلوا بها قاطنين ليل ونهار حتى طرأ عليهم [ا]لـ[ذى] طرأ وصاروا فى البحر والناس فى البر حتى وصلا مركبى رامشت وخرجوا لهم يريدوا يأخذوهم وكان الريح طيب فتشتتوا فى البحر يمين ويسار ودخلا المركبين بالسلامة ودخل إليهم العسكر ولم عاد يبقى لهم حيلة لا فى المكـ[لا] ولا فى البلد فرجعوا راحوا خلف الجبل إلى أن طاب لهم الريح وسافروا وشرح خبرهم يطول ولم يمضوا إلا منكسرين مقتولين خاسرين فالله تعالى يريد يكفينا شرهم ولا يريد يرينا وجوههم ... » .

مراجع البحث

(١) — Wiet : L'Egypte Arabe, Paris 1937, T. IV, pp. 166-167.

(٢) — Heyd : Histoire du Commerce, Leipzig 1923, T.I, pp. 26—27.

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، تعريب محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤١ ، جـ١ ، ص ٣١٢ .

(٤) — Lamb, A : Avisit to Siraf, Journal of the Malaysian Branch, Royal Asiatic Society, v. 37, 1964, Part I, p. 2.

(٥) ذكر أنها بنيت فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور .

(Blanch Tapier : Les Voyageurs Arabes au Moyen Age, Paris 1937, p. 37).

(٦) أورد ياقوت الحموى (معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، جـ ٥ ، ص١٩٣) أن الفرس قد ذكروا فى كتابهم المسمى بالابستاق وهو عندهم بمثابة التـوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى أن كيـكاوس لما حدث نفسه بصعود السماء صعد فلما غاب عن عيون الناس أمر الله الريح بخذلانه فسقط بسيراف فقال اسقونى ماءاً ولبـنا فسقوه ذلك بذلك المـكان فسمى بذلك لأن شير هو اللبن وآب هو الماء ثم عربت فقلبت الشين إلى السين والباء إلى الفاء فقيل سيراف .

(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٩٣ .

— تقع خرائب سيراف الآن على مسافة ميل من غربى قرية بندر طاهرى ومسافة ٢٠٠ ميل جنوب شرقى ميناء بوشير الفارسى الشهير وما زالت هذه الخرائب قائمة حتى الآن ومن السهل الوصول إليها بالسيارة من بوشير (Lamb : Op. cit, p. 4.)

(٨) — Moqbul Ahmed ; Commerical relations of India with the Arab world, Islamic Culture, v. 38, 1964, p, 148.

(٩) — Reinaud : Relations des Voyages, Paris 1945, II, pp. 14—16.

(١٠) ذكر ياقوت أن بين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام (معجم البلدان جـ٥ ، ص ١٩٣) .

(١١) خطفوا لفظة يستعملها أهل البحر بمعنى يقلعون الى موضع (أبو يزيد السيرافى : أخبار الصين والهند ، نشر رينو ، جـ٢ ، ص١٥) .

(١٢) مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٨ ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(١٣) — Navdi : Industry and Commeree under the Abbassids, Journal of the Pakistan Historical Society, v. I, Part III, Karachi 1953, P. 259.

(١٤) — Wiet : Les Marchands d'épice, (CHE, Le Caire 1955, p 82).

(١٥) الجلاب ومفردها جلبة ، وهى سفن صغيرة كان يستخدمها رجال البجة فى نقل الحجاج من ميناء جدة عبر البحر الأحمر . ولقد وصف لنا الرحالة ابن جبير طريقة عمل هذه الجلاب . ولمعرفة هذه الطريقة انظر : رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٨) .

(١٦) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص٣١ .

(١٧) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٩٢ .

(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢٠) المسالك والممالك ، ص ٣١ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ (أورد ياقوت أنه زار سيراف وأنه شاهد عمارتها الحسنة وجامعها الجميل الذى أقيمت أعمدته من خشب الساج المستورد) .

(٢٢) — Le Strange ; The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930, p. 258.

(٢٣) المسالك والممالك ، ص ٨٢ .

(٢٤) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢٥) — The Encyclopeadia of Islam, Leyden 1934 v. IV, p. 444.

(٢٦) المسالك والممالك ، ص ٨٣ .

(٢٧) — Heyd : Histoire du Commerce, I, p. 165.

(٢٨) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٨٣ .

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣١) — The Encyclopeadia of Islam; v. IV, p. 444.

(٣٢) الأصطخرى : المسالك ، ص ٨٥ .

(٣٣) ذكر الرحالة اليهودى التطيلى أن هؤلاء اليهود ارتحلوا الى جزيرة كيش بعد أن تدهورت أحوال سيراف فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

(Lamb ; Avisit to Siraf, p. 9).

(٣٤) — Fischel : Jews in the economic and political life of Medieval Islam, London 1937, pp. 31-33.

(٣٥) مروج الذهب ، جا ، ص ٨٩ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣٧) — Reinaud : Op. cit., I, p 53.

(٣٨) — Heyd : Op. cit., I, pp. 28-29.

(٣٩) — Ibid, p. 29.

(٤٠) يقع هذا الكتاب فى جزئين وقام بنشرة رينو Reinaud بعنوان :
"Relations des Voyages, Paris 1848".

(٤١) — Reinaud . Op. cit. I, pp, 14-15.

(٤٢) الخاصكى: عجائب الهند والصين ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ورقة ٥ أ .

(٤٣) يعتبر الملاح ابن ماجد من أشهر الملاحين المسلمين ، ولقد عاش هذا الملاح فى القرن التاسع الهجرى وقام بتأليف عدة كتب فى علم البحار وفنون الملاحة من أشهرها كتابه : « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » .
ولقد تحدث فى هذا الكتاب عن الملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر منذ القرن الثالث الهجرى وحتى عهده .

(Sauvaget, J ; Instructions Nautiques Arabes pour les mers de l'Inde, [Journal Asiatique, 1948, t. 362, pp. 16-17].

(٤٤) — Sauvaget : Op. cir., p. 18.

(٤٥) الأصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٤٧) أرسل اليه الأمير الساماني نوح بن نصر خطاباً فيه ٤٠٠ مسألة فى الدين وخاطبه بالإمام . كذلك خاطبه البويهيون بلقب شيخ الاسلام ، توفى فى بغداد سنة ٣٦٨ هـ ودفن فى جبانة الخيزران .

(Encyclopeadia of Islam, v. IV; Leyden 1934; pp.444).

(٤٨) — Encyclopeadia of Islam, v. IV, p. 444.

(٤٩) — Lamb ; Op. cit., p. 9,

(٥٠) معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٥١) هو مؤرخ فارسى ، كتب كتابه عن تاريخ الفرس باللغة الفارسية ويرجع تاريخ الكتاب الى بداية القرن السادس الهجرى (١٢ م) .

(Le Strange : Op. cit., p. 14).

(٥٢) — Le Strange : Op. cit., p. 259.

(٥٣) فى الوقت الذى كتب فيه الرحالة ابن بطوطة كتابه بالعربية عن رحلته فى بلاد العالم . كتب الرحالة الفارسى حمد الله المستوفى المعاصر له بالفارسية كتابه «نزهة القلوب» وهو يتحدث فيه عن أحوال مملكة فارس وقت استقرار حكم المغول فيها فى عهد مليكهم إيلخان . وهنالك كتاب آخر بالفارسية بعنوان « تاريخى جوزيداه » (التاريخ المختار) الذى بالإضافة لفائدته عن عهد المغول فهو يعطينا جوانب جغرافية غاية فى الأهمية بالنسبة لبلاد فارس قبل حكم المغول لها . (Le Strange . Op. cit', p. 16)

(٥٤) — Le Strange ; Op. cit., p. 257.

(٥٥) — Lamb ; Op. cit., p. 9.

(٥٦) معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١٩٣ .

(٥٧) نفس المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٥٨) نفس المصدر والجزء ، ص ١٩٧ .

(٥٩) — Le Strange ; Op. cit., 257.

(٦٠) — The Encyclopeadia of Islam, v. II. p. 1041

(٦١) معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٩٧ .

(٦٢) ياقوت : نفس المصدر ، جـ٧ ص ٣٠٦ .

(٦٣) معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٦٤) ذكر القلقشندى أن بنى قيس بطن من آل عامر بن صعصعة من العدنانية منازلهم بالبحرين (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣) .

(٦٥) — Le Strange : Op. cit,, p. 257.

(٦٦) — Goitein : Two Eyewitness Reportes of an expidition of the King of kish (Qais) against Aden, [Bulletin of the School of Oriental and African studies, v. XVI, 1954, Part 11, p, 248 §

(٦٧) عادت للبحر الأحمر أهميته التجارية الأولى فى القرن الرابع الهجرى والقرن الخامس وذلك بسبب تعرض التجارة للخطر فى الخليج العربى بسبب قيام ثورة الزنج وثورة القرامطة اللتين نشبتا فى العراق وفى منطقة البحرين . كذلك بسبب تدهور أحوال الخلافة العباسية السياسية والاقتصادية بسبب سيطرة القواد الأتراك على السلطة فيها ولإثارة الاضطرابات فى الدولة وشل نشاطها التجارى . هذا وقد ساءت فى ذات الوقت معاملة السلطات الصينية للتجار العرب ، الأمر الذى أدى إلى توقف هؤلاء التجار عن ارتياد موانى الصين وقصر نشاطهم التجارى على الهند والبحر الأحمر . وقد أدى ذلك إلى عودة النشاط إلى ميناء عدن .

(انظر : عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية .

رسالة دكتوراه ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥٠ — ٥٥ .

(٦٨) — Goitein : Two Eyewitness, p 248.

(٦٩) — Ibid, p. 347.

(٧٠) — Ibid, d. 248.

(٧١) — Loefgren : Arabische Texte zur kenntnis Der stadt Aden, Leiden 1950, I, p, 46.

(٧٢) كانت عدن تتبع الولاة الصليحيون حكام اليمن الموالين للدولة الفاطمية . وكان الصليحيون يختارون لعدن ولاة يثقون فيهم وكان هؤلاء الولاة يرسلون لهم المكوس التى كانوا يحصلونها من التجارة . واستمر ولاة عدن يرسلون المكوس للصليحيين إلى أن حكمها بنو زريع نيابة عنهم سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م . وأخذ بنو زريع فى إرسال المكوس التى يحصلونها من التجارة إلى السيدة الحرة الصليحية . فكانوا يرسلون لها سنوياً حوالى ١٠٠ ألف دينار . وحاول بنو زريع الاستقلال عن الصليحيين وعدم الدفع لهم لكن السيدة الحرة حاربتهم وهزمتهم وفرضت عليهم أن يدفعوا لها سنوياً ضريبة قدرها ٦٠٠ ألف دينار هى نصف خراج عدن . واستمر بنو زريع على ذلك حتى وقع الخلاف بين السيدة الحرة والخليفة الفاطمى الحافظ بسبب نشرها الدعوة فى اليمن والحجاز لمنافسة الطيب . واستفاد بنو زريع من هذا النزاع اذ سرعان ما استعان بهم الخليفة الحافظ فى الدعوة له والقضاء على حكمها . فأعلن بنو زريع خروجهم مرة ثانية عن الصليحيين واستقلالهم بعدن بعد أن توفيت السيدة الحرة سنة ٥٣٢ هـ . وظلت عدن فى حوزة بنى زريع حتى سنة ٥٦٠ هـ .

(محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٥ — ٩٣) .

(٧٣) لو أردنا أن نضرب مثلا للأموال التى كان جامع المكوس فى عدن يحصلها من السفن القادمة من الهند نجد أن بلال بن جرير الذى كان نائباً عن بنى زريع فى حكم عدن فى الفترة ما بين ٥٣٤ — ٥٤٧ هـ / ١١٣٩ — ١١٥٢ م قد خلف وراءه ثروة طائلة مما كان يخصه من هذه المكوس .

وأورد عمارة اليمنى الذى كان صديقاً له أنه خلف عند وفاته ٦٥٠،٠٠٠ دينار مليكى وأكثر من ٣٠٠ ألف دينار مصرى عدا بضائع وعطور وأسلحة وأشياء نادرة من الصين وشرق أفريقية كان التجار يهادونه بها .

(Goitein : Two Eyewitness, p. 248)

(٧٤) توفى على بن أبى الغارات سنة ٥٤٥ هـ .
(زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، تعريب زكى حسن وحسن أحمد محمود ، جـ١ ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٨١) .
(٧٥) ظل سبأ بن أبى السعود يحكم عدن بمفرده حتى وفاته سنة ٥٣٣ هـ وكان بلال ابن جرير نائباً عنه فى حكمها وكان يحصل له المكوس فيها . فلما مات عين مكانه ابنه على الأغر الذى لم تطل ولايته وتوفى سنة ٥٣٤ هـ .
فكتب بلال بن جرير من عدن الى مولاه محمد المعظم بن سبأ وكان خارج عدن يخبره بوفاة أخيه ويأمره بالمبادرة بالعودة الى عدن ويمده بالوقوف الى جانبه .
فوصل محمد المعظم عدن وحكم مكان والده حتى سنة ٥٤٨هـ .

(Lofegren : Op. cit., II, Leiden 1950,p. 217).

— تحدثت وثائق الجنيزة عن ثراء بلال هذا لاشتغاله فى تجارة الشرق . فلقد كان شريكا لمضمون بن بندار كبير تجار عدن ووكيل التجار اليهود فيها فى خلال النصف الأول من القرن السادس الهجرى . ولقد ذكرت وثيقة من وثائق الجنيزة أن هذين الشريكين أرسلا فى سفينة أحد الصفقات الكبرى من حاصلات تجارة الشرق تقدر قيمتها بمليون ونصف دينار .

(Goitein : Studies in Islamic, History and Inistitutions, Leiden 1966, p, 359).

(٧٦) حكم بعد وفاة سبأ ابنه على الأغر المرتضى (٥٣٣ — ٥٣٤ هـ) ثم محمد المعظم (٥٣٤ — ٥٤٨هـ) فعمران المكرم (٥٤٨ — ٥٦٠) ثم محمد بن عمران (٥٦٠ — ٥٦٩هـ) وكان تحت وصاية الوزير ياسر بن بلال بن جرير .
(أنظر التسلسل التاريخى للأسرة فى معجم الأنساب لزامباور ، جـ١ ، ص١٨١) .

(٧٧) — Goitein : Two Eyewitness, p. 249.

(٧٨) ورد فى الخطاب أيضاً اسم تاجرين مغربيين كانا فى ذلك الوقت قد عادا لتوهما من رحلتهما فى عدن .

(Goitein : Op. cit, p, 249),

(٧٩) — Goitein : Op, cit, p, 250.

(٨٠) — Loefgren : Op, cit, I, pp, 50-52

(٨١) — Goitein : Two Eyewitness, p. 252.

(٨٢) كان رامشت هذا قرصانا كبيراً من قراصنة بحر القلزم ، وورد اسمه فى وثائق الجنيزة بأنه البحار الكبير وقائد السفن العظيم . كان يتخذ لسفنه مقراً بالقرب من عدن لمباغتة قوافل السفن الداخلة الى الميناء .
انتهى هذا القائد نهاية طيبة وتوقف عن القرصنة فى آخر حياته وذهب لأداء فريضة الحج وتوفى ودفن بمكة سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م .

(Goitein : Studies , p. 338).

(٨٣) — Loefgren : Op. cit., I, pp. 50-52.

(٨٤) أورد جوايتين أن هذه الوثيقة موجودة بمكتبة جامعة كمبردج تحت الأرقام الآتيــة :

— University Library, Cambridge, T.S. 20-137.
(Goitein : Two Eyewitness, pp. 254-255).

(٨٥) هذه الوثيقة موجودة بمكتبة جامعة كمبردج تحت الأرقام الآتية :

— Univetsity Library, Cambridge, T.S.18 J 5 f. 5.
(Goitein : Op. cit., p, 255).

المالكية والشيعة بافريقية

إبان قيام الدولة الفاطمية

د . محمود اسماعيل

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

جامعة عين شمس

انتشر الإسلام فى أفريقية إبان وبعد الفتح الإسلامى لبلاد المغرب ، فعقبة بن نافع الفهرى اضطلع بمهمة الدعوة إلى الإسلام إلى جانب انشغاله بمهام الفتح ومشكلاته ، وعلى يديه تم إسلام عدد غفير من البربر أما العناصر الأخرى من « الأفارقة » ، فقد بدأت تعتنق الإسلام فى ولاية أبى المهاجر دينار الذى نجح — كما ذكر المالكى[1] — فى ضم « عجم أفريقية » إلى حظيرة الإسلام . على أن إسلام البربر والأفارقة ظل سطحياً حتى خلافة عمر بن عبد العزيز فقد بعث بالعلماء والفقهاء إلى المغرب لتبصير المسلمين الجدد بأمور العقيدة والشريعة ، وأصبحت المساجد بمثابة مراكز للدعوة[2] ساعدت على نشر الإسلام « فى سرعة وعمق وشمول »[3] .

وإذ تأثرت الأحوال السياسية فى أفريقية منذ الفتح فصاعداً بتطور الأحداث فى الشرق ، فلا شك أن النهضة الفكرية — وبالذات فى ميدان الفقه — التى أسفرت عن ظهور المذاهب الأربعة بدأت تعرف طريقها إلى أفريقية ، وأخذ المغاربة بدورهم يتوجهون إلى الشرق التماساً المعرفة ، وعن طريق هذا الاتصال المتبادل انتقل مذهب مالك إلى أفريقية فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى .

ففي مدينة الرسول كان الإمام مالك يلقي دروسه وفق منهج قوامه الالتزام بالقرآن والسنة وعدم الإسراف في القياس والتأويل، على عكس أبي حنيفة الذي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، ولما كان المغاربة قد جبلوا على التمسك بنصوص الشريعة والميل إلى النقل أكثر من الرغبة في إعمال العقل[٤] لذلك أقبلوا على مذهب مالك فراج في إفريقية حتى غلب عليها: بل «محيت كتب أبي حنيفة من إفريقية على يد سحنون»[٥] وكتب الطبقات تحوى أسماء كثيرين من أهل إفريقية الذين رحلوا إلى المدينة وأخذوا العلم عن مالك من أمثال علي بن زياد وعبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد وعبد الله بن غانم وغيرهم ممن رافقوا مالكا ونقلوا عنه مذهبه إلى إفريقية[٦] وقد افتتن هؤلاء بمالك فلقبوه «بالإمام» و«إمام دار الهجرة»، واتخذوه قدوة فتشبهوا به في أقواله وأفعاله، وغرسوا ذلك في نفوس تلامذتهم الذين اقتفوا آثارهم في الرحلة إلى الشرق للقاء أعلام المالكية في الحجاز ومصر من أمثال ابن القاسم وأشهب وابن وهب وابن عبد الحكم[٧]. وعاد هؤلاء إلى إفريقية فقهاء متمرسين فألفوا وصنفوا في الفقه المالكي وأفتوا الناس على مبادئه حتى ازدهرت مدرسة القيروان وصارت أشهر مدارس الفقه المالكي في العالم الإسلامي، بل فاقت مدرسة الفسطاط نفسها[٨].

لعب الفقهاء المالكية دور «الإنتيلجنسيا» في إفريقية فاهتموا بكثير من الجوانب الفكرية خارج نطاق الفقه، وبرعوا بالذات في المسائل الكلامية، كما شارك بعضهم في الحياة السياسية فتولوا القضاء[٩] على الرغم من وصايا مالك بالبعد عن السلطان[١٠]. إلا أنهم لم يدوروا في فلك الحكام يبررون سياساتهم بالتأويل – كما فعل الأحناف في العصر الأغلبي – بل كانوا حراساً على مصالح الرعية يتوسطون لهم لدى الحكام لرفع الضيم والمظالم، ويندددون بهؤلاء الحكام ما لم يرتدعوا[١١]، حتى اقد

ذهب بعض الدارسين[١٢] إلى القول بأن المذهب المالكى فى إفريقية أصبح « مذهباً قومياً إن صح التعبير » .

على أن آفة المالكية فى تعصبهم الشديد لمذهبهم ، إذ أسرفوا فى خلافهم ونزاعهم مع بقية أهل السنة كالشافعية[١٣] والأحناف[١٤]، ناهيك عن موقفهم المتطرف من أهل المذاهب الأخرى كالخوارج والشيعة والمعتزلة[١٥] .

وفى العصر الأغلبى الأخير تعرض المالكية للاضطهاد على يد الأحناف ذلك أن الأمراء الأغالبة الأواخر اشتطوا فى فرض المغارم والجبايات[١٦] فوقف لهم الفقهاء المالكية بالمرصاد متهمين إياهم بالخروج عن « شرائع الإسلام »[١٧] عندئذ استعان الأغالبة بالأحناف وأوكلوا إليهم أمور القضاء والفتيا . فأمعنوا فى إذلال المالكية وامتحانهم وفى ذلك ذكر الخشنى[١٨] أن الأحناف « استطالوا على طبقة المدنيين وامتهنوهم وضربوا جماعة منهم ، ولعل انصراف المالكية عن مؤازرة الإمارة الأغلبية فى ذلك الحين كان من أسباب ضعف الأغالبة الأواخر ، وهو أمر ساعد على انتشار الدعوة الشيعية بإفريقية وما ترتب على ذلك من قيام الدولة الفاطمية فى المغرب وتعرض المالكية للمحن والاضطهادات .

لا نعرف على وجه الدقة متى عرف التشيع طريقه إلى إفريقية ، وإن كان من الراجح أن ذلك لم يحدث إلا فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، أى بعد قيام دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ ، ذلك أن الأدارسة كانوا من الشيعية الزيدية ، وقد حاولوا نشر مذهبهم فى إفريقية دون طائل ، بل لم يقدر للمذهب الزيدى أن ينتشر داخل حدود الدولة الادريسية نفسها ، فقد سادها مذهب مالك الذى كانت له الغلبة فى إفريقية كذلك ؛ ومن هنا كان الشيعة فى إفريقية حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى قلة عديمة الخطر تعرضت لمزيد من العنت والاضطهاد على يد المالكية[١٩] .

على أن التشيع فى إفريقية أحرز نجاحا بفضل دعاة المذهب الإسماعيلى الذين توجهوا إلى المغرب فى وقت غير معلوم ، فالمصادر لا تذكر إلا أن أحدهما كان يدعى أبو سفيان والآخر اسمه الحلوانى ، وأنهما نزلا أرض كتامه ومهدا الطريق لأبى عبد الله الشيعى داعية عبيد الله المهدى(٢٠) الذى وفد إلى إفريقية فى أواخر العصر الأغلبى . ومما يؤكد وجود التشيع فى إفريقية قبل قدوم أبى عبد الله الشيعى ما ذكره المقريزى(٢١) من أن بعض رجالات كتامه الذين التقى بهم الشيعى فى مكة قبل قدومه إلى المغرب كانوا يعتنقون المذهب الإسماعيلى . إلا أن الفضل يعزى إلى أبى عبد الله فى إتمام نشر المذهب بين قبائل كتامه وغيرها من بربر إفريقية(٢٢) الذين حنقوا على حكامها من العرب ، فرحبوا بالدعوة لآل البيت ونصرة « المهدى المنتظر الذى سيظهر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا »(٢٣) ونجح أبو عبد الله فى تكوين جيش قوى عصبه من كتامه « فصير لهم ديوانا وألزمهم العسكرية »(٢٤) تمكن بفضله من الاستيلاء على كافة بلاد إفريقية والقضاء على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ(٢٥) . والواقع أن الصراع بين الطرفين كان مريرا وشاقا ، كشف فى بعض مراحلة عن تشيع الكثيرين من رجال الدولة الأغلبية ممن كانوا صنائع لأبى عبد الله وعلى رأسهم الوزير ابن الصايغ(٢٦) كما كشفت حادث هجرة عبيد الله المهدى إلى المغرب عن تشيع بعض عمال الأغالبه مثل عامل طرابلس الذى سمح بمرور المهدى ضاربا صفحا عن أوامر الأمير الأغلبى بالقبض عليه(٢٧) .

وكان هؤلاء المتشيعون على صله بأبى عبد الله يتلقون منه الأوامر ويعملون على تنفيذها إبان صراعه مع الأغالبة(٢٨) ، بل وجد فى القيروان من كان على صلة بعبيد الله المهدى نفسه أثناء وجوده بسجلماسة وقبل أن يقع فى أسر أميرها اليسع بن مدرار(٢٩) .

تضافرت عوامل كثيرة لنجاح الدعوة الشيعية فى إفريقية . فالبربر الذين حقدوا على حكامهم العرب(٣٠) وراموا الخلاص من حكمهم الجائر كانوا على استعداد للترحيب بمخلص من آل البيت(٣١) برغم عجزهم عن إدراك عقائد المذهب الإسماعيلى المعقدة(٣٢) . فلم يتقاعسوا عن الالتفاف حول أبى عبد الله الشيعى الذى أثار فى نفوسهم ما انطوت عليه من ميل غريزى للمخاطرة(٣٣) وراعى فى دعوته سذاجة تفكيرهم باستخدام الخرافة والسحر والشعوذه كأساليب دعائية ناجحة(٣٤) بحيث نجح فى الربط بين اعتناقهم الدعوة الشيعية وبين تحقيق آمالهم فى الخلاص .

كما كانت قدراته الشخصية الفذة فى الجدل والمحاجاة والإقناع ، وحسن سيرته من حيث الورع والزهد(٣٥) ودأبه المتواصل فى الحض على مكارم الأخلاق والنهى عن قبيح العادات(٣٦) وحسن معاملته لأهل المدن المفتوحة إبان صراعه مع الأغالبة(٣٧) ، كل ذلك ساعد على انتشار الدعوة الشيعية فى إفريقية بين العامة .

أما الفقهاء المالكية فقد وقفوا من الدعوة الشيعية موقف المعارضة فبرغم اختلافهم مع الأغالبة الأواخر كانوا يحضون الرعية الكف عن الثورة(٣٨) بل ومؤزارة الأغالبة فى قتال أبى عبد الله الشيعى ، لذلك أفتوا بأن « جهاده أفضل من جهاد الشرك »(٣٩) ، وتصدوا لقيادة المقاومة فى الدفاع عن القيروان(٤٠) ، إلا أن هذه المقاومة ما لبثت أن توارت على إثر الهزائم المتوالية التى حلت بالجيوش الأغلبية فأخذ الفقهاء بالتقية خشية انتقام الشيعى « فقد هال الناس أمره وخافوه على أنفسهم »(٤١) وهذا يفسر خروجهم من القيروان ورؤساه لاستقباله « وتهنئته بالفتح »(٤٢) « مداراة له »(٤٣) . ولما كان أبو عبد الله حريصا على اتباع سياسة معتدلة فى تلك الظروف فقد استقبلهم بود ظاهر وأعطاهم الأمان(٤٤) لمكانتهم فى التأثير على العامه وحرصاً منه على تأمين جانبهم حتى لا يؤلبوا أهل المدينة عليه(٤٥) .

كانت سياسة أبو عبد الله فى الفترة التى قضاها برقادة تنم عن طابع الاعتدال إذ لم يشأ إثارة المتاعب خلف ظهره وهو لم يحقق بعد مشروعاته فى المغربين الأوسط والأقصى ، فما أن دخل المدينة حتى أصـــدر عهداً بالأمان(٤٦) وحظر على جنده نهب رقادة والقيروان(٤٧) ، برغم وعده لكتامه بإطلاق أيديهم فيها(٤٨) . وعلى نفس المنوال جرت سياسته المذهبية والاقتصادية ، فحين شرع فى تنظيم أمور إفريقية لم يحدث تغييرات جوهرية فى رسـوم الحكم وتقا ليده بما يتفق ومبادىء المذهب الشيعى ، يتضح ذلك فى إغفال ذكر المهدى على المنابر أو نقش اسمه على العملة(٤٩) وحين عول أخوه أبو العباس على طرد الفقهاء المالكية من القيروان ونشر التشيع قسرا منعه من ذلك(٥٠) « وأنزل الناس على مذاهبهم »(٥١) وكان هذا دأبه فى كافة مدن إفريقية(٥٢) .

وعلى نفس النهج جرت سياسته الاقتصادية ، إذ حظر على جنده نهب الأموال فى المدن المفتوحة كما سبق القول ، كما جعل جباية الخراج وفق أحكام الشريعة ، ورفض ما قدم له من أموال لم تراع فى جبايتها هذه الأحكام(٥٣) .

على أن سياسة الاعتدال هذه ضرب بها عرض الحائط على إثر مغادرة أبى عبد الله إفريقية إلى سجلماسة لتحـــرير المهدى ، ويبدو أنه مسئول عما اقترفه أخوه ونائبه على إفريقية وكذا قاضيه محمد بن عمر المروذى من تعصب مذهبى وإسراف فى فرض المغارم ، إذ أنه أمر وجوه كتامه بإظهار المذهب الإسماعيلى « من التفضيل لآل على والبراءة عن سـواه »(٥٤) قبل رحيله عن القيروان . لذلك بالغ القاضى المروذى فى إرغام الناس على التشيع وإظهار شعائر المذهب بعد رحيله « بإسقاط صلاة الإشفاع فى رمضان ، وزيادة حى على خير العمل فى الآذان ... »(٥٥) . كما يستفاد من النصوص الإسماعيلية ما يشير إلى اتباع أبى العباس سياسة مالية جائرة(٥٦) .

عندئذ تصدى المالكية للمعارضة فعمدوا إلى تحريض الناس على مقاومة التشيع ودعوتهم للتمسك بمذهب أهل السنة(٥٧) ، واتخذت المعارضة طابع الاستتار والتخفي فقد كتبوا في المسجد الجامع خلسة الآية « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ... » . لكن بعض الفقهاء الأحناف - ممن تشرفوا - وشوا بهم عند أبي العباس فأمعن في اضطهادهم بالضرب والتعذيب ، بل قتل بعض زعمائهم ومثل بهم بالطواف في المدينة ثم الصلب في أسواقها من قبيل التخويف والترهيب(٥٨) .

لذلك عاود المالكية الركون إلى التقية ، فخرجوا لإستقبال موكب عبيد الله المهدى بعد تحريره تحاشياً لمزيد من الاضطهاد ، « فلما قرب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان ... فسلموا عليه فرد رداً جميلا وأمرهم بالإنصراف(٥٩) » ، بل ذكر ابن عذارى(٦٠) إن « الفقهاء ووجوه أهل القيروان هنأوه وأظهروا له السرور بأيامه » ، تفادياً لما يمكن أن يحل بهم من خطوب بعد أن استقر الأمر للمهدى وأصبح قيام الدولة الفاطمية في أفريقية أمراً واقعاً .

ارتبط قيام الدولة الفاطمية بتطورات اجتماعية وسياسية ومذهبية واقتصادية هامة فقد ارتكزت على عصبية جديدة قوامها قبائل كتامة فضلا عن عناصر مرتزقة من الصقالبة (٦١) قدر لها أن تتبوأ مكان الصـــدارة . صحيح أن المهدى جمع في يده كافة السلطات(٦٢) لكنه كان بحاجة إلى رجال يتقلدون مناصب الإدارة وحكم الولايات ، وبديهى أن تحتكر كتامة هذه الوظائف سواء في رياسة الدواوين(٦٣) أو في إمارة(٦٤) البلدان .

وبعد مقتل الشيعى وتألب كتامة على المهدى لمع نجم الصقالبة فتقلدوا الوظائف الكبرى في البلاط والدواوين ، ونيطوا بالمهام السياسية الجسام وتولوا تنفيذ الإجراءات الإدارية والمالية الهامة(٦٥) فضلا عن قيادة

الجيوش(٦٦) . وفى تحول المهدى عن كتامه واستعانته بالصقالبة مصداق لما ذكره ابن خلدون(٦٧) عن « استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالى والمصطفين » . ولا شك أن سياسة التعصب العنصرى التى اتبعها المهدى أثارت ثائرة البربر فوجد الفقهاء المالكية الفرصة مواتية لتأليبهم ضد الحكم الفاطمى(٦٨) .

وازداد عداء المالكية للمهدى بعد أن أسفر عن حقيقة نواياه المذهبية فكما يظهر هيبته كإمام يستمد سلطته فى الحكم من الله مباشرة روج للعقائد الإسماعيلية الخاصة بحلول روح الله فى الأئمة(٦٩) . وتكشف سيرة الأستاذ جوذر عن هذه الحقيقة فيصور المهدى وخلفائه « بأنهم ينظرون بنور الله عز وجل فى جميع أمورهم»(٧٠)، وبديهى أن تنعكس روح القداسة تلك على كافة النظم والرسوم التى استنها المهدى واستحدثها فى بلاد المغرب — سيما ما يتعلق منها برسوم البلاط(٧١) - والتى حرص على اعتراف كافة الفقهاء والعلماء بها(٧٢). حقيقة أن الفقهاء لم يجدوا غضاضة فى تلقيبه بأمير المؤمنين « لكنهم رفضوا الاعتراف بنظرية الشيعة فى الإمامة على هذا النحو ، فضلا عما استنه المهدى من بدع أمر بأن تسرى فى كافة أنحاء الدولة مثل « إسقاط الرجم عن المخطئين فى الزنا وإسقاط المسح على الخفين ، وإسقاط الصلاة خير من النوم » من الأذان وإضافة « حي على خير العمل وعلى خير البشر » ، والصوم بالملاءمة والفطر بها لا بالرؤية ، وتحليل المطلقة ثلاثا ، وإسقاط إيمان الحرج » إلى غير ذلك من الإجراءات التى عدها صاحب كتاب الاستبصار « كفراً(٧٣) » ، والتى عددها ابن حماد بقوله(٧٤) « إن عبيد الله قطع صلاة التراويح وأحدث فى الصلاة أموراً لم يألفها المسلمون السنيون مثل القنوت فى صلاة الجمعة قبل الركوع وقول المؤذن : أحياك الله يامولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ، وأعز بسلطانك جانب الموحدين وأباد بسيوفك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى آبائك

الطاهرين وأبناء الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » على أن المؤرخ الفرد بل(٧٥) اعتبر هذه المسائل المستحدثة أموراً بسيطة تتعلق بالشعائر ولا تمس جوهر العقيدة ، وأن البربر رفضوها وثاروا عليها لأن الشعائر فى نظرهم تحظى بمنزلة أكبر من منزلة العقائد .

بينما اعتبرها الكتاب الإسماعيلية (٧٦) حركة تصحيح للدين والتزام « بما نص الله فى كتابه وسنة رسوله ... » ولو أخذنا بما ذكره ابن عذارى (٧٧) لوجدنا المهدى يتمادى إلى ما هو أبعد من تغيير الشعائر إذ « أمر بسب أصحاب النبي وأزواجه حاشا على بن أبى طالب والمقداد ابن الأسود وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى ، وزعم أن أصحاب النبى ارتدوا بعده ، وإحاطة البنات بالميراث ، واستجاز مدحه بالكفر » غير أن المصادر الإسماعيلية (٧٨) تنفى ذلك لأن المهدى « لا يحكم بخلاف ما أنزل الله به وانما أقامه الله جل ذكره ليقيم دينه لعباده » .

ونعتقد أن المصادر السنية تبالغ فى تصوير سياسة المهدى الدينية على النحو الذى نجده عند ابن عذارى ، كما وأن المصادر الاسماعيلية تتغاضى عن ذكر الكثير من المساوىء التى ترتبت على هذه السياسة ، والتى يمكن إلقاء تبعتها على الدعاة ، إذ الواقع أن دعاة المهدى أسرفوا فى تصوير عقائد المذهب الإسماعيلى إلى حد تشويهه ، بإضفاء هالات من الكرامات والخوارق والمعجزات على شخص المهدى ليسهل نشر الدعوة بين البربر البسطاء ، كما عمدوا فى أحيان أخرى إلى مخاطبة غرائزهم بإطلاق دعوات إباحية ، ناهيك عن جهل بعض الدعاة وسوء سيرتهم واستغلالهم الدعوة لتحقيق مآرب شخصية ، وهو أمر أجمع عليه المؤرخون من السنة والشيعة سواء بسواء . ذكر ابن عذارى (٧٩) أن أحد هؤلاء الدعاة أظهر تحليل المحرمات فلقيت دعوته رواجاً وجاهر معتنقوها بذلك « فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر فى رمضان جهاراً » ، حتى فزع المهدى فساقهم إلى السجن وأمر بقتل

بعضهم . ويزخر كتاب المجالس والمسايرات بأمثلة كثيرة تكشف عن فساد بعض الدعاة وسخف أساليبهم فى الدعوة كالقول بعبادة « رأس ينثر من فيه الدنانير »(٨٠) وأن المهدى « يعلم الغيب وما تخفى الصدور (٨١) » ويعترف المعز لدين الله بأن بعض دعاة المهدى كانوا « لا يعرفون شيئاً من ظاهر دين الله من حلال وحرام وكانوا يأنفون أن يعترفوا بالجهل بشىء يسألون عنه »(٨٢) ناهيك عن جشع البعض الآخر فى الحرص على الإثراء ، وجمع الأموال بوسائل غير مشروعة مما سنذكره فى حينه ، وإذا جاز لنا تبرئه المهدى من كثير مما ألحق بدعوته وإلقاء المسئولية على دعاته ، فلا شك أنه مسئول عن اختيار هؤلاء الدعاة « وارسالهم فى سائر البلدان »(٨٣) فضلا عن إصدار أوامره بنشر مذهبه قسراً «وأمره بالجهاد لمن خالف مذهبه(٨٤)»مما أساء إلى دعوته « وأدخل الشبهة فى أمره ، وأضجر للناس بعدواته (٨٥) والمراجع توضح حرصه منذ تولى الامامة وفى أول جمعة بعد نزوله القيروان على اتباع أسلوب « التهديد والترغيب » فى نشر المذهب الشيعى .ذكر المؤرخون (٨٦) أن « رجلا يدعى الشريف ومعه الدعاة أحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن عليه ومن أبى حبس »ومع ذلك لم تجد هذه السياسة فتيلا بل جاءت بنتائج عكسية اذ اندلعت الثورات وهددت الدولة وهى فى مهدها ، فاضطر ، المهدى إلى أمر الدعاة « بالكف عن طلب التشيع من العامة (٨٧) » لرفضهم استيعاب عقائد المذهب الاسماعيلى بتأويلاته الملغزة ، وخصص « مدارس الدعوة » لنشرها سراً بين الخاصة (٨٨) .

واذا كان هذا الأسلوب قد جنبه بعض المتاعب،فأن سياسته الاقتصادية الجائرة حانه منها المزيد ، ومما يسترعى الانتباه أن المهدى فى الوقت الذى ضرب فيه صفحا عن نشر مذهبه قسراً ، مضى فى اجراءات المالية الجائرة تقدماً (٨٩) الأمر الذى يضفى أهمية خاصة على العامل الاقتصادى وفعاليته فى تفسير موقف المالكية من الدعوة الشيعية برغم ما قد يبدو من غلبة

الطابع المذهبي على توطيد حكمه أكثر من حرصه على نشر مذهبه ، فلم يكن المذهب سوى وسيلة تذرع بها لانشاء دولة كبرى (٩٠) وهذه الدولة — التى اتخذت السلطة فيها طابعا ثيوقراطيا —(٩١) يرتهن استمرارها بتحقيق العدالة والمساواة عن طريق تقوية قبضة الحكومة أكثر من التعويل على التحلي بالفضائل والمثل التى تفرسها العقيدة المذهبية (٩٢) مصداق ذلك فى تخلى المهدى وخلفائه فى بعض الأحيان عن أحكام الشريعة من أجل تحقيق أغراض عملية من شأنها اظهار سطوة الحكم (٩٣) أو ضربه صفحا عن عدم المام بعض دعاته بأصول المذهب طالما أوتوا قدرة على جمع الأموال بشتى السبل وارسالها اليه (٩٤) ولقد جسد الفرد بل هذه الفكره بقوله «ان المهدى وخلفائه رغبوا فى بسط سلطانهم على كل بلاد المغرب ومهاجمة الخليفة العباسى فى الشرق فى مصر أولا ثم الشام ، ثم الى ما هو أبعد من ذلك وهذا الهدف استلزم تكوين جيش قوى باهظ التكاليف وبالتالى مال عام لا تكفى الزكاة للوفاء به ... وهكذا اضطروا الى فرض ضرائب عديدة جدا باهظة جداً لم تكن مقبولة لأنها تخالف الشرع والقرآن (٩٥) ». لذلك يمكن القول أن معاداة المالكية للمهدى ترجع إلى سياسته الاقتصادية أكثر من دعوته المذهبية ، خاصة وأن الخلاف بين فقه الشيعة والفقه المالكى ليس جوهريا — اللهم إلا فيما يتعلق بالامامة — فالفروق الطفيفة بين أحكام المذهبين فيما يتعلق بطرق العبادات وبعض مسائل الشريعة لا تزيد كثيراً عما هو قائم بين المذاهب السنية الأربعة (٩٦) . ومن هنا يبرز العامل الاقتصادى بوضوح فى تفسير الصراع ؛ فموقف المالكية مرتبط بالرغبة فى التخلص من المغارم والجبايات والمصادرات التى حلت بهم على يد الشيعة ، كما حلت بغيرهم من أهل السنة (٩٧) .

يدعم هذا التفسير الاقتصادى أن من تشرق من المالكية كانوا مدفوعين الى ذلك بالرغبة فى الاعفاء من المغارم المالية (٩٨) أو التطلع الى تقلد المناصب العامة فى الدولة الجديدة (٩٩) وهو ما سنعرض له بعد مفصلا .

كان المهدى حريصاً على جمع الأموال منذ تحريره من سجنه بسجلماسة بل قبل تقلده الإمامة فى رقادة عرج على إيكجان – مركز الدعوة – « وأحضر الأموال فجمعها أحمالا وصار بها إلى رقادة »(١٠٠) وحين استقبله الفقهاء ووجوه رقادة والقيروان خارج المدينة أمنهم على أنفسهم وذراريهم ، فلما « سألوه التأمين لهم فى الأموال أعرض عنهم »(١٠١) وبدخوله المدينة أصبح همه جمع المال(١٠٢) بشتى الطرق إذ ابتكر من الوسائل والحيل واستحدث من الأساليب فى فرض الضرائب ما يكفل له أكبر قدر ممكن من أموال الجباية(١٠٣) ونجم عن ذلك تردى مياسير الناس – ومنهم الفقهاء – فى الفاقة بعد السعة حتى لقد عجزوا عن الإنفاق على زراعة ما تبقى لهم من أراضى بعد أن صادر المهدى معظمها(١٠٤) ووزعها على شيوخ كتامة ورؤسائها(١٠٥) إذ اختصهم المهدى بإقطاعات من الأراضى الخصبة سهلة السقيا عرفت باسم « السـواقى »(١٠٦) كما حظى الصقالبة « بالضياع » التى أنعم بها المهدى عليهم فأقطعهم إياها(١٠٧) . أما ما بقى من أراضى زراعية بيد أصحابها ، فقد اشتط المهدى فى فرض المغارم عليها(١٠٨) ، ومن أهم هذه المغارم ما عرف باسم « التضييع » وهى ضريبة جديدة استحدثها المهدى(١٠٩) سنة ٣٠٥ هـ ، وفضـلا عن ذلك صادر المهدى أموال الأحباس والحصون(١١٠) واحتكر شراء بعض السلع مقابل أثمان بخسة ؛ من أهمها تمور بسكره التى كانت مملوكة للفقهاء(١١١) المالكية ، ومحاصيل أهل البرارى التى كانوا يرغمون على بيعها للمهدى فى المهدية بأثمان زهيدة ثم تفرض عليهم مع ذلك رسوم باهظة(١١٢) .

ويحاول مؤرخو الاسماعيلية تبرير هذه السياسة الاقتصادية الجائرة بحاجـة الإمام إلى الأموال ينفقها على « رجاله الذين يرزقهم ويجرى عليهم »(١١٣) من أجل إقرار الأمن داخل دولته . لكن الثابت أنها لم تسفر إلا عن غلاء الأسعار وتدهور أحوال السكان الاقتصادية ، ولم تحقق

هذا الأمن المزعوم ، بل إن عمال المهدى ورجال دولته وجنوده ودعاته كانوا مصدر تعكير للأمن بما جلبوا عليـه من نهب أموال الرعية(١١٤) فالمروزى - قاضى القيروان - عرف عنه « الارتشاء واقتناء الأموال »(١١٥) ومحمد بن عمران النفطى - قاضى القيروان كذلك - « كان يرتشى على الأحكام ويستهتر فى ضروب من المنكر »(١١٦) وكثيراً ما كان العمال يختصون أنفسهم بأموال وذرارى الفقهاء الذين تعرضوا للبطش والمصادرة فى عهد المهدى(١١٧) ، إذ دأبوا على تقديم نصيب كبير من مالهم الخاص الذى جمعوه عن طريق المصادرة والرشوة والاحباس إلى المهدى ضماناً لبقائهم فى مناصبهم(١١٨) .

هذا هو ما تذكره المصادر السنية ، وكذا المصادر الاسماعيلية لا تخلو من إشارات تؤكد ذات الحقيقة ، يقول الجوذرى «(١١٩) وكثر امتداد أيادى العسكريين إلى نهب غنائم الرعايا ، وإذ تعرض بعضهم لقصاص المهدى ، فلم يكن لما اقترفوه من ذنب بل لأنهم نهبوها لأنفسهم(١٢٠) يؤكد ذلك ما ورد فى المصادر الاسماعيلية(١٢١) من أن المهدى كان يرضى عن تصرفات قواده الذين كانوا يثخنون فى أطراف البلاد سلباً ونهباً طالما كانوا يشبعون نهمه فى جمع الأموال .

ولا غرو ، فقد سار الدعاة على منواله فشغلوا بأمور الجباية عن مباشرة مهام الدعوة ، بل لم يجدوا حرجاً فى تبديل مبادئها وعقائدها بما يخدم أغراضهم فى جمع المال وتحصيله(١٢٢) .

لذلك كله نقم المالكية على المهـدى ووقفوا من دولته موقف العداء والمعارضة ، وقد اتخذت هذه المعارضة أول الأمر شكل المناظرات والمساجلات بين الفقهاء والدعاة الفاطميين وأسفرت عن اعتناق قلة قليلة من المالكية المذهب الاسماعيلى ، أما السواد الأعظم فتصدوا لمقاومة

العقائد الاسماعيلية ومن ثم تعرض للبطش والإرهاب ولاقوا من الأهوال والمحن على يد المهدى وعماله ما جعل الرعية ينزلوهم منازل الشهداء والأبرار وأخيراً نجح هؤلاء الفقهاء فى قيادة الثورة على الفاطميين ، متعاونين فى ذلك مع الخوارج الذين شاركوا السنة عداءهم لبنى عبيد .

وإذا كان القول بأن معارضة المالكية مسئولة عن تفكير الفاطميين فى الانتقال من إفريقية(١٢٣) ينطوى على شىء من الإسراف والمبالغة ، فلا شك أن هذه المعارضة جعلت حكم المهـــدى وخلفائه لا ينعم بالاستقرار .

أما عن المناظرات والمساجلات بين فقهاء المالكية ودعاة الشيعة فقد بدأت فى بواكير خلافة المهدى حين أزمع نشر التشيع بطريق المناظرة وإقامة الحجة(١٢٤). وتكشف كتب طبقات المالكية عن « المجالس » التى كانت تعقد للمناظرة والقضايا التى كانت تثار فيها وأساليب الجدل والحوار التى بز فيها فقهاء المالكية دعاة الاسماعيلية ومدى إحاطة الفقهاء بخبايا عقائد المذاهب والفرق على تعددها واختلافها(١٢٥) ، هذا فضلا عن روح الاستبسال والجرأة والإصرار على المبدأ رغم ما تعرضوا له من صنوف الترغيب والتهديد(١٢٦) وتوضح كتب الطبقات كذلك كيف كانت هذه المجالس لا تقتصر على فقهاء المالكية ودعاة الشيعة ، بل كان يؤمها فقهاء الأحناف(١٢٧) ، وقد اتخذوا موقف الانحياز للدعاة ، فلم يتورع المالكية عن محاجاتهم بغلظة بلغت حد تبادل السباب والشتائم(١٢٨) .

وبدراسة نصوص المناظرات يتضح أنها دارت حول موضوعات معينة مثل تفضيل الشيعة لعلى على أبى بكر وأحقيته فى الخلافة(١٢٩) ، والخلاف حول قيام رمضان(١٣٠) ، ثم حدود استخدام القياس(١٣١) وبرغم استخدام المالكية القياس إلا أنهم وقفوا فى وجه عقيدة التأويل لدى خصومهم

وسلكوا فى محاوراتهم نهج الرجـوع إلى نصوص القرآن والسنة والاجماع(١٣٢) ومع أن هذه المجالس شهدت أول الأمر نوعاً من التسامح وحرية الفكر(١٣٣) إلا أن دعاة الشيعة عادوا فتشددوا واتبعوا أساليب الارهاب أمام إصرار المالكية على التمسك بمذهبهم ، من ذلك إرغام المالكية على «التشريق»(١٣٤) — أى اعتناق المذهب الاسماعيلى — وإلا اتهموا ببغض على بن أبى طالب(١٣٥) فيحل عليهم إنزال العذاب والنقمة ، ولعل هذا الإرهاب مما دفع الفقهاء أخيراً إلى «الإعراض عن معارضة الدعاة»(١٣٦) والتماس العفو والتسامح(١٣٧) .

ومع ذلك لم تجد وسائل القمع نفعاً ، فقد ظلت الغالبية العظمى متمسكة بمذهبها حتى وصفهم الدباغ(١٣٨) بأنهم «قوم إيمانهم مثل الجبال» . إلا أن بعض الفقهاء — وهم قلة — تشرقوا رغم تحذير الكثرة(١٣٩) فتخلوا عن مذهب مالك واعتنقوا المذهب الاسماعيلى إما خوفاً من بطش أو طمعاً فى الثراء وتقلد الوظائف العامة ، فعلى بن منصور الصفار «اضطره الفقر والإقلال ومحبة السؤدد إلى أن يتشرق ، فحظى بقضاء ميله (١٤٠) ولذات السبب تشيع محمد بن حيان وأبو بكر القمودى وابن الصباغ وربيع بن سليمان(١٤١) .

ونظراً لأنهم قلة فقد بالغوا فى التخفى والاستتار(١٤٢) على خلاف الكثيرين من فقهاء المذاهب الأخرى كالشافعية والأحناف الذين تشرقوا لأسباب اقتصادية أيضاً دون أن يجدوا غضاضة فى إظهار تشيعهم ، فعبد الملك بن محمد الضبى الشافعى «غلب عليه حب الدراهم فتشرق وافتخر بذلك ولم يستتر»(١٤٣) وأبو بكر بن سليمان تشرق حتى يتاح له العمل بكتابة الوثائق — نظراً لتحريم المهدى هذا العمل على غير الشيعة — وقدر له أن «يجمع منه مالا جسيما»(١٤٤) ومن الفقهاء الأحناف نذكر على سبيل المثال خلف بن معمر بن منصور الذى تشرق «ليمتنعهم بذلك من

مطالبة الشيعة لولده بمال كان غمس يده فيه عند هرب زيادة الله من رقادة(١٤٥) وعلى شاكلته اعتنق الكثيرون من الأحناف المذهب الاسماعيلى وحظوا لذلك بمناصب كبيرة كالقضاء والمظالم والكتابة(١٤٦) . ولعل للتقارب بين مذهب أبى حنيفة والمذهب الاسماعيلى فى فتح الباب للاجتهاد والتأويل يفسر إقبـــال الأحناف على التشيع على عكس المالكية الذين يلتزمون بالقرآن والسنة ويستخدمون القياس فى نطاق محدود ومن ثم لم يتشيع منهم إلا نفر قليل .

أما الكثرة فقد ظلت كما قلنا متشبثة بمذهب مالك متصدية لقيادة الرعية فى وجه المهدى وحكومته ، إذ تجاسر الفقهاء فطالبوه بالكف عن سياسته المالية الجائرة(١٤٧) تخفيفاً على الرعية التى ابتليت بالمغارم ، ضاربين صفحاً عما حل بهم من بطش وتعذيب أودى بحياة بعض رؤوسهم(١٤٨) لذلك أخذت الرعية فى مدن أفريقية تزداد تعلقاً بالفقهاء وتنضوى تحت زعامتهم(١٤٩) . واستمد الفقهاء من تأييدهم دفعة قوية وشرعوا فى تنظيم نوع من « المقاومة السلبية » برفض التعاون مع الدولة ، ومقاطعة قضاتها وعمالها ، والتهرب من دفع الأموال ، الأمر الذى حدى بالمهدى إلى الامعان فى اضطهادهم فامتحنوا أشد الامتحان وأعسره « حتى أراق المهدى من دمائهم شيئاً عظيما »(١٥٠) .

وقد بدأت محنة المالكية بإصدار المهدى أوامره بمنعهم « من الفتوى والاسماع واجتماع الطلبة »(١٥١) حتى يتم عزلهم عن الرعية ، ثم شرع أنواع العقوبات لمن خالف أوامره ، ومن هذه العقوبات التغريم والمصادرة والضرب والسجن والقتل والتمثيل . ومع ذلك جاهره المالكية بالخصومة ورفضوا الإذعان لأوامره أو الالتزام برسوم مذهبه فى الشعائر والشرائع ، ووقعوا بذلك تحت طائلة العقاب ، فالفقيه أحمد بن زياد تعرض للتعذيب

« لأنه كتب فى كتاب صداق شروطاً ، وقد نهى المهدى عن ذلك(١٥٢) كما قتل عبدوس المؤذن « لأنه أذن ولم يقل حى على خير العمل ، وبذات التهمة لاقى محمد بن سحنون ذات المصير(١٥٣) وأمر المهدى بقتل الفقيه حسن بن مفرج والزاهد محمد الشذونى بتهمة تفضيل بعض الصحابة على على(١٥٤)، وضرب الفقيه ابن الحداد لأنه اختلف مع دعاة المهدى فى تفسير حديث النبى، « من كانت مولاه فعلى مولاه»(١٥٥) ، أما الفقيه محمد بن العباس الهذلى الذى أصر على الافتاء وفق مذهب مالك « ضرب بالدرة فى المسجد عرياناً ، وصفع قفاه حتى جرى الدم من رأسه ، وشهر به فى أسواق القيروان»(١٥٦) وكان جزاء محمد بن محمد خيرون العافى أكثر فداحة إذ أن تمسكه بمذهب مالك أودى به إلى القتل بطريقة وحشية على يد جند المهدى من السودان(١٥٧) ، وصب المهدى جام غضبه على العامة الذين تأسوا بشيوخهم من المالكية وفى ذلك يقول الخشنى(١٥٨) « عذب الكثيرون من العامة من جهة ترك حى على خير العمل فى الآذان ، وترك قراءة البسملة فى صلاة الفريضة ، بل حل بأناس اشتبه فيهم المهدى وأخذهم بالظنة دون أن يقترفوا جريرة إلا أنهم « دخلوا فى صلة الفقهاء بالمحبة والصحبة »(١٥٩) .

عمل المهدى على فصم الصلة بين الفقهاء والرعية حتى يسلس قيادها ، ولم يدخر وسعاً فى قتل الفقهاء وإيداع من التف حولهم من الناس السجون بدافع التوجس من تحريض الفقهاء لهم ضد أعماله ، فقد قتل الفقيه على بن محمد بن عبد الله لما نمى إلى علمه أنه يثير أهل القيروان على عاملها(١٦٠). وحين التف بعض الناس حول الفقيه أحمد بن نصر فى المسجد سنة ٣٠٨ هـ واشتبه الحرس فى أمرهم « قبض على الفقيه وكل من كان معه وسجنوا »(١٦١) .

وغالى عمال المهدى فى سياسة البطش والإرهاب حتى لقد قتلوا فى بعض الأحيان من أمر المهدى بضربه أو سجنه(١٦٢) ، وكانوا يمعنون فى التمثيل

بحشد القتلى بالتشهير والصلب ليرتدع أتوابهم(١٦٣)، ولا غرو فقد أثمرت هذه السياسة حتى كان الفقهاء لا يجرأون على الصلاة جهراً فى جنازة إخوانهم(١٦٤).

شهدت هذه الفترة كافة ضروب التعذيب البشع من خلع الأسنان إلى سحل الأعين وبقر البطون(١٦٥)، وكان المروذى — قاضى القيروان — «سفاح» العصر حتى ارتاع ابن أبى خنزير والى المدينة لكثرة من سعى بهم المروذى من الفقهاء ليقتلهم(١٦٦)، وقد علق الدباغ على ذلك بقوله «... وكانت أيامه صعبة جداً وأخاف أهل السنة»(١٦٧)، من الفقهاء وغير الفقهاء، فالمحنة التى حلت بالفقهاء امتدت إلى ذويهم وأقاربهم لأن أملاكهم كانت تصادر وتنهب أموالهم وذراريهم(١٦٨)، فضلا عن الغرامات الفادحة التى كانت تفرض على أسرهم(١٦٩).

على أن المحنة لم تزد المالكية إلا إصراراً على التمسك بمذهبهم ومحاربة التشيع بين العامة حتى كف المهدى عن نشر الدعوة جهراً، واستمرت الغلبة لمذهب مالك فى كافة أنحاء أفريقية، والفضل فى ذلك يعزى إلى الفقهاء إذ لولا صلابتهم لاندثر المذهب وشاع التشيع، وفى ذلك يقول الدباغ(١٧٠) «... وجزى الله مشيخة القيروان خيراً، هذا يموت وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة»، ومعلوم أنه يعنى بالكفر التشيع(١٧١)، إذ اشتهر لدى المالكية أن بنى عبيد «مجوس زال عنهم إسم المسلمين»(١٧٢) ومن ثم لا تصح مناكحتهم أو الانتساب إليهم(١٧٣).

تجاوز الفقهاء أحد المقاطعة السلبية للحكومة الفاطمية فشرعوا فى الاعداد للثورة عامدين إلى التستر والكتمان: فكانوا يلتقون سراً فى الحوانيت(١٧٤) أو فى أماكن مهجورة بالمقابر(١٧٥) وقد ترأس الحركة

الفقيه ربيع القطان إذ كان حانوته مركز التنظيم . وكان التنظيم على صلة بحركة ثورية أخرى تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيدان الخارجى ، ولا يخفى أن الخوارج تعرضوا كذلك للمحن على يد الشيعة فقد أسقطوا الدولة الرستمية الخارجية فى المغرب الأوسط والأدنى سنة ٢٩٧ هـ ، وتعقبوا فلول الخوارج فى كل أوب وصوب ، ولما لم يكن بوسع السنة والخوارج مواجهة الفاطميين كل بمفرده ، فقد وحدوا الجهود فى هذا الصدد ضاربين صفحاً عن الخلافات المذهبية ، وهى خلافات طفيفة على كل حال ، إذ أن الخوارج الذين تزعمهم أبو يزيد كانوا من الأباضية ، ومعروف أن المذهب الأباضى أقرب المذاهب الإسلامية إلى مذهب أهل السنة .

لذلك لم يحفل الطرفان بإضفاء صفة مذهبية على الثورة ، فأعلن أبو يزيد أنه « خرج غضباً لله » ولم يجد غضاضة فى السماح لحلفائه المالكية « بقراءة مذهب مالك »(١٧٦) كما وأن المالكية - برغم وقوفهم على هوية أبى يزيد المذهبية لم يجدوا حرجاً فى تبرير التعاون معه للاطاحة بالحكم الفاطمى على أساس أن « الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم الاسلام »(١٧٧) بينما الفاطميون « مجوس زال عنهم إسم المسلمين » كما أوضحنا سلفاً .

على كل حال استقر رأى شيوخ المالكية على الانضمام لحركة ابن يزيد خاصة وإن جيوشه أحرزت العديد من الانتصارات وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من القيروان . لذلك أعلن زعيم المالكية - ربيع القطان - (١٧٨) الظهور بعد الاستتار ، وخرج على رأس الفقهاء إلى المصلى « بالسلاح الشاك والعدة »(١٧٩) فدعى الناس إلى الجهاد والانضمام لأبى يزيد فاستجابوا ثم جاب شوارع المدينة برجاله فى « مظاهرة عسكرية » فازداد إقبال الناس عليه ، فأمرهم بإعداد « الزاد والسفر »(١٨٠) ، وحدد موعداً

لتجمعهم بالمسجد ، وفى اليوم المحدد خرج الفقهاء فى موكب مهيب متوجهين إلى المسجد شاهرين البنود والرايات التى تحمل شعارات الحركة(١٨١) ، وبعد الصلاة ألقيت الخطب الحماسية(١٨٢) لحث الناس على الاستبسال فى قتال العبيديين .

وفى صبيحة اليوم التالى خرج الجميع متأهبين للحرب(١٨٣) إذ كانوا على موعد لقاء مع أبى يزيد الذى زحفت جيوشه إلى القيروان سنة ٣٢٣ هـ فانضموا إليه(١٨٤) واشترك المالكية مع الخوارج فى تحرير بقية مدن أفريقية ثم توجه الجميع لضرب الحصار حول المهدية .

على أن الخلاف ما لبث أن دب بين الطرفين ، فقد طمع كل منهما فى الاستئثار بالنصر بعد أن بات سقوط المهدية وشيكا(١٨٥) . وكان أبو يزيد سباقاً إلى « المكر بالسنة »(١٨٦) ، فأمر جيوشه بالتخلى عن القيروانيين أثناء المعركة لتحصدهم سـيوف الشيعة فيصفو له الجو وتمت الخديعة بنجاح « فقتل من شيوخهم أربعة آلاف ما بين عابد وعالم صالح »(١٨٧) ، وفى هذا مصداق لمقالة بن خلدون(١٨٨) بأن « العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها » .

عول المالكية بعد حلول الكارثة على العمل مستقلين تحت شعار الدعوة للخلافة العباسية لكن الخوارج لاحقوهم واستأصلوا شأفتهم ، ثم ما لبث أن تحول الصراع لصالح العبيدين فحلت الهزائم بالخوارج حتى قضى على حركتهم وقتل زعيمهم .

وهكذا فشلت ثورة المالكية ، وكان عليهم أن يتعرضوا لمزيد من العنت والاضطهاد ، ولم يقدر لهم الأخذ بالثأر إلا بعد هجرة الفاطميين إلى مصر

وتعرض الشيعة فى أفريقية للمحنة على يد بنى زيرى . وليس أبلغ فى تفسير أسباب فشل الثورة المالكية مما ذكره ابن خلدون(١٨٩) فى الفصل الخاص بأن « الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم » والذى يقول فيه « ... ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء ، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهى عنه بالمعروف رجاء فى الثواب عليه من الله ، فيكثر أتباعهم والمتلثلثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم فى ذلك للمهالك » .

مصادر البحث

(١) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان ولفريقية ٢١/١ .

(٢) إبن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ٤٣/١ .

(٣) Brunschvig, R. La Tunisie dans le haut moyen age. P. 7.

ومن ثم فلا محل لتصديق القول بأن « تحول البربر إلى الإسـلام تم على مراحل بطيئة وانطوى على أحداث بعيدة الخطر » راجع : حسين مؤنس ، مقدمة رياض النفوس ٧ .

(٤) بل : الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى ١٢٦/١ ، ٢٧ .

(٥) المالكى ؛ ١٦٥/١ .

(٦) الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ٢ / ٥٢ — وقد قال مالك عن ابن فروخ أنه فقيه أهل المغرب أما ابن غانم فهو على حـد قوله (قاضى أهل المغرب) بينما نعت البهلول بأنه « عابد بلده » انظر المالـكى ١١٥/١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٧) القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك قسم١ من ج٢ ورقة ٢ مخطوط .

(٨) ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ٣٤ .

(٩) محمود اسماعيل : الأغالبة ١١٠ .

(١٠) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ٧ .

(١١) ابن فرحون ١٦٣ . محمود اسماعيل : الأغالبة ١١٠ .

(١٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ١٣ .

(١٣) الدباغ : ٢٠٢/٢ .

(١٤) ابن فرحون ١٣٥ .

(١٥) أبو العرب تميم : طبقات علماء لفريقية ١٠٢ ، محمود اسماعيل ١١٢ .

(١٦) وهنا نجد مصداقاً لرأى ابن خلدون فى « أن الجباية أول الدولة تـكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تـكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة » انظر المقـدمة ص ٢٧٩ .

(١٧) ابن عذارى ١٧٥/١ .

(١٨) طبقات علماء لفريقية ١٦١ .

(١٩) أبو العرب تميم ١٠٢ .

(٢٠) مجهول : كتاب الاستبصار ٢٠٢ .

(٢١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٧٥ .

(٢٢) Bignet : Histoire de L'Afrique septentrionale sous la domination musnlmane. p. 62.

(٢٣) ابن عذارى ١٦٦/١ .

(٢٤) المصدر نفسه ١٧٢ .

(٢٥) راجع : محمود اسماعيل : الأغالبة ٢٤٧ وما بعدها .

(٢٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٨٠ ،

Vonberheyden, M : La Berber:e Orientale sous la dynastie de Benou L-Arlab. p. 297.

(٢٧) ابن الأثير : الكامل ١٢٠/٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ١٢٨ Vonderheyen : op. cit. p. 297.

(٢٩) سيرة جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية . مطبعة آداب القاهرة مجلد ٤ جـ٢ ص ١١٣ .

(٣٠) Nicholson, J : An account of the establishment of the Fatimite dunasty in Africa. p. 26.

(٣١) Vonderheyden : op. cit. p. 62.

(٣٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٤٩ .

(٣٣) Nicholson, op. cit. p. 26.

(٣٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٧٧ ، أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد مجلد ٥ عدد ١ ، ٢ ص ١٩٥ .

ولعل من أهم هذه الوسائل إيهام كتامة بأنها العصبية المختارة التى قيض لها نصرة المهدى وقد ذكر المقريزى أن أبا عبد الله نزل فى مكان يقال له « فج الأخيار » وقال لأنصاره أن هذا المكان ما سمى إلا بكم ولقد جاء فى الآثار أن للمهدى هجرة ينبو فيها الأوطان ينصره فسمها الأخيار من ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من الكتمان » .

انظر الخطط ٦/٢ .

(٣٥) ابن عذارى ١ / ١٦٦ وقد ذكر المقريزى فى هذا الصدد أن أبا عبد الله « أقام على ما أقام عليه من لبس الخشن والقليل من الطعام الغليظ » اتعاظ الحنفا ٨٨ .

(٣٦) ابن حوقل : المسالك والممالك ٦٦ .

(٣٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٨٧ .

(٣٨) ابن عذارى ١٦١/١ .

(٣٩) الدباغ : معالم الايمان ١٨٥/٣ .

(٤٠) ابن عذارى ١٨٥ .

(٤١) ابن عذارى ١/٢٠٤ .
(٤٢) ابن الأثير ٨/١٧ .
(٤٣) القاضى عياض ٦٣ .
(٤٤) ابن الأثير ٨/١٧ .
(٤٥) Vonderheyden : op. cit. p. 311.
(٤٦) ابن عذارى ١/٢٠٤ .
(٤٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٨٧ .
(٤٨) ابن عذارى ١/٢٠٥ .
(٤٩) ذكر ابن الأثير أنه أمر الخطباء بالقيروان ورقادة يوم الجمعة فخطبوا ولم يذكروا أحداً ، كما أمر بأن ينقش على العملة عبارة « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » ونقش على السلاح «عدة فى سبيل الله» ووشم الخيل على أفخاذها بعبارة « الملك لله » انظر : الكامل ٨/١٧ .
(٥٠) أثر عن الشيعى قوله فى هذا الصدد « إن دولتنا دولة حجة وبيان وليست دولة قهر واستطالة » راجع النويرى : نهاية الأرب ٢٦/٢١ .
(٥١) نفس المصدر والصحيفة .
(٥٢) أبو العرب تميم ٢٠٧ .
(٥٣) بل : الفرق الاسلامية ١٦١ .
(٥٤) ابن عذارى ١/٢٠٨ .
(٥٥) المصدر نفسه ٢٠٧ .
(٥٦) سيرة جعفر ١٢٣ .
(٥٧) Vonderheyden, op. cit. p. 315.
(٥٨) ابن عذارى ١/٢١٣ .
(٥٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٩٢ .
(٦٠) البيان المغرب ١/٢١٨ .
(٦١) الجوذرى سيرة الأستاذ جوذر ١٤ .
(٦٢) المصدر نفسه ٨ .
(٦٣) ابن الأثير ٨/١٨ .
(٦٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٩٢ . وعن هذا الوضع السامى الذى حظيت به كتامه خاطب المنصور زعماءها بقوله « يا أهل دعوتنا ، يا أنصار دولتنا ، يا كتامه احمدوا الله واشكروه على ما خصكم به من نعمته ، وجسيم منته ، وفضلكم على كافة الخلق فى غرب وشرق » الجوذرى ٥٩ .
(٦٥) المصدر نفسه ٣٥ .
(٦٦) المصدر نفسه ١٣ .
(٦٧) المقدمة ١٨٣ .

(٦٨) انظر الملحق الخاص بالمجلس السابع عشر والمائة من مجالس سيدنا حاتم ابن ابراهيم الحامدى فى كتاب :

Ivanow : Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids.

(٦٩) حسن إبراهيم : عبيد الله المهدى ٢٥٦ .

(٧٠) الجوذرى ٣٤ .

(٧١) المصدر نفسه ١٥ .

(٧٢) ابن الآبار : الحلة السيراء ١٩٣/١ .

(٧٣) ص ٢٠٥ .

(٧٤) أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ١٦ .

(٧٥) الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ٦٤/١٦٣/١ .

(٧٦) انظر : الملحق الذى أورده Ivanow والخاص بالجزء الخامس عشر من كتاب شرح الأخبار ص ٣ .

(٧٧) البيان المغرب ٢٢٠/١ ، ٢١ .

(٧٨) ابن حيون : المجالس والمسايرات ٩٨/١ ، ٩٩ .

(٧٩) البيان المغرب ٢٦٠/١ .

(٨٠) ابن حيون ٣٦١/١

(٨١) المصدر نفسه ٣٧٠ .

(٨٢) المصدر نفسه ٥٣٣ .

(٨٣) الباب السابع عشر من كتاب زهرة المعانى ، انظر ملاحق كتاب Ivanow السالف الذكر ص ٦٩ .

(٨٤) كتاب الاستبصار ٢٠٥ .

(٨٥) ابن حيون ١ / ٣٧١ .

(٨٦) انظر : ابن الأثير ١٨/٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٩٢ .

(٨٧) المصدر نفسه ٩٦ .

(٨٨) حسن إبراهيم : عبيد الله المهدى ٢٦٠ .

(٨٩) ذكر الخشنى حادثة تؤكد صدق ما نذهب إليه فى ترجمته لأبى جعفر أحمد بن أحمد بن زياد وهو من شيوخ المالكية كان من ذوى الجاه وأهل النعم ثم امتحن فى آخر عمره بمغارم السلطان الحادثة على أهل الضياع فانكشف واكب عليه الغرم والاذلال وتكاملت عليه المغارم . فلجأ إلى محمد بن أحمد البغدادى متوسلا به إلى عبيد الله يسأله التخفيف بأى وجه رآه ، فأعظم البغدادى قصده وهش إلى حاجته وقال لأن هذه المغارم لم يفتح السلطان فيها باباً للتخفيف لولد من أولاده ولا لقائد من قواده .

انظر : طبقات علماء إفريقية ٢٢٢ .

(٩٠) Ivanow: op. cit. p. 123.

(٩١) Ibid. p. 111.

(٩٢) Ibid. p. 113.

(٩٣) الجوذرى ٥٦ .

(٩٤) ابن حيون ٢/٥٢٥ .

(٩٥) الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ١٦٢ .

(٩٦) Ivanow : op. cit. p. 124,

(٩٧) ذكر الخشنى على سبيل المثال — إن الشافعية تعرضوا للضرب والتعذيب ومصادرة ممتلكاتهم .

انظر : طبقات علماء إفريقية ٢٨٣ .

(٩٨) سيرة جعفر ١٢٣ .

(٩٩) انظر : الخشنى ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ .

(١٠٠) لما دب الخلاف بين المهدى وداعيته أبى عبدالله الشيعى، ندد الأخير باستحواذ المهدى على الأموال وخاطب أصحابه بقوله « ماجازاكم على ما فعلتم ، بل هو أخذ الأموال من أيكجان ولم يقسمها فيكم » المقريزى : اتعاظ الحنفا ٩٤ .

(١٠١) ابن عذارى ١/٢١٨ .

(١٠٢) سيرة جعفر ١٢٣ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ١٢٣ .

(١٠٣) من أهم الضرائب التى استحدثها المهدى الضريبة المعروفة باسم « الفطرة » وهى زكاة الفطر وكانت تدفع للامام مباشرة وقد أورد الجوذرى خطبه للمنصور يستحث فيها الرعية على المبادرة بتقديم الفطرة بقوله : « . . . . فتوبوا إلى الله فى يومكم بأداء فطرتكم التى هى زكاة صومكم وسنة نبيكم سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، كل امرىء منكم عن نفسه ، وكل واحد عن أهله ذكورهم وإناثهم وصغارهم وكبارهم ، صاعاً من بر ، وصاعاً من زبيب ، أو صاعاً من شعير من طعامكم وأهلكم لا من غيره ، فليس يقبل منكم إلا ذاك » .

انظر : سيرة الأستاذ جوذر ٥٦ .

(١٠٤) الخشنى ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(١٠٥) ابن الأثير ٨/١٨ .

(١٠٦) الجوذرى ٣٧ .

(١٠٧) المصدر نفسه ٩٩ .

(١٠٨) ابن عذارى ١/٢٤٢ .

(١٠٩) المصدر نفسه ٢٥٣ .

(١١٠) الدباغ ٢/١٩٩ .

(١١١) وفى ذلك يقول البكرى : « وفى بسكره أجناس التمور ، جنس يعرفونه بالكبا وهو الصيحانى يضرب به المثل لفضله على غيره ، وجنس يعرف بالليارى أبيض أملس ، وكان عبيد الله الشيعى يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحظير عليه وبعث ما هنالك منه إليه » .

انظر : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٥٢ .

(١١٢) يستشف هذا من قول المعز لدين الله « . . . وإنى لأذكر يوماً أنى كنت بالمهدية فى زمن المهدى فسمعت قوماً من أهل البوادى قد باعوا غلة ومتاعاً لهم فدخلوا يطلبون ثمنه وقد فض فى أيديهم مال كثير خماوا يحسبونه ويذكرون ما لزمهم فى الأذى عليه فعظموا . . . » .

انظر : ابن حيون ١/١٨٦/١٨٧ .

(١١٣) المصدر نفسه ١٨٨ .

(١١٤) ابن عذارى ١/٢٥٤ .

(١١٥) الخشنى ٣٠٩ .

(١١٦) ابن عذارى ١/٢٦٦ .

(١١٧) الدباغ ٢ / ١٩٨ .

(١١٨) ابن عذارى ١ / ٢٦٥ .

(١١٩) سيرة الأستاذ جوذر ٤٣ .

(١٢٠) ابن عذارى ١/٢٦١ .

(١٢١) ورد فى كتاب المجالس والمسايرات على لسان المعز قوله « ذكر أن أحد دعاة المهدى افتتح مدينة فلم يصب فيها كثير شيء فاغتم لذلك وأرسل إلى أهل خاصته من الجيش الذى كان معه فقال لهم . . . أى مصيبة أعظم مما نحن اليوم فيه . . . فقالوا له . . قد أصبنا غنائم كثيرة ، فنحن نضعها كلها إليك فتأمر ببيعها وتبعث بأموالها » فلما تسنى له جمع ما أمكن جمعه من أموال بعث بها إلى المهدى « فكان المهدى بالله صلع يشكر فعله ويحمد أمره وإن لم يكن ممن برع فى الدين من المؤمنين » .

انظر : ابن حيون ٢/٥١٨ وما بعدها .

(١٢٢) ابن حيون ٢/ ٤٣٨ .

(١٢٣) راجع : مقدمة رياض النفوس للدكتور حسين مؤنس ص ١٧ ، ١٨ .

(١٢٤) الدباغ ٢ / ٢٠٤ .

(١٢٥) ذكر الخشنى أن سعيد بن الحداد ناظر أبا العباس — أخ عبدالله الشيعى — « مناظرة القرن المساوى بل مناظرة المتعزز المتعالى » وأفحمه فى أدق تفاصيل مذهبه .

انظر : طبقات علماء افريقية ٢٥٨ .

(١٢٦) حين تفوق الفقيه أبو بكر القمودى على خصمه أبى العباس « جعل الشيعى يحرك له أصبعه ويقول له وانك لتظهر لأهل البيت ما أرى منك البغضاء ، متوعداً اياه بسفك دمه » .

انظر : الخشنى ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(١٢٧) الدباغ ٢/٢٠٦ .

(١٢٨) أبو العرب تميم ٢٠٧ .

(١٢٩) فى مناظرة بين سعيد بن الحداد الفقيه وأبى العباس الداعية حاول أبو العباس إثبات أحقية على بالخلافة من أبى بكر فطرح للمناقشة قضية « المعلم يكون أعلم من المستعلم » ذكر أبو العرب قول سعيد بن الحداد « وفهمت مراده وهو توكيد الطعن على أبى بكر الصديق اذ سأل علياً عن فرض الجده ، فقلت أسمع كلاماً يجب على لله فيه ألا أسكت ، فقال لى . وما ذلك ؟ فقلت المتعلم يكون أعلم من المعلم وأفقه ويكون أفضل منه أيضاً . قال : وما دليلك ؟ قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه غير فقيه » .

انظر : طبقات علماء افريقية ٢٠٧ . كما جرت مناظرة أخرى فى ذات الموضوع تندرج فى باب « الفاضل والمفضول » وردت فى المناظرة الرابعة بين ابن الحداد وأبى العباس .

(١٣٠) جرت مناظرة بين سعيد بن الحداد والجوذرى الشيعى قاضى القيروان . قال المروذى « ألستم تعلمون وترون أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم الا ليلة — فى رمضان — ثم قطع ، وان عمر بن الخطاب هو الذى استمر القيـــام ، وقد جاء فى الحديث الذى تروونه أن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ؟ ؟ فقال ابن الحداد هذه البدعة من البدع التى يرضاها الله عز وجل ويذم من تركها ، فقال : وأين تجد فى كتاب الله عز وجل ، فقال ابن الحـــداد فى قوله ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتـــغاء رضوان الله فما راعوها حق رعايتها »

الدباغ ٢/٢٠٦ .

(١٣١) فى مناظرة بين ابن الحداد وأبى العباس « قال الشيعى : من أين قلتم بالقياس فقال ابن الحداد منكـــم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحـــكم به ذو اعدل منـــكم . فالصيد معلومة عينه والجـــزاء الذى أمرنا أن نمثله بالصيد المعلوم ليس بمنصوص ، فعلمنا بذلك أن الله تعالى انما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد » .

أبو العرب ١٩٩ ، الدباغ ٢/٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(١٣٢) أبو العرب ٢١٠ ، الخشنى ٢٧٥ .

(١٣٣) قال أبو العباسي فى أحد مجالس المناظرة « أناظركم على أنى ان وجدت الحق فى مذهبـــكم رجعت اليه وان وجدتم الحق فى مذهبى رجعتم اليه » أبو العرب ٢٠٢ .

(١٣٤) الدباغ ٣ /١١٣ .

(١٣٥) أبو العرب ٢٠١ .

(١٣٦) المصدر نفسه ٢١٠ .

(١٣٧) أظهر أبو العباس عنتاً فى أحد مجالس المناظرة فقال له الفقهاء « انك لم تـــكره أحداً خالفك فى مذهبك على الدخول فيه ، فاسلك بنا مسلك غيرنا » .

أبو العرب ٢٠٧ .

(١٣٨) الدباغ ٣ / ١١٣ ويحكي الدباغ عن الفقية أبو محمد بن التبان أنه رفض التشريق وخاطب أبو عبد الله الشيعي بقوله « شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا ، لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك » .

الدباغ ٣ / ١١٥ .

(١٣٩) الدباغ ٤ /١١٥ .

(١٤٠) الخشني ٢٨٣ .

(١٤١) المصدر نفسه ٢٩١ / ٢٩٢ .

(١٤٢) المصدر نفسه ٢٨٣ / ٢٩١ .

(١٤٣) المصدر نفسه ٢٨٤ .

(١٤٤) المصدر نفسة ٢٩٤ .

(١٤٥) ابن عذارى ١ /٢٤١ .

(١٤٦) ومن أشهرهم قاسم بن خلاد الواسطي الذي وعد بقضاء باجه ، وجعفر بن أحمد الذي تولى مظالم القيروان ثم قضاء القيروان ، واسحق بن أبي المنهال الذي اختير قاضياً على صقلية ثم القيروان ، وأحمد بن محمد بن شهرين الذي تولى قضاء برقة ، وأبو محمد بن شهرام الذي تولى الكتابة في القيروان للقاضي المروذي ، وزراره بن أحمد الذي تولى قضاء المهدية .

انظر : الخشني ٢٩٢ — ٢٩٥ .

(١٤٧) الخشني ٣٠١ .

(١٤٨) المصدر نفسه ٣٠٠ ، ٣٠١ ه

(١٤٩) بل ص ١٦٣ .

(١٥٠) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ١٧ .

(١٥١) الدباغ ٢/ ٢٩ .

(١٥٢) الخشني ٢٩٩ .

(١٥٣) الدباغ ٣/٣ . (١٥٤) ابن عذارى ١/ ٦١ ، الدباغ ٢/ ٢٤٤ .

(١٥٥) الدباغ ٢/ ٢٠٥ . (١٥٦) ابن عذارى ١/ ٢٦٥ .

(١٥٧) الدباغ ٢/ ١٩٧ ، ١٩٨ . (١٥٨) الخشني ٣٠١ .

(١٥٩) نفسه ٢٩٨ . (١٦٠) ابن عذارى ١/ ٣٥٩ .

(١٦١) الخشني ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(١٦٢) الخشني ٢٨٢ . (١٦٣) نفس المصدر والصحيفة .

(١٦٤) الدباغ٣/ ٧ . (١٦٥) الخشني ٣٠١ ، الدباغ ٢/ ١٩٨ .

(١٦٦) الدباغ ٢/ ١٩٨ . (١٦٧) نفسه ١٩٩ .

(١٦٨) نفسه ١٩٨ . (١٦٩) الخشني ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(١٧٠) معالم الايمان ٢/ ٢٠٠ .

(١٧١) سعيد بن مقديش : نزهة الأنظار ١٢٥ .

(١٧٢) الدباغ ٣/٣٤ . (١٧٣) نفس المصدر والصحيفة .
(١٧٤) الدباغ ٣/٣٦ . (١٧٥) نفسه ٤٧ .
(١٧٦) ابن عذارى ١/٣٠٨ . (١٧٧) الدباغ ٣/٣٤ .
(١٧٨) قال ربيع القطان فى هذا الصدد : أنا أول من يشرع فى هذا الأمر ويخرج فيه ويندب المسلمين ويحض عليه » الدباغ ٣/٣٨ .
(١٧٩) نفس المصدر والصحيفة . (١٨٠) نفس المصدر والصحيفة .
(١٨١) حمل الثوار بنوداً سبعة الأول أصفر لربيع القطان مكتوب عليه البسملة ومعها لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والثانى أصفر أيضاً وهو لربيع كذلك ومكتوب عليه نصر من الله وفتح قريب على يد أبى يزيد اللهم انصره على من سب نبيك ، والثالث أصفر كذلك وهو لربيع أيضاً ومكتوب عليه بعد البسملة قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون، والرابع بند أحمر لأبى الفضل الممسى مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والخامس أخضر لمروان العابد مكتوب عليه بعد البسملة قاتلوهم ليعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين ، والسادس أبيض مكتوب عليه بعد البسملة — لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق وعمر الفاروق ، والسابع أبيض لإبراهيم بن العشار وهو أكبر البنود مكتوب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه ان الله معنا » . الدباغ ٣ / ٣٩ .

(١٨٢) خطب الفقيه أبو الفضل الممسى فقال « يأيها الناس جاهدوا من كفر بالله وزعم أنه رب من دون الله وغير أحكام الله عز وجل وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه . . . اللهم ان هذا القرمطى الكافر الصنعانى المعروف بأبى عبيد الله المدعى النبوة من دون الله جاحد لنعمتك كافر بربوبيتك طاعن على أنبيائك ورسلك مكذب لمحمد نبيك وخيرتك من خلقك ، ساب لأصحاب نبيك وأزواج نبيك أمهات المؤمنين ، سافك لدماء أمته منتهك لمحارم أهل ملته ، افتراء عليك واعتزازاً بملكك ، اللهم فالعنه لعناً وبيلا واخزه خزياً طويلا ، واغضب عليه بكرة وأصيلا ، وأصله جهنم وساءت مصيرا ، بعد أن تجعله فى دنياه عبرة للسائلين ، وأحاديث للعابثين ، واهلك اللهم متبعه وشتت كلمته ، وفرق جماعته ، واكسر شوكته ، واشف صدور قوم مؤمنين منه . . . » .
الدباغ ٣ / ٤٠ .
(١٨٣) نفس المصدر والصحيفة .
(١٨٤) سعيد بن مقديش ١٢٦ ، ابن عذارى ١/٣٠٩ .
(١٨٥) نفس المصدر والصحيفة . الدباغ ٣/٤١ .
(١٧٦) سعيد بن مقديش ١٢٧ .
(١٨٧) نفس المصدر والصحيفة ، الدباغ ٣/٤١ .
(١٨٨) المقدمة ٥٤٢ .
(١٨٩) المقدمة ١٥٩ .

المصـــادر

١ — ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد (٦٥٨ هـ) : الحلة السيراء حـ ١ تحقيق مؤنس القاهرة ١٩٦٣ .

٢ — ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبد الكريم (٦٣٠ هـ) : الكامل حـ٨ القاهرة ١٢٩٠ هـ .

٣ — ابن حماد ، محمد بن على (٦٢٨ هـ) : اختيار ملوك بنى عبيد وسيرتهم الجزائر ١٣٤٦ هـ .

٤ — ابن حوقل ، أبو القاسم بن حوقل (القرن الرابع الهجرى) المسالك والممالك ليدن ١٨٧٢م .

٥ — ابن حيون ، القاضى أبو حنيفة النعمان (٣٦٣ هـ) : المجالس والمسايرات حـ١ ، ٢ مخطوط بجامعة القاهرة .

٦ — ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد (٨٠٨ هـ) المقدمة ، طبعة المكتبة التجارية .

٧ — ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر حـ ٦ بولاق ١٢٨٤ هـ .

٨ — ابن عذارى ، أبو عبدالله محمد (نهاية القرن السابع الهجرى) : البيان المغرب فى أخبار المغرب حـ١ بيروت سنة ١٩٤٧ .

٩ — ابن فرحون ، ابراهيم بن على (٧٩٩ هـ) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب القاهرة ١٣٥١ هـ .

١٠ ــ أحمد مختار العابدى (دكتور) : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ــ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ٥ عدد ١، ٢ .

١١ ــ أبو العرب تميم ، محمد بن أحمد بن تميم (٣٣٣هـ) طبقات علماء أفريقية الجزاير ١٩١٤ .

١٢ ــ البكرى ، عبد الله بن عبد العزيز (٤٦٠هـ) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب الجزائر سنة ١٨٥٧م .

١٣ ــ بل ، الفرد : الفرق الإسلامية فى الشمال الأفريقى ترجمة عبد الرحمن بدوى بنغازى سنة ١٩٦٩م .

١٤ ــ الجوذرى : أبو على منصور العزيزى : سيرة الأستاذ جوذر تحقيق محمد كامل حسن وزميله ، القاهرة ١٩٥٤ .

١٥ ــ حسن ابراهيم حسن (دكتور) تاريخ الدولة الفاطمية .

١٦ ــ « « ، أحمد شرف (دكتور) عبيد الله المهدى القاهرة ١٩٤٧م

١٧ ــ الخشنى ، محمد بن حارث (٣٦١ هـ) طبقات علماء أفريقية القاهرة ١٣٧٢هـ .

١٨ ــ الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٦٩٦هـ) معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان حـ١ ، ٢ ، تونس ١٣٧٠ هـ .

١٩ ــ سعيد بن مقديش: نزهة الأنظار.

٢٠ ــ القاضى عياض، عياض بن موسى اليحصبى(٥٤٤هـ) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك قسم(١) حـ(٢) مخطوط بدار الكتب.

٢١ ــ المالكى ، عبد الله بن أبى عبد الله (القرن الرابع الهجرى) رياض النفوس فى طبقات علماء أفريقية حـ١ تحقيق مؤنس القاهرة ١٩٥١م .

٢٢ ــ مجهول ، كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار تحقيق سعد زغلول الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢٣ ـ محمد بن محد اليماني . سيرة جعفر بن علي وخروج المهدى من سلمية ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة .

٢٤ ـ محمود اسماعيل (دكتور) الأغالبة القاهرة ١٩٧٢ .

٢٥ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥ ه) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا تحقيق الشيال : القاهرة ١٩٤٨ .

٢٦ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على : الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار حـ٢ القاهرة ١٣٢٤ه .

٢٧ ـ النويرى : شهاب الدين أحمد : (٧٣٣ ه) نهاية الأرب فى فنون الأدب حـ٢٦ مخطوط بدار الكتب .

٢٨ — Biquet; F: Hestoire de L'Afrique septentrionale sous la domination Musulmane. Paris.

٢٩ — Brunschvig, R: La Tunisie dans le haut moyen age. Le Caire 1948.

٣٠ — Ivanow : Ismaili tradition concerhing the rise of the Fatimids, London, 1942.

وملاحقه :

(أ) منتخب من الجزء الخامس عشر من كتاب شرح الأخبار .

(ب) للباب السابع عشر من كتاب زهرة المعانى .

(جـ) من المجلس السابع عشر والمائة من مجالس سيدنا حاتم بن ابراهيم الحامدى.

٣١ — Nicholsom ; J : An account of the establishment of the Fatimite dynasty in Afrcica Tabingen, 1948.

٣٢ — Vonderheyden, M; La Barberie orientale sous la dynastie de Benou'L—Arlab, Paris, 1927.



خزائن السلاح ومحتوياتها

على عصر الأيوبيين والمماليك

دكتور نبيل محمد عبد العزيز

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة أسيوط

بسم الله الرحمن الرحيم

المعروف عن الدولة الأيوبية أنها عندما حلت محل الدولة الفاطمية فى الديار المصرية خالفتها فى كثير من النظم والتقاليد والمراسيم ، وغيرت غالب معالمها ومسمياتها ، (وجرت على ماكانت عليه الدولة الأتابيكية عماد الدين زنكى بالموصل ، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام وما معه)(1) .

فلما قامت الدولة المملوكية وجدت كثيرا من النظم وقد استقرت دعائمها، وتحددت معالمها . ودأبت سلطنة المماليك فى مصر على أن تنقل عن كل مملكة سبقتها أحسن مافيها (فسلكت سبيله ، ونسجت على منواله ، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب ، وفاقت سائر الممالك ، وفخر ملكها على سائر الممالك)(2) .

ومن مرافق الدولة الأساسية فى العصر الفاطمى ماعرف باسم « خزائن

السلاح »[٣] وقد أبقى الأيوبيون ثم المماليك على هذا المرفق ، وإن كانوا قد أطلقوا عليه اسم « السلاح خاناه » أو « الزرد خاناه » .

والمعروف أن «خاناه » لفظة فارسية تعنى البيت ، فيكون المعنى « بيت السلاح » أو « بيت الزرد »[٤] ؛ لما فيها من أنواع الزرد[٥] ، وأن ذلك البيت، كان من ضمن الحواصل المعبر عنها بالبيوت الشريفة التى كانت بقلعة الجبل[٦] . هذا بالإضافة إلى ما كان بالثغور والقلاع المصرية وغيرها من قاعات وقصور وزرد خانات[٧] ، فضلا عما كان يمتلكه كبار الأمراء من زرد خانات[٨] ، إذ كان (كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر فى غالب أحواله ، ولكل منهم بيوت كبيوت خدمة السلطان)[٩] .

والمعروف أن السلاح خاناه كانت تشتمل على أنواع عديدة من الأسلحة والجنن وغيرها ، فمن آلة السلاح : السيوف بأنواعها وأجناسها ، والرماح ، وقسى اليد والرجل[١٠] ، والنشاب [١١] ، والمزاريق[١٢] ، والسكاكين ، والنمجاوات[١٣] ، والجروخ[١٤] ، والعمد واللتت ، والدبابيس[١٥] ، والأطبار[١٦] ، والبلط[١٧] ، والمقاليع ، وغير ذلك من آلة السلاح .

ومن الجنن : البيض (الخوذ) ، والتراس بأنواعها ، والجواشن وسائر اللبوس الحربية ، والنفوط ، والبارود[١٨] ، وغير ذلك مما تمارس به الحصون ، فضلا عن العصى[١٩] ، وعصى الجوكان[٢٠] ، والكرابيج ، والأكر ، والقبة والطير — وهما من شعار الملك — وكلها أمور كانت تسجل بمسمياتها ونعوتها وأوصافها فى كتاب خزائن السلاح[٢١] .

اهتمام الحكام بالسلاح خانات

(ا) تكثير السلاح وتجديده :

اهتم السلاطين فى ذلك العصر بالإكثار من السلاح فى خزائنهم ، وأن يتفقدوه بين الحين والآخر[٢٢] .

فالملك الظاهر بيبرس – مثلا – حرص على (تجديد السلاح فى كل قليل)(٢٣) .

وعرف عن السلطان برقوق أنه فى سنة (٧٨٤ ﻫ / ١٣٨٢ م) (جدد خزائن السلاح بثغر الاسكندرية)(٢٤) .

أما السلطان الغورى فما لبث سنة (٩١٤ ﻫ / ١٥٠٨) أن (تمشى ودخل إلى الزردخاناه ، وعرض الأسلحة التى كانت فى الزردخاناه من قديم الزمان، فرأى أشياء كثيرة منها تلفت من الصدأ،فطلب عبد الباسط ناظر الزردخاناه ووبخه بالكلام ، ثم قصد شنقه فى ذلك اليوم على باب الزردخاناه(٢٥) ، فألزم باصلاح مافسد من الأسلحة،واستمر فى الترسيم بعد ذلك مدة طويلة وهو فى الحديد)(٢٦) .

وكذلك حكى عن السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢ : ٩٠١ﻫ / ١٤٦٧ : ١٤٩٥ م) أنه وقف وقفاً على قاعة السلاح بثغر دمياط ، وأنه خصص لها زردكاشا) يتعاطى صقال الأسلحة التى بقاعة السلاح المذكورة ، وتنظيفها، وإصلاحها ، وما فيه صلاحها لما أعدت له من الفلوس)(٢٧) ، كما خصص لها بوابا (يتعاطى فتحها عند الاحتياج إلى ذلك ، وغلقها عند الاستغناء عنها ، وإحراز ما بها من الأسلحة ، وحفظها وجعلها فى الأماكن التى يخشى عليها من الفساد والتصدى،وغير ذلك مما جرت عادة البوابين بقاعات السلاح بعمله فى مثل ذلك)(٢٨) .

هذا فضلا عما عرف عن سلاطين ذلك العصر من اهتمام بالثغور والقلاع ، وهو الاهتمام الذى لم يقف عند حد تزويدها بالمقاتلين الشجعان فحسب، وإنما امتد إلى الإكثار لهم (من الدروع والخوذ ، والرماح ، والسيوف ، والدرق ، والتراس ، وجميع آلات الحرب)(٢٩) .

واضمان حفظ نواب ونقباء القلاع اقلاعهم ، كان مما يزاد فى تحليفهم (وأنى أجمع رجال هذه القلعة - ويسمى القلعة التى هو فيها - على طاعة مولانا السلطان فلان ، وخدمته فى حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها ....، وأنى أحفظ حواصلها وذخائرها ، وسلاح خاناتها ، وعلى اختلاف أنواع مافيها من الأقوات والأسلحة ، وأنى لا أخرج شيئاً منها إلا فى أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعين فيها تفريق الأقوات والسلاح على قدر ماتدعو الحاجة إليه)[٣٠] .

(ب) موارد الصرف على السلاح خانات :

المعروف أن ديوان الجيش فى عصرى الأيوبيين والمماليك كان الأداة الأساسية التى تقوم بتوزيع الإقطاعات ، وتتولى الصرف العام على الأسلحة والمؤن والجيش والتعبئة والحصون والقلاع ، حسب النظام السائد[٣١] .

هذا إلى جانب ما خصص من ضرائب مستقرة لخزائن السلاح ومستخدميها ، فقد كان لخزائن السلاح (ضرائب مستقرة فى أجرة الصناع وغيرها)[٣٢] .

ومن تلك الضرائب ماعرف باسم الأحكار[٣٣] ، وهى عبارة عن (أجرة مقررة على مساحات بمصر والقاهرة ، فمنها ما صار دورا للسكنى ، ومنها ما أنشىء بساتين ، وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية)[٣٤] .

من تلك الأحكار ما عرف « بحكر خزائن السلاح » أو « حكر الأوصية » (وهو فيما بين الدكة وقنطرة الموسكى . وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزاين السلاح ، هو وعدة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب وأراضيها . فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وستمائة)[٣٥] .

كذلك نسمع فى حوادث سنة (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) أن أرض الأزبكية كانت وقفا على خزائن السلاح[٣٦].

ومن تلك الأحكار أيضا وقف السلطان قايتباى على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط — السابق الاشارة إليها.

والملاحظ أن قايتباى قد وظف لهذه القاعة زردكاشا، وجعل له مرتبا قدره خمسمائة درهما فى الشهر، كما خصص لها بوابا ساهرا يتعاطى فتحها وغلقها عند الحاجة إلى ذلك وجعل له مرتبا شهريا قدره ثلاثمائة درهم[٣٧].

أما موارد الصرف على زردخانات الأمراء وابتهالهم وأجنادهم بالسلاح، فالمعروف أن الأمراء أصحاب الاقطاعات كانوا مكلفين بالانفاق على أطلابهم الحربية وتسليحها والحاق الزردخانات — الأسلحة بها يستوون فى ذلك مع السلطان.

هذا بالإضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من نفقات الجهاد، وما كان ينعم به السلاطين على أمرائهم من مال وسلاح بغرض التقوية[٣٨]، فضلا عن هدايا السلاح التى كانوا يحصلون عليها من السلطان فى بعض المناسبات الطيبة، وما كان يخص كل واحد منهم - حسب منزلته ورتبته - من السلاح الذى غنموه من أعدائهم[٣٩].

وإذا عرفنا أن الاقطاع الحربى فى مصر المملوكية كان مصدرا سنويا لدخل كل أمير بما يعادل رتبته الحربية، أدركنا فى النهاية حقيقة أن تفاوت الأمراء فى القوة والثراء، كان يبدو فى تعداد أجناد كل واحد منهم، بل وفى تسليحهم التسليح الكافى أو المناسب[٤٠].

ومن جهة ثانية يوضح لنا «الصيرفى» — فى معرض حديثة عن أولاد الناس[٤١]، وما لحق بهم من فقر نتيجة تخفيض رواتبهم ونفقاتهم تحت

ما اعتور البلاد من أزمات اقتصادية فى العصر المملوكى الثانى — حقيقة هامة ، وهى أن الابتهال بأنواع معينة من السلاح ، كان يتوقف على مقدار الجامكية السلطانية ، إذ يقول أن السلطان قايتباى ما لبث سنة (٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) أن عرض (أولاد الناس الذين باسمهم الجامكية . فأما أصحاب الألفين فرسم أن يكونوا على أهبة من السلاح واللبس الكامل ، كالخوذة والقرقل ، والرمح ، والسيف ، والتركاش ، والنشاب . وأما الذين جامكيتهم ألف درهم فى كل شهر أو ما دونها ، فرسم أن يكونوا مخنوصين ومتأهبين بالقوس ، والنشاب ، والسيف وغير ذلك ، وأن يدمنوا فى لعب رمى النشاب ، مع أن أولاد الناس ما تعرض لهم أحد من الملوك السالفة ، ولو عرضوهم يهملون أمرهم . وليت شعرى من جامكيته خمسمائة أو ثلاثمائة وعنده عيال وهو فقير ، من أين يفضل له ثمن سيف ، أو رمح ، أو تركاش ؟ ! ، وهؤلاء كان الملوك السالفة جعلوهم ، وأمثالهم هبة الصدقة عن بيت المال)[٤٢] .

أما المماليك السلطانية — وهم أرفع الأجناد قدراً وأكثرهم قربا لدى السلطان وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم يتعين الأمراء على اختلاف مراتبهم — ، فهم (فى العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة)[٤٣] .

اهتمام السلاطين بتوفير الموظفين والقائمين على خدمة السلاح خاناه ، واختصاص كل أحد منهم

أدى اهتمام السلاطين بدور السلاح أو السلاح خاناه إلى الحرص على توفير عدد كبير من الموظفين الأكفاء المتعددى الاختصاصات لخدمة تلك الدور والنهوض بمسئولياتها .

ونستطيع أن نقسم هؤلاء الموظفين إلى قسمين كبيرين : يشمل القسم الأول الموظفين أصحاب التواقيع ، ويشمل القسم الثانى الموظفين من أرباب السيوف .

أولا ــ الموظفون أصحاب التواقيع :

تعددت وظائف هذا الفريق من الموظفين ، ونستطيع أن نشير الى أهمهم فيما يلى :

(ا) موظفو النظر فى خزائن السلاح :

وموضوعها فى الديار المصرية ودمشق : التحدث على مايستعمل ويبتاع من أنواع السلاح الذى يحمل للسلاح خاناه السلطانية .

وعادة الناظر فيها أن يجمع مايتحصل عليه من السلاح المعمول فى كل سنة [٤٤] ، ويجهزه ليزفه دفعة واحدة ـ وقد حمل على رؤوس الحمالين ـ فى يوم معين الى قلعة الجبل ، فاذا تم ذلك خلــع عليه وعلى رفقته من المباشرين[٤٥] .

أما توقيع من تولى هـذه الوظيفة السنية ، فـلا يـكون إلا من السلطان[٤٦] .

ويـكتب فى توقيعه : (توقيـع شريف بأن يستقر المجلس السامى القضائى الفلانى ـ أدام الله رفعته ـ فى خزائن السلاح المنصورة ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته)[٤٧] ثم يذكر (فى نفس التوقيع بمسئوليته ، فيذكر مثلا بأن بيده تدابير خواص السلطان الشريفة وجيوشه المؤيدة ، وأن عليه أن يـكشف عما (بهذه الخزائن من عدة الحرب ، والآلات المعدة فى الهيجاء للطعن والضرب ، ويشمر فى تـكثيرها عن ساعد اجتهاده . . . ، وليحفظ ماينفق على هذا العدد من الضياع ، ويأت بمـا تأتى به الضياع على أحسن الوجوه وأجمل الأوضاع ، وليضبط مايصرف عليهـا من

الأموال ، ويعتمد فى نظرها ماتحمد عاقبة أمره فى سائر الأحوال ... ، ويسترشد بمراشده فى أموره باليمن والرشد ... ، ويسلك بحسن نظره لهذه الخزائن ماينتظر به أن يفوق أنظار الأنظار ويرتقب . ويعلم أن هذا أول اقبالنا عليه . . . والعلامة الشريفة أعلاه حجة بمقتضاه)[٤٨] .

(ب) شاد السلاح خاناه : « ورتبته أميرعشرة »[٤٩] . وشرط تعيينه أن يكون أميناً ناهضاً ، صاحب فكر رشيد ورأى سديد ، خبيراً بأنواع السلاح واستعمالاته . وعليه - كما جاء فى توقيع وظيفته - أن يباشر (هذه الوظيفة المباركة بعزم أقطع من حسام ، وأمانة أقوم من ألف ، وصيانة أحصن من لام . معتبراً لأحوالها ، مقرراً لمطالب مآلها من مالها ، موفراً من أسلحتها التى تتوفر بها من الخير سهامه ، منصفاً لصناعها الذين يحمد عند استعمالهم صنيعه واهتمامه ، مكثراً لخزائنها من ذخائر العدد ، مجهزاً لجيش الإسلام من مادة عملها بأنفع مدد)[٥٠] .

(ت) مشارفة خزائن السلاح : وصاحبها صاحب قلم يستخدمه فى تدبير الجيوش وتثمير السلاح وضبطه ، فهو مطالب - بصفة عامة - (بتحقيق الحواصل ، وله الختم عليها)[٥١].

ومما جاء فى نسخة توقيع وظيفته : (رسم بالأمر العالى . . . ، حملا على حكم النزول الشرعى والطلوع المرعى ، وعلماً بكفايته التى بلغته آمالاً . . . ، وصيانته . . . ، فليباشر هذه الوظيفة المباركة بعزم النجا والنجاح ، ومعمولها ضابطاً لواصلها ومحمولها . . . ، والله تعالى يسدد قلمه فى وظيفته)[٥٢] .

ثانياً - أرباب الوظائف من أرباب السيوف :

(ا) أمرة سلاح :

وموضوعها - فيما يختص بالسلاح خاناه - أن صاحبها يتحدث فى السلاح

خاناه ومتعلقاتها ، ومايستعمل لها ، ، ويقدم إليها ، ويطلق منها . ولا يكون متوليها إلا واحداً من أمراء المئين[٥٣] .

(ب) أمرة جاندار : وموضوعها ـ فيمايختص بالسلاح خاناه ـ أن صاحبها المتسلم للسلاح خاناه . وجرت العادة أن يكون فيها أميران : أولهما مقدم على الثاني ، ورتبته مقدم ألف . والثاني أمير طبلخاناه[٥٤] . أضف إلى أولئك أنه كان بالسلاح خاناه عدة مستكثرة من صناع كل صنف من السلاح مقيمين يعملون لايبطلون في إصلاح وتجديد المستعمل من السلاح ، ويعرف الواحد منهم بالزردكاش[٥٥] .

وتوضح لنا الدراسة أن كبيرهم كان يعرف «بالزردكاش كبير» ، وانه كان من أرباب الوظائف أمراء الطبلخانات[٥٦] ، وأن رتبته تصل إلى امرة عشرة[٥٧] ومن حقه عرض خزائن السلاح إذا لزم الأمر ، وله تفرقة السلاح على المماليك السلطانية .

كما يلاحظ أن بعض السلاطين قدعهدوا اليه بمهمة الخروج بالزردخاناه الحربية[٥٨] .

وإلى جانب الزردكاشية ، وجدت فئة أخرى من المستوفين والمباشرين ، (يستدعون مايحتاج اليه من خشب ، وحديد ، وعقب ، وسلوخ ، وأصباغ وآلات . يعملون فيها مايؤمرون به من آلات السلاح على اختلاف أوصافها وتباين أصنافها)[٥٩] .

يضاف إلى ذلك ، أن المستوفى كان عليه ـ من ضمن ما كان عليه ـ نظم جوامع السلاح خاناه والعدد والآلات[٦٠] .

أما المباشر ، فعليه في السلاح خاناه كذلك (حفظ مايدخل اليها ، وضبط ما يخرج منها مما يتسلمه السلاح دارية ، والزردكشية ، والحراب دارية ، والرمح دارية من أنواع السلاح وأصنافه إذا ركب السلطان أو جلس في المجلس العام ، واستعادته منهم ، واعادته لهم ، والاعتداد لهم بما أنعم به

السلطان وذهبه مما كان بأيديهم، ويوصل ما يصل إلى السلاح خاناه من خزائن السلاح وغيرها، ومايصل إليه من سيوف الأمراء الذين يرسم باعتقالهم، وما يحمل إليه من سلاح من توفى من الأمراء على جارى العادة — ويميز ذلك من غيره — وعليه أن ينبه أمير سلاح على ماعنده من العدد التى يخشى عليها التلف بتطاول المدة، ليأمر بكشفها واصلاحها: من مسح ودهان، وصقل، وجلاء، وشحذ، وتثقيف وغير ذلك)(٦١).

كما يضاف إلى أولئك النفر ما كان بالسلاح خاناه من غلمان وفراشين (بسبب خدمة القماش وافتقاده)(٦٢).

ومن ناحية أخرى، تشير المصادر التاريخية إلى أن الزردخاناه كانت من أرفع الاعتقالات المؤقتة قدرا، فلا يعتقل بها إلا كبار الأمراء، أو الأسرى، وأن من اعتقل بها لاتطول مدة بقاءه فيها، (بل إما يعجل بتخلية سبيله، أو اتلاف نفسه)(٦٣). بأمر من السلطان على يد الجاندار (٦٤).

بعض آلات السلاح التى حوتها الخزائن
وما قيل فيها من الأسماء والنعوت والأوصاف(٦٥)

(ا) السيف:

أبتر : السيف القصير(٦٦).

أبريق : الشديد البريق

أبيض .

أذوذ : القاطع

أصليت : الصقيل، وقيل: إنه الذى لايعاق به دم الضريبة

أغاف : إذا كان بغمده(٦٧)

أنيث : المصنوع من حديد أنثي(٦٨)

باتر : القاطع

بارقة : السيوف التى تبرق

بتّـار : القاطع

بُصروى : ما عمل وطبع حديده بالبصرة

بغدادية : نسبة إلى بغداد

بهانج : سيوف عراض ، عرض الواحد منها أربع أصابع أو أكثر.

بوادر : القواتل

تثلم السيف: برى وصدىء .

جُراز : القاطع

جَـمّـاد : مثله

جنى : المصنوع من أجود الحديد

حُدّاد : من الحديد

حِداد : من الحداد

خذيم : القاطع

خراسانى : نسبة إلى خراسان . والمعروف أن الخرسانية : سيوف جلب حديدها من سرنديب وطبعت ببلاد فارس .

حُسام : القاطع (مأخوذ من الحسم)

خشيب : الصقيل ، وقيل : بل هو الذى لم يصقل .

خشيف : الماضى

خـَضمة : القواطع

دَدان : لا يقطـع

دمشقى : ما عمل وطبع بدمشق

دمشقى .

ذَالق : السلس الخروج من غمده

ذَرب : المحدد .

ذكر : ذوماء .

ذلوق : السلس الخروج من غمده .

ذو ذكرة : الصارم .

ذو الفقار : عرف بذلك لما فيه من فقارات — حزوز — وهو من السيوف التى غنمها رسول الله يوم بدر ، وكان لمنبه بن الحجاج .

ذوالكريهة : الماضى فى الضريبة .

ذو النون : سيف مالك بن زهير .

رثوث : سيوف عرضها أربع أصابع فما أقل .

رِداء .

رسوب : الذى يغيب فى الضريبة

رقراق : الكثير الماء

سُجير .

سُراط .

سُراطى .

سَقّاط : الذى يسقط من وراء الضريبة .

سرنديى : ما عمل وطبع حديده بسرنديب .

سَريجى : نسبة إلى قين سريج العربية .

سليمانى : سيف ليس بعتيق ولا محدث .

سيف فولاذ : الذى طبع حديده من حديد ذكر .

شلحاء .

صارم : القاطع

الصفار : سيوف دقاق الفرند .

صفيحة : العريض الصفيح .

صقيل : المشحوز .

صمصام : الذى لاينثنى ويكون له حد واحد ، وجانبه الآخر جاف .

صمصامة : سيف عمرو بن معدى يكرب ، الفارس العربى المغوار .

صنيع : المجرب المجلو .

طَبِع : الصدىء .

عجوز .

عراض .

عضب : القاطع ، وهو سيف أعطاه سعد بن عبادة لرسول الله محمداً .

عطاف :(ج عطف)

عقيقة : الصقيل .

فسفاس : الكليل .

فَطّار : المشقق .

فَلّ : المكسر .

فلوع : القاطع .

قاضب : مثله .

قاطع .

قرضابٌ : قاطع العظام .

قُرضوب : نحوه
قـــرن .
قَسّاس : نسبة إلى المعدن المصنوع منه ، والموجود بأرض أرمينية .
قشيب : الحديث عهد بالجلاء
قَصّال : القاطع .
قضيب : مثله (ج : قضب) .
قضـــيم : الذى تكسر حده من طول ما مر به من الزمن .
قلاجورى : (ج : قلاجورية) سيف فرنجى لين ، ومن أصنافه : الألمانية والبردلية . والكبردية .
قلعى : نسبة إلى قلعة كانت ببادية الشام .
كليـــل : الذى لا حد له ، وقيل : انه الذى كَلّ حده .
كوفية : نسبة إلى الكوفة ، وتعرف أيضاً بزيدية ، نسبة إلى زيد ، وقيل : إنه أول من طبعها .
كهام : الكليل .
لحيف : من أسياف رسول الله محمداً .
لجّ .
لهذم : الحاد
مأثور : الذى به أثر .
مُجَذّر .
مَحتفد : السريع القطع .
مِخذم : القاطع .
مخصّل .
مُخضّل : المصلت من غمده .
مخفق : العريض

مُذَجَّل : المطلى بالذهب .
مُذكَّر : مثل ذكر .
مرهف : المحدد الرقيق .
مشرفى : نسبة إلى المشارف ، وهى من قرى ريف العراق .
مُشَطَّب : الذى به حزوز
مشمل : الذى يستطيع صاحبه أن يحمله تحت ثيابه .
مصرى : ما عمل وطبع حديده بمصر .
مصلت : المسلول من غمده .
مُصَمِّم : الماضى فى قطع العظام .
مطبِّق : الذى يصيب الفواصل أو يقطعها .
معضاد : الممتهن فى قطع الشجر ونحوه .
مِعضد : نحوه .
مَعلوب : سيف الحارث بن ظالم .
مفـــول : سيف رقيق .
مفقر : الذى به فقارات — حزوز — .
مقلـــع : القاطع .
مُقصِّل : نحوه
مُقطِّع : السريع القطع .
مُنصِّل .
منصورية : ما حمل حديدها من سرنديب وطبع بخراسان .
مهـــذَّم : القاطع .
مهنَّد : الذى طبع بالهند .
مِهـــوَ : سيف رقيق

موصول : عرف بذلك لما وصل به قائمه .
نصـــل .
نهيك : القاطع
نواحل : السيوف التى رقت ظباتها — حدودها — .
نون : اسم سيف بعض العرب .
هُـــذام : القاطع
هزهاز : الكثير الاهتزاز
هندوانى : نسبة إلى الهند
هنـــدى : نحوه
وقيـــع : المشحوذ بالحجر
يمـانى : نسبة إلى اليمن .
وشاح(٦٩) .

(ب) الرمح : (وهو آلة الطعن) :

الرماح على ضربين ، أحدهما : متخذ من القنا ، وهو عبارة عن قصب مسدود من الداخل .

والثانى : ما يتخذ من الخشب ونحوه ، ويسمى الذابل .

هذا ومن أسماء الرماح ونعوتها وأوصافها ما يلى :

أزنى : نسبة إلى ذى يزن — أحد ملوك اليمن — .
أسمـــر(٧٠) : سمى بذلك لأن لون القنا السمرة ، وهو عبارة عن رمح دقيق .
أقصاد : الرمح المكسر .
ألّة : وهى أصغر من الحربة ، وفى سنانها عرض ، (ج : إلال) .
أم اللواء .
ثلب : هو المثلم .

حادر : الغليظ
حربة : أصغر من الرمح ، وتمتاز بعرض سنانها ، ويرمى بها عن اليد .
خال : أى لواء الجيش .
خرص : رمح قصير يتخذ من خشب منحوت (ج : خرصان)
خطّار : ذو اهتزاز .
خطل : الرمح المضطرب ، وقيل : هو الشديد الاضطراب .
خطىّ : اختلفت الروايات فى نسبة تلك الرماح ، فمنها ما ينسبها إلى موضع باليمامة ، ومنها ما ينسبها إلى بلد بالبحرين وكانت تجلب إليها من الهند ، ومنها تنقل إلى بلاد العرب . ومنها ما ينسبها إلى منطقة من أرض فارس كانت تنبت فيها ، وتعرف « بالخط » .

خوّار : الخفيف من الرماح .
راش : أى خوار .
رُدَينىّ : نسبة إلى امرأة تعرف « بردينة » ، كانت تعملها ، وقيل : بل كانت تباع عندها .

رَعّاش : الشديد الاضطراب .
رمح خدب : أى واسع الجرح .
رواعف .
زاعبية : نسبة إلى رجل ، وقيل : بل بلد .
زاعبى : الذى إذا هز تدافع كله .
سمهرية : القنا الصلبة
شراعى : الرمح الطويل
شطاط : القناة المعتدلة

الصبريات : رماح طولها خمسة أذرع وأسنتها عراض .
صُدق : الصلب من الرماح .
صعدة : (ج : صعاد) القنا المستوية من أصل نبتها ، ومن ثم لا تحتاج إلى تثقيف ، وهى نحو الآلة .
صُتّمع : الصلبة اللطيفة .
ضب : اعوجاج فى الرمح
ضلع : الرمح المعوج
ضليع : الرمح المائل
الضوارى : رماح تكون أسنتها الثلث من طولها .
عاسل : الرمح الشديد الاضطراب
عُتُلّ : الرمح الغليظ
عرات : مثل عاسل
عَراص : الرمح المضطرب
عَسّال : الذى يضطرب بشدة
عسول .
عشوزنة : القنا الصلبة
العقد .
عكاز : نحو العنزة
عنزة : أطول من العصا وأقصر من الرمح — بقدر نصفه أو أكبر — وفيها زج كزج الرمح لإمكان الدفع به .
الفريجيات : مثل المزاريق .
قَصدُ : أى المكسر .
قناة (ج : قِنى ، وقنوات ، وقُنى ، وقناء) .
قنطارية : رماح أسنتها قصار وعراض
لَدْن : اللين من الرماح .

مثنى : من رماح رسول الله محمداً .

مِقتـــل : رمح قوى يصرع به .

مثقفـــة : التى سويت

المخـــزق .

مخموس : الذى طوله خمسة أذرع .

مُـدرية : الرماح التى كانت تركب فيها القرون المحددة مكان الأسنة ، وقيل : انها تنسب إلى قرية مدر اليمنية .

مدعس : رمح قصير أصم يدعس به ـ أى يطعن به ـ .

مُـرّانة : اللين (ج : مران) .

مربوع : الذى طوله أربعة أذرع ، وقيل : هو الذى ليس بطويل ولا قصير .

مِزَج : هو الصغير ، كالمزراق .

مزراق : ما زرق به ، وهو أخف من العنزة ، ويرمى به عن اليد لطاقة عصاه ، وينبغى أن يتخذ من عود مستو حتى لا يهتز إذا رمى به .

مُسَمَنح : الذى تثقف .

مطـــرد : الصغير ، وهو مثل النيزك .

معرن : الرمح الذى سمر سنانه بالعران — مسمار — .

منجل : الواسع الجرح بسبب عرض سنانه .

نـــيزك : رمح قصير ، وفيه سنان دقيق ، وقيل : إنه فارسى معرب

هُـزع : المضطرب

وشج : نوع من قصب الرماح ينبت فى الأرض معترضاً .

وشيج : شجرة الرماح ، وقيل : بل هى الرماح (واحدتها وشيجة) .

لهـــذم : القاطع أو النافذ السنان ، وقد تقدم أنه السيف كذلك .

يزنى : مثل أذنى[71]

(ت) القوس :

القسى على ضربين ، أحدهما :العربية ، وهى التى تركب من خشب فقط، والثانية : الفارسية ، وهى التى تركب من أجزاء من الخشب ، والقرن ، والعقب ، والغراء .

ثم إن القسى على جنسين : قوس يد ، وقوس رجل .

ومن أسماء ونعوت وأوصاف القسى ما يلى :

بائنـــة : وهى التى بانت من وترها (وهو عيب) .
بانيـــة : وهى التى بنت على وترها حتى كاد أن ينقطع (وهو عيب)
تنفست القوس : تصدّعت .
جَشوّ : القوس الغليظة الخفيفة .
جلهق : (ج : جلاهق) هى قوس البندق – والبندق هو كرات من طين أو رصاص – .

حاشكة : البعيدة الرمى .
حدلاء : قوس انخفضت إحدى سيتيها ، وارتفعت الأخرى .
حصوب : التى إذا رمى بها انقلب وترها .
حنّانة : القوس التى تحن عند الانباض .
حنـــيرة : قوس بغير وتر .
حنية : (ج : حِنى ، وحُنى) .
رهيش : التى إذا رمى عنها اهتزت وضرب وترها أبهرها .
زغرية : نسبة إلى موضع كان ببلاد الشام ، يقال له : زغر .
زفيان : القوس السريعة الإرسال للسهم ؛
زوراء : سميت بذلك لميل وترها .

المسحة : ضد الكزة .

السهوة : مثلها .

شدفاء : سميت بذلك لإعوجاجها .

الشرج : انشقاق فى القوس .

الشريجة : القوس التى يكون عودها على لونين . والمعروف أن الشريج من أحسن أنواع القسى .

شسيب .

صريع .

صفراء .

ضروح : القوس الشديدة الحفز والدفع للسهم .

طحور : البعيدة الرمى .

طروح : مثل ضروح .

طلاع الكف : إذا كان مقبضها يملأ الكف .

عاتق .

عاتك، وعاتكة : إذا احمر عودها من القدم .

عبهر : القوس الممتلئة العجس .

عَتَلة : (ج ، : عتل) القوس الفارسية .

عشوث : القوس المرنة

عُراضة : القوس العريضة

عصفورية : نسبة إلى عصفور ، وهو رجل كان يصنعها .

عطافة .

عُطفى : القوس المعطوفة .

عُطل : القوس التى لا وتر عليها .

عطيفـــة .

عطـوف : القوس التي انعطفت إحدى سيتيها على الأخرى (وهو عيب) .

عطـــوى : القوس المؤاتية السهلة ، وقيل : هي ضد الكزة .

عوجاء .

غلفـاء .

فجّـاء : القوس التي بان وترها عن كبدها .

فجـواء : مثلها .

فَرُج : إذا ارتفعت سيتيها .

فرع وفرعة : من جياد القسي .

فلـق : إذا كانت القوس مشقوقة ، ولم تكن قضيبا .

قؤود : القوس السهلة المنقادة .

قضيـب : التي عملت من عود واحد ، وقد مر أنه السيف كذلك .

القنـــا : قسي عربية ، وقد تقدم أنها الحراب كذلك .

قوس قعساء : القوس التي نتأ باطنها من وسطها ، ودخـــل ظاهرها (وهو عيب) .

قوس ملســاء : التي ليس فيها شق .

كبداء : التي يملأ كبدها الكف .

كتـوم : التي لا شق فيها .

كـَزة : القوس التي قصر انحناؤها .

ماسخيّـات : أقواس تنسب إلى رجل من الأزد ، كان قواساً .

مُحدلة : التي تضامت سيتها ، مثل الحدلاء .

مُحلفـــة : التي نقص مقبضها .

مَروح : الحسنة ، التي يمرح الإنسان بها إذا ما ارتآها ، عجباً بها .

مُسحنة : الحسنة المنظر .

مسيحة : (ج : مسائح) قسى جياد .
مطحر : التى ترمى بسهمها صعدا .
مطعمة : سميت بذلك لأنها تطعم .
مُعطّفة : المعطوفة السيتين .
معطوفة .
موك : القوس اللينة .
ناترة : (ج : نواتر) التى انقطع وترها لصلابتها .
نفيحة : القوس وهى شظية من نبع .
نفوح : الشديدة الدفع للسهم .
هزى : مثلها .
الوشاح : القوس ، وقد تقدم أنه السيف كذلك .

(ث) السهم :

الإدرار : سهم حسن العود ، والادرار بالسهم أن يضعه الفاعل على ظفر يده اليسرى ، ثم يدره بإبهام اليد اليمنى وسبابتها .

الأريب : سهم محكم البرى .
الأسل : اسم يجمع النبل والرماح .
الأفطح : سهم غير مستدير وفيه عرض .
أفوق : المكسور الفوق - والفوق موضع الوتر - .
أصمع : الرقيق من السهام .
أغضف : الغليظ الريش .
أقذ : سهم لا ريش عليه .
أمرط : الذي سقط قذذه - أي آذانه - .

أهزع : الذي يبقى وحده في كنانة الرامي ، لكونه أردىء مافيها ، وقيل : بل لكونه أخير السهام ، فيدخر .

ثُجر : سهام قصار غلاظ الأصول .

ثُلت : سهم من ثلاثة . ومثله : ثليث ، وعلى نحوه في العدد : خميس ، وسديس ، وسبيع ، وثمين .

جُبّاع : الذي بغير نصل .

جلس : إذا جاء الرامي بالسهم طويلا .

جُمّاح : سهم مدور الرأس ، يتعلم به الصبي ، ويكون بغير ريش ، وربما بلا فوق كذلك .

حاب : الذي يزحف في الأرض ، ثم يصيب الهدف .

حابض : الذي يقع بين يدي راميه .

حادر : إذا جاء به الرامي غليظاً .

حراث : السهم قبل أن يراش (ج : أحرثة) .

حُسبان : سهام صغار يرمى بها عن القسي الفارسية (الواحدة: حسبانة).

حشر : كالأصمع .

حَظّاء : سهام صغار ، طول الواحد منها قدر ذراع ، سميت بذلك لأنها اتخذت من أدق غصن . وغصن الشجرة يسمى في اللغة: حظوة (ج : حظوات ، وتصغيرها حُظيّات) .

خازق : الذي يصيب القرطلس « الهدف » .

خشيب : الذي أخرج من قشوره وبرى البرى الأول .

خاط : الذي نبت عوده على عوج ، فلا يزال يتعوج وإن قوم .

دابر : الذي يخرج من الهدف — أي يخزقه — .

دالف : الذي يصيب ما دون الهدف ، ثم ينبو عن موضعه .

رقيات	: سهام تنسب إلى موضع بالمدينة المنورة .
الرّهب	: السهم العظيم (ج : أرهبة) .
زاحف	: الذى يقع دون الهدف ، ثم يزحف إليه .
زالج	: الذى يسرع من القوس .
زعبرى	.
زخر	: القشاب . وقيل : هو السهم الطويل (وحداته: زخرة)
زنبورك	: سهم فى سمك الإبهام .
سروة	: سهم صغير (ج : سراء) .
سهم سندرى	: نوع من السهام ، تنسب إلى شجرة تعرف بالسندرة. وقيل : هو الأبيض .
سهم ضبيح ومضبوح	: إذا صلى عوده بالنار حتى يلين .
سهم مسترم	: أصلحت عيوبه .
شاخص	: الذى جاز الهدف من أعلاه .
شارف	: سهم طويل دقيق . وقيل : هو الذى طال به العهد بالصيانة . وقيل : بل هو الذى انتكث ريشه وعقبه .
شارم	: الذى يشرم جانب الهدف .
صادر	: النافذ .
صاعدى	: نسبة إلى صعدة ، وهو إحدى قرى اليمن .
صنيع	.
صيغة	: سهام من عمل رجل واحد .
عائر	: السهم الذى لا يدرى من أين أقبل .
عبرُ	: الموفور الريش .
عرض	: إذا أصاب شخصاً غير المطلوب .
عُصُلْ	: السهام المعوجة .
عقر	: الذي يتلوي أو يعوج في سيره .

عمــوج : نحوه .

غــرب : الذى يأتى ولا يعلم المصاب به من أين أتى .

فالج : السهم الفائز .

قــترة : سهم صغير لا حديد فيه .

قــدح : السهم قبل أن يراش ويركب نصـله . وقيل : هى السهام التى مقاديرها مقادير النبال .

قرح السهم : بدىء فى عمله .

قطبة[73] : سهم صغير يرمى به .

قطــع : السهم العريض .

قطيــع : السهم قبل أن يبرى (ج : قُـطع) .

كُتّـاب : سهم صغير مدور الرأس ، مثله مثل الجـّـاح .

لأم .

متصمع : المنضم الريش من الدم . وقيل : الملطخ بدم المرمى به .

محــبر : كالأريب .

محــراث : سهم طويل القذذ .

مُخَـلّـق : مصلّـح .

مِراط : الذى تمرط ريشه .

مرتدع : الذى اذا أصاب الهدف انفضخ عوده .

مِرَماة : سهم صغير .

مريج : السهم الملتوى الأعوج .

مريخ : سهم طويل ، له أربعة قذوذ .

مريش : ذو ريش .

مشقص : سهم له نصل عريض .

مصراد : نافــذ .

مصَفَّح : سهم لم يكن مستديراً ، وكان فيه عرض .
مطحر : البعيد الذهاب .
مُعبر : السهم الموفور الريش .
معراض : ذو ريش . وقيل : هو سهم له أربعة قذوذ ، فإذا رمى به اعترض .
معقص : الذى ينكسر نصله ويبقى سنخه فى السهم .
مغلق : اسم لكل سهم .
مقتعل : السهم الذى لم يبر بريا جيداً .
مُقزّع : الذى ريش بريش صغار .
ملموم : القدح المستدير .
مشوق ومشيق : القدح المحفو البرى .
منجاب : الذى لا ريش عليه ولا نصل .
منجوف : السهم العريض ، وقيل : الذى مثله مثل المشيق .
منزع : السهم مطلقاً . وقيل : هو الذى يرمى أبعد ما يكون .
نجيف : (ج : نجف) العريض النصل .
نشاب : النبل (واحدته : نشابة) .
نضى : (ج : أنضاء) يطلق على السهم مالم يراش ويعقب وينصل .
نكس : الذى انكسر فوقه ، فجعل أسفله أعلاه ، وقيل : هو السهم القصير .
نواقر : السهام التى تصيب .
هِزاع : السهم الذى يبقى فى الكنانة وحده ، مثل الأهزع .
يثربى : نسبة إلى يثرب[٧٤].

ذكر ما قيل فى الجنن

الجُنّة : هى كل ما يتقى بها ـ اشتقاقاً من الإجتنان ـ كالترس ، والبيضة ، والدرع .

(أ) الترس: وهو الآلة التى يتقى بها المحارب الضرب والرمى عن الوجه ونحوه. ومن أسمائه:

بصيرة .

جُنَّة .

جنوية : (ج : جنويات) وهى أترسة من خشب يدخل الرجال تحتها إذا ما زحفوا على الأسوار وتكون لهم كالحصن الواقى من النبال . ومن صفاتها أن تكون مقطوعة الأواخر لتقف على الأرض .

جَوْبٌ : (ج : أجوبة) .

حجفة : (ج : حجف) ، وهى الترس الصغيرة . وتكون تارة من خشب وأخرى من حديد أو من عيدان مضمومة بعضها إلى بعض بخيط[٧٥] .

درقة : (ج : درق) وتكون من جلد البقر المصبوغ ، وأحسنها ما صنع من جلد اللمط ، الذى قيل إنه من غرائب حيوان بلاد المغرب .

ذو البقر : الترس الذى يعمل من جلود البقر .

الطوارق : أترسة من خشب على نحو الجنويات . وكان يستعملها - أساساً - الفرنج والروم . ومن خصائصها أن تكون مستطالة بحيث تستر الفارس والراجل .

عنبر .

فرض : الخفيف من التراس .

قُرّاع : الترس الصلب .

قفع : مثل الطوارق .

كنيف : الترس الساتر - اشتقاقاً من الاكتناف - .

لأى .
مجن : سمى بذلك لأنه يستجن به .
مُخبأ .
مجنب .
مجـول .
مطرق : قيـل : إن أول ظهوره كان بواقعـة المنصورة « زمن الأيوبيين »[٧٦] .
يلب : قيل : إنها جلود بمنزلة الدرع ، وقيل أيضاً : هى جلود يخرز بعضها إلى بعض وتلبس على الرأس كالبيضة . (الواحدة يلبة)[٧٧] .

(ب) البيض : (واحدتها بيضة) ، وهى عبارة عن آلة من حديد توضع على الرأس لوقايتها من الضرب وتأثيره ، ولضمان ذلك كانت تحشى بأسفنج ضيق الأنجاش .

ومن أسمائهـا :

التركة أو التريكة : (ج : ترك وترائك) هى المستديرة .
جمّـاء : البيضة التى من حديد .
خيضعة .
دومص .
ربيعـة .
عرمة .
عمامة : (ج عمائم وعمام) .
مغفـر : زرد على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة ، وفيه أطراف مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ـ بعكس البيضة ـ ، وربما جعل منها وقاية للأنف كذلك[٧٨] .

(ت) الدرع : وهى عبارة عن جبة من الزرد المنسوج ، يلبسها المقاتل وقاية لنفسه من السيوف والسهام .

ومن أسمائها :

بدن : هى القصيرة .
بُصيرة .
جارن (ج . جوارن) .
جدلاء : إذا كانت منسوجة .
جوشن : صدرية - بلا ظهر - مؤلفة من ألواح صغار من الحديد أو القرن أو الجلود ، وكانت تكسى بالثياب .
حلقة : الدرع .
خدباء : الدرع اللينة .
خضداء .
داوية : نسبة إلى داود عليه السلام .
دخاس : أى متقاربة الحلق .
درع حطمى : نسبة إلى رجل من عبدالقيس بن أفصى يعرف « بحطوم » .
درع ربوض : أى واسعة .
درمة .
دلاص .
دُلامص : الدرع البراق .
ذائلة : الطويلة الذيل .
الزرد : (ج : زرديات) .
زغفة : الدرع .
سابرية : (ج : سابريات) الدرع الرقيقة النسيج .
سابغة : الواسعة .

سربال	: الدرع .
سَرْدٌ	: اسم يجمع الدروع وما شابهها من الحلق .
سُك	: الدرع الرقيقة الحلق .
سلوقيـــة	: نسبة إلى سلوق ، وهى إحدى قرى اليمن ، التى كانت تصنع بها
السمط	: الدرع التى يعلقها الفارس على عجز فرسه (ج : سموط) .
سَنـــور	.
شليل	: الدرع القصيرة .
صموت	.
فرعونية	: نسبة إلى فرعون .
فضفاضة	: الواسعة .
قرقلات	: صفائح متخذة من الحديد المتواصل بعضها إلى بعض . وقد غلب لبسها على عصر سلاطين المماليك . وكانت تغشى بالديباج الأحمر والأصفر .
قضّاء	: الدرع الخشنة المس ، وقيل : هى المحكمة الصلبة .
لأم	: (ج : لؤم) الدرع التامة التى لها فضول .
لبـــوس	.
ماذية	: الدرع البيضاء . وقيل : هى المعينة السهلة
مسردة ومسرودة	: الدرع المثقوبة الصفائح .
مضاعفة	: التى نسجت حلقتين حلقتين .
موضونة	: الدرع المنسوجة .
نـــثرة	: الواسعة
نثـــلة	.
يَلَبٌ	: الدرع اليمانية ، وتتخذ من الجلود[٧٩] .

الحـــواشى

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر : العرينى : الاقطاع الحربى، ص ١١ وعن مكونات الدولة الزنكية التى قامت فى حلب والموصل فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر انظر — على سبيل المثال — ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٥ ، ص ٢٧٩ ، حسنين ربيع : النظم المالية ، ص ٥ : ٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٦ .

(٣) عن خزائن سلاح الدولة الفاطمية انظر — على سبيل المثال — المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ، ٤١٦ : ٤١٧ ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى، جـ ١ ، ص٣٦ : ٣٨ .

(٤) الزرد : الدرع المزرودة بتداخل حلقاتها بعضها فى بعض ، ج زرود (القاموس محيط المحيط) .

(٥) ، (٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٩ : ١١ ، كذلك نسمع فى حوادث سنة (٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) أنه قد (احترق للسلطان شعبان عــدة حواصل فى مدرسته التى كانت برأس الصوة ، وكان بها قماش وســلاح) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص١٧٠ ، حوادث سنة ٧٧٨هـ .

(٧) انظر وثيقة وقف السلطان قايتباى على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، م ٢٢ ، ص ٣٦٤ — نشر : محمد أمين) ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٤٨ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ١٢ ، ١٨٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤، ص ٣٢ ، حوادث سنة ٦١٦ هـ ، ص ٨٠ ، حوادث سنة ٦١٧ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١١ ، ص ٢٩١ ، حوادث ســـنة ٧٨٤ هـ ، جـ١٢ ، ص ١١٣ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ . هذا وقد كان من ضمن البيوتات السلطانية بنيابة دمشق خزائن السلاح ، (وفى خزائن السلاح بها تعمل المجانيق والسلاح ، ويحمل الى جميع الشام ، وتعمر به البلاد والقلاع ، ومن قلعتها تجرد الرجال وأرباب الصنائع الى جميع قلاع الشام ، وتندب فى التجاريد والمهمات) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٨٣ .

(٨) انظر — على سبيل المثال — ابن منكلى : الأدلة الرسمية ، ق ٣٩ ، ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٧٣ ، حوادث سنة ٥٧٨هـ ، الدرة الزكية ، ص ٨٠ ، حوادث ســنة ٦٥٩هـ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م ٨ ، ص ١٦٧ ، حوادث سنة ٦٩٣ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ٢٠ ، حوادث سنة ٦٩٠هـ ، جـ٩، ص٨٩، حوادث سنة ٧١٠هـ ، ص٤٦ ، حوادث سنة ٧٤٢هـ، الصيرفى : إنباء الهصر ،ص١٩٩ ، ص٢٦٨، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٧١ ، حوادث سنة ٩٠٢هـ .

(٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٩٠ . وانظر : سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص١٧ .

(١٠) يذكر القلقشندى : «صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٢» أن قسى الرجل والركاب تقل بالسلاح خاناه (لعدم معاناتها بالديار المصرية ، وإنما تكثر بالثغور كالاسكندرية) . هذا وقد عرفت قسى الرجل بذلك ، لأنها توتر (بدفع رجلى الإنسان لها مع جذب ظهره) الطرسوسى : تبصرة أرباب ، ص٨ .

(١١) النشاب : النبل ، وهو سهم مصنوع من الغاب . هذا ويذكر ابن منكلى : « التدبيرات السلطانية ؛ ق٦ » أن (من التدبيرات السلطانية الإكثار من النشاب فى الخزائن، وأقل ما يمكن أن يكون ألف ألف فردة مفتحة الأفواق فى كل خزانة) .

(١٢) المزراق : عود من خشب مجوف ، يجعل فى قصبته ماء مهلك ، ويكون قصد الزارق وجه الخصم أو الدابة ، ذلك أن من صفة هذا الماء أن يذهب البصر . هذا ويمكن أن يكون المزراق من قنا يجعل بطول الرمح ، وفيه سنان ، فيكون كهيئة الرمح ، لكنه مجوف وفيه الماء المهلك . ابن منكلى : التدبيرات السلطانية ، ق١٦ ، وانظر : عبدالرحمن زكى : الجيش المصرى ، جـ٢ ، ص٤٩ .

(١٣) تتفق أحوال السكاكين والغرض الذى تستخدم فيه ، فسكين الحرب (النجاة) لا تكون الا عوجاء . ومن أسماء السكاكين وأنواعها : الجنبية ، والصلت : وهى السكين الكبيرة ، والشفرة والخنجر : وهى السكين العظيمة ، والمدية . هذا وجرت العادة أن تفرق السكاكين العادية على الناس فى عيد النحر من الزردخاناه على يد أحد الزردكاشية . انظر: بكتوت الرماح : الفروسية وعلاج الخيل ، ق٣٤ ، ابن سيده : المخصص ، جـ٦ ، ص ٣٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ٢٠٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ١٧٠ ، حوادث سنة ٩١٥هـ .

(١٤) الجرخ : قوس رجل مغربية ، ترمى عنها السهام والحجارة وقدور النفط . انظر : نبيل عبد العزيز : نهاية السؤال ، جـ ١ ، ق١٦٦ ، (حاشية رقم ٩) ، Dozy : Supp. Dict. Ar,

(١٥) الدبوس : آلة من حديد ذات أضلاع — تفيد فى قتال لابس البيضة ونحوه — وله يد خشبية ، ويقاربه اللت ، أما العامود ، فلا يصاغ جميعه الا من الحديد . الطرسوسى: تبصرة أرباب ، ص١٥ . هذا ويذكر القلقشندى : «صبح الأعشى» ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ فى شىء من الخلط أن الدبوس هو العامود .

(١٦) ، (١٧) الطبر (الطبرزين) والبلطة : الفأس . انظر : الطرسوسى : تبصرة أرباب ، ص ١٥ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص٢٠٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص١٤١ ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، جـ٢ ، ص١٤٧ .

(١٨) لا يوجد البارود الا فى زردخاناه السلطان ، كما يتم صحنه — على يد فئة من

الصناع — فيها ، وان نجم عن ذلك بعض الحرائق . انظر : — على سبيل المثال — ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣١٤ ، حوادث سنة ٩١٩ هـ . وعن البارود وتاريخ ظهوره . انظر : الناصرى : الاستقصا ، ج٣ ، ص٣٦ ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، ج٢ ، ص٥٢ ، ٥٧ ،

Ayalon : Gunpowder and fire arms in the Mamluk Kingdom,

(١٩) العصا : آلة من خشب تفيد في القتال نحو افادة الدبوس : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٧ ، ص١٤٢ .

(٢٠) جرت العادة فى كل عام أن يصدر السلطان بمرسوم شريف (تجهيز عصى الجوكان والأكر والكرابيج الى السلاح خاناه . . . بحيث لا يتأخر ذلك غير مسافة الطريق ، فان الانتظار واقع لذلك) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ٢٠٢ .

(٢١) النويرى : نهاية الأرب ، ج٦ ، ص٢٠٢ . هذا وسيلى تفصيل هام لنعوت وأوصاف تلك الأسلحة والجنن .

(٢٢) انظر : ابن منكلى : التدبيرات السلطانية ، ق٦ ، الهروى : التذكرة الهروية، ص ١٣ . هذا ولعل خير ما يوضح لنا اهتمام الأيوبيون بالسلاح ومعرفته — مع تقدير ظروف عصرهم السياسية — أن يؤلف الطرسوسى لصلاح الدين رسالة فيه ، أسماها « تبصرة أرباب الألباب » .

(٢٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٧ ، ص١٩٧ ، حوادث سنة ٦٥٨هـ .

(٢٤) نفسه ، ج١١ ، ص٩١ ، حوادث سنة ٧٨٤هـ ، وانظره أيضاً ، ج١٢ ، ص١١٣ ، حوادث سنة ٧٩١هـ .

(٢٥) جرى الغورى فى حالة حضور بعض قصاد الممالك المجاورة لمملكته وغيرها — مع تقدير ظروف عصره — على تزيين باب الزردخاناه باللبوس الحربية وآلة السلاح ، مثل البركستوانات ، والزرديات ، والأطبار ، والسيوف ، فضلا عن تعليق الصناجق السلطانية والشطفات عليها ، كما رسم بأن تصف المكاحل الكبار أمامها . انظر — على سبيل المثال — : بدائع الزهور ، ج ٤ ،ص١٤٣ ، حوادث سنة ٩١٤هـ ص ١٥٤ ؛ حوادث سنة ٩١٥ هـ ، ص ٢١٩ ؛ حوادث سنة ٩١٧ هـ ، ص ٢٥٥ ، ص٣٠٩ ، حوادث سنة ٩١٨ هـ ، ص٣٩٥ ، حوادث سنة ٩٢٠ هـ .

(٢٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٤١ — ١٤٢ ، حوادث سنة ٩١٤هـ . والملاحظ أن الخلفاء الفاطميين قد تلافوا وقوع ذلك الأمر كون الواحد منهم كان يدخل يوميا الى خزائن السلاح — قبل جلوسه على سرير الملك — ويطوف بها ويتأمل حواصلها على اختلاف الأسلحة وتنوعها : انظر : المقريزى : خطط ، ج١ ، ص٤١٦ ، ٤١٧ .

(٢٧) ، (٢٨) وثيقة وقف السلطان قايتباى على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح

بدمياط (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ، م ٢٢ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥
والجدير بالذكر أن بداية تأسيس زردخانة دمياط يرتبط بالحوادث التى جرت منذ سنة ٦٤٧ هـ . راجع : المقريزى : خطط ، ج ١ ، ص ١١٨ — ١١٩ ، هذا ويذكر الهروى : « التذكرة الهروية » ، ص١٢ ، أن السلطان يجب عليـه (أن يتفقد خزائن السلاح وما فيها من السيوف والرماح ، والكبورة ، والزرد ، والتراس ، والعدد والجنويات ، والجواشن ، والجفتيات ، وجياد الطوارق ، والحراب ، والقسى وأوتارها ، والجروخ ، والزيارات (نوع من القسى) ، والنبل ، والحسك ، وآلة النقوب ، والكلاليب للحروب ، وأخشاب المنجنيقات ، والعرادات ، وحبال القنب وكلما يطلب من آلة الحرب ، وكثرة الحجارة الكبار ، والكفيات الصغار ، والحلق ، والمسامير ، والزفت ، والقار ، والكلس ، وجلود الجواميس والجمال والبقر ، والأوعال ، والنفط وآلته ، والقدور وحوائجها ، ويعتبر الأهراء وما فيها .... ويعتبر المخازن وما فيها) .

(٢٩) الحسن بن عبدالله : آثار الأول ، ص١٩١ .

(٣٠) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص١٤٨ .

(٣١) انظر : النويرى : نهاية الأرب ، ج٨ ، ص٢٠٠ — ٢٠٧ ، حسنين ربيع: النظم المالية ، ص٥٨ ، فما بعدها ، العرينى : الاقطاع الحربى ، ص٢٠ .

(٣٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٥٤ .

(٣٣) الملاحظ أن كثيراً من الاقطاعات السلطانية فى العصر المملوكى الثانى قد تحولت إلى أوقاف يمنحها السلاطين لأغراض دينية واجتماعية ، مثل حماية السواحل من عبث الفرنج وغيرهم ، أو الصرف على خزائن السلاح وقاعاته بالثغور والقلاع ومستخدميها ، أو افتداء أسرى المسلمين أو الانفاق على المدارس والربط والخوانق والمارستانات والأضرحة ، وهى حالة أدت إلى تناقص الاقطاعات الحربية ، راجع : المقريزى : خطط ، ج١ ، ص ١٠٩ ، وثيقة وقف السلطان قايتباى على المدرسة الأشرفية ، ص٣٥٣ ، فما بعدها ، العرينى: الاقطاع الحربى ، ص٢٤ ، فما بعدها .

(٣٤) المقريزى : خطط ، ج١ ، ص١٠٩ .

(٣٥) نفسه : ج ٢ ، ص ١١٨ . هذا ويضيف المقريزى (نفس المصدر ، والجزء ، والصفحة) أن هـذا الوقف قد ظهر من (الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سـنة خمس عشرة وسبعمائة فى أيام الملك النـاصر محمد بن قلاوون ، وقد خرب أكثر هـذا الحـكر وصار كيمانا) .

(٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص١١٨ ، حوادث سنة ٨٨٠ هـ .

(٣٧) انظر : وثيقة وقف السلطان قايتباى على المدرسة الأشرفية ، ص٣٦٥ .

(٣٨) ، (٣٩) يذكر الصيرفى « إنباء الهصر » ، ص ١٩٩ ، حوادث سـنة ٨٧٥ هـ « فى شىء من الطرافة ، أن الأمير إينال الأشقر خرج من مصر إلى الريدانيـة بأطلابه وسلاحه لقتال شاه سوار ، وأنه — أي الصيرفي — قد بلغه أن السلطان قايتباى (لما مر

به طلب لينال المذكور ويرقه وبركه ، وهو جالس بالقصر ، فما أعجبه شيء منها ، مع أنه دفع له اثني عشر ألف دينار . ومن السلاح ، والخام ، والجمال ، والخيول ، والغلال شيء كثير خارجاً عما أنعم عليه به عظيم الدنيا المقر الأشرف الكريم العالى السيفى يشبك بن مهدى) .

(٤٠) انظر — على سبيل المثال — أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٧١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص١٤٧ ، ١٦٠ — ١٦١ ، حوادث سنة ٦٥٨هـ ، جـ٨ ، ص٢٠ ، حوادث سنة ٦٩٠هـ ، جـ١١ ، ص٢٦١ ، حوادث سنة ٧٨٤هـ ، جـ١٣ ، ص١٣٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ٢ ، ص٣٠٦ ، حوادث سنة ٦٣٨هـ ، جـ٣ ، ق٢ ، ص١٩٧ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ ، جـ٤ ، ق ١ ، ص٢٩٠ ، حوادث سنة ٨١٧هـ ، ابن الفرات : تاريخ الدول ، م٨ ، ص١٦٧ ، حوادث سنة٦٩٣هـ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص٧٧ ، حوادث سنة ٦٨٢هـ ، ص١٧٧ ، ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٠٠ ، حوادث سنة ٦٨٩ هـ ، ص ٣٠٧ ، حوادث سنة ٦٩٠هـ ، ص٣٤٣ ، حوادث سنة٦٩٢هـ ، ص٣٥٥ ، حوادث سنة٦٩٣هـ ، الدر الفاخر ، ص١٣١ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص٢٥٨ ، حوادث سنة٧٨٢هـ ، جـ٢ ، ص٣٣٩ حوادث سنة ٨٦١ هـ ، جـ٣ ، ص٨ ، ٩ ، حوادث سنة ٨٧٢هـ ، ص٢٨ ، حوادث سنة ٨٧٣ ، الصيرفى : إنباء الهصر ، ص ١٤٥ ، حوادث سنة ٨٧٤ هـ ، ص ١٩٩ ، حوادث سنة ٨٧٥ هـ .

Ayalon : The system of Payment in the Mamluk Society, p. 37, Studies on the structure of the Mamluk army, p. 222.

(٤١) أولاد الناس : هم أبناء السلاطين والأمراء والمماليك ممن ولدوا أحراراً ، ولم يعروا وهم صغار بدور الرق الذى مر به آباؤهم . انظر : المقريزى : خطط ، جـ١ ، ص ٩٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٥ ، العريني : الاقطاع الحربى ، ص ٣ ، فما بعدها .

Ayalon : Studies on the Mamluk structure of the Mamluk army p. 204.

(٤٢) الصيرفى : إنباء الهصر ، ص١٥٠ ، حوادث سنة ٨٨٥هـ وعن مقدار انحدار مستوى أولاد الناس الحربى . انظر — على سبيل المثال — ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص٢٠ : ٢٢ حوادث سنة ٨٧٣ هـ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ١٦ .

(٤٤) للسلاح مصدرين : أحدهما : السلاح المعمول داخل البلاد — سواء أكان مصنوعاً بالزردخانات أو بدكاكين صنعته . والثانى : السلاح المجلوب — أو المهدى — من خارج البلاد .

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٣٢ ، وانظر أيضاً ، جـ٩ ، ص٢٥٧ ، جـ١١ ، ص٣٤٥ .

(٤٦) فى نيابة دمشق لايكون نظرها إلا بتوقيع كريم من نائبها . انظر :القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٤٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٢٠ .

(٤٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٤٩) انظر : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص١١٥ ، المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ق٣ ، ص٩٨٨ ، حوادث سنة ٨٠٢هـ .

(٥٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص٣١٠ .

(٥١) النويرى : نهاية الأرب ، ج٨ ، ص٣٠٤ .

(٥٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص٤٠٢ .

(٥٣) كذا عنـد كل من القلقشندى « صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٨ » ، والسيوطى « حسن المحاضرة » ج٢ ، ص١١١ » ، والمقريزى : «خطط ، ج٢ ، ص٢٢١ . أما عند ابن شاهين : «زبدة كشف الممالك ، ص١١٤» أنه من جملة مقدمى الألوف — مع ملاحظة اختلاف العصـور — والمعروف أن وظيفة أمير سـلاح كانت من جملة الوظائف التى رتبها الظاهر بيبرس ، ولم يكن من موضوعها على عهده — على حسب ما تحت يدى من مصادر — التحدث فى السلاح خاناه . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ، ص٧ ، ص١٨٣ ، حوادث سنة ٦٥٨هـ . وعن ذات الوظيفة يمـكن أيضاً الرجوع إلى :

Ayalon : Studies on the Structure of the Mamluk, army, pp. 59-60.

(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠ ، وانظر : السـيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١١ .

Ayalon : Studies on the structure of the Mamluk army, pp. 63-64.

(٥٥) ، (٥٦) انظر : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٤ ، ١٢٢ ، ابن ممـاتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٥٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٥٧) يعلق ابن تغرى بردى : «النجوم ، ج١٦ ، ص٧٤ ، حوادث سنة ٨٥٨هـ» على تلك الوظيفة وما لحق بها وبغيرها بقوله : (وكانت هـذه الوظائف المذكورة فى سالف الأعصار لا يليها إلا أمير مائة ومقـدم ألف .... ، فتنازل ملوك زماننا هـذا حتى ولى بعضها الأجناد) .

(٥٨) انظر — على سبيل المثال — ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٥ ، ص٤٣٠ ، ٥٢٦ ، ج١٦ ، ص١٠٠ ، حوادث سنة ٨٥٧هـ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص٣٣٩ ، حوادث سنة ٨٦١هـ ، ص ٣٥٤ ، حوادث سنة ٨٦٣ ، الصيرفى : إنبـاء الهصر ، ص ٣ — ٤ ، حوادث سنة ٨٧٣هـ .

(٥٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٥٤ .

(٦٠) النويرى : نهاية الأرب ، ج١ ، ص٣٠٢ .

(٦١) النويرى : نهاية الأرب ، ج٨ ، ص٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٢ .

(٦٣) ، (٦٤) نفسه ، ج٤ ، ص٢٠ ، وانظر أيضاً : السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ١١١ . وعن أمثلة لاستخدام الزردخاناه كسجن مؤقت ، انظر — على سبيل المثال — ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٨٥ ، حوادث سنة ٥٨٧هـ ، ابن الفرات: تاريخ الدول ، م ٨ ، ص ٨٠ ، ٨٢ ، حوادث سنة ٦٨٨هـ ، ص ١٣٧ ، حوادث سنة ٦٩١ هـ ، م ٩ ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٣٣ ، حوادث سنة ٧٩١ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص٣٢٣ ، حوادث سنة ٧٩٠هـ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٥ ، حوادث سنة ٨٠٠هـ ، المقريزى : السلوك ، ج٣، ق٢ ، ص٩٠٥ ، حوادث سنة ٨٠٠هـ .

(٦٥) يذكر النويرى : « نهاية الأرب ، ج٦ ، ص٢٠٢ » أنه قد أورد ما قيل فى السلاح من الأسماء والنعوت والأوصاف مرتبة على حروف المعجم ، (على ما أورده صاحب كتاب خزائن السلاح) هذا وسينهج الباحث نهجاً أبجدياً فى ذلك الترتيب ، كما سيدأب على استكمال رواية النويرى من سائر المصادر التى تناولت ذات الموضوع .

(٦٦) يذكر ابن منكلى : « التدبيرات السلطانية ، ق٥٠ » أن من لوازم الجندى أن يكون عنده (من السيوف عدة : سيف فارس ، وهو قصير . وسيف راجل ، وهو طويل. وسيف قاطع للملح) . وانظر أيضاً : اليوسفى : كشف الكروب .

(٦٧) من أسماء قراب السيف : غمد ، جفن ، جربان ، جلبان ، خلل . وجميعها بطائن تغشى بها أجفان السيوف النويرى : نهاية الأرب ، ج٦ ، ص٢٠٩ .

(٦٨) عن الحديد التى تطبع منه السيوف وسقاياتها المختلفة : انظر — على سبيل المثال — الكندى : السيوف وأجناسها (تحقيق : عبد الرحمن زكى) ؛ نبيل عبد العزيز : نهاية السؤل ؛ ج ١ ؛ ق ٣٢١ : ٣٤٣ ؛ وحاشية رقم (١ : ٣) من ق ٣٢١ ؛ (٤) من ق ٣٣٠ .

(٦٩) عما ورد من مادة انظر : النويرى : نهاية الأرب ، ج٦ ، ص٢٠٢ : ٢٠٦ ، القلقشندى:صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١٣٩ — ١٤٠ ، ابن سيده: المخصص ، ج٦ ، ص١٦: ٢٦ ، ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص١٨٥ : ١٩٣ ، الكندى : السيوف وأجناسها ، ص٥ ، فما بعدها ، الطرسوسى : تبصرة أرباب ، ص٤ : ٦ ، الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص١٨٤ ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، ج١ ، ص٩١ : ٩٢ ، ج ٢ ، ص٣٤ ،(ابن منظور : لسان العرب).

(٧٠) من ألوان الرماح أيضاً : الصفرة، والبياض ، والزرقة . انظر مخطوطة: الكمال فى الفروسية ، ق٤٥ . وكذا راجع : السيوطى : السماح فى أخبار الرماح ، النويرى : نهاية الأرب ، ج٦ ، ص٢٤٦ .

(٧١) عما ورد من مادة انظر: مخطوطة: خزانة السلاح، ق٣٣ب، جمشار: ثلاث مذاهب، ق١٦ب ، الطبرى : مجموع فى الرمح ، ق١ب ، مخطوطة : الكمال فى الفروسية ، ق٥٤ ، فما بعدها ، مخطوطة : علم الفروسية والبيطرة ، ق٩٦ب ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ٦ ، ص٢١٥ — ٢١٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص١٤٠ — ١٤١ ، الطرسوسى: تبصرة أرباب ، ص ١٠ : ١٢ ، الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ٣ ، ص١٩ — ٢٠، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص٢٠٤ ، ابن سيده : المخصص ، جـ٦ ، ص٢٨ ، ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص٢٠١ ، فما بعدها ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، جـ١ ص ٨٨ ، جـ٢ ، ص٣٩ — ٤٠ ، هندى : الحياة العسكرية ، ص ٨٧ ، فما بعدها ، عون : الفن الحربى ، ص١٤٤ — ١٤٥ . هـذا ويتفق علماء الفروسية على أن من أجود الرماح : البروصى ، والسندانى ، والصينى ، وهو أجودها وأخفها ، انظر مخطوطة : الكمال فى الفروسية ، ق ٥٤ ، مخطوطة : علم الفروسية والبيطرة ، ق٩٦ب ، فما بعدها ، (لسان العرب) .

(٧٢) عما ورد من مادة انظر : طيبغا : بغية المرامى ، ق ١٣ : ١٧ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٦ ، ص٢٢٣ : ٢٢٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص١٤١ ، ابن سيده : المخصص، جـ ٦ ، ص ٣٧ ، ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص٢٠٩ ، فما بعدها ، الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص١٨٣ ، ابن قيم الجوزية : الفروسية، ص ١٨٣ ، هندى : الحياة العسكرية ، ص٩٧ ، فما بعدها ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، جـ ١ ، ص٩٠ ، جـ ٢ ، ص ٤٨ . والمزيد عن الأقـواس راجـع :

BOÜDOT—lamotte : Contribution à l,étude de l'archerie Musulman release, Nabih Faris and Elmer : Arab Archery, latham : Saracen Archery.

(٧٣) عند ابن سيده : « المخصص ، جـ٦ ، ص٤٩ » قضبة ، والصيغة المثبتة من : النويرى : نهاية الأرب ، جـ٦ ، ص٢٣٢ .

(٧٤) عما ورد من مادة انظر : النويرى : نهاية الأرب ، جـ٦ ، ص ٢٣١ : ٢٣٣ ، ابن سيده : المخصص ، جـ٦ ، ص٥١ ، فما بعدها ، وانظر : عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، جـ٢ ، ص٤٠ ، ٩٠ ، (لسان العرب) .

(٧٥) يذكر ابن منكلى : « التدبيرات السلطانية » ، ق ٤٩ — ٥٠ أن من (لوازم الجنـدى أن يكون عنـده من التراس عدة : ترس حديد ، وترس خشب ، وترس جلد) .

(٧٦) راجع : جمشار : ثلاث مذاهب ، ق١٦ب .

(٧٧) عما ورد من مادة انظر : النويرى : نهاية الأرب ، جـ٦ ، ص٣٩ ، القلقشندى: صبح الأعشي جـ٢ ، ص١٤٣ ، ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص ٢٣١ — ٢٣١ ، الحسن

بن عبدالله : آثار الأول، ص١٨٥، هندى : الحياة العسكرية ، ص٦٩ ، عبدالرحمن زكى : الجيش المصرى ، ج١ ، ص٩٢ : ٩٣ ، (لسان العرب) .

(٧٨) عما ورد من مادة البيض انظر : ابن منكلى : التدبيرات السلطانية ، ق ١٥ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج٦ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١٤٢ ، ابن هذيل : حلية الفرسان ، ص٢٣٠ ، ابن سيده : المخصص ، ج٦ ، ص٧٢ : ٧٤ ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، ج١ ، ص٩٢ ، ج٢ ، ص ٣٦ : ٣٨ ، هذا ويقرر ابن منكلى : « التدبيرات السلطانية » ق ٥ : ٨ ، أن من التدبيرات السلطانية الالمام بعلم التصرف بالأسماء الإلهية ، وعلم سر الحروف ، مثال ذلك ما كان يكتب على السهام والنصول والبيض على عصر سلاطين المماليك ، فقد كان يكتب مثلا (على خوذة حرف « أ » بقلم غليظ ، ويكون الكاتب على وضوء . ثم يكتب بعده الله . ثم يكتب على الخوذة الثانية «ب» وبعدها بارى باعث . ثم يكتب على الثالثة «ت» وبعدها تواب ...) الخ .

(٧٩) عما ورد من مادة ، انظر : ابن منكلى : التدبيرات السلطانية ، ق١٦ ، ٤٩ — ٥٠ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ٦ ، ص٢٤١ : ٢٤٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ، ابن سيده : المخصص ، ج٦ ، ص٦٩ : ٧٢ ، ابن هذيل : حلية الفرسان ص ٢٢٥ : ٢٢٨ ، الطرسوسى : تبصرة أرباب ، ص١٤ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص٢٠٦ ، عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ، ج١ ، ص ٩٢ : ٩٣ ، ج ٢ ، ص٣٨ : ٤٠ ، (ابن منظور : لسان العرب) .

المراجـــع

أولا – الأوقاف :

– وثيقة وقف السلطان قايتباى على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط .
دراسة ونشر وتحقيق : محمد محمد أمين
(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، م ٢٢ ، سنة ١٩٧٥)

ثانياً – المخطوطات :

– ابن منكلى : التدبيرات السلطانية فى سياسة الصناعة الحربية .
(مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٧) .

– بكتوت الرماح (محمد ابن بكتوت) ٧١١ هـ / ١٣١٢ م .
كتاب الفروسية وعلاج الخيل
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤ م فنون حربية)

– جمشار الخوارزمى (ركن الدين) :
ثلاثة مذاهب خاصة بالفروسية والرمى .
(مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٣٤٠) .

– السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م
السماح فى أخبار الرماح
(ميكروفيلم بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية رقم ٢٣ فروسية)

– طيبغا اليونانى البكلمشى : ت ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م
– غنية الطلاب فى معرفة الرمى بالنشاب
(مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٦)

- بغية المرامى - شرح المنظومة - .
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٧ فنون حربية) .
- محمد بن عيسى : نهاية السؤال والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية .
جزءان (رسالة دكتوراه/لم تطبع بعد / مقدمة من: نبيل محمد عبد العزيز
إلى كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢) .
- اليوسفى المصرى (موسى بن محمد) ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م .
كشف الكروب فى معرفة الحروب
(مخطوط بمكتبة المتحف الحربى رقم ١٠٦ عربى) .
- مؤلف مجهول : خزانة السلاح
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٧٩٦ أدب) .

ثالثاً - <u>المصادر المطبوعة :</u>

- الأنصارى (عمر بن ابراهيم الأوسى) ٨٠١ - ٨١٤ هـ / ١٢٩٩ - ١٤١١م.
تفريج الكروب فى تدبير الحروب .
نشر وتحقيق : جورج سكانلون (القاهرة ١٩٦١) .
- ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد) ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
تحقيق : محمد مصطفى (ج ١ فى قسمين) (١٩٦٠ - ١٩٧٥) .
- ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى) :
كنز الدرر وجامع الغرر :
ج ٧ : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب .
تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٣٩٢ هـ /
١٩٧٢ م) .

ج ٩ : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر .

تحقيق : هانس روبرت رويمر (القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠ م) .

- الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية .

تحقيق : أولرخ هارمان (القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) .

- ابن سيده (أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى) ٤٥٨ هـ .

المخصص (القاهرة ١٣١٦ هـ)

- ابن شاهين (غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهرى)

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

نشر : بول روايس (باريس ١٨٩٣ م)

- ابن شداد (بهاء الدين) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

تحقيق : جمال الدين الشيال (مصر ١٩٦٤) .

- ابن عبد الظاهر (محيى الدين)

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور

تحقيق : مراد كامل (القاهرة ١٩٦١)

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م

تاريخ الدول والملوك

نشر وتحقيق : قسطنطين زريق (فى عدة أقسام ٧ ، ٨ ، ٩) (بيروت ١٩٣٦) .

- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى) ت : ٧٥١ هـ / ١٣٥١ م .

الفروسية

تحقيق : عزت العطار (القاهرة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م)

- ابن مماتى :

قوانين الدواوين

تحقيق : عزيز سوريال عطية (ط ١٩٤٣) .

- ابن هذيل (على بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى) ١٣٨٠ هـ .

حلية الفرسان وشعار الشجعان

تحقيق : محمد عبد الغنى حسن (القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م)

- ابن وصل (جمال الدين محمد بن سالم)

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

جـ ١ : ٣ ؛ تحقيق ؛ جمال الدين الشيال (مصر ١٩٥٣ - ١٩٦٠)

جـ ٤ ؛ تحقيق ؛ حسنين محمد ربيع (القاهرة ١٩٧٢ م)

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى)

الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تحقيق ؛ محمد حلمى محمد أحمد (مصر ١٩٦٢) .

- أبو المحاسن (يوسف بن تغرى بردى) ٨١٣ هـ - ٨٧٤ هـ .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧١) .

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب) ت : ٢٥٥ هـ .

البيان والتبيين (القاهرة ١٣١١ هـ)

- الجواليقى (موهوب بن أبى طاهر بن أحمد بن الخضر) ت ٥٣٩ هـ

المعرب من كلام العرب (القاهرة ١٣٦٠ هـ)

- الحسن بن عبد الله بن محمد : ٧٠٨ هـ

آثار الأول فى ترتيب الدول (القاهرة ١٢٩٥ هـ)

- السبكى (تاج الدين عبد الوهاب) ت : ٧٧١ هـ

معيد النعم ومبيد النقم

تحقيق : محمد على النجار ، وغيره (القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨)

– السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١ هـ
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (مصر ١٣٢٧ هـ)

– الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود)
– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان
تحقيق : حسن حبشى (القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧٤)

– إنباء الهصر بأبناء العصر
تحقيق : حسن حبشى (القاهرة ١٩٧٠)

– الطرسوسى (مرضى بن على) ت ٥٨٩ هـ
تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر
أعلام الأعلام والعدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء
نشر وتحقيق : كاودكاهين
(Bulletin D'etudes Orientales, Tome XVII, 1947-48)
(Beyrouth 1948)

– العمرى (شهاب الدين بن فضل الله) :
التعرف بالمصطلح الشريف (مصر ١٣١٢ هـ)

– القلقشندى (الشيخ أبو العباس أحمد) ٨٢١/١٤١٨ م
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (القاهرة ١٩١٣ – ١٩٢٨)

– الكندى (يعقوب بن إسحق) :
السيوف وأجناسها
تحقيق : عبد الرحمن زكى
(فصلة من مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، م ١٤ ، ج٢ ،
ديسمبر ١٩٥٢) .

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت : ٨٤٥/١٤٤١ م
- السلوك فى معرفة دول الملوك .
جـ ١ ، ٢ (ستة أقسام) تحقيق : محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٤٢ - ١٩٥٨) .
جـ ٣ ، ٤ (ستة أقسام) تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣) .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (القاهرة ١٢٧٠ هـ)

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد) ٧٣٣ هـ .
نهاية الأرب فى فنون الأدب (القاهرة ١٣٤٥ - ١٩٢٦)

- الهروى (أبو الحسن على بن أبى بكر) ت : ٦١١ هـ/١٢١٤م
التذكرة الهروية فى الحيل الحربية
تحقيق : جانيى سورديل تومنين
(Bulletien d'études Orientales, Tome XVII) "1961-62".

رابعاً - المؤلفات الحديثة :

- احسان هندى :
الحياة العسكرية عند العرب (دمشق ١٩٦٤)

- حسنين محمد ربيع :
النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين
(مطبوعات جامعة القاهرة ١٩٦٤)

- سعيد عبد الفتاح عاشور :
المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢)

— عبد الرؤوف عون :
الفن الحربى فى صدر الإسلام (القاهرة ١٩٦٨)

— عبد الرحمن زكى :
* الجيش المصرى فى العصر الإسلامى (القاهرة ١٩٧٠)
* السلاح فى الإســـلام (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥١)
* صناعة السيوف الإسلامية فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، م ٥ ، ١٩٦١)

— العرينى (السيد الباز) :
الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٥٦)

— نبيل محمد عبد العزيز :
الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٧٥)
وانظر : المخطوطات .

خامساً – المراجع الأوربية :

– Ayalon (David) : The structure of the Mamluk army.
"Bulletin of the school of oriental and African studies, XV‘ XVI (1953-54).

– Gunpowder and fire arms in the Mamluk Kingdom. (London, 1956)

– The system of Payment in Mamluk Society.
" Journal of Economic and Social History of Orie-nt, Vol I., part I. August 1957).

– Boudot-Lamotte (Antoine) :
Contribution à l'étude de l'archerie Musulman release (Damas, 1968)

– Dozy : Supplement Dictionnaires Arabs. (Paris,1922).

– Latham (J.D.) : Saracen Archery " An English version and exposition of a Mamluk work on archery (A. D. 1368) with Introduction, clossary, and Illustration"

– Nabih Faris, and Elmer : Arab Archery (prenceton, 1955).

العلاقات الأسرية فى المصطلح المملوكى

للدكتور
احمد عبد الرازق
كلية الآداب — جامعة عين شمس

لا جدال فى أن طبقة المماليك التى حكمت مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ — ١٢٥٠ — ١٥١٧) لم تدرك المفهوم الصحيح للأسرة [١] ، بل لم يكن لديها حياة عائلية بالمعنى المعروف رغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج [٢] وعلى انجاب الأطفال ، وأيضا على نظام التسرى واقتناء الجوارى والحظيات [٣] ، ذلك أن أسلوب المماليك فى الحياة لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى : الأب والأم والأولاد ، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك فالعلاقات بين المماليك الذين جمعتهم أواصر الرق والعتق والتربية والخدمة [٤] ، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والمملوك الصغير تشبه أحيانا روابط البنوة ، وأحيانا روابط الأخوة ، ولم يكن فى حياة المملوك من الروابط العائلية غير واحدة منها فقط . وخير ما يوضح ذلك معانى ألفاظ المصطلح المملوكى، فالأستاذ [٥] هو الأب ، والآغا [٦] هو الأخ الكبير ، والانى [٧] هو الأخ الصغير، وورد فى المصادر المملوكية ما يشير أيضا إلى أن لفظ أخ يرادف لفظ خشداش [٨] ولفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية . وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الإبن كان كثيرا لا يخلف أباه فى مركزه ولا يرثه أيضا فى ثروته [٩]. وإنما المملوك هو الذى كان يحل محل أستاذه ويرثه حتى فى الإستيلاء على حريمه [١٠] .
وخير ما يوضح ذلك أيضا أن الواحد منهم كان لا يأكل مع أبنائه وحريمه

وإنما يفضل أن يأكل مع مما ليكه ، وإذا رأى نارا توقدا سأل عنها فيقال أن فلانا إشترى كذا فيغضب من لا يأكل عنده[11]. كذلك كثيرا ما نصت بعض الحجج الخاصة بأوقاف المماليك على أن الأستاذ أحق الناس بالتمتع بريع الوقف الذى يقفه المملوك [12] . ومن ثم فقد أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على أساس العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على أساس العلاقة بين الأستاذ ومماليكه وبين المماليك وبعضهم البعض .

أما عن كون الأستاذ بمثابة الأب ، فهو يبدو بوضوح من تلك الرسالة التى بعث بها السلطان الظاهر بيبرس من دمشق سنة ٦٧٠/١٢٧١ إلى مماليكه بمصر حيث يقول فيها « ... ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق اليكم ، وإيثاره ألا يفارقكم ، وإنما قدمنا راحتكم على راحتنا ... [13] » . ومن الأمثال العديدة التى لا تمل المصادر المملوكية من إيرادها فى بعض المناسبات العائلية إذ يذكر المؤرخ المملوكى إبن تغرى بردى فى معرض حديثه عن مقتل السلطان لاجين ومملوكه منكر تمر ، أن الأول قد أعطى سلطات واسعة إلى الثانى الذى أساء بدوره استعمالها ، فكان كما قيل فى الأمثال « الولد الخبيث يكتسب لأبيه اللعنة [14] » . كذلك عندما أقبل المماليك السلطانية عام ٧٩١/١٣٨٩ على اللهو والنساء بدمشق وضايقوا أهل المدينة حتى سئمهم الناس ، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفى — مرسلهم السلطان برقوق[15]، نجد أن المؤرخ نفسه يشير من جديد إلى المثل السابق قائلا : « إن الولد الخبيث يكون سببا لوالده فى اللعنة[16] » .

وعلى هذا فقد ارتبط المملوك باستاذه الذى اشتراه والذى أعتقه بروابط وثيقة ، وكثيرا ما كان يظل وفيا ومخلصا له حتى آخر يوم فى حياته ، وهذا الأستاذ بالمعنى المملوكى الإصطلاحى [17] ، الذى تطلق عليه المصادر إسم

السيد [١٨] أو المعتق [١٩] أو المولى [٢٠] . ولذا فقد حرص مؤرخو عصر سلاطين المماليك ، على الإشارة فى مؤلفاتهم عند ذكر أسماء المماليك ، إلى المعتقين الذين أعتقوهم [٢١] أو النص صراحة على جهلهم بأسماء أولئك المعتقين ، مثلما يفعل أحد الكتاب فى معرض حديثه عن معتق الأمير سيف الدين طوغان نائب الكرك حين يقول : « توفى الأمير سيف الدين طوغان السيفى أقبردى المنقار نائب الكرك قتيلا بيد العربان فى هـذه السنة (١٤٥٢/٨٥٦) وهو من الأصاغر الذين أنشأهم الملك الظاهر جقمق فى أوائل دولته ولم أعرفه قبل ذلك ، ولا أعرف معتقه ، بل قيل أنه من مماليك أقبردى المنقار ، وقيل نوروز الحافظى [٢٢] » . كما عاب المؤرخ إبن تغرى بردى على زميله إبن حجر جهله بمعرفة أستاذ السلطان الأشرف برسباى بما نصه « وسبب سياقنا لهذه الحكاية أن قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر رحمه الله نسبه أنه عتيق دقماق وليس الأمر على ما نقله ، وهو معذور فيما نقله لبعده عن معرفة اللغة التركية ومداخلة الأتراك ، وقد اشتهر أيضا بالدقماقى فظن أنه عتيق دقماق ... وتوجهنا إلى السيفى طوغان الدقماقى وهو من أكابر مماليك دقماق وسألته عن الملك الأشرف سؤال استفهام فقال هو عتيق الظاهر برقوق وقدمه أستاذنا اليه ... [٢٣] » .

أما المماليك الذين يتم تحريرهم فكان يطلق على الواحد منهم لفظ عتيق والجمع عتقاء أو يعرف باسم معتق والجمع معاتيق ، وإن كان اللفظ الأخير قليل الإستعمال فى المصادر التاريخية . ويلاحظ أيضا أن لفظ عتيق نادرا ما يأتى منفرداً بل كان يرد فى عبارات خاصة مثل : « عتيق فلان » أو « كان أصله من عتقاء فلان [٢٤] » ، كما نقرأ أيضا فى المصادر المملوكية عبارة « أصله من مماليك فلان » ، التى لم تكن تعنى بالضرورة الأستاذ الذى أعتق المملوك وإنما تشير فى بعض الأحيان إلى السيد الذى آل إليه هذا المملوك . إذ يذكر المؤرخ إبن تغرى بردى فى ترجمة الأمير سيف الدين يلخجا بن عبد الله

من هامش الساقى أنه « كان أصله من مماليك الظاهر برقوق أخذه مع أبيه وأمه ثم أنعم به على ولده الملك المنصور عبد العزيز ، ثم ملكه الناصر فرج[٢٥] » .

وإذا حدث وانتقل المملوك ، بعد عتقه ، إلى خدمة سيد آخر ، كان يطلق على هذا السيد الجديد إسم مخدوم[٢٦] ، ويطلق على المملوك لقب مستخدم[٢٧] . بيد أن الروابط بينهما لم تكن في متانة العلاقات التى تربط بين المعتق وعتيقه ، وإنما كانت فى الغالب علاقات سطحية وصلات باردة، سببها من غير شك، يقين المستخدم بأن المخدوم لا يراعى إلا مماليكه الأصليين، ولعل خير دليل على ذلك ما كان يكنه السلطان من كراهية للمماليك القرانيص الذين انتقلوا إلى خدمته ، وهم ممن أعتقهم السلاطين السابقون[٢٨] ، إذ غالباً ما اعتبرهم السلطان الجديد أقل مكانة من معاتيقه .

وتتحدث المصادر التاريخية التى وضعت فى العصر المملوكى عن الصلات الطيبة التى كانت تربط دائماً بين الأستاذ والمملوك الذى أعتقه[٢٩] ومن ذلك ما اشتهر به السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من تقديره لأستاذه أيدكين البندقدارى ، إذ جعله نائباً للشام وصار يعظمه ويقول له فى كثير من المناسبات :

« أنت أستاذى ويعرف له حق التربية[٣٠] » . بل ذهب بيبرس أبعد من ذلك حينما أظهر الاحترام أيضاً للأستاذ الذى اشترى أيدكين وأعتقه زمن الأيوبيين وهو الأمير جمال الدين بن يغمور ، الذى كانت قد تقدمت به السن حتى عاصر الدولة المملوكية الأولى، وأصبح موضع ثقة هذا السلطان وتقديره[٣١] . والحق أن ظاهرة اشتراك الأستاذ فى بلاط أحد مماليكه كثيراً ما أثارت دهشة المؤرخ الذى أخذ يتعجب من تقلبات القدر الذى لا يستقر أبداً على حال ، حين جعل على حد قوله من السيد مسوداً[٣٢] ،

ومن أمثلة قوة الروابط بين المملوك وأستاذه الذى أعتقه ما تذكره المصادر المعاصرة من أن المماليك الخاصكية لم تهدأ ثائرتهم ضد الأمير بيدرا قاتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون إلا بعد أن قبضوا عليه سنة ٦٩٢/ ١٢٩٢ وحزوا رأسه[٣٣]، وقيام الأمير كرجى باغتيال السلطان لاجين سنة ١٢٩٨/٦٩٨ ليأخذ أيضاً بثأر أستاذه السلطان المذكور بعد مضى أكثر من ست سنوات[٣٤]. ومن قول المماليك السلطانية للسلطان الأشرف شعبان فى رسالة بعثوا بها إليه سنة ١٣٦٦/٧٦٨ « أنت أستاذنا وما نموت إلا تحت أقدامك[٣٥] ».

ويفهم أيضاً من المصادر المعاصرة أن ولاء المملوك لم يكن قاصراً على أستاذه الذى رباه وأعتقه بل كثيراً ما كان يشمل أيضاً إبن هذا الأستاذ. إذ يروى ابن تغرى بردى فى تاريخه كيف لم يوافق أمراء حلب وحماه وحمص على طاعة السلطان بيبرس الجاشنكير الذى إغتصب الحكم من السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٠٨/٧٠٨، وأعلنوا تمسكهم بطاعة ابن أستاذهم المنصور قلاوون[٣٦]، بل هبوا أيضا لنجدته والعمل على استرجاع سلطانه عندما تعنت معه السلطان بيبرس الجاشنكير أثناء فترة نفيه بالكرك، وطالبه برد ما عنده من المماليك والخيول والأموال، وأغلظ له فى المخاطبة، وبعد أن كتب الناصر إليهم مذكراً بما لوالده عليهم « من حق التربية والعتق والإحسان »[٣٧]. ويتجلى هذا الولاء أيضا فيما فعله الأمير أرقطاى نائب السلطنة سنة ١٣٤٦/٧٤٧ حين مضوا إليه بالسلطان المظفر حاجى وهو حاسر الرأس « فلما رآه نزل على فرسه ورمى على السلطان قباءه وقال : أعوذ بالله أقتل ابن أستاذى[٣٨] ». ونسمع كذلك عن خروج الأمير إينال نائب صفد على طاعة السلطان الأشرف برسباى سنة ١٤٢٢/٨٢٥، لأنه خلع ابن أستاذه ططر من السلطنة[٣٩].

وكان من الطبيعى كذلك أن يبادر الأستاذ مملوكه نفس الولاء والوفاء ويهب ليدافع عنه وليثأر له عند الضرورة/ كما حدث سنة ٨٠٠/١٣٩٧ عندما رغب الأمير على باى فى قتل السلطان الظاهر برقوق بسبب أن أحد مماليكه أفسد جارية من جوارى الأمير أقباى الطرنطاى وكان ساكنا بجوار بيت الأمير على باى ، فلم علم الأمير أقباى بذلك قبض على مملوك الأمير على باى وضربه نحو أربعمائة عصا ، فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطالع إلى القلعة واشتكى الأمير أقباى إلى السلطان ، فلم يلتفت السلطان إلى كلام على باى فخنق من السلطان(٤٠) .

لهذا كان من العسير على المملوك أن يحول فجأة من شعوره وأحاسيسه بل وأيضا من ولائه ووفائه إلى الأستاذ الجديد الذى ينتقل إلى خدمته بدليل أن المماليك الكتابية من ميراث السلطان جقمق الذين قاموا بشرائهم السلطان إينال وأعتقهم رفضوا الاعتراف بهذا المعتق بحجة أن جقمق هو الذى تعهدهم بالتربية فى الطباق بالقلعة ومن ثم فقد كان فى نظرهم بمثابة أستاذهم الفعلى وقد عبروا عن ذلك بقولهم : « نحن عتقاء الظاهر (جقمق) وتربيته فلا أصير عتيق الأشرف إينال بقطعة ورق » ، ومن ثم فقد كان مثال عتقهم الذى رسم به السلطان الأشرف إينال فى نظرهم بمثابة قطع ورق لا قيمة لها الأمر الذى ترتب عليه فى النهاية أن قام السلطان إينال بطردهم من الطباق وأنزلهم من القلعة عقابا لهم(٤١) . ويفهم أيضا من المصادر المعاصرة أن خليفة هذا السلطان وهو السلطان خشقدم الأحمدى قد تعرض لنفس المشكلة حينما علم أن المماليك الاجلاب الذين ملكهم الأشرف إينال وأجرى عليهم العتق وقربهم وجعلهم خاصكية له ، قد اتفقوا مع بقية زملائهم على قتله بل وقتل جميع الأمراء بالحوش السلطانى فيما عدا واحد منهم ليسلطنونه عوضاً عن الظاهر خشقدم الأحمدى(٤٢) .

ويعتبر التقصير فى الولاء والوفاء والاخلاص للأستاذ عملا ذميما بدليل ما يذكره المؤرخ ابن أياس فى أحداث سنة ١٣٨٩/٧٩١ بصدد منطاش مملوك الظاهر برقوق الذى اشتراه ورباه ثم اعتقه وأخرج له خيلا وقماشا، والذى « ظهر منه بعض إفساد فى القاهرة فضربه السلطان برقوق علقة ونفاه إلى البلاد الشامية فلما عصى يلبغا الناصرى السلطان التف عليه منطاش وحضر معه إلى القاهرة وحارب أستاذه برقوق أشد المحاربة وقيده ونفاه إلى الكرك ذلك حتى أرسل مراسيم بقتله فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفر إليهم   فهو كربتى فأين المفر[٤٣]

كذلك لم يتوان السلطان جقمق عندما علم بتآمر جماعة من المماليك على اغتيال أستاذهم الأمير تغرى بردى الدوادار الكبير ومحاصرتهم لداره سنة ١٤٤٢/٨٤٦ « من إرسال جماعة من رؤوس النوب فمسكوا منهم جماعة كثيرين وضربوهم ضربا مبرحا ، ثم أرسل بهم أستاذهم إلى المقشرة مع الوالى[٤٤] » . بيد أن مثل هذا التقصير وذلك العقوق يعتبر قليلا إذا ماقيس بالعديد من الحالات التى حرص فيها المماليك على التعبير عن ولائهم لأساتذتهم وعن الاعتراف بفضلهم عليهم . وحسبنا أن نشير فى النهاية إلى تلك العبارة المشهورة التى كان الأمير سيف الدين بلاط بن عبد الله الناصر شاد الشراب خاناه يرددها دائما على مسمع أستاذه الناصر فرج بن برقوق لما فيها من دلالة على قوة الروابط التى كانت تجمع بين الأستاذ ومملوكه أو بمعنى آخر بين الأب وابنه ، إذ كان يقول له : « أنت أستاذى وأبى وربى ونبى ، وأنا لا أعرف أحداً غيرك[٤٥] » .

ومن الروابط العائلية المملوكية التى لا تقل أهمية عن رابطة الأستاذية تلك الرابطة التي جمعت بين المملوك الصغير الذي عرف فى المصطلح المملوكى

باسم « إنى» كما سبق أن أوضحنا ، والمملوك الأكبر سنا الذى كان يعهد إليه برعاية الانى فى الطباق[46] ، والذى عرف فى المصطلح المملوكى باسم أغا مفرد أغوات[47] وهى لفظة يجب علينا بادىء ذى بدء أن نلفت الأنظار إلى ملاحظة هامة بصددها وهى أن كلمة أغا كثيراً ما تطلق فى المصادر المملوكية على المماليك بصفة عامة ونادراً ما تطلق على الطواشية ، على الرغم من أن أهم مميزات هذا اللفظ أن يكون صاحبه طواشيا خصيا .

وعلى الأغا كانت تقع مسئولية تأديب الانى إذ كان أشبه بمؤدبه وكثيرا ما خصه بعطفه ورعايته وإذا حدث وقوع صدام بين المماليك فى الطباق فلم يكن الأغا ليتردد لحظة فى معاونة إنياته[48] . بيد أننا نجهل تماما أسلوب العلاقة السائدة بين الأغا وانياته ، كما نجهل أيضا ما كان عليه أن يعاملهم بالشدة أو اللين وذلك لخلو المصادر المملوكية من التفاصيل الدقيقة الخاصة بالحياة اليومية فى الطباق وكل الذى نعرفه هو أنه فى حال معاقبة الأغا لأحد الانيات ، فغالبا ما كان يثور عليه بقية الانيات تعصبا لزميلهم كما جاء فى أحداث سنة ١٤٥٦/٨٦٠ ، إذا يصف لنا المؤرخ ابن تغرى بردى كيف أخرق المماليك الجلبان بناظر الخاص وأخذوا عمامته من رأسه ، وكيف أدركه فى النهاية مقدم المماليك جرجان ونائبه عنبر فأخرقوا بهما أيضا ، ولكنه حصل الاشتغال بهما حتى هرب الجمالى المذكور ، وذكر المؤرخ أن سبب هذه الثورة « أن شخصا من الدوادارية الصغار يسمى سنقر قرق شبق ، ضرب بعض إنياته الذين بالطباق ، فاجتمع عليه بقية إنياته عصبة للمضروب وأردوا قتله ، فهرب منهم واشتكاهم إلى السلطان فأحضر منهم جماعة وضربهم ضربا مبرحا ، فنزل أصحابهم من الاطباق ، ووقفوا عند باب القلعة فصادف ذلك خروج — الجمالى من الخدمة فأوقعوا به من غير سبب[49] » . ومع هذا فمن المسلم به أن العلاقة بين الأغا وإنياته تظل وثيقة بعد عتق المماليك ومغادرتهم الطباق . إذ كان الأغا يحرص دائما على

مساعدة إنيه أو بمعنى آخر أخيه الأصغر ، ويوصى بترقيته فى الرتب والوظائف المختلفة ، ومن ذلك ما ترويه المصادر المعاصرة من أن الظاهر خشقدم صار خاصكيا فى دولة الملك المظفر أحمد بن شيخ بسفارة أغاته الأمير تغرى بردى قريب قصروه[٥٠] . وكثيرا ما نجد أيضا أن الانى كان يحمل ألقاب وأسماء أغاته . إذ ذكر السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » أن طوخ الناصرى فرج كان يعرف بطوخ مازى نسبة لأغاته مازى الظاهرى[٥١] ، وجاء أيضا فى ترجمة الأمير سودون القاضى نائب طرابلس المتوفى سنة ٨٢٣/١٤٣٠ أن « سبب تسميته بالقاضى ، أنه كان إنيا للأمير تنبك القاضى فسمى على اسم أغاته[٥٢] » . ويكفى أن نشير هنا إلى ما حدث سنة ٨٨٧/١٤٨٢ للتدليل على مدى ارتباط الانى بأغاته ، إذ جاء فى تاريخ ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباى « رسم للقضاة والشهود أن لا يعقدوا لمملوك من مماليكه ، حتى يأخذوا الاذن من أغاته[٥٣] » .

ومما لا شك فيه أن الانى مهما بلغ من الرقى والنفوذ فانه كان يظل فى العادة معترفا بجميل أغاته حتى ولو غدا أعظم منه وظيفة ورتبة الأمر الذى يذكرنا بما كان يحدث للأستاذ عندما يتقلد احدى الوظائف فى بلاط أحد مماليكه ويشير المؤرخ ابن تغرى بردى إلى حادثة من هذا القبيل ويعتبرها أيضا من تقلبات الدهر حين يقول بصدد سودون القاضى « والعجيب أنه صار رأس نوبة النوب وأغاته تنبك القاضى من جملة رؤوس النوب العشرات يمشى فى خدمته إنيه[٥٤] » .

والواقع أن الانى لم يكن ليتنكر لاغاته بعد وصوله إلى أعلى المناصب بل كثيرا ما اعترف باحسانه وأقر بفضله وبحق تربيته كما فى حالة تنبك البجاسى الذى ترقى فى الوظائف حتى أصبح نائب حلب ، على حين أن أغاته جرقطلو كان نائبا فى حماه ، ولم ينتقل إلى نيابة حلب ، الا بعد أن غدا

تنبك نائبا على الشام ، ومرجع ذلك إلى إعتراف الأخير بفضل أغاته عليه وبحق التربية(٥٥) . وتروى المصادر المملوكية المعاصرة أيضا ، أنه حين اجتمع تنبك بأغاته جرقطلو فى حفل شهده السلطان ططرسنة ١٤٢٣/٨٢٦ اضطر تنبك إلى الجلوس فى الجانب الذى يجلس فيه أغاته حتى لا يطل عليه من مجلسه لأنه يضطرب فى حضرته، وأيضا لئلا يجلس فوقه حياء منه(٥٦) .

وكان من الطبيعى أيضاً أن يعتبر الأغا تعيين الانى رئيسا عليه فى إحدى الوظائف المملوكية بمثابة إهانة كبرى ألحقت به ولم يكن ليتردد فى الانتقام من الانى بدافع من الحقد وذلك فى أقرب فرصة مواتية . إذ نقرأ فى المصادر المملوكية أن الطنبغا الماردانى صار يقف فوق التمرتاشى وهو أغاته ، فشق ذلك عليه وكتم فى نفسه إلى أن ملك السلطان الصالح إسماعيل فتمكن حينئذ التمرتاشى، وصار الأمر له وعمل على الماردانى ، فلم يشعر الأخير إلا وقد أخرج على خمس رؤوس من خيل البريد إلى نيابة حماة فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٢/٧٤٣(٥٧) . ونقرأ أيضاً أنه أثناء نفى تمربغا الظاهرى الدوادار فإن وريثه جانبك الدوادار أصبح عظيم المماليك الظاهرية جقمق، ولكن بعد عودة الأمير تمربغا من النفى جلس فوق الأمير جانبك « لكونه كان أغاته بطبقة المستجدة وذلك لعظمته فى النفوس وسبقه للرئاسة(٥٨) » .

ويفهم كذلك من المصادر المملوكية أنه لكى يصل المملوك إلى منصب السلطنة أو إلى أتابكية العساكر ، كان يجب أن يتوفر فيه بعض الشروط لعل من أهمها أن يكون أغا لعدة من المماليك فقد روى المؤرخ ابن تغرى بردى فى أحداث سنة ١٤٢٢/٨٢٥ أن الأمير برسباى قد خلا بالأمير تنبك نائب الشام وتكلم معه واستشاره فيمن يكون سلطانا على الديار المصرية تجتمع الناس على طاعته ، وعرض عليه منصب السلطنة قائلا : « فأنت أغاتنا

وكبيرنا وأقدمنا هجرة ، بيد أن الأمير تنبك استعاذ من ذلك وقال لبرسباى « ليس لها غيرك[٥٩] » .

وتتضح أيضا أن أهمية الأغا من خلال احترام المماليك له وتسليمهم بما يقوم به من أعمال حتى ولو كانت فى بعض الأحيان ضد مصالحهم الخاصة. وحسبنا أن نشير هنا إلى ما جاء على لسان الأمير سودون من عبد الرحمن الذى ذهب عام ١٤٢١/٨٢٤ مع الأمراء إلى الأمير جانبك الصوفى ليقول له : « أنت كبيرنا ورئيسنا وغاتنا ، ونحن راضون بك فيما تفعل وتريد[٦٠] ». وعلى هذا فيمكن القول أن أقدمية المملوك كانت تراعى دائما عند تقلد الوظائف الهامة فى الدولة وفى الجيش المملوكى بدليل أن الأمير أسندمر النورى قد أنكر على السلطان جقمق عدم ترقيته فى وظائف الدولة على الرغم من أنه من أنيات أخيه الأمير جاركس[٦١] .

ولسنا أيضا بحاجة إلى التأكيد بأن التصرف السيء من جانب الانى فى حق أغاته كان يعتبر من الأخطاء الكبرى التى لا تغتفر ، فقد حدثنا المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى أنه بعد أن ظفر تغرى برمش بجماعة من الحلبيين بعد قتاله معهم سنة ١٤٢١/٨٢٤ أمر بقطع أيديهم وبالغ فى الإضرار بالناس لدرجة أن هذا المؤرخ ذهب إلى الترجيح بأنه لو « كان لتغرى برمش على أهل حلب دولة لفعل فيهم أعظم من فعل تيمور لنك لقلة دينه وجبروته » ، الذى دفعه ، على حد زعم هذا المؤرخ ، إلى قتل أغاته[٦٢] .

ويفهم أيضا من المصادر التى وضعت على عصر سلاطين المماليك أن كلا من الأغا والانى تمتعا بمركز ممتاز فى الدولة المملوكية بدليل أننا نلاحظ أن بعض السلاطين يراعون فى أحكامهم ، أن الشخص المحكوم عليه كان من الأغوات أو الأنيات فى وقت من الأوقات ، وبالتالى كانوا يعمدون

عند ذلك إلى التخفيف من أحكامهم عليه ، ومن ذلك ما جاء فى أحداث سنة ٨٢٦/١٤٢٣ من تاريخ ابن تغرى بردى ، عندما رسم السلطان الأشرف برسباى بتوجه اسندمر النورى بطالا إلى ثغر دمياط لتفريطه فى أمر جانبك عدو السلطان ، الذى نجح فى الفرار من سجنه . ويعلق المؤرخ على هذا بقوله أن أسندمر المذكور كان من أغوات السلطان برسباى ومن أكابر أنيات الأمير جركس القاسمى المصارع لكان له معه شأن آخر[٦٣] » .

وعلى ذلك فمن الواضح أن علاقة الأنى بأغاته تكاد تشبه علاقة المملوك بأستاذه بدليل حرص الأغا على إصطحاب إنياته فى أسفاره ورحلاته كما حدث عام ٨٦٢/١٤٥٧ عندما استقر مرجان مقدم المماليك السلطانية أمير حاج الركب الأول ، فلما سافر أخذ معه جماعة كبيرة من إنياته المماليك الأجلاب[٦٤] . ولكن هذا لا يعنى أن الأستاذ والأغا أصبحا من درجة واحدة بدليل أن الأخير كثيراً ما لعب دور الوسيط بين الخشداشية والأستاذ[٦٥] .

ويحق لنا الآن أن نتساءل عن عدد الأغوات المقررين لكل طبقة من الطباق الموجودة بالقلعة ؟

الواقع أنه من الصعب الإجابة على هذا السؤال ، خاصة وأن المصادر المملوكية التى تحت أيدينا قد ضنت علينا بمعلوماتها فى هذا الصدد ، كما ضنت علينا أيضاً بمعلوماتها عن عدد الإنيات الذى كان يشرف عليه كل أغا ، كذلك من الصعب علينا أن نؤكد عما إذا كان أولئك الأغوات من بين المماليك الذين تم عتقهم قبل أن يعهد إليهم بالأشراف على الإنيات فى الطباق ، لاسيما وأن كل ما لدينا من معلومات ينحصر فى وجود مشرف واحد لكل طبقة من بين المماليك الذين تم بالفعل عتقهم وهذا الأخير كان يعرف باسم أغا الطبقة ، وهو ليس من بين الطواشية الخصيان ، لذلك يجب ألا نخلط بينه وبين مقدم الطبقة الذى عرف أيضاً باسم طواشى الطبقة أو خدام الطبقة[٦٦]

أو سواق الطبقة(٦٧) ، كما وقع فى هذا الخطأ بعض المستشرقين(٦٨) ، إذ أن من أهم مميزات هذا الأخير أن يكون من بين الطواشية الخصيان وذلك لعدة أسباب لعل أهمها جميعاً هو الحرص على سلامة المماليك الأحداث الذين كانوا يودعون الطباق وهم فى سن مبكرة ، وخوفا عليهم من الشذوذ الجنسى الذى إبتلى به المجتمع المصرى فى العصر المملوكى(٦٩) . حقيقة أن أغا الطبقة ومقدم الطبقة وظائف كل منهما غير واضحة المعالم لكننا على يقين تام بأن أغا الطبقة لم يكن من بين الطواشية الخصيان بدليل ماتذكره المصادر المملوكية من أن الأمير جركس القاسمى المصارع كان أغا لطبقة الزمام(٧٠) وتانى بك البجاسى أغا لطبقة الرفوف وكان له إبناً يدعى أحمد، زودنا السخاوى بترجمة له(٧١) . كما تشير المصادر المملوكية إلى أغا طبقة الميدان المعروف باسم نوروز المجنون (٧٣) . وحسبنا أن نذكر فى النهاية أن السلطان الغورى قد طلب من أغوات الطباق سنة ٩٢٢/١٥١٦ أن يقوموا بتطليق زوجاتهم حتى لاينظر أحد منهم خلفه عند خروجه لمحاربة العثمانيين(٧٤) . وفى ذلك أيضاً خير دليل على أن أغوات الطباق لم يكونوا من بين الطواشية الخصيان .

ونجد فى المصادر المملوكية أيضاً مايشير إلى أن لفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية ، حقيقة أن كلمة أخوة تعنى الأخوة فى الميلاد وليس الأخوة فى الأفكار وفى الدين وفى المبادىء ، الذين يطلق عليهم عادة إخوان . ومع ذلك فقد أمدتنا المصادر المعاصرة بالعديد من الحالات التى تقوم دليلا على أن لفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية ومن ذلك قول كتبغا عند سلطنة لاجين سنة ٦٩٦/١٢٩٦ «أنه خشداشى وأنا وهو شىء واحد(٧٥)» أما لاجين فقد قرر من جهته عند فرار كتبغا إلى الشام بعد سلطنة لاجين بأنه لو أراد القبض على كتبغا لما كان ذلك أمراً شاقاً عليه ، « غير أن كتبغا كفانا ذلك لأنه من أخوتنا(٧٦) » . كذلك نجد أن السلطان لاجين يحاول من تهدئة ثورة إخوانه فيقول لهم فى إحدى المناسبات مامعناه ، أنكم لن تتعرضوا

مرة أخرى لما سبق أن تعرضتم له من مماليك كتبغا ، لأنكم خشداشيتى ومحل إخوتى[٧٧] » . وتروى المصادر أيضاً أن السلطان الظاهر جقمق قد عهد بنيابة غزة إلى الأمير طوخ بن عبد الله الأبو بكرى بتوصية من إخوته المؤيدية أى مماليك السلطان المؤيد شيخ[٧٨] . وجاء أيضاً على لسان الأمير يلبغا ، بعد أن أحرز نصراً على السلطان الظاهر برقوق ، الذى أرسل إليه يطلب منه أماناً لنفسه سنة ١٣٨٩/٧٩١ ، لرسول السلطان مانصه « الملك الظاهر أخونا واخشداشنا ولكنه يختفى بمكان إلى أن تخمد الفتنة فإن الآن كل واحد له رأى وكلام(٧٩) » . ونقرأ أيضا فى أحداث سنة ١٤٣٨/٨٤٢ أنه فى « يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وقف جماعة من الأشرفية تحت القلعة بغير سلاح ووقع بينهم وبين خشداشيتهم الذين من طبقة الأشرافية من إنيات إينال وأخوته وقعة هائلة بالدبابيس(٨٠) » .

كل هذه النصوص تثبت بما لا يقبل الشك أن لفظ أخوة رادف لفظ خشداشية ، لذلك لا عجب إذا جرت العادة فى تلك الفترة من تاريخ مصر تحت حكم سلاطين المماليك أنه كلما كثرت خشداشية أمير من الأمراء تبعها بالتالى ازدياد فى مكانته لا فى البلاط المملوكى فحسب بل أيضا فى الدولة كلها ، إذ تروى المصادر المملوكية أنه فى سنة ١٢٥٣/٦٥١ صار الأمير أقطاى زعيم المماليك البحرية ، وهم أقوى الفئات المملوكية حينذاك ، فأضحى لا يقدر أحد من الأمراء أن يفتح كتابا ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمراً إلا بحضوره لكثرة خشداشيته . لذلك بعد مقتل أقطاى هذا بتدبير من السلطان أيبك ومملوكية قطز فى العام التالى سنة ١٢٥٤/٦٥٢ سارعت خشداشية من البحرية بالتحرك(٨١) الأمر الذى ترتب عليه تحرج مركز السلطان عز الدين أيبك ، فأخذ برأيهم ويعمل على إبعادهم حتى تم تشريدهم فى الشام وآسيا الصغرى ، حيث عملوا على خلق المشاكل له ، بل ساعدوا أيضا على اغتياله(٨٢) .

كذلك حرص بعض الخشداشية على تولية السلطنة إلى أحد زملائهم وفى حالة نجاحهم فإنهم لم يكونوا ليترددوا لحظة فى مساندة السلطان الجديد، الذى كان إذا اطمأن إلى ولاء خشداشيته فسرعان ما يعمل على رفعهم إلى أعلى الرتب والمناصب ويعهد إليهم بالوظائف الرئيسية(٨٣) ، بل وكثيراً ما كان يعمل إلى إقصاء الأمراء من ذوى السلطة والنفوذ ، وأيضا أصدقائهم حتى لا يكونوا شوكة فى ظهره ولا عائقه أمام خشداشيته . والتاريخ المملوكى ملىء بالأحداث التى تظهر بوضوح مدى الروابط الوثيقة بين الخشداشية ومدى التضامن المتبادل الذى كان يجمعهم تحت رئاسة واحدة ، ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى ما يذكره المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى فى معرض ترجمته للأمير جانبك نائب جدة من « أنه صار فى أيام انحطاط قدر خشداشيته الظاهرية فى الدولة الأشرفية إينال كالستر عليهم بالإنعام والإعطاء وقضاء حوائجهم والذب عما يقع منهم والقيام بعمل مصالحهم مع كثرة عددهم وإختلاف مواضعهم ومحل إقامتهم فى أى بلد كانوا فيها واستمر ذلك منه لهم دهرا طويلاً وهو لا يكل ولا يمل من ذلك(٨٤) » .

وتشير المصادر أيضا إلى حالة السلطان بيبرس البندقدارى الذى حرص على إستمالة خشداشيته من البحرية بتأمير عدد منهم والتجاوز أيضا عن سيئات بعضهم مثلما فعل مع الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى أعلن العصيان والاستقلال ببلاد الشام . بيد أن السلطان بيبرس أخذ فى العمل على إصلاح أمره معه(٨٥) ، وإلى حالة السلطان المنصور قلاوون الذى جرى على تكريم خشداشيته ، عندما عين الأمير سنجر نائبا على الشام بعد أيام من سلطنته سنة ٦٧٨/١٢٧٩، كما قرب إليه الأمير بلبان وصار يرعى له حق الخشداشية ويعوده أثناء مرضه فى بيته(٨٦) .

كذلك حرص الخشداشية على الوفاء لبعضهم البعض والعمل على إنقاذ من يقع منهم فى محنة ، ومن ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٧٠٩/١٣٠٩ عندما قرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع مماليكه القبض على بعض الأمراء ، «وأن كل عشرة يقبضون أميراً ممن عينه لهم ، بحيث تكون العشرة عند دخول الأمير محتفة به ، فاذا رفع السماط واستدعى السلطان أميرجاندار[٨٧] قبض كل جماعة على من عين لهم . فلما حصل الامراء فى الخـــدمة أحاط بهم المماليك ففهموا القصد ، وجلسوا على السماط ، فلم يتناول أحد منهم لقمة . وعندما نهضوا أشار السلطان إلى أمير جاندار ، فتقدم إليه وقبض المماليك على الامراء المعينين ، وعدتهم اثنان وعشرون أميراً ، فلم يتحرك أحد لقبضهم من خشداشيتهم ، وبهت الجميع[٨٨] » . ونقرأ أيضا فى نجوم ابن تغرى بردى أن خشداشية الأمير حسام الدين لاجين قبلوا الأرض بين يدى السلطان قلاوون وسألوه العفو عند زميلهم وأخوهم ، وذلك بعد أن قبض عليه لتحريضه بعض الأمراء بالخروج عن طاعته فاستجاب السلطان لهم وأطلق سراحه ، بل وأعاده إلى رتبته تكريما لخشداشيته[٨٩] ، ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان لاجين قد أقر كتبغا فى نيابة صرخد بالشام ، بعد أن طرده السلطان لاجين من السلطنة سنة ٦٩٦/١٢٩٦ وذلك لأنه خشداشة[٩٠] .

ومن مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم بعضهم لبعض حرصهم على الأخذ بيد من يتخلف منهم فى الترقى إذ جاء فى ترجمة الأمير سيف الدين يونس ابن عبد الله العلائى المتوفى سنة ٨٦٤/١٤٥٩ «أن أصله من مماليك الظاهر برقوق الكتابية ، ثم ملكه الناصر فرج وأعتقه ودام من جملة المماليك السلطانية سنين كثيرة لا يلتفت إليه فى الدولة إلى أن تأمر عشرة فى أوائل دولة السلطان الظاهر جقمق مراعاة لخاطر الأمير اينال العلائى الأجـــرود ، لأنه كان خشداشه من تاجر واحد[٩١] » .

ولم يصل الأمير كتبغا بن عبد الله الحموى اليلبغاوى إلى وظيفة أتابك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه، فكلاهما مملوك الأمير يلبغا العمرى أتابك العساكر أيام السلطان حسين بن شعبان(٩٢).

وجاء فى نفس المصدر أيضاً أن ابن عبدالله القلمطاوى لم يترق إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية إلا بسبب كونه خشداش السلطان برقوق(٩٣) كذلك يسجل لنا السخاوى أن السلطان الظاهر خشقدم قد اشتهر بالعطف على خشداشيته والعمل على ترقيتهم دائماً والأخذ بيد من كان قد تخلف منهم. ونذكر على سبيل المثال الأمير قانم من صقر خجا الجركسى الذى صار أتابك العساكر ، فعظم أمره ونالته السعادة وقصده الناس فى الحوائج ، وعمر الأملاك الكثير(٩٤) ، ومغلباى طاز الأيو بكرى الذى جعله خشداشه خشقدم أمير طبلخاناه دفعة واحدة(٩٥) .

وبلغ من تكريم بعض الأمراء لخشداشيتهم أن الأمير جمال الدين أقوش السلحدار قد أوصى سنة ٦٧٨/١٢٧٩ حسبما جاء فى تاريخ ابن تغرى بردى بأن يدفن بعد وفاته عند خشداشه أيدكين البندقدارى نائب دمشق وأستاذ السلطان الظاهر بيبرس(٩٦) .

وتروى المصادر أيضاً أن الخشداش كان كثيراً ما يستولى على موجود زميله وأخاه إذا توفى أثنـــاء معركة من المعارك(٩٧) بل ذهب أيضاً إلى الاستيلاء على إقطاعات من مات من أخوته وزملائه فى الوباء كما حدث بمصر سنة ١٤٩٢/٨٩٧ أيام السلطان الأشرف قايتباى(٩٨) .

وكان من الطبيعى أن يقابل مايكنه الخشداشية من الحب والولاء لبعضهم، كراهية شديدة لغيرهم ممن لم يكونوا من إخوتهم وزملائهم ، بدليل أن حالة المملوك الذى كان يتعرض لسخط أولئك الخشداشية كانت كثيراً ما تقابل بشىء من الرثاء والعطف من جانب المؤرخين الذين دونوا لنا

تاريخ تلك الفترة من عصر سلاطين المماليك ، والذين كانوا يطلقون على هذا المملوك لفظ أجنبي أو غريب[٩٩] .

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما يذكره المؤرخ ابن تغرى بردى بصدد الأمير بكتمر الساقي الذى كان يعتبر غريباً فى قصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، ذلك أنه لم يكن له خشداش وكان وحيداً بسبب تحزب جميع الخاصكية ضده برغم حظوته عند السلطان المذكور[١٠٠] . كذلك كان شأن الأمير طقزدمر الحموى ، إذ اعتبر غريباً فى بيت السلطان لأنه لم يكن له خشداش ، برغم تربيته فى بيت المنصور قلاوون أثناء إمارته[١٠١] .

كما أطلقت بعض المصادر على الأمير جانبك الصوفى صفة المجنون، لتركه خشداشيته وميله إلى يشبك الجكمى ، وهو رجل غريب وليس له شوكة ولا حاشية[١٠٢] . ولعل أهم ما يبرز العلاقات الوثيقة بين الخشداشية بعضهم البعض أن شجرة الدر اعتبرت نفسها خشداشاً للمماليك الصالحية رغم كونها إمرأة واستطاعت بمساعدتهم ومعونتهم أن تتولى السلطنة ، بل حاول خشداشيتها من هؤلاء الصالحية بكل قوتهم أن يحولوا دون قتلها ، غير أنهم فشلوا فى تحقيق ذلك إزاء حرص مماليك زوجها السلطان عز الدين إيبك على الأخذ بثأر أستاذهم الذى دبرت شجرة الدر اغتياله[١٠٣] .

لذلك كان من الطبيعى أن يكون تنكر السلطان لخشداشيته بمثابة نذير خراب ودمار سلطنته بدليل ما حدث بعد سلطنة لاجين سنة ٦٩٦/١٢٩٦ بمعاونة خشداشيته غير أنه سرعان ما نسى ما قطعه على نفسه لهم من عهود ومواثيق ، وعهد إلى مملوكه منكوتمر بنيابة السلطنة ، فاستبد بالأمراء من خشداشية وأخوة السلطان لاجين ، فكان ذلك حسب قول المؤرخ ابن تغرى بردى بمثابة « وبالا على كليهما[١٠٤] » .

بيد أن هذا الترابط الواضح بين الخشداشية بعضهم البعض لم يمنعهم فى بعض الأحيان من الانقسام على أنفسهم ، خاصة عند تنصيب أحد السلاطين الجدد ، وذلك عندما ينحاز فريق منهم إلى جانب أمير ، وينضم فريق إلى جانب أمير آخر منهم ، وكان كثيراً مايترتب على هذا الانقسام وتلك الفرقة نشوب الحروب الداخلية من أجل الوصول إلى العرش والفوز بالسلطنة . والتاريخ المملوكى ملىء بمثل هذه الحوادث ، وإن كان أشهرها على الإطلاق ما وقع بين أيبك وأقطـــاى ، وبين لاجين وكتبغا ، وبين برقوق وبركة الجوبانى(١٠٥) .

مما سبق يتضح لنا أن العائلة المملوكية كانت تتألف أساساً من الأستاذ وهو الأب ، والخشداش وهو الأخ ، والأغاو هو الأخ الأكبر والآنى وهو الأخ الأصغر بدليل أن كل من لم يكن عضواً فى هذه العائلة كان يعتبر بمثابة غريب أو أجنبى ، كما سبق أن نوهنا ، يعيش فى رحاب وكرم هذه العائلة المملوكية ، ويتجلى هذا بوضوح أيضا من ملاحظة أحد المعاصرين عـن المماليك السيفية(١٠٦) وهم الذين ينقلون من خدمة أمير إلى خدمة سلطان . إذ يتحدث عنهم بلهجة ملؤها السخرية والاستخفاف فيقول : «السيفية أعنى مماليك الأمراء الذين خدموا فى باب السلطنة بعد موت أساتذتهم ، وهم كل شىء لأنهم فى الغالب ، مع الغالب ولا يكترث أحدهم بسلطان بعينه ، غير أن من تسلطن صاروا له مماليك كما هو مثل العامة من تزوج بأمى صحت له يا أبى(١٠٧) » .

بجمل القول أن هذا المؤرخ يعيب على تلك الفئة من المماليك تفكك أواصر الروابط بينهم بعد توزيعهم وتفريقهم الواحد عن الآخر . إذ أنه كتب عليهم أن يخدموا فى مجموعة لا تربط أفرادها أية صلة عائلية ومن ثم فقد عرفت هذه الطائفة باستقلالها وبحرمانها أيضا من الحياة العائلية ، ونقصد بها طبعاً العائلة العسكرية المملوكية .

الحـــواشى

(١) Lecerf, Notes sur la famille dans le monde arabe et Islamique, Arabica, I (1956), pp.30—40.

(٢) Ahmad Abd ar-Raziq, la femme an temps des Mamlucks en Egypte, Le Caire 1973, pp. 123—174.

(٣) Ahmad Abd ar-Raziq, la Femme, pp. 164—170.

(٤) D. Ayalen, L'Eselavage du Mamleuk, Jérusalem 1951, pp. 27---31.

(٥) لفظة معربة لأنه يقال لأنه ليس فى اللغـة العربية كلمة أصـيلة تجتمع فيها الذال والسين ، أنظر : القاموس المحيط مادة « سيذة » . وأستاذ معربة عن كلمة أسـتاذ الفارسية وهى تعنى السيد أو المشهور بعمله انظر : محمد موسى هنداوى ، المعجم فى اللغة الفارسية وقد كان لقب الأسـتاذ يطلق فى عصر المماليك أيضاً على التاجر أو السيد الذى يشترى المـلوك ويقوم بتربيته ولعل خير دليل على ذلك ما ذكـره حسام المجرى بصدد سفارته إلى المملوك غازان حين ذكر له ما نصـه « إنا نحن يشترونا التجار من البلاد ونحن صغار والتاجر الذى يشترينا يسمينا باسمه وكان إسم أستاذى مجير الدين فلقبونى المجيرى » انظر :

Zetterstéen, Beitrage zur geschichte der mamluken : sultane Leiden I919, p. 101.

بيبرس الدوادار ، زبدة الفـكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٣٣٢٥ ، ورقة ٩٨ أ ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ١ ، ص٥٩ — ٦٣ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليـكى فى مصر والشام ، والقاهرة ١٩٦٥ ، ص٣٨٩ .

(٦) كلمة أغا أصلها آقا وهى من كلمات اللغة المغولية ، ومعناها الأخ الـكبير وترد كثيراً فى تاريخ المغول وقد دخلت هذه الـكلمة فى اللغة الفارسية واستخدمها الـكتاب الذين جاءوا بعـد غزو جنـكيز خان ، وجمعها آقاان أو آقاوان أو آقايان . انظر : عبد اللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خـدمة الآثار ؛ ص٢٩ ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ١ ص ٣٦ .

(٧) كلمة إنى أو إينى جمعها إنيات أصلها إيناك أو إينا كا وهى من كلمات اللغة المغولية وتعنى الأخ الصغير وهى من الـكلمات المألوفة أيضاً فى تاريخ المغول انظر .

Pevet de Courteille. Dietiemmaire turk-eriemtal, Paris 1870, P. 138,

ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٦ ، ص ٨٣٩ ؛ جـ ٧ ، ص ٧ ، ٦١٢ ؛ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٨ — ٢٠٧٣ ، جـ٣ ، ورقة ١٦٤ أ ؛ جـ٤ ، ورقة ٢١٠ب؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، جـ٤ ، ص ٩ ، ٣٠٧ .

(٨) خشداش أو خجداش معرب اللفظ الفارسى خواجاناش أى الزميل فى الخدمة أو الرق أو العتق .

انظر المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٧٢ ، جـ١ ، ص ٦٣٦ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ١ ؛ ورقة ١٨٣ أ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٣ ؛ السيد الباز العرينى ، المماليك ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٤١ ، ٢١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر القاهرة ١٩٦٤ ، جـ١ ، ص١٨ .

(٩) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٩٠ .

(١٠) Muir, The mamluké or slave dynasty of Egypt, London 1896, p. 225.

(١١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ١ ، ص٨٧ — ٨٨ .

(١٢) انظر حجة وقف السلطان الغورى (أرشيف وزارة الأوقاف رقم ٨٨٣) .

(١٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٥٩٩ .

(١٤) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى : ورقة ٥٥ ب ؛ النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص١٠٠ .

(١٥) ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٩٣ — ١٨٩٥ ، جـ ١ ، ص ٢٧١ ؛ حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٧١ .

(١٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورينا ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص٢٨٢ — ٢٨٣ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 182, Ayalen, L'Esclavage; p. 35.

(١٧) تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ — ١٩٤٢ ، جـ٩ . ص١٨١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص ٣٧٧ ، ٥٧٨ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ — ١٣٥٥ هـ ، جـ٣ ، ص٦٦ ؛ جـ٦ ، ص١٨٤ ، ٢٢٦ .

(١٨) السخاوى ، الضوء اللامع جـ ٣ ، ص٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ؛ جـ ٤ ص٨ ، ١٠ ، ١٢ ؛ جـ٦ ، ص٢٠١ .

(١٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٧ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، كاليفورنيا ١٩٣٠ — ١٩٤٢ ، ص٧٢٠ ؛ المنهل الصافى ، جـ ١ ، ورقة ٣٦ ب ، ١٩٩ ب ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ب ؛ جـ ٢ ، ورقة ١٩٦أ ، ١٥٧ب ؛ جـ٥ ، ورقة ٨أ ، ١٠ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع جـ٣، ص٦٦ ؛ جـ٦ ، ص١٨٤ ، ٢٢٦ .

(٢٠) السخاوى، الضوء اللامع ، جـ٢، ص٣١٧ ، ٣٢٠ ؛ جـ٣، ص٢٦ ؛ ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ، القاهرة ١٨٦٧ — ١٨٦٨ ، جـ٥ ، ص٣٨١ .

(٢١) ابن تغرى بردى حوادث الدهور ، ص٧٢٠ ؛ المنهل الصافى ، ورقة ٤٢١ب؛ النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٥٧٩ ، ٥٩١ ؛ ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، حيدر آباد ١٩٢٩—١٩٣٢ ، جـ١ ، ص٣٩٥ ؛ جـ٢ ، ص ١٧٤ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٨ ، ٦٠ ، جـ٦ ، ص١٩٥ .

(٢٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٣٧٧ .

(٢٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٥٥ .

(٢٤) تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص ١٨٠ ، ٤٤٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٠ ، ٦١٥ ، ٧٦٧ ؛ ٧٧٥ ، ٧٩٣ ، حوادث الدهور ، ص ٧١٩ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٨ ، المنهل الصافى ، جـ ١ ، ورقة ١٥٦ب ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٩٥ ، ٤٢٨ ، ٤٨٠ ، جـ ٢ ، ص١٧٤ ، جـ٣ ، ص٣٧٠ ، جـ٤ ، ٤٨٩ ، السخاوى ، الضوءاللامع ، جـ٣ ، ص٨ ، ٦٠ ، جـ٦ ، ص١٩٥ .

(٢٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص٤ ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ٣٠٨ ، ٥٧٣ ، المنهل الصافى ، ورقة ٢٦٤ب ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص١٨٥ .

(٢٦) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٧ ، ٣٠ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ٣٤٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبقة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٣١٩ ، حوادث الدهور ، ص٦٤٥ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص١٩١ .
ومع هذا فمن الملاحظ أن لفظ مخدوم كان يعتبر بمثابة مرادف للفظ أستاذ ، انظر : تاريخ ابن الفرات، جـ٩ ، ص٢٣ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٧٤، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ١ ، ورقة ١٥٨ب .

(٢٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٥ ، ص ٤٥٢ ، ٢٥٤ ، ٤٥٥ ، جـ٤ ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٣٨٤ ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص٥٦ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ابن قاضى شهبة ، الأعلام بتاريخ الإسلام ، مخطوط بأكسفورد تحت رقم ١٤٣ ، ورقة ٣٩ب .

(٢٨) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص١٧٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص٢٤٧ ، ٢٩٤ .

(٢٩) Zetterstéen, Goschichte, pp. 41,51 ، ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٢ — ١٩٣٩ ، جـ١٤ ، ص٢٨١ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٨٢٠ ، ٨٣٢ ، جـ٢ ، ص٥٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص١٠٣ ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٢٣٦ ، ٣٢٣ ، جـ٧ ، ص٨٤ ، ٤١١ ، حوادث الدهور ، ص١٣٢ .

(٣٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص٣٦٥ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٣٤ب .

(٣١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص٣١٨ — ٢١٩ .

(٣٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص٣٦٦ .

(٣٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص١٩ .

(٣٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٨٦٦ .

(٣٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ١ ، ص٢٢٠ .

(٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص٢٢٩ .

(٣٧) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٣٣٢٥ ، جـ٩ ، ورقة ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(٣٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ١ ، ص١٨٩ .

(٣٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٦٠ .

(٤٠) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ١ ، ص٣١١ .

(٤١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص٢٣٩ ، ٢٤٠ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٤٦٩ .

(٤٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٧١٩ .

(٤٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ١ ، ص٢٨٠ .

(٤٤) العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط باستنبول تحت رقم ٢٣٩١ — ٢٣٩٤ ، مجلد ٧٠ ، ورقة ٧٢٨ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص٦ .

(٤٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٤٣٦ .

(٤٦) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٢١٦أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٣٢٢ ، جـ١٠ ، ص٢٧٢ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ١ ، ص١٦٨ .

(٤٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، جـ٣ ، ص٢٤٠ ، ٢٨٦ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ١٧٣ب ، جـ٣ ، ورقة ٢٧٧ ،

جـ ٤ ، ورقة ٢٩٦ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ ٦ ، ص ٤٧٩ ، جـ ٧ ، ص ٩٧ ، ٢٦٠ ، ٦٨٨ .

(٤٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٢٨ .

(٤٩) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص١٥٠ .

(٥٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٨٨ ، المنهل الصافى جـ ١ ، ورقة ١٦٥ ب ، جـ ٢ ، ورقة ١٧٣ ب ، السخاوى ، الضـوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٢٨١ .

(٥١) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٤ ، ص٩ .

(٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٤٦٩ .

(٥٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص٢١٥ .

(٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٤٦٩ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ١٧٤ أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٣٠ .

(٥٥) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ١ ، ورقة ١٧٤ أ ، جـ٣ ، ورقة ١٧٠ أ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ١ ، ص٤٦٩ .

(٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٦٦ .

(٥٧) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعـة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٩٥ .

(٥٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٩٥ .

(٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٤٣ ، ٧٤٩ .

(٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا، جـ٦ ، ص٥٢٥ ، ٥٣٩ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٤٢ب ، ٥٥ أ .

(٦١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٢٢٦ أ .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٣ ، ص٩٧ .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص٥٦٩ .

(٦٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٤٩٨ .

(٦٥) انظر : Ayalon, L'Esclavage, p. 33.

(٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعـة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٣١٥ ، السخاوى، الضوء اللامع ، جـ١ ، ص١٥٣ .

(٦٧) تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ، ص١١٥ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، باريس ١٨٩٤ ، ص١٢٢ ، القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩١٤ — ١٩٢٨ ، جـ١١ ، ص١٧٣ .

(٦٨) Peliak; Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanen, London 1939, p. 3, nete (1).

(٦٩) عبر المقريزى تعبيراً صريحاً عن انتشار هذا الداء بين المماليك بمصر فقال بأنه : « فشى فى أهل الدولة محبة الذكران » حتى عمدت النســاء الى التشبه بالذكور فى ملبسهم ليستملن قلوب الرجال ، انظر : الخطط ، ج٢ ، ص١٠٤ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة فى مصر المملوكية ، ص١٠٢ .

(٧٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٦٩ ، حوادث الدهور ، ص٣٥٠ ، المنهل الصافى ، ج١ ، ورقة ١٩٤ب ، ١٩٥ أ ، ج٢ ، ورقة١٩١ أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٧١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج٢ ، ص ١٦ .

(٧١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٢٦ .

(٧٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج٣ ، ص ٣٠١ ، ج ٤ ، ص ٩٨ .

(٧٣) عن الطواشية : انظر :

Ayalon, Studies on the structure of the mamlûk army, BSOAS, XV/3 (1953), pp. 467 — 467; Salâh El-behiry, Les Institutions de l'Egypte au temps des Ayyûbîdes, Lille 1972, pp 46—66.

(٧٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج٥ ، ص ٦ ،

Ayalon, L'Esclavage, p. 34; Ahmpd Abd ar-Raziq, La Femme, p, 172.

(٧٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٣٤٨ ، ابن حجر ، الدرر الـكامنة ، ج٣ ، ص٢٦٣ .

(٧٦) ابن حجر ، الدرر الـكامنة ، ج٣ ، ص٣٦٣ .

(٧٧) مفضل بن أبى الفضائل ، كتاب النهج الســديد والدر الفريد فيما بعــد تاريخ ابن العميد باريس ١٩١١ ، ج١٤ ، ص٥٩٧ .

(٧٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٤ ، ورقة ٣ أ .

(٧٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعــة كالبفورنيا ، ج٥ ، ص ٤١٦ ، تاريخ ابن الفرات ج٩ ، ص٥٢ .

(٨٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج٣ ، ص١٣ .

(٨١) المقريزى ، الســلوك ، ج١ ، ص ٣٨٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعــة القاهرة ، ج٧ ، ص ١٢ .

(٨٢) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٩٣ .

(٨٣) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص١٠٣ ، ٢٨٦ .

(٨٤) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى جـ١ ، ورقة ٣٤٦ أ .

(٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص١٠٣ .

(٨٦) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص ٢٨٦ .

(٨٧) اسم لوظيفة يتألف من ثلاث كلمات : أمير العربية ، وجان الفارسية والتركية ومعناها الروح ، ودار الفارسية ومعناها ممسك ، والمعنى الكلى الأمير الممسك للروح ، انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٢٠ ، ٥٩ ، جـ٥ ، ص٤٦١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، جـ ١ ، ص١٩٥ — ١٩٨ .

(٨٨) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ص٧٦ .

(٨٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص٣٧ .

(٩٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص ٦٧ .

(٩١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٧ ، ص٦٣٦ .

(٩٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٥٧ أ .

(٩٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٣ ، ورقة ٧٤ أ .

(٩٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ٦ ، ص ٢٠١ .

(٩٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ١٠ ، ص ١٦٤ .

(٩٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٧ ، ص٢٩٠ .

(٩٧) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٥١٢ .

(٩٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، جـ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٩٩) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ١٧٠ ، وانظر أيضاً الحواشى التالية .

(١٠٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٩ ، ص٣٠٠ ، المنهل الصافى ، جـ٢ ، ورقة ٨٥ ب .

(١٠١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ٣ ، ورقة ١٩١ب .

(١٠٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، جـ٦ ، ص ٥٢٦ .

(١٠٣) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص٣٧٧ ، ابن شاكر ، عيون التواريخ ، مخطوط بدار الكتب ، تحت رقم ١٣٧٦ تاريخ ،

حـ٢٠ ، ورقة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، حـ٦ ، ص٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(١٠٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، جـ٨ ، ص١٠٠ ، المنهل الصافى ، ورقة ٥٥ ب .

(١٠٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، حـ ٧ ؛ ١٢ ، ١٣ ، حـ ٨ ، ص٦٨ ، المنهل الصافى ، حـ١ ، ورقة ٣٣٦ أ .

(١٠٦) انظر ما جاء بصدد هذه الفئة من المماليك فى :

Ayalon, The Mamluk army, BSOAS, XV/2 (1953), pp. 220—222.

(١٠٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص٤٤٣ .

محمد العياشي

وجهاده ضد الأسبان والبرتغال

١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م

للدكتور شوقي عطا الله الجمل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية — جامعة محمد الخامس . الرباط

أولا — التعرف بالعياشي والظروف التي ظهر فيها :

العياشي — أو كما يعرف به صاحب نزهة الحادي — هو الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد الزياني ، وقد اشتهر بلقب العياشي . لكنه لا ينتمي إلى القبيلة البربرية التي يقال لها (إيت عياش) . وقد كان إماماً عالماً فقيهاً مشاركا في عدة فنون من العلوم . وكان رحمه الله — مجاب الدعوة ، ما دعى الله في شيء ألا يجيب له — شوهد ذلك منه مراراً ، وله كرامات كثيرة ، وأهله من قبيلة بني مالك بن زغبة من العرب الهلالية[1] .

ولا نعرف الكثير عن نشأة العياشي ولا عن تاريخ ميلاده لكن المعروف أنه قضى فترة شبابه في (سلا) ، وتعلم فيها على يد فقهائها ، وكان من تلاميذ الشيخ (أبي محمد سيد عبد الله بن حسون السلامي) ومن أتباعه المقربين إليه ، وقد اشتهر بالورع والتقوى والتصوف وذاع صيته ،

ويقال إن شيخه السالف الذكر نفسه كان يذيع في المجالس محاسنه ، ويطيل في الثناء عليه ويدعو له دائماً قائلا « اللهم جاز سيدى محمد العياشى أفضل الجزاءات — وكافئه عنا أحسن المكافآت ... واجعل مكافأتك له انكشاف الحجب عن قلبه حتى يكون أقرب الله منه ... اللهم لا تحرمه توجهه إليك وانقطاعه لحديثك »[٢] .

كذلك وصفه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ابن أحمد العياسى فى شرحه الصغير للمرشد المعين بأنه « الولى الصالح ، العالم العامل ، قطب الزمان ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، المرابط فى الثغور مدة عمره ، ذى الكرامات الشهيرة العديدة ، والفتوحات العظيمة الحميدة ، من لا شبه له فى عصره — ولا فيما قرب منه ولا نظير ولا معين له على نصرة الإسلام ...[٣] .

كذلك أورد الأفرانى — ما قاله فيه الكثيرون من العلماء — ثم ختم بقوله « إن ثناء الناس عليه نظماً ، ونثراً كثير جداً يطول تتبعه[٤] .

وكان ظهور العياشى فى أواخر الدولة السعدية ، فى النصف الأول من القرن السابع عشر (أوائل العقد الثانى من القرن الحادى عشر للهجرة) . وهذا يوضح أهمية هذه الشخصية ، والدور الذى لعبته على مسرح التاريخ بحيث تستحق أن نلقى عليها الأضـــواء ، فقد نهض لمدافعة المستعمرين الطامعين فى المغرب وثغوره فى وقت كانت السلطات الحاكمة فى المغرب من الضعف ، والانقسام بحيث أصبحت عاجزة عن أن تتفرغ للجهاد الخارجى ، بل بالعكس وصـــل الأمر إلى التفريط فى الثغور بل ومهادنة المستعمر والارتماء فى أحضانه ليؤيد أحد المتنازعين على الساحة[٥] .

فقد كان انتهاء عصر السلطان أحمد المنصور (١٠١٢هـ) — الذى اشترك فى موقعة وادى المخازن الكبرى ، ثم أعقب ذلك بتوجيه جيشه صوب بلاد السودان حيث أحرز الجيش المغربى انتصارات ضخمة — إيذاناً بانتهاء

عظمة الدولة السعدية . ونذيراً بفترة انحلال وانقسام وضعف أثارت من جديد أطماع الدول الاستعمارية فى الثغور المغربية ، فطمعت فيها أسبانيا والبرتغال ، بل ودخلت انجلترا فى هذا الصراع .

فبعد وفاة المنصور بادر أهل فارس إلى مبايعة (زيدان بن المنصور) بمجرد ما انتهوا من دفن الملك الراحل — وكان (زيدان) عاملا على إقليم (تادلا) استصحبه أبوه معه إلى (فاس) ثم استخلفه عليها قبل وفاته . وبلغ خبر الوفاة والبيعة إلى مراكش ثارت ثائرة أهلها ورأوا فى تصرف الفاسيين واستبدادهم بالأمر دونهم استخفافاً بشأنهم فبايعوا (أبا فارس ابن المنصور) استناداً إلى أنه كان الخليفة الرسمى لوالده بحاضرة ملكه ، وبدلا من أن يسعى ذو المكانة والنفوذ فى تلافى الانشقاق وحل المشكل — تسرع علماء فاس فأفتوا بوجوب قتال المراكشيين عملا بحديث :

إذا بويع الخليفتين فاقتلوا الآخر منها .

وهكذا قامت الحرب بين جيش الملكين الأخوين والتقى أتباعهما على ضفة نهر (أم الربيع) على أن (أبا فارس) لم يحضر القتال بنفسه فقد أناب عنه أخاه الثالث الشيخ (المأمون) بعد إخراجه من السجن فقد كان سجيناً فى (مكناس) بسبب قيامه بالثورة على أبيه فقبض عليه وسجنه فى (٩٩٧ هـ) ، بل اشترك فى هــذه المعارك ولدا (المأمون) (زعودة) و (عبد الله) . وظل الأخوة الثلاثة (زيدان ، وأبو فارس ، والمأمون) يتنازعون الملك مدة طويلة دون أن يتم الأمر لواحـــد منهم ، فعمت الاضطرابات أرجاء البلاد ، وعانى أهل فاس ، وأهل مراكش الكثير من الظلم فقد تعرضوا للنهب والسلب والسجن ، والتقتيل ، فكان كلما استولى أحد المتنافسين على إحدى المدن أعمل السيف فى رقاب أهلها وسلب أموالهم وسجن نساءهم وأطفالهم ، ثم إذا خرج وجاء أخوه عمل مثله .

وانتهى الأمر بأن خنق عبد الله بن المأمون عمه (أبا فارس) سنة (١٠١٨ﻫ) واستقل هو (بفاس)، وكانت بينه وبين أبيه (المأمون) معارك — انتهت بقتل الإبن سنة (١٠٢٢ ﻫ) — وهكذا دواليك، ويذهب الطائع بين رجلي العاصي — كما تقول — صاحب تاريخ الدولة السعدية. وهو مؤلف مجهول — حتى انتهى الأمر لزيدان بن المنصور[٦] .

انتهى الأمر (لزيدان بن أحمد المنصور) وإن لم تكن له السيطرة إلا على (مراكش) فلما مات سنة (١٠٣٦ ﻫ) خلفه إبنه (عبد الملك أبو مروان)، وتكررت المأساة فقد ثار عليه أخواه الوليد، وأحمد، واستقل أحمد بفاس ثم قتل، كما اقتحم الوليد مراكش سنة (١٠٤٠) وقتل أخاه عبد الملك وبويع باسم (أبي يزيد الوليد بن زيدان) ولم يكن في الواقع إلا أميرا (مراكش) وحدها — لأن البلاد المغربية أصبحت في ذلك العهد بلاداً متفرقة الكلمة مقطعة الأوصال، وثوراتها مستمرة، وليس بها رأس واحدة بل في كل بلد رأس أو رؤوس. وقد شبهها البعض بالأندلس أيام ملوك الطوائف[٧] .

ولم يقتصر الأمر على الاضطرابات الداخلية — فقد أضافت الظروف الخارجية إلى عوامل الاضطراب هذه.

ففي الأندلس كانت أوضاع المسلمين والظروف المحيطة بهم تمثل عاملا آخر له أثره البالغ على المغرب، فبعد سقوط أشبيلية سنة (١٠٤٨) اقتصر ملك الأمراء المسلمين في أسبانيا على مملكة غرناطة حيث بقيت فترة في أيدي (بني نصر)، لكن سقطت غرناطة في النهاية في عام (٨٩٧ﻫ — ١٤٩٢م) في يد (فرديناند الخامس) رهاجر كثير من المسلمين من الأندلس قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها، ولجأ عدد كبير منهم إلى المغرب، أما الذين بقوا من المسلمين في أسبانيا بعد سقوط غرناطة فقد عوملوا في المبدأ

معاملة لا بأس بها وسمح لهم بالإبقاء على ممتلكاتهم ، لكن لم يلبث الأسبان أن ضيقوا عليهم الخناق ، واضطروا كثيرين منهم لاعتناق المسيحية ، وساموا الباقين سوء العذاب ، ووصلت موجة الاضطهاد إلى ذروتها فى عهد فيليب الثالث (Philippe III) الذى وصل إلى العرش عام (١٥٩٨) وبتحريض الراهب المتعصب زيمنس (Ximenes) أصدر فى (١٦٠٩) قراراً بترحيل جميع المتبقيين من عرب الأندلس إلى المغرب . وقد استقر بعض اللاجئين من الأندلس فى (تطوان) بينما استقر البعض الآخر فى (الرباط) و (سلا) ، وحصنوا قصبة (سلا) وبنوا فيها الدور والقصور . وفى مستهل القرن السابع عشر ازدحمت (الرباط) و (سلا) بالذات — إثر الهجرة الأندلسية الكبرى بهؤلاء الموريسكيين (moriscos) ودخلوا فى طاعة (زيدان بن المنصور) ملك مراكش فأقر عليهم القائد (فاضل الزعرورى الأنصارى)[٨] .

ويحدثنا مؤرخ معاصر لهذه الأحداث هو (أبو العباس أحمد بن محمد المقرى التلمسانى) عن نهاية مأساة الموريسكيين بالأندلس فيقول :

« كان إخراج النصارى أيامهم — بهذا العصر القريب عام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ، ومن لا يخشى الله (تعلى) فى الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة ، وأما الذين خرجوا بنواحى تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك (بتطوان) و (سلا) و (فيجة) الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا (سلا) كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة (سلا) وبنوا بها القصور والحمامات والدور . وهم الان بهذا الحال[٩] .

وبالإضافة إلى أحداث الأندلس هذه - كان هناك عامل آخر خارجي - انعكست آثاره على المغرب في هذه الفترة - وهو نشاط الأتراك العثمانيين على حدود المغرب الشرقية ، واتجاه أنظارهم بالتالي لبلاد المغرب ، ففي عام (١٥١٨) أعلن خير الدين - الذي لقب بلقب باربا روس (أي ذي اللحية الشقراء) ولاءه للسلطان العثماني ، وتبعية البلاد الخاضعة له للامبراطورية العثمانية ، ثم أعقب ذلك نجاح العثمانيين في القضاء على الأسرة الحفصية في تونس إذ تمكن (سنان باشا) من اقتحام (الباستيون)[١٠] في (٢٥ جمادى الأول سنة ٩٨١ - ٣ سبتمبر ١٥٧٣) وأعلن إلحاق القطر التونسي بالولايات العثمانية - فكان طبيعياً أن يمد الأتراك أبصارهم إلى المغرب الأقصى. وقد مرت العلاقات التركية المغربية في مراحل متعددة ليس هذا المجال التعرض لها لأنها تحتاج لدراسة خاصة - لكن نشير إلى العلاقات في الفترة التي تخص موضوعنا . فقد أعقب معركة وادي المخازن (٩٨٦هـ - ١٥٧٨ م) صفاء الجو بين الدولتين ، لكن عادت العلاقات إلى التوتر حتى أن السلطان (مراد الثاني العثماني) أعد قوة بحرية كبرى على رأسها وزير البحر (علوج) للابحار إلى الجزائر ومنها إلى المغرب ، لكن أحمد المنصور أرسل وفداً سياسياً على رأس الكاتب (أبو العباس أحمد بن يحيي الهزالي) مع هدية عظيمة للسلطان مراد ، ونجح الوفد في النهاية في تصفية الجو ، وفي اقتناع السلطان (مراد العثماني) بأن يرسل للمغرب وفداً للتفاوض بدلاً من أسطول للحرب . فصارت العلاقات بين الدولتين على أتم ما يكون من الصفاء والوداد وحسن التفاهم .

لكن الانحلال الذي أصاب الدولة السعدية بعد المنصور السعدي - أطمع الأتراك في المغرب فسعوا لتحقيق أحلامهم السابقة واتصلوا بالقبائل المغربية الشرقية ، كما فتحوا أبواب البلاد الخاضعة لسلطانهم لتحتضن

الخارجين عن السلطة والطامعين فى الحكم ، فأصبحت هذه المناطق على حدود المغرب بؤرة تجمع الخارجين عن السلطات الحاكمة .

وهكذا لعبت مناطق مثل (الجزائر) و (وهران) و (تلمسان) دوراً هاماً فى السياسة المغربية فى هذه الفترة .

وبالمثل فيما يتعلق بالأطماع الأجنبية فى الثغور المغربية فى هذه الفترة فقد كان مركز البرتغال قد أخذ يضعف ، فسقط حصن سنتا كروز (أكادير) فى يد السلطان (أبى عبد الله الشيخ) فى ١٢ مارس (١٥٤١) ، واضطروا بعد ذلك مباشرة إلى إخلاء حصونهم فى (أسفى) و (أزمور) ، ثم أخلوا (أصيلا) فى عام (١٥٤٩) ، و (القصر الصغير) بعد ذلك مباشرة فى (١٥٥٠) — فلم يبق فى أيدى البرتغال سوى (طنجة) و (سبتة) فى الشمال و (الجديدة) فى الجنوب ، وكانت هذه الموانى تعانى ضغطاً مستمراً من المغاربة بقصد تحريرها والدليل على ما كانت تعانى منه البرتغال من الضعف والعجز أن كثيرين من البرتغال نادوا بأن الظروف تستدعى أن تقوم البرتغال وأسبانيا بعمل مشترك يصون مصالحهما فى المغرب — وقد كتب فى هذا المعنى (Giovanni Battista Gesia) فى ٢٣ إبريل ١٥٧٦ فذكر « أن الموقف الصعب فى المغرب يجعل من الواجب أن يتخذ كل من فيليب الثانى (Philippe II) ، و د . سبشتيان (D. Sebastean) عملا موحداً لوضع أيديهما على المناطق الهامة بهذه البلاد وتقسيمها بينهما [11] .

لكن بعد هذا النداء بعامين تقريباً جاءت هزيمة (الملك سبستيان) ومقتله فى موقعة وادى المخازن فى (جمادى الثانى ٩٨٦ — ٤ أغسطس ١٥٧٨) حاسمة فيما يتعلق بنفوذ البرتغال فى المغرب .

لكن التطور الذى آلت إليه الأمور فى المغرب بعد وفاة أحمد المنصور

— كما أسلفنا أطمعت الدول الاستعمارية الأخرى الطامعة فى الثغور المغربية لتمارس نشاطها فى هذا المجال ، وكانت أسبانيا فى مقدمة هـذه الدول خاصة إن كارثة وادى المخازن بالنسبة للبرتغال لم تقتصر على موت الملك — لكنها أدت إلى ضم البرتغال إلى التاج الأسبانى — إذ لم يكن لسبستيان وريث للعرش من أسرته ، فانتقلت بذلك إلى يد فيليب الثانى بضربة من ضربات الحظ غير المتوقعة — الأملاك البرتغالية الغنيـة على جانبى أفريقيا — وبعث هذا الاتحـاد الذى تم فى (١٥٨٠) — فى نفس فيليب ملك أسبانيا الأمل فى تضخم قوته[١٢] .

وقد استطاعت أسبانيا فعلا فى ذلك الوقت أن تضرب إحدى ضرباتها فبسطت نفوذها فى عام (١٦١٤) على (المعمورة) و (المهدية) — وهكذا أصبحت تبسط نفوذها على (المعمورة) و (العرائش) و (طنجة) و (سبتة) و (مليليه) ، لكن كانت هناك قوة بحرية أخرى تتحدى النفوذ الأسبانى فى البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، وأصبحت لها مصالح قوية فى المغرب وثغوره — هى قوة انجلترا ، وقد استطاعت قوات انجلترا البحرية فى عام (١٥٨٨) تدمير الأسطول الأسبانى (الأرمادا) — لكن تدمير الأسطول وإن كان قد أضعف مركز الأسبان لكن المنافسة بين أسبانيا وانجلترا استمرت بعد ذلك ولم تنته إلا فى عام (١٦٠٤)[١٣] .

أما عن الدور الذى لعبته انجلترا فى المغرب فى هذه الفترة فسنشير فيما بعد إلى ما يتعلق منه بالعلاقات مع (العياشى) — إذ أن دور انجلترا كاملا يتطلب دراسة أعمق لأهمية تشعبه ولذا نرجو أن نفرد له بحثاً خاصاً به .

هكذا وجدت على مسرح الأحداث فى هذه الفترة من تاريخ المغرب — ثلاث قوات رئيسية متنازعة هم الأتراك العثمانيين ، والأسبان ، والانجليز ، وكان على السعديين أن يواجهوا هذه القوى وغيرها من الدول التى كانت تطمع فى الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى بموقعها الممتاز

على مشارف الطرق البحرية والبرية المؤدية لداخل القارة الإفريقية التى كانت أضواء الأوربيين قد أخذت تسلط بقوة عليها ، وكذا المؤدية للشرق بغلاته المطلوبة فى الأسواق الأوربية . هذا فى وقت كانت الدولة السعدية تعانى من الانقسام والتطاحن بين أفراد البيت السعدى نفسه بالإضافة إلى الثورات وعوامل الاضطراب الداخلية .

وفى هذا الجو الصاخب المضطرب ظهر (العياشى) ليحمل لواء الجهاد فكان عليه أن يواجه كل هذه التيارات — وسنرى إلى أى حد نجح فى مواجهة كل قوة منها ، وإلى أى حد وفق .

ثانيا : بداية حركة العياشى وموقف السلطات الحاكمة فى المغرب منه:

تردد المواجع التى تصدت للأحداث المرتبطة بالعياشى — قصة رحيله إلى (أزمور) لحراسة الثغور المغربية من العدو ولتكون مركزاً لجهاده مفتتحاً بذلك صفحة جهاده الطويل — فتذكر أن بعض مشايخ القبائل أهدوا إلى شيخه بسلا (الشيخ أبى محمد سيد عبد الله بن حسون السلامى) يوماً فرساً ، فأمر الشيخ بإسراج الفرس — ثم اتجه إلى العياشى ، فأمره أن يمتطى الفرس ويرتحل به إلى أزمور قائلا له : « ارتحل عنى إلى أزمور ، وانزل على أولاد أبى عزيز ، وجاهد فى سبيل الله ، ولابد لك من الرجوع إلى هذه البلاد — وسيكون لك فيها شأن عظيم ... » وودعه الشيخ ووضع يده على رأسه وبكى ودعا له بالخير والنصر (١٤) .

فقصد العياشى إلى (أزمور) ونزل حيث عين له شيخه ، وشرع فيما أمره به من حراسة الثغور من العدو الكافر بتلك النواحى ، ولم يزل من يومه مثابراً على الجهاد حتى شاع فى البلاد ما هو عليه من التضييق على العدو .

— ولم تحدد المراجع التاريخ الذى غادر فيه مسقط رأسه ، لكن يفهم من مسلسل الأحداث التالية أن ذلك حوالى (١٦٠٤) . وقد بلغ خبر تضييقه على المستعمرين ، وانتصاره على جيوشهم فى وقائع متعددة إلى بلاط السعديين بمراكش ، فكافئوه بعمالة (أزمور) ليظل شوكة فى

جنب البرتغاليين الموجودين فى (الجديدة) يقض مضاجعهم ويبعث فى قلوبهم الرعب والهلع .

ويشير صاحب نزهة الحادى — إلى أن هذا الأمر تم فى عام (١٠٢٠هـ — ١٦١١م) ، فقد توفى فى هذا العام قائد حصن (أزمور) فسأل السلطان (زيدان بن أحمد الذهبى) مستشاريه والمقربين إليه عمن يليق بتولية هذا الثغر والقيام بوظيفته ، فأشاروا جميعاً عليه (بالعياشى) ، فكتب له بالتولية — فنهض العياشى بأعباء ما حمل به من ذلك على خير وجه وبذل مجهوداً فيه وكانت له مدة عمالته هذه لأزمور — مع أهل (البريجة) وقائع عظيمة ضيق عليهم فيها أشد الضيق حتى أنه منعهم من الحرث والرعى والسقاية فى مرافقهم ، وكان يبعث للسلطان زيدان بمراكش بخمس الغنائم التى يغنمها ، وكذا الأسرى من الأعداء — فزادت شهرته وذاع صيته[١٥] .

وكان طبيعياً أن يتضايق البرتغاليون كثيراً من حركات العياشى هذه ، ومن مرابطته الدائمة قرب المنطقة التى يحتلونها ، ولما لم ينجحوا أن يوقعوا به فى ميدان الحرب عمدوا إلى المكر والخديعة — فاشتروا ضمائر حاشية السلطان زيدان بالهدايا والتحف الثمينة ليتخلصوا من هذه الشخصية القوية .

ونجحت المؤامرة الدنيئة ، فقدأوغروا صدر السلطان عليه وأظهروا له أنه ممن لا تؤمن غائلته ، وأنه يخشى منه على ملكه ، وأنه لو ترك فى هذه المنطقة أكثر من ذلك ، فان ساعده سيشتد أكثر ، وسيكون كغيره ممن خرجوا على سلطانه .

وكان (زيدان بن أحمد) قد أمضى خمساً وعشرين سنة ملكا لم تخل سنة منها من حرب مع خارج على ملكه ، ووصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى أن ترك مقر ملكه (بمراكش) إلى (تلمسان) بالمغرب الشرقى يطلب

العون من الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون الجزائر — وهكذا كان من السهل التأثير على السلطان السعدى ، وإثارة الشكوك حول نوايا (العياشى) عامله فى أزمور ، فجهز زيدان سرية قوية من أربعمائة فارس وجهها إلى مدينة (أزمور) للقبض على العامل وقتله , لكن قائد السرية (محمد السنوسى) كان رجلا ذكياً — علم بجلية الأمر ، فبعث إلى المجاهد (العياشى) خفية أن ينجو بنفسه ، وأفسح له المجال للخروج إلى (سلا) مسقط رأسه وكان ذلك فى عام (١٠٢٣هـ—١٦١٤م) — أى أنه ظل عاملا على أزمور من قبل السلطان (زيدان بن أحمد المنصور) حوالى ثلاث سنوات .

ويذكر صاحب نزهة الحادى — إن الله ألقى فى قلب القائد المذكور الشفقة عليه فبعث إليه خفية يقول : (إنج بنفسك) ، فخرج العياشى فى أربعين رجلا من خاصته قاصداً مدينة (سلا) — فلما بلغ القائد السنوسى المذكور مدينة (أزمور) لم يجد له خبراً ، فأظهر العناية بالبحث عنه ، والتفتيش عليه ، وعاقب على إفلاته شرذمة من أهل الفحص زاعماً أن ذلك مما يجب عليه من المحافظة على أوامر السلطان[١٦] .

هذا على أن المراجع تشير إلى الاضطرابات التى كانت تسود البلاد فى ذلك الوقت ، فقد كان الأسبان — كما أشرنا من قبل — قد احتلوا فى هذا التاريخ ثغر المعمورة[١٧] .

وترتب على ذلك أن أصبحوا يعيثون فساداً فى المنطقة كلها ، فاستغاث أهل (سلا) بالسلطان زيدان ، وبعثوا جماعة منهم إليه بمراكش يطلبون النجدة والمعونة لمدافعة العدو المغتصب ، فلم يجدوه بمراكش لأمر اقتضى غيبته عنها ، فلما عاد صار يعدهم بالنصرة ويمطلهم وهو يهزأ بهم ، ففهم أهل سلا — كما يقول صاحب تاريخ الدولة السعدية — إنه قبض حق البلاد ، كما فعل أخوه الشيخ المأمون (بالعرائش) ، فانصرفوا راجعين إلى بلادهم — من غير أن ينتظروا منه إذناً أو مشورة — وأخذوا فى العدة والحزم والعسة على الأسوار بأنفسهم[١٨] .

على أن تراخى السلطان عن الوقوف فى وجه المحتلين — شجعهم فتمادوا فى سلب قوافل الأهالى ، فاشتد الخوف وكثر الهرج . وقد صادفت هذه الأحداث عودة (العياشى) إلى سلا ، وكان قد ذاع صيته عند الناس لما قام به ضد الأعداء أثناء إقامته فى (أزمور) . وكانت عودته بعد تسع سنين من مغادرته مسقط رأسه ، وكان شيخه (سيدى عبد الله بن حسون) قد توفى ، فلازم ضريحه مدة كان فى أثنائها يفد عليه أهل سـلا ، يسلمون عليه ويستنجدون به على أعداء البلاد الذين أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً . فطلب العياشى من المستجيرين به أن يعدوا العدة للجهاد وكان عددهم قد بلغ أربعمائة فخرج بهم العياشى إلى (المعمورة) حيث وقعت بينه وبين الأسبان معركة قتل فيها منهم ما ينيف على أربعمائة رجل واستشهد من أتباع العياشى مائة وسبعين رجلا ، ومن ذلك الوقت أصبح الأسبان يلازمون حصونهم ويقبعون وراء أسوار المدن التى يحتلونها ولا يجرؤون على مغادرتها[١٩] .

على أن هذه الانتصارات ، والتفاف الناس حول العياشى بسلا، وزيادة أتباعه يوماً بعد يوم — أزعج (السلطان زيدان) بمراكش فبعث إلى قائد قصبة سلا (الزعرورى) يأمره بأن يقبض على العياشى أو يغتاله — لكن شيوخ الأندلسيين أنكروا ذلك ولم يوافقوا عليه وتطوعت جماعة منهم لملازمته ليل نهار وحمايته[٢٠] .

على أن لجوء (القائد الزعرورى) إلى تجهيز أعداد من الأندلسيين وإرسالهم لميادين القتال المختلفة ، أو لإخماد الفتن تلبية لطلبات (السلطان زيدان) المتتالية — جعلت هذا القائد مكروهاً من الأندلسيين فلفقوا له التهم ووشوا به لدى السلطان فأمر بالقبض عليه ، وأرسل مكانه مملوكا من مماليكه يدعى (عجيباً) — لكن الموريسكيين ثاروا على هذا المملوك وقتلوه ، وأعلنوا خلع طاعة (السلطان زيدان) وأدى هذا لزيادة عوامل الفوضى فى (سلا) فكثر النهب والفساد وقطع الطرقات ، فهـرع الناس إلى العياشى طالبين

منه أن يمسك بدفة الأمور ويردع أهل البغى والفسق — فقد كان هو الشخصية الوحيدة التى تستطيع أن تقوم بهذا الأمر فى ذلك الوقت وأخبروه انهم يلتزمون بطاعته وأن يكونوا يدا واحدة وأنهم سيقفون فى وجه أية قبيلة تخرج عن طاعته وأوامره ، وكتب شيوخهم بذلك وبايعوه من (تامسنا) إلى (تازى) فقبل أن يقوم بهذا الأمر ، وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد وأظهر الأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأشرقت فى الجو السلاوى أنواره كما يقول معاصروه[٢١] .

على أن العلاقات بين العياشى و(الموريسكيين) لم تستمر على هذه الوتيرة فقد فسد الجو بينه وبينهم، وانتهى الأمر بقتالهم وسنشير إلى ذلك ولأسبابه ونتائجه فيما بعد . على أننا نشير إلى أن البلاط السعدى بمراكش لجأ لوسيلة أخرى للإيقاع بالعياشى ، فقد أوصى جماعة من الفقهاء لينشروا بين الناس أن جهادهم مع العياشى باطل، فالجهاد لا يجوز إلا مع الإمام وباذن منه وكان الهدف من ذلك أن ينفض الناس من حوله .

لكن تصدى فريق آخر من الفقهاء للرد على هذا الادعاء ، فقد أصدر عدد من العلماء منهم الأئمة (عيسى عبد الواحد ، وابراهيم الجلالى ، ومحمد العربى الفاسى) — فتاوى تؤكد أن قتال العدو لا يتوقف على وجود امام ، فتعاون الناس على الجهاد ورد الظلم ، ووجود المصلحة فى ذلك أمر واضح لاغبار عليه[٢٢] .

على أن هذا السلاح سلاح التشكيك من بعض المتفقهين فى تصرفات العياشى كان من أقوى الأسلحة التى استخدمها خصومه ضده وقد احتضن البلاط السعدى عدداً من هؤلاء المتفقهين لهذا الغرض ، فذكر منهم على الخصوص الشيخ (أبو مهـــدى عيسى السكتانى) الذى لقب بقاضى الجماعة بمراكش — فقد أصدر فتوى اتهم فيها العيا[شـ]ى بأنه طامع فى الملك، وانتهز

فرصة حروبه ضد بعض القبائل الخارجة ، وكذا موقفه من مهاجرى الاندلس — فندد بمقاتلته لهؤلاء المسلمين وعدم اكتراثه بدمائهم(٢٣) .

على أن العياشى لم يأبه لذلك واستمر فيما نصب نفسه له من مقاومة العدو والمستعمر لثغور بلاده بالإضافة إلى مقاومة وجوه الاعوجاج الداخلى التى يصل إليه خبرها فى المجتمع المغربى — فقد تعددت رسائله إلى المدن والقبائل فى هذا الشأن .

نذكر منه رسالته التى أذاعها على الناس فى يوم الجمعة التاسع من محرم عام (١٠٤١) ينهى الناس فيها عن استعمال (دخان العشبة — المسمى طابة) — ومنها رسالته إلى أهل فاس فى الثالث من محرم (١٠٤١) يدعوهم للتعاضد والتعاون ونبذ الخلافات، ومثلها رسالته إلى أهل مكناس يحضهم على احترام المحارم ، وجمع الأعشار إلى غير ذلك من الشؤون العامة والرسالة مؤرخة ٩ جمادى الثانى (١٠٤١ هـ) ، ورسالة إلى أهل تطوان بخصوص قاضيهم الذى لا يحكم بالعدل وبما تقضى به الشريعة . . وتاريخها الثالث عشر من رجب ١٠٤١(٢٤) وهكذا لم يكن العياشى — رجل حرب وقتال تقدم الصفوف فى جهاده ضد العدو الأجنبى فحسب بل إنه كان مصلحاً إجتماعياً يدعو الناس لسلوك الطريق السوى كما يدعو الدين والشرع وكانت له فى نفوس الناس مكانة، ولذا كان المرشد الذى يسترشدون به متى غمض عليهم أمراواختلط شأن وكانت كلمته مسموعة ونصيحته نافذة — وكان هذا سبب حقد أصحاب السلطان عليه وخشيتهم من التفاف الناس حوله،فنصبوا له المكايد محاولين بمختلف الوسائل الإيقاع به هذا وقد حاول الوليـــد بن زيدان (١٠٤٠—١٠٤٥) بعد مبايعته بالملك أثر موت أخيه (أبى مروان عبدالملك) أن يستميل العياشى إلى جانبه فأرسل له يستوضحه أحوال العدو بثغور المغرب فرد عليه العياشى بخطاب مفصل عن أحوال المسلمين وأحوال العدو بالثغور وتعددت الرسائل بينهما وقد أفاض العياشى فى هذه الخطابات فى

الحديث عن الجهاد وكيف أصبح واجبا على المسلمين بعد أن نزل الأعداء في الثغور وامتدت أيديهم إلى أواسط المعمور - وتمثل بخطاب من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص في هذا الشأن ...[٢٥] على كل إن دلت هذه المراسلات على شيء فهي تدل على أن العياشي) كان أدرى بأحوال الثغور من السلطان الحاكم نفسه، وانه في الوقت الذي ركن السلاطين للإستسلام للأمر - فان هذا المجاهد كان يستحث اليهم ويعتبر الجهاد ومنازلة العدو المحتل للثغور أمراً واجباً على المسلمين .

ثالثاً : صور من كفاح العياشي ضد الأسبان والبرتغال :

تعددت الاشتباكات بين العياشي والمستعمرين الأسبان والبرتغال في (البريجة) وقرب (المعمورة) أو ما أطلق عليه (حلق وادى سبوا) ، وبالموقع المسمى (عياشة) قرب جبل الحبيب ، وفي (العرائش) وفي غيرها من المناطق التي تمركز فيها المستعمرون في الثغور المغربية - وكانت خسائر العدو في الأرواح والسلاح في هذه المواقع فادحة فقد اتبع العياشي في حربه هذه نظام العصابات، فهو يتنقل في حركاته الجهادية هذه بين المناطق المختلفة يتربص بالعدو ويأخذه على غره أو يرسل الجواسيس ممن هم موضع ثقة المستعمرين فيغرر بهم - كما حدث في موقعة العرائش الثانية إذ أرسل رجلا يدعى (ابن عبود) كان موضع ثقة الأسبان فأوهمهم أن المسلمين بوادى العرائش ويمكنهم أن يأخذوهم على غرة فلما خرجوا إلى هذا المكان لم يشعروا إلا وقد أحاط بهم العياشي ورجاله الذين كانوا يكمنون لهم فلم تنج منهم إلا قلة ضئيلة حتى انهم انتقموا من (ابن عبود) هذا الذى كانوا قد استبقوه عندهم بتعذيبه وخلع أسنانه والتمثيل بجثته .

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة لبعض الأحداث المرتبطة بهذه المواقع فيذكر عبد القاهر املاق - عن موقعة (البريجة) التي حدثت في حوالى

عام (١٠٢٠ هـ - ١٩١١ م) إنه كانت له مع النصارى أهل البريجة وقائع عظام - ضيق عليهم فيها أشد تضييق حتى منعهم من الحرث والرعاية والسقاية(٢٦) .

وحين عجز المستعمرون فى البريجة - كما ذكرنا - عن الوقوف فى وجهه بقوة السلاح لجأوا إلى الإيقاع بينه وبين (السلطان زيدان) فبعث قائده (السنوسى) للقبض عليه وقتله فكان خروجه لسلا حيث اتخذها مركزاً لكفاحه .

ويشير صاحب نزهة الحادى - إلى غزوة المعمورة الأولى (حلق وادى سبوا) فى عام (١٠٢٣ هـ - ١٦١٤ م) فيذكر أن الأسباب التى أدت لهذه المعركة تتركز فى كثرة تعديات الأسبان المتمركزين فى (حلق وادى سبو) على المواطنين - فقد قطعوا الطريق على المسلمين من أهل (سلا) وغيرهم، وأخذوا يمدون نفوذهم على المناطق المحيطة بحصونهم فأثاروا الخوف والفزع فى قلوب الأهالى الذين استنجدوا بالسلطان (زيدان) فى مراكش فلم ينجدهم - فلما استقر العياشى بسلا خرج كما شرحنا فى ربعمائه من أتباعه وكانت بينه وبين الأسبان موقعة قرب المعمورة قتل فيها عدد كبير منهم واضطروا لأن يلتزموا بحصونهم لا يغادرونها(٢٧) .

وقد كانت المعمورة مسرحاً لمعارك أخرى بين العياشى والأسبان - وقد تحدث صاحب نزهة الحادى عن الغزوة الثانية من غزوات الحلق من المعمورة بوادى سبوا) - فيذكر كيف ضيق العياشى الخناق على الأسبان بهذه المنطقة وحاصرهم وقتل عدداً كبيراً منهم وأسر عدداً آخر منهم (أحد القباطنة العظماء) إفتدى به (رئيس أهل الخزائن) الذى كان قد وقع أسيراً فى أيديهم - ولم يذكر تاريخ هذه الغزوة(٢٨) .

وقد وقعت فى منطقة المعمورة هذه فى رمضان عام (١٠٤٠) ﻫ) معركة ثالثة حاسمة بين العياشى وأتباعه من جهة وبين الاسبان من جهة أخرى ، وقد ذكر المؤرخون المعاصرون تفاصيل هذه الواقعة التى أطلق عليها بعضهم اسم (غزوة الحلق الكبرى) فقد خرج العياشى فى جماعة من أتباعه وأهل فاس بلغ عددهم زهاء أربعة آلاف مقاتل إلى الموضوع الذى يقال له (عين السبع) ، ومكثوا فيها ثلاثة أيام ، وكان المستعمرون قد أرسلوا لسلا مسلماً مرتداً ليتجسس على أخبار المسلمين بها وأعطوه سلعاً يتظاهر ببيعها ، لكن اكتشف المسلمون أمره وقتلوه ، ولما خرج جيش المستعمرين من المعمورة لم يشعروا إلا وجند المسلمين قد أحاطت بهم فقتل أكثر من ٦٠٠ منهم وأسر المسلمون ٣٠٠ ، ولم ينج إلا القليل ، وقد غنم المسلمون بالإضافة إلى ذلك غنائم كبيرة وقد تلقى (العياشى) أثر هذه المعارك عدة رسائل للتهنئة بهذا النصر ، منها رسالة من (محمد بن أبى بكر الدلائى) وقد رد عليه العياشى برسالة مؤثرة - يشكو فيها من الشكوى من تفرق كلمة المسلمين — جاء فيها :

« سمعتم خبر هذه الغزوة ، وبلغكم من شرحها ما لم يحتاج إلى إعادة ، ولا افتقر إلى زيادة - وقد قوى الأمل فى الله سبحانه أن تكون تلك الغزوة مفتاحا لفتحها (أى لفتح المدينة) فالمسلمون نازلون بعقر دارها ويرسلون الصواعق على أسوارها ... حتى يأذن الله ببوارها ، وعودها لملك الإسلام ... هذا الذى انعقدت عليه النية ... لكن يا سيدى أين المساعد والأمر لا ينهض به الواحد ... والمسلمون — جبر الله صدعهم ويسر جمعهم — لا يتفق لهم رأى ولا يثبت حتى أن افتراق كلمتهم أضر على الإسلام من اجتماع عدوه ، وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه ... وقد ذهب الإسلام ضياعا حتى أن الإسلام لو صور شيخاً جاءهم مستصرخا يا إخوتى يامعشرى فى الشدة والرخاء ... وهو يستغيث بهم ... لا يغاث ، ويستصرخ لا يكون لاستصراخه انبعاث ... والمشتكى بذلك إلى الله وإلى أمثالكم أهل الله ... » والأمر بين

يشار إليه ، والنهار جلى من أن يستدل عليه »[٢٩] و (غزوة الحلق الكبرى) هذه ـ كانت غالباً كما يفهم من خطاب للعياشى كتبه للسلطان (الوليد بن زيدان) ـ قرب أواخر رمضان عام ١٠٤٠ .

ولم يقتصر نشاط العياشى على مناوشة العدو فى ثغر (المعمورة) فقد وقعت بينه وبين المحتلين معركة كبيرة فى الموضع المسمى (عياشة) قرب جبل الحبيب ، قتل فيها من الأعداء نحو ٥٨٨ ، بينما حفظ الله المسلمين وأيدهم بمعونته — كما ذكر املاق — وأسبل عليهم ستر عنايته فلم يدمر (يقتل) منهم أحد ، واستبدوا بأثاث الكفار وأسلحتهم وأمتعتهم وأسلابهم[٢٩].

وقد وقعت فى هـــذا المكان نفسه (عياشة) موقعة ثانية بين العياشى وأتباعه من جهة وبين المستعمرين وقتل فى هذه المعركة الثانية التى كانت فى عام ١٠٤٠ هـ نحو تسعمائة وأسر منهم مثل ذلك العدد واستشهد من المسلمين نحو العشرين رجلا[٣٠] .

وفى نفس العام (١٠٤٠) قام العياشى بحملة أخرى على جنود العدو المستقرين بثغر (العرائش) فكمن لهم بجيشه فى الغابات الجبلية بهذا الثغر ثم باغتهم وأحاطهم من كل جانب ، ومكن الله للعياشى ولمن معه من المسلمين من رقابهم — وكما يقول صاحب نزهة الحادى — « فطحنوهم طحن الحصيد » . وأرسل العياشى بأخبار هـــذه المعركة إلى (السلطان الوليد بن زيدان) بمراكش فذكر له ... « إنه خرج من ثغر العرائش مايزيد على الخمسمائة كافراً فما أفلت منهم أحد ولا رجع منهم راجع إلى ذلك البلد وهذا أشهى المراد ... وسيأتى إن شاء الله بكمالها فى محله »[٣١] .

ولا شك فى أن تعدد المعارك بين العياشى والأعداء فى الثغور المغربية فى عام واحد وفى عدة أماكن يدل على قوته وعلى تصميمه على مواصلة الجهاد ضد العدو المغتصب لبلاده ، كما يوضح الخطة التى كان يتبعها وهى مهاجمة العدو

فى مختلف الثغور والأماكن التى يحتلها حتى لايهنأ لهم مقام وهى ما يمكن أن نطلق عليه بلغة عصرنا حرب العصابات (Gorilla Wars)

وقد وقعت بينه وبين المستعمرين معركة أخرى (بالعرائش) ، وكان قد وقع أثنـــاء المعركة الأولى فى أيدى المسلمين شخص كان موضع ثقة المستعمرين فلما لمس العياشى منه التوبة وآنس فيه الصدق أخلى سبيله فعاد إلى العرائش — فلما سأله المستعمرون عن الموضع الذى ينزل فيه العرب ضلل بهم ، وترتب على ذلك أن وقعوا فى الكمين الذى كان قد نصبه لهم العياشى فتمكن منهم وقتل منهم أعداداً غفيرة[٣٢] .

هكذا كان العياشى — يخرج من معركة ضد المستعمرين ليعد جنده لمعركة جديدة فقد كان يعتبر الجهاد ضد العدو — كما ذكر فى خطابه لسلطان مراكش — واجباً طالما العدو يحتل شبراً من أرض الوطن ، وكانت آخر غزواته ضد الأعداء بطنجه سنة (١٠٥١ هـ — ١٩٤١م) .

ولا شك فى أن ما مكنه من الاستمرار فى الجهاد حتى نهـاية حياته هو ما تميز به من قدرة على إلهاب حماس المسلمين وإثارة جيشهم ضد المستعمر الغاصب ، وأن ينظم صفوفهم فى حرب مقدسة حتى أصبحت المنطقة من (الجديدة) إلى (طنجة) مسرحاً لعملياته ، وأصبح نفوذه فى هذه المناطق قوياً ومعترفاً بهمن القبائل العربية ، بل كان أقوى من نفوذ السلطات الرسمية فى (مراكش) ، وأصبح العدو يقبع داخل حصونه يخشى أن يخرج منها بعد أن كان يعربد فى المنطقة كيفما شـاء ، بل سنرى أن الدول الأجنبية الكبرى كانجلترا حاولت أن تخطب وده لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية وسلامة رعاياها فى هذه المناطق .

وقد ذكر صاحب نزهة الحادى أن جملةمن قتلهم من الكفار فى غزواته

بلغ تسعة الآلاف وتسعمائة —وحتى إذا لم نأخذ بهذا الرقم لأنه من الصعب الوصول لعدد دقيق فى مثل هذه الغزوات — لكن لا شك فى أنه كبد العدو خسائر فادحة حتى أن الأعداء كما سنشير فى نهاية هذا الحديث — أقاموا الأفراح عندما علموا بمقتله .

رابعاً : علاقة العياشى بانجلترا :

كانت لانجلترا منذ منتصف القرن السادس عشر ، وخلال القرن السابع عشر وثيقة هامة بالمغرب ، وتحتاج هذه العلاقات — كما اعتقد — أن تلقى عليها أضواء أكثر خاصة أن هناك عدداً من المصادر الرسمية البريطانية تخدم فى هذا المجال — وهو ما أرجو أن أوفق فى تناوله فى بحث آخر — خاصة أن الاهتمام ركز على العلاقات الأسبانيـة والبرتغالية بالمغرب — رغم أن العلاقات الإنجليزية المغربية فى هذه الفترة - كما يستفاد من المصادر البريطانية وغيرها وصلت إلى درجة هامة جداً(٣٣) .

وسنقتصر هنا على ما يخص موضوع البحث فقط ... أى على مايتصل من هذه العلاقات بالمجاهد العياشى .

وقد أثرت علاقة بريطانيا بالمغرب فى هذه الفترة عوامل نذكر منها :

١ — المنافسة التجارية بين انجلترا وأسبانيا :

فقد تطورت هذه المنافسة فى عهد الملكة اليزابيث (١٥٥٣ —١٦٠٣) فأصبحت حرباً سافرة ، ورغم تلونها منذ البداية بشىء من صفة العـداء الدينى المذهبى — فانها كانت فى جوهرها منافسة اقتصادية — إذ أن حب المغامرة والمال والتجارة — أغرى الشعب الإنجليزى الذى اعتاد ركوب البحار أن يتحدى الاحتكار التجارى الذى فرضته أسبانيا ، فقد غدت انجلترا

حينئذ أول قوة بحرية فى العالم — وكان لديها أمهر صناع السفن ، وخيرة البحارة ، وكانت سفنها أصغر من سفن الأسبان حقاً ، ولكنها كانت أكثر منها قدرة على مسايرة الريح ، لما كانت أيسر قيادة . وبالإضافة إلى الأسطول الملكى الإنجليزى كان يوجد دائماً احتياطى كبير من أسطول القراصنة والأسطول التجارى يمكن الاعتماد عليه فى التعاون مع أسطول الملكة فى وقت الشدة(٣٤) .

وكانت أطماع البرتغال فى المغرب قد انتهت إلى قيام الملك البرتغالى دون سبستان بحملته المشهورة على المغرب التى انتهت فى جمادى الثانية سنة ٩٨٦ (١٤ أغسطس ١٥٧٨) بموقعة وادى المخـــازن التى كانت كارثة بالنسبة للبرتغال — فقد اندحر الجيش البرتغالى وقتل دون سبستان ، وانقرضت أسرته إذ لم يكن لدون سبستان ولى عهد فورثه خاله فيليب الثانى (Philipe II) واستولى على ممتلكاته ومن جملتها (سبتة) التى وقعت منذ ذلك العهد تحت النفوذ الأسبانى — وهكذا انتقلت إلى يد فيليب الثانى بضربة من ضربات القدر — البقاع الآتية شاطىء : الأطلنطى الممتاز ، ومناجم البرازيل والأملاك البرتغالية الغنية على جانبى إفريقيا ، والمحطات التجارية والقواعد العسكرية فى جزائر البلهاء وجزائر الآزور ، وجزائر الهند الشرقية .

وقد استمرت هذه الوحدة بين أسبانيا والبرتغال — أو كما يعبر عنها فيشر — ذلك (الزواج) المتعب ، ستين عاماً(٣٥) .

وما يهمنا فى مجال حديثنا — أن هذه الوحدة أدت إلى تضخم قوة فيليب ملك أسبانيا — الأمر الذى نظرت إليه انجلترا بعدم الرضى ، وكان من ردود فعل هذا الشعور تعضيد انجلترا لحركة التذمر بين البرتغاليين ضد الأسبان .

على أن هذه الدور من المنافسة بين الأسبان والإنجليز ينتهى بتحطيم قوة

أسبانيا البحرية إلا رماداً عام (١٥٨٨) وإن لم تكن هذه الهزيمة هى الفصل الأخير فى الحرب الطويلة بين البلدين ، فقد استمرت هذه الحرب بعد وفاة فيليب الثانى واليزابيث ولم تنته إلا فى عام ١٦٠٤ . لكن ما يهمنا هنا أن تحطم هـذه القوة الضخمة التى كانت تعلق أسبانيا عليها الآمال — ترتب عليه من ناحية الأسبان أن نظروا إليه ، وإلى سلسلة الهزائم التى منوا بها نظرة صليبية بغيضة — فقد عزوا كل هذه الهزائم لغضب الله ، وانعكست محاولاتهم لاسترضاء الله — على المسلمين فى أسبانيا ، فأصدر (فيليب الثالث) قراره بطرد البقية الباقية من المسلمين البالغ عـــددهم حوالى نصف مليون نسمة ، فاضطر عـدد كبير من هؤلاء للهجرة إلى المغرب ليلحقوا بأسلافهم فى (تطوان) و (سلا) و (الرباط) وغيرها من بلاد المغرب — وكما ذكرنا سيلعب هؤلاء دوراً حاسماً فى أحـــداث الفترة التى نعالجها وكان لهم مع المجاهد العياشى بالذات موقف سنعالجه فيما بعد .

٢ — ظهور طائفة من المغامرين الإنجليز :

لقد تميز العصر الاليزابيثى — باندماج عدد من الشباب البريطانى فى أحلام الرحلات البحرية — وكانت تدفع هـــذه الفئة من الشباب عوامل وأهداف متعددة بعضها طيب كالرغبة فى الاسهام فى عملية الكشف الجغرافى ، وبعضها يرتبط بالرغبة فى أخذ نصيب من ثمار هذه العمليات الكشفية والبحرية — فقد أسال لعاب الكثيرين ما كان يقال عن ثروات المناطق المكتشفة حديثاً سـواء فى أفريقيا أو فى العالم الحديث ، ونادى هؤلاء بالاستعمار وبوضع الأيدى على الموانى والمنافذ الهامة فى البحار التجارية .

وقد ضغط هؤلاء بشدة على الحكومة البريطانية لتسهم فى النشاط البحرى والاستعمارى فى هـــذه المناطق أو على الأقل لتكفل الحماية لرعاياها وهم يزاولون نشاطهم مع ثغور المغرب وموانيه (كتطوان) و (سلا) و (الرباط) —

وبعض الوثائق والكتب التى نشرت عن رحلات السفن الانجليزية والبحارة والمغامرين البريطانيين لهذه الثغور تكشف لنا بعض الجوانب عن العلاقات الانجليزية المغربية فى هذه الفترة[٣٦] .

٣ - ظروف المغرب الداخلية :

وقد أشرنا من قبل للأوضاع التى كان عليها المغرب فى هذه الفترة التى ظهر فيها العياشى — وقد أدركت بريطانيا هذه الأوضاع على حقيقتها فرسمت سياستها فى ضوء هذا الفهم لحقائق الأوضاع .

وقد تعاقب على عرش انجلترا فى هذه الفترة ثلاثة ملوك هم — الملكة اليزابيث (١٥٥٨ — ١٦٠٣) ، ثم الملك جيمس الأول (١٦٠٣ — ١٦٢٥) ، ثم إبنه شارل الأول (١٦٢٥ - ١٦٤٩) . واتسمت سياسة انجلترا خلال حكمهم جميعاً بالمرونة التى هى من مميزات السياسة الانجليزية . فكان هدفهم الأساسى هو تحقيق مصالح التجار الانجليز وضمان أكبر قدر ممكن لهم من الطمأنينة والأمان فى رحلاتهم البحرية ، وفك أسر من قد يقع فى أيدى القراصنة المغاربة والارتباط مع السلطات الشرعية أو نصف الشرعية أو غير الشرعية التى بيدها الأمر — بمعاهدات لتحقيق هذه الأهداف[٣٧] .

والمتتبع للعلاقات الانجليزية المغربية فى هذه الفترة — يلمس أن الناحية الاقتصادية بالذات كانت هى العامل الأساسى المسيطر على هذه العلاقات ، ومنذ النصف الثانى للقرن السادس عشر كانت السفن التجارية الانجليزية قد بدأت تتجه للساحل المغربى على المحيط الأطلسى حيث الثغور المغربية التى كانت بمثابة المنافذ التجارية ليس للمغرب فحسب لكن أيضاً للمناطق الهامة بغرب القارة الإفريقية . وحين كان البرتغاليون أصحاب النفوذ فى (أسفى) و (سانتا كروز) وغيرها من الثغور المغربية على المحيط الأطلسى

ـ كانوا يحتكرون التجارة فى هذه الموانى ويضعون العراقيل أمام السفن الانجليزية وغيرها من سفن الدول الأوربية الأخرى .

وكانت لسلع مغربية مختلفة ، ولعل (السكر) فى مقدمتها ـ أهمية خاصة عند بعض الدول الأوربية ومنها انجلترا[٣٨] . وقد ارتفعت أصوات الاحتجاج فى انجلترا مطالبة بحرية الملاحة فى الموانى المغربية وحرية التعامل مع السواحل المغربية، ودارت مفاوضات طويلة بين الحكومتين الانجليزية والبرتغالية بهذا الشأن .

وقد أتاح ضعف النفوذ البرتغالى فى المغرب بعد (١٥٧٨) بالذات ـ فرصة ذهبية لم تتوان انجلترا من اقتناصها . وتعتبر فترة حكم أحمد المنصور (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) فترة ازدهار العلاقات الانجليزية المغربية ، وكان المنصور على علاقات طيبة مع الملكة اليزابث ، وقد تبودلت الخطابات بين الطرفين على نطاق واسع ، ويفهم من الوثائق المتعلقة بهذا العصر أن الملكة اليزابث أرسلت بعض الفنيين المتخصصين فى بناء السفن للسلطان السعدى ، وقد أصبح من المألوف رؤية السفن التجارية الانجليزية فى الموانى المغربية وكانت هذه السفن تحمل معها من انجلترا الأقمشة وغيرها من المواد المصنعة المطلوبة فى المغرب وغيره من بلاد هذه المنطقة من غرب أفريقيا ، وتعود محملة بالسكر ، والجلود ، والصمغ ، والتمور وملح البارود ، وتبر الذهب المجلوب من السودان ـ وكانت كميات كبيرة منه ترد للمغرب خاصة بعد غزو المولى أحمد المنصور للسودان فى عام (١٥٩١) ـ هذا بالإضافة إلى القمح والذرة واللحوم[٣٩] .

وكانت الجمارك المفروضة على البضائع الداخلة للموانى المغربية ١٠٪ ، أما عن قيمة الجمارك التى تؤخذ عن الصادرات فقد كانت قيمتها غير محددة تماماً ، وكان عدد من اليهود يقومون بدور الوساطة فى تجارة الوارد والصادر هذه.

وقد قدرت صادرات المغرب لبريطانيا فى عام ١٥٧٤ / ١٥٧٥ بما قيمته ٢٧٦٢٩ جنيهاً انجليزياً ، وقيمت الضرائب التى حصلت على هذه الصادرات مبلغ ١٤٣١ جنيه انجليزى .

وقد تقدم التجار البريطانيون الذين يتعاملون مع المغرب بطلب لحكومتهم لتأسيس شركة تضم شملهم وتمنح ترخيصاً يتيح لها لوحــدها الاتجار مع المغرب — ووافقت الحكومة الانجليزية على ذلك وتأسست هذه الشركة فى عام (١٥٨٥) باسم (Barbary Company) ومنحت عقد الامتياز من الحكومة البريطانية يعطيها حق احتكار التجارة مع الثغور المغربية[٤٠] .

على أن نشاط التجار الانجليز فى الثغور المغربية — أثار مخاوف الدول المنافسة الأخرى خاصة البرتغال وقد كانت شكوى البرتغال بالذات من أن التجار الانجليز يبيعون الأسلحة للوطنيين المغاربة فى الموانى القريبة مقابل البضائع التى يستوردونها من المغرب ، وجرت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الدولتين — وانتهت باتفاق على أن يقتصر نشاط التجار البريطانيين فى موانى المغرب على موانى (العرايش) ، و (أسفى) ، و (سانت كروز) وألا يتجر التجار البريطانيون فى الأسلحة مع المغاربة[٤١] .

وفى عام (١٥٧٧) أرسلت الملكة اليزابيث سفيراً لها لدى ملك المغرب مولاى عبد الملك وكانت مهمة هذا السفير (Edmund Hogan) هى رعاية مصالح التجار الانجليز على وجه الخصوص ومحاولة الحصول على مزايا خاصة لهم[٤٢] .

وبعد معركة وادى المخازن (١٥٧٨) ازداد الشعور فى الدول الأوربية البحرية بالذات بأهمية وجود علاقات لها مع المغرب الدولة التى أثبتت قوتها والتى تتحكم فى ثغور هامة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى والتى تصدر غلات لها أهميتها لدى الأوربيين .

ويبرز اهتمام الانجليز بالعلاقات الاقتصادية والسياسية مع المغرب فى هذه الفترة فى كتابات الانجليز ، فقد تعدد الكتاب الذين كتبوا يطالبون حكومتهم بزيادة علاقاتها مع المغرب ـ الدولة التى تقع فى الطريق الجديد للهند(٤٣).

وقد دخل سكان الأراضى الواطئة فى هذا الصراع — كما دخلت أسبانيا وهكذا أصبحت كل من أسبانيا ، وهولندا وانجلترا — تتنافس فى التقرب من (السلطان المنصور) وتحاول كسب وده ، وتفيد المراجع أن الهدايا أخذت تتلاحق من هذه الدول على الملك السعدى بل ومن غيرها من الدول التى كانت تقف من قبل من المغرب موقفاً عدائياً ، وازدحمت مراكش بسفراء هذه الدول(٤٤) .

وقد أرادت ملكة بريطانيا أن تطمئن على الوضع بالنسبة للتجار الانجليز بعد معركة وادى المخازن وفى وسط هذا الجو من التنافس الشديد على خطف ود الملك المغربى — وأرسلت خطاباً بهذا المعنى للملك السعدى أحمد المنصور — وجاء رد الملك المغربى فى (٢٢ ربيع الثانى ٩٧٤هـ / ١٨ نوفمبر ١٥٧٩م) يؤكد أن التجار الانجليز الذين سيفدون إلى موانى بلاده سيعاملون بنفس روح المودة السابقة وذكر أن من عادة المغاربة معاملة التجار من جميع الجنسيات بروح الود ، وأن التجار الانجليز بالذات لهم مكانة خاصة فى المغرب(٤٥) .

وقد رأت شركة التجارة البريطانية التى أشرنا إلى أنها تأسست لرعاية مصالح التجار البريطانيين فى الثغور المغربية — أن الأمر يستلزم وجود ممثل دائم للشركة فى المغرب فاختير هنرى روبرت (H. Robert) ممثلا للشركة فى المغرب ، ووصل إلى أسفى فى ١٤ سبتمبر (١٥٨٥) ، وأرسل الشريف أحد رجاله لمرافقته إلى (مراكش) ورتب له سكناً فخماً فى الحى اليهودى من المدينة — وقدم هذا المندوب البريطانى للملك المغربى خطاباً خاصاً من الملكة اليزابيث بخصوص مهمته(٤٦) .

على أن ظروف الاضطراب التى أحاطت بالمغرب بعد وفاة السلطان المنصور، والتى شرحناها فيما قبل — أدت إلى قلق انجلترا خاصة بعد أن كثر تعرض التجـــار والرعايا الإنجليز لعمليات النهب والأسر بسبب الاضطرابات التى سادت فى المغرب فى ذلك الوقت ، وقد لجأت انجلترا لتدعيم علاقاتها مع أصحاب النفوذ الحقيقيين فى البلاد من مختلف الاتجاهات الذين كان يمكن أن يضمنوا لرعاياها الأمان والسلامة .

فكان طبيعياً أن تسعى انجلترا للاتصال (بالعياشى) والارتباط معه بعد أن أصبح له النفوذ الكامل فى ميناء (سلا) الهام وفى طول المنطقة الممتد منه إلى (تطوان) - ولذا أرسل شارل الأول (Charleso 1) - جون هاريسون (John Harrison) للمغرب(٤٧) .

وقام (هاريسون) بالتفاوض مع العياشى وأصحاب النفوذ فى (سلا) بهدف تأمين السفن الإنجليزية التى تأتى (لسلا) والكفالة الاطمئنان للتجار الإنجليز الذين يأتون للتعامل مع هـذا الميناء المغربى الهام ، وكذلك لفك أسر الرعايا الإنجليز الذين وقعوا فى أيدى قراصنة سلا .

وقد نجح جون هاريسون (John Harrison)فى عقد معاهدة مع العياشى تضمنت الضمانات المختلفة التى يريدها الإنجليز لرعاياهم وتجارتهم ووقعت هذه المعاهدة بين الطرفين فى ٢٤ شعبان ١٠٣٦ (١٠مايو١٦٢٧)(٤٨) .

وقد أرسل العياشى فى رمضان ١٠٣٦ (١٠ مايو ١٦٢٧) خطاباً من الرباط إلى الملك شارل الأول يذكر له فيه أنه رافق فعلا مندوبه جون هاريسون (John Harrison) من (تطوان) إلى (سلا) وأن الخدمة التى يطلبها ملك الانجليز خدمة بسيطة — ويطلب أن يأمره الملك بكل ما يحتاجه ويذكر أنه مسرور لاتفاق الســـلام الذى عقد بين سكان قلعة (الرباط) ، ومندوب ملك انجلترا لصالح رعايا الملك — ولتأكيد ما يربط بينهما من علاقات طيبة(٤٩) .

وفى تقرير (جون هاريسون) الذى أرسله لانجلترا يشير إلى الخدمات التى قدمها له العياشى ويذكر أن العياشى و (٤٠٠٠) من المغاربة تحت قيادته هاجموا المعمورة وأنهم طلبوا معاونة الأسطول الهولندى لمهاجمة الميناء من البحر، وذكر أن الأسبان أرسلوا مركبين بالعتاد والجنود للمعمورة لمعاونة حامية المدينة وإنهم تمكنوا فعلا من الحيلولة دون سقوطها فى يد قوات العياشى الذى اضطر لفك الحصار الذى كان قد فرضه على الميناء ، ورجع إلى (سلا) ومعه المدافع التى كسبها من الأسبان، وذكر (هاريسون) فى تقريره أن العياشى يرغب فى معاونة شارل الأول (Charles I) له فى تخليص المعمورة من يد الأسبان لأهمية هذا الحصن ، وترك هاريسون (سلا) على ظهر مركب هولندى فى (٢٠ مايو ١٦٢٧) متوجهاً إلى انجلترا[٥٠] .

وبعد وصول (هاريسون) إلى انجلترا — أرسل شارل الأول خطاباً للعياشى مؤرخا (١٢ أكتوبر ١٦٢٧) ليشكره على المساعدات التى قدمها لجون هاريسون فى رحلته من (تطوان) ، ولمجهوداته التى بذلها بعد ذلك لفك أسرى الإنجليز ولعقد معاهدة الصداقة معهم ويبدى ترحيبه بهذه الصداقة مع المجاهد المغربى ويؤكد فى استمرار الاتصال والتراسل معه ومع القواد الآخرين نظرائه لتوطيد علاقات الود بين انجلترا وبلاد المغرب[٥١] .

وفى تصريح للملك شارل الأول بعد ذلك فى ٢٢ أكتوبر (١٦٢٨) ذكر الملك شارل الأول فى أنه يأسف لما حدث من بعض البحارة الإنجليز ضد بعض الأهالى فى الجزائر وتونس وتطوان وسلا — ويتعهد بتوقيع العقاب على مقترفى هذه الأخطاء حسب القوانين الإنجليزية[٥٢] .

ولا ندرى فى الحقيقة ما هى هـــذه الأخطاء التى يعتذر الملك عنها ويأسف لوقوعها .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين العياشي وأتباعه من جهة وبين شارل

لأول ، فى خطاب مؤرخ ٢٠ مايو (١٦٣٠) يذكر العياشى أن اثنين من القادة بقصبة الرباط هما (عبد الله بن على ، وأحمد بن على البشير) نجحا فى إخلاء طرف (١٩٥) من الأسرى الإنجليز ويشكر شارل الأول على المدافع والمواد الحربية التى أرسلها لهم ووعدهم بامدادهم بالمعدات الحربية الأخرى التى يحتاجون إليها ، ويذكر أنهم ليسوا حالياً فى حاجة لأسلحة جديدة لأنهم يعملون لإصلاح القديم وأنهم إذا احتاجوا إلى شيء سيرسلون بشأنه ويؤكدون أن التجار الإنجليز الذين سيأتون لسلا سيعاملون كما لو كانوا فى لندن(٥٣) .

وقد استمرت هذه العلاقات الطيبة بين (العياشى) وأتباعه من جهة وبين الانجليز من جهة أخرى ، وأتاح ذلك للتجار والرعايا البريطانيين فرصة مزاولة نشاطهم فى (تطوان) و (سلا) وغيرهما من الموانى التى فى أيدى أتباع العياشى باطمئنان كامل(٥٤) .

وحين تسلط الموريسكيون على (تطوان) و (الرباط) وفى (قصبة سلا) وناصبوا العياشى العداء — كثر الهجوم على السفن البريطانية وتعرضت مصالح انجلترا ورعاياها فى هذه الجهات للخطر، ولذا اتجهت انجلترا إلى أن تساند البحرية البريطانية فى كفاحه ضد الموريسكيين من جهة وضد (الأتراك) وغيرهم من جهة أخرى(٥٤) .

وأصدر مجلس الوزراء البريطانى فى ١٥ يناير (١٦٣٦) أمراً إلى البحرية البريطانية بمضاعفة جهودها والسهر لحماية الرعايا والتجار البريطانيين لما يتعرضون له من هجمات وأضرار سواء من السفن التابعة لتركيا أو من قرصان سلا(٥٥) .

وكلف القائد البحرى البريطانى وليم رينسبورو (W. Rainsborough) بمهمة حماية السفن التجارية البريطانية التي تعمل فى ثغور المحيط الأطلسى ،

ورعاية مصالح البريطانيين فى الثغور المغربية والضغط على السلطات فى الرباط لفك الأسرى البريطانيين ولتحقيق ذلك أبحر لسلا بالسفن (انتيلوب Antilope) ومارى (Mary) واتسمت محاولته مع حكام الرباط وسلا بأسلوب يجمع بين المهادنة ومحاولة التفاهم لتحقيق الهدف وهو فك أسرى من وقع فى أيدى قراصنة سلا من الانجليز ، والضغط من ناحية أخرى ملوحاً بقوة الأسطول البريطانى التى تستطيع محاصرة الميناء المغربى ... لكن ما يفهم من خطابه الذى أرسله لبريطانيا (غير مؤرخ) أن حاكم الرباط لم يقبل تسليم الأسرى كما أن السفن التى تحت أمرته ثقيله الحـــركة ، ولذا لا يستطيع تعقب سفن سلا الخفيفة الحركة والتى يقدر عددها ما بين ٤٠ ، ٥٠ سفينة وأنه لذلك يترقب وصول السفينتين الحربيتين الصغيرتين اللتين طلبهما ليمكنه فرض حصار كامل على ميناء سلا ومهاجمة المدينة وإخلاء الأسرى وقد أرسل خطابه هذا مع سفينة أسبانية كانت قد أنزلت بعض التعويزات للأسبان فى المعمورة[٥٦] .

وقد عقدت فى (مايو ١٦٢٧) معاهدة أخرى بين العياشى وبين شارل الأول — سلطان بريطانيا وفرنسا وإيرلندا - كما تذكر المصادر - وقعها عن العياشى (ابراهيم بن على المغربى الاندلسى) وعن شارل الأول القبطان وليم رنسبور (William Rainsborough) من بنودها[٥٧] :

١ — أن على كل طرف من الطرفين أن يستقبل بالترحاب أتباع الطرف الآخر — إذا حلوا فى أى ميناء من موانيه .

٢ — أن المارقين فى سلا الذين تحاصرهم قوات (سيدى محمد العياشى) يعتبرون أيضا خارجين عن القانون فى نظر بريطانيا .

٣ - على كل فريق أن يسرح الأسرى التابعين للفريق الآخر حتى تيسر له ذلك مجاناً من غير فداء فإذا يسر الله للمجاهد العياشي في الإستيلاء على

الشرذمة المارقة عن الدين — فانه يقوم بفك أسر من فى أيديهم من الإنجليز مجاناً .

٤ — تمد انجلترا العياشى بكل ما يحتاجه من آلة الحرب من مدافع وبارود ، ورصاص وغيره .

هذا وقد أرسل (William Rainsborough) بعد ذلك عدة تقارير من على ظهر سفينة القيادة (Antilope) عن الأحوال فى (سلا) وعن العلاقات بين العياشى والانجليز — ففى رسالة له بتاريخ (١٩ مايو ١٦٣٧) يتحدث عن العلاقات الطيبة بين الانجليز والعياشى فهم يمدونه بما يحتاجه من بارود، ويذكر أن (العياشى) يحاصر الرباط (سلا الجديدة) بـ ٢٠,٠٠٠ من الخيالة ، لكن ليست لديه قوة برية كبيرة من المشاة وإنه قد أطلق سراح الأسرى الإنجليز فى (سلا) (٥٨) .

وقد ظلت المشكلة بين الأندلسيين وبين العياشى فترة طويلة — كما سنشرح فيما بعد — ويبدو أنه لم يتيسر لأى من الفريقين حسم الوضع ، لكن نشير هنا إلى خطاب القائد البريطانى (رنسبورى) الذى أرسله من على ظهر سفينة القيادة البريطانية فى مياه سلا إلى قائد (سلا) من قبل العياشى وهو مؤرخ (١٥ يوليو ١٦٣٧) وفيه يبدى القائد البريطانى أسفه لأن المحادثات بين العياشى والأندلسيين لم تنته إلى نتيجة بعد — رغم طول فترة المحادثات ويعلل ذلك بأنه يبدو أن الأندلسيين يبغون كسب الوقت حتى يرحل الأسطول الانجليزى الذى يساند قوات العياشى — وهو يعرض أن يرسل مندوبا للعياشى ليعرف اتجاهاته واحتياجاته ويطلب من قائد (سلا) ألا يطلق سراح أفراد السفينة التى أسروها للأعداء إلا بعد أن يطلقوا هم سراح عدد مماثل من الانجليز الذين فى أسرهم (٥٩) .

هذا على أننا نشير إلى أن علاقة الانجليز بالعياشى ظلت قائمة وقوية طالما كان العياشى صاحب النفوذ فى المناطق الهامة الممتدة من (الرباط) إلى (تطوان) وما عداها من الثغور التى كان يهم انجلترا تأمين مصالح رعاياها فيها — هذا بالإضافة إلى سعى الانجليز لكسب ود أصحاب السلطة من ملوك السعديين — لكن حين أنقلب الود والصفاء بين الدلائيين والعياشى كما سنشرح وانتهى الأمر بقتل العياشى فى ٩ محرم ١٠٥١ (١٢ أبريل ١٦٤١) لم يتأخر الانجليز عن الاتصال بزعيم الدلائيين (محمد الحاج) الابن الأكبر للشيخ (محمد بن أبى بكر الدلائى) وعقدوا معه معاهدة صداقة شبيهة بمعاهداتهم مع العياشى(٦٠) .

وهكذا اتسمت السياسة الانجليزية — كما ذكرنا — بالمرونة والمراوغة على أن هذه السياسة الملتوية والمتناقضة أغضبت الملوك السعديين بمراكش ، كما أغضبت الدلائيين الذين امتد نفوذهم إلى الثغور الواقعة شمال أم الربيع .

وكانت انجلترا تضطر من وقت لآخر لإرسال مندوبيها لمحاولة علاج الموقف وبحث وسائل تحقيق مصالح الرعايا الانجليز وبالطبع كانت انجلترا تعتمد فى الوصول إلى أهدافها على قوة أسطولها قبل كل شىء .

خامساً — علاقة العياشى بالدلائيين - ونهاية حياته :

تعرف العياشى لأول مرة على محمد بن أبى بكر الدلائى - كما يغلب على الظن - فى مدينة سلا ، عند شيخهما (الشيخ عبد الله بن حسون) فتوطدت عرى الصداقة والمحبة بين الرجلين وظلا يذكران طول حياتهما صفاء المنبع الصوفى الفياض الذى كرعا منه معاً(٦١) على أن ماتؤكده المصادر - هو أن العياشى كان يثق فى صديقه الدلائى ويعتز برأيه ويسترشد به فى شتى المشاكل ، ولذا كان ينبىء صديقه بما يعتزم القيام به من حركات الجهاد بل ويطلعه على خططه الحربية .

لحين تكشف بعض القبائل من (أولاد سكير) و (شراقة) - بيعته واعتزم قتالها - بعث إلى صديقه (محمد بن أبى بكر) الدلائى ينبئه بما اعتزم القيام به ، فرد عليه مستنكراً مسلك هذه القبائل التى تنكرت له بدلا من أن تقوم بواجب شكر الله على النعمة التى أسداها إليهم وأسبغها عليهم - وهى كما يقول له - ذاتكم التى نابت عن الأمة المحبوبة فى أداء هذا الفرض . . ألم يعلموا أن الله تعالى لهم محاسب وسائل وأن اتباعك والإذعان لحججك وإجابة دعونك هو لهم عنـــد الله من أرجح المقربات وأعظم الوسائل . . مادعوت إلا الله ولامضيت يومك وامسك إلافيما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ما كنت أظن أنهم يملكون منك أرضاً ولاجداراً . . فإن لم يرجعوا الطريق الرشد فاعرض عنهم . . وإن كانوا أوفر من حصى البطحاء وأكثر من رمل الدهاء فالله وليك وناصرك(٦٢) .

وكتب محمد بن أبى بكر الدلائى يحض شيوخ القبائل ورؤسائها على الانصياع للعياشى - وجاء فى رسالته بهذا الشأن: « والله لوكان فى ملة النصارى من يفعل فى المسلمين كفعله هو فى النصارى لملكوه رقابهم وأولادهم وولوه أمورهم وحكموه فيها(٦٣) » .

وحين علم محمد بن أبى بكر الدلائى - بأخبار انتصارات العياشى على المستعمرين فى العرائش وغيرها بعث إليه يهنئه بهذا النصر ، ويعلن فرحه وسروره بالنصر الذى مكن الله به على المسلمين ورد عليه العياشى شاكراً ويخبره بعزمه على غزو (المعمورة) ويلتمس منه الدعاء بالإغاثة على ماهو بصدده - وجاء فى الخطاب :

« هذا وقد ورد علينا كتابكم المعظم - أثير المحل لدينا كريم الورود علينا مهنئاً بغزوة العرائش أعادها الله داراً للإسلام ومتضمناً سروركم بذلك وبما كتبه الله تعالى . . وقد قوى الأمل فى الله سبحانه وتعالى أن تكون تلك الغزوة

مفتاحاً افتحها .. فالمسلمون نازلون الآن بعقر دارها ويرسلون الصواعق على أسوارها حتى تغرق إن شاء الله بكفارها - وبإذن الله عز وجل ببوارها - ويطهرها من أدرانها .. هذا الذى انعقدت عليه النية . لكن ياسيدى أين المساعد والأمر لاينهض به الواحد ، والمسلمون - جبر الله صدعهم - لايتفق لهم رأى .. حتى أن افتراق كلمتهم أضر على الإسلام من اجتماع عدوه ، وبعدهم عن نصرته شر من قرب الكافر ودنوه(٦٤) ..

وظلت العلاقات على هذا المنوال وكان العياشى يهدى إلى الدلائيين بعد انتصاره فى المعارك الحاسمة جزء من الغنائم - ففى عام (١٠٤٣هـ - ١٩٣٣م) أرسل لمحمد بن أبى بكر هدية عظيمة مع ابنه (عبدالله) وقد اشتملت الهدية على أنواع من اللف والكتان وغيرهما من الثياب الرقيقة الغالية الأثمان حتى أن الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى تعجب من تلك النفائس التى امتلأت بها صناديق عديدة ورأى فى استعمالها ترفاً لايليق بصوفى زاهد مثله فوزعها كلها على الشرفاء والضعفاء والطلبة المقيمين بالزاوية الدلائية ، ولم يحتفظ منها لنفسه ولا لأهله بشىء(٦٥) .

وكانت نظرة الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى للعياشى - كما تستشف من خطاباته التى أوردنا بعض ماجاء فيها من قبل - على أنه مجاهد يقوم بعمل دينى ووطنى - وظل الأمر كذلك حتى وفاة (محمد بن أبى بكر) فى عام (١٠٤٩هـ - ١٩٣٩م) فتولى الأمر بعده ابنه الأكبر (محمد الحاج) ، وظل العياشى على اتصال به كما كان مع والده حتى أنه حين استغاث أهل فاس بالعياشى من جيرانهم (الحيانية) و (شراقة) الذين دابوا على الإغارة عليهم - فما كان من (محمد الحاج) إلا أن بعث معهم جيشاً عظيماً من قبائل البربر ليستعين به العياشى على قتال (الحيانية) ومن معهم من (شراقة)(٦٦) .

هذا على أن العلاقات بين العياشى و (محمد الحاج) الدلائى - لم تستمر على

هذا المنوال من الصفاء والتعاون ـ فلم تلبث أن انقلبت الصداقة إلى عداوة وانتهت بحرب طاحنة بين الطرفين .

والمتتبع لتطور العلاقات بين الطرفين تعتريه الدهشة من هذا التطور العجيب ففى رسالة لمحمد الحاج إلى العياشى يذكر له :

« أن السعديين أبناء الأجلة الأسلاف الذين هم ملوك المغرب وخلفاؤه .. أرسلوا إلينا كتابا أفصحوا فيه بأنك جرت عليهم . وعلى من هو تحت طاعتهم ، وغلبت على القبائل المجاورين لك ، وعزمت على استئصال شأفتهم وأنك تزعم أنك تريد الجهاد وليس قصدك إلا جمع الأموال ، وتملك البلاد ، واستعباد العباد ، وطلبوا منا إغاثتهم على قتالك ، وساعدتهم على حربك ونزالك .. فقدمنا إليك التشفع بربك فيقل أن نبعث من يقوم بحربك دونهم من الأحفاد ويكفيهم الله مابذالهم من شرك وصدك ، ونصبحك بجنود لاقبل بها لك ولا لغيرك والسلام ...(٦٧) .

على أن حادثة (الأندلسيين) ، كانت فى الحقيقة ـ كما يقول المثل ـ القشة التى قصمت ظهر البعير فيما يتعلق بالعلاقات بين الطرفين ـ فقد اتهم العياشى الأندلسيين المقيمين على الضفة اليسرى لنهر (أبى رقراق) بممالأة الأسبانيين على المجاهدين .

وكان ذلك ـ كما يذكر الحادى أثناء (غزوة الحلق الكبير) فقد كان أهل الأندلس هؤلاء ـ قد كرهوا سيدى محمد العياشى ـ لعرض غير لائق اترضوه عليه فلم يوافقهم عليه فبغضوه لذلك وتحزبوا عليه ، فهادنوا النصارى أثناء (محاصرة الحلق) ، وأمدوهم بالطعام والشراب ، وتصرفوا فى بيت مال المسلمين ، ومنعوهم من الرواتب منه ، وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم ـ فبلغ ذلك سيدى العياشى ـ فلما تحقق لديه الأمر أقام عليهم الحجة وشاور العلماء فى قتالهم ، فأفتى أغلبهم بإباحة قتالهم .

وقد افتى سيدى محمد المقرى (الفاسى) بجواز قتالهم لأنهم حاربوا الله ورسوله ووالوا الكفار .

وكان الإمام (أبو محمد سيدى عبد الواحد بن عاشر الأنصارى) — قد توقف عن الجواب فى ذلك الأمر - فلم يدل فيه برأى - إلى أن رأى بعينيه أهل الأندلس بسلا يحملون الطعام للكفار ويعلمونهم بعورة المسلمين فحكم بقتالهم - فحكم العياشى فى رقابهم السيف أياماً وحاصرهم وضيق عليهم فقتل من وجده منهم - فذهبت طائفة منهم إلى النصارى ، وذهبت طائفة أخرى إلى الجزائر ومنهم من ذهب إلى مراكش ، وذهبت طائفة إلى (الزاوية الدلائية) تستنجد بأصحابها ورجع من بقى منهم إلى اجتماع الكلمة والتوبة إلى الله(٦٨) .

وأرسل (محمـــد الحاج) يستشفع عنده فى أهل الأندلس الذين استجاروا به ، فأبى أن يقبل فيهم شفاعة ، وأصر على استئصال شأفتهم . فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على عداوته ومقاتلته .

ولعل املاق فى وصفه للوضع الذى آلت إليه الأمور تعبير عن الحالة فيذكر « أن أهل الدلاء حنقوا عليه — فعظمت منهم له العداوة ، وسلبت منهم فى جانبه المعمورة ، وصاروا يرمونه بما ليس فيه ، ويسمونه باسم (الجاهل السفيه) ... وصانعوا صاحب مراكش فى رسائلهم إليه ، وبالقوافى زخرف قولهم بذمه وإهانته (أى ذم وإهانة العياشى طرف صاحب مراكش) ... والله سبحانه وتعالى واقيه من كيدهم ومنجيه من سوء ما بدا له من عندهم »(٦٩) .

وقد أعد (محمد الحاج) الدلائى العدة لمهاجمة (العياشى) فى المناطق التى

يبسط نفوذه عليها للقضاء على سلطانه بها - فزحف بجيوش كثيرة من عرب وبربر فى أوائل عام (١٠٥٠هـ — ١٦٤٠م) وملك مدينة (مكناس) ثم اتجه إلى (فاس) وحاصرها فهب العياشى لمواجهته ووقعت الحرب بين الصديقين القديمين ، واستطاع العياشى أن يوجه ضربات قوية لجيش الدلائين — فاضطرهم لرفع الحصار عن المدينة — ولجأ الدلائيون إلى حيلة لبث الفرقة بين أنصار العياشى حتى تضعف قوته — ويمكنهم الايقاع به فجذبوا إليهم بعض رؤساء القبائل التى كانت تناصر العياشى من (الكوارده والتاغى) و (الدخسيس) و (الخلط) وطائفة من الاعراب ، وانتهز فرصة إنشغال العياشى بقتال الأسبان فى (طنجه) فجمع حشوداً كبيرة من العرب والبربر شمال نهر (سبو) لتعترض طريقه فى أثناء عودته من قتال الأسبان ... وفوجىء العياشى بهذا الجيش الجرار يعترض طريقة وحاول أن يتجنبهم ويغض الطرف عنهم — خاصة أنه كان عائداً منهكاً من معاركه مع الأسبان — لكن أتباعه أبو إلا أن يتصدوا لمقاتلة أعدائهم فاضطر لمجاراتهم فوقعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين فى ضواحى (سوق أربعاء الغرب) فى (أواخر ذى القعدة عام ١٠٥٠ — ١٦٤١) — وقتل فرس العياشى تحته فى هذه المعركة ، فلجأ هو إلى قبيلة (الخلط) ولم يكن يعلم إنهم انحازوا إلى أعدائه — فأغتالوه فى (عين القصب) التى تقع على بعد ٢٠ كيلو متراً غرب (سوق اربعاء الغرب) وكان ذلك فى (١٩ محرم ١٠٥١ — ٢١ أبريل ١٦٤١) — وبموت العياشى تفرق أنصاره وخلا الجو للدلائين فاستولوا على (فاس) و (سلا) و (تطوان) وباقى بلاد المغرب التى كانت تدين بالولاء للعياشى .

وقد كانت وفاة هذا البطل المجاهد فى هذا الوقت بالذات خسارة فادحة فرثاه عدد كبير بقصائد مؤثرة ، وفى الوقت الذى نظر المسلمون المخلصون

إلى فقد هذا المجاهد على أنه خسارة فادحة ألمت بالإسلام والمسلمين فقد ابتهج المستعمرون لزوال هذا الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم .

فقد ذكر ـ صاحب نزهة الحادى ـ أن رجلا مغربياً بالمدينة المنورة صور الإسلام بعد فقده برجل قد قطعت يده – بينما أقام المستعمرون (الافراح) لمدة ثلاثة أيام حين بلغهم خبر مقتله تعبيراً عن إبتهاجهم بذلك [٧٠] .

هكذا انتهت هذه الشخصية التى لعبت دوراً حاسماً فى تاريخ الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الأوربى فى المغرب العربى فى النصف الأول من القرن السابع عشر .

ولاشك فى أن إنتهاء حياة هذا البطل بهذه الطريقة المؤسفة يثير الكثير من التساؤلات ولعل السؤال الأول الذى يلح أكثر من غيره هو ... هل حادثة الأندلسيين التى اتخذها (محمد الحاج) واتباعه من الدلائيين ذريعة لمحاربة هذا المجاهد والتخلص منه – هى السبب الحقيقى لهذا السلوك الغريب من الدلائيين تجاه رجل كان لعهد قريب من أقرب المقربين إليهم ؟

ويصعب على الباحث أن يجيب على هذا السؤال بالإيجاب أو النفى لكن لا يستطيع الإنسان أن يستبعد أن قضية الموريسكيين قد تكون ذريعة اتخذت ليحقق (محمد الحاج) أطماعا جاشت فى نفسه ، ولتبرير هذا العمل أمام المواطنين واتباع محمد الحاج الدلائى نفسه فقد كان (محمد الحاج) قد ثبت أقدامه فى (ملوية العليا) (وتادلا) وغيرهما من البلاد – ولا بد أن أنظاره اتجهت نحو الغرب وكان العياشى ونفوذه يمثل العقبة الكؤود فى هذا الاتجاه – كما لا نستبعد أن نفوذ العياشى وما وصل إليه من حب الجماهير وتكتلها حوله – قد آثار روح الغيره عند (محمد الحاج) الشاب الذى ورث

مرين أبيه الديني لكنه لم يكن قد وصل بعد إلى ما كان عليه أبوه من خبرة وحنكة وروية يتميز بها الشيوخ عن الشباب ، ولعل استنكاره لعدم قبول العياشي لشفاعته للاندلسيين واعتبار ذلك كبيرة من الكبائر يدل على روح الغرور هذه .

وهناك سؤال آخـــر يتعلق بموقف العياشي نفسه من الأندلسيين فهل كانت المصلحة الوطنية والحكمة تقضيان أن يصل الأمر إلى حد قتالهم فى هذا الوقت الذى كان العدو يحتل فيه الثغور المغربية بينما كانت الأوضاع الداخلية مضطربة كما رأينا والسلطات الحاكمة عاجزة عن مدافعـة الطامعين فى ثغور البلاد وثروتها ؟

هذا وقد كان الموريسكيون يمثلون قوة كبيرة فى (تطوان) و (الرباط) و (سلا) ولاشك فى أنهم كانوا يجنحون لأن تكون لهم سلطات مستقلة فى هذه الأماكن وقد قدموا للعياشي مساعدات قيمة فقد أمدوه بالرماة والبارود و (الانفاط) فى جهاده لاعداء البلاد(٧١) .

لكن العياشي كان يطمع فى إدماجهم واخضاعهم لسلطانه نهائيافاصطدم برغبتهم فى أن تكون لهم شخصيتهم المستقلة المتميزة ... ولعلهم فى سبيل تحقيق هذه الغاية ذهبوا مذاهب شتى ــ فارتبطوا فترة بملك مراكش ــ لكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هـذا الولاء وقطعوا صلتهم ببلاط مراكش وأقاموا عنهم عاملا اختاروه بأنفسهم وجعلوه مسؤولا أمام مجلس مختار ، وذهبوا ــ كما اتهمهم العياشي وغيره من المعاصرين ــ إلى أنهم مدوا أيديهم إلى الأسبان واتصلوا بحامية (المعمورة) وأمدوها بالذخيرةوالطعام فى الوقت الذى كان العياشي يهاجم فيه هذه الحامية ويضيق عليها الخناق ــ وكان هذا هو السبب فى استباحة العياشي لقتالهم .

لكن مع كل ذلك فلعل المصلحة الوطنية كانت تتطلب ألا يضل العياشى فى موقفه منهم إلى قتالهم فى وقت كان يستلزم تركيز الجهد ضد العدو المستعمر — خاصة أنه كان يمكنه استمالتهم والاستفاده منهم فى هذا الميدان - وقد سبق أن اسهموا فيه بنصيب، خاصة أنهم بلجوئهم للدلائيين ليتوسطوا لهم لديه — دلوا على استعدادهم للرجوع للصواب .

ومهما يكن من أمر فإن أبا عبد الله محمد بن أحمد الزيانى العياشى يمثل صفحة من صفحات الكفاح الوطنى فى المغرب العربى ضد الاستعمار الأجنبى ...

وهى صفحات ما أجدرها أن نلقى عليها الأضواء .

ملحق البحث

نورد هنا بعض نماذج من المصادر الأصلية التى تناولت الحديث عن العياشى :

أولا : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة لعبد العزيز ابن أبى الحسن بن يوسف المهدى الزياتى (١٠٥٥هـ — ١٦٤٦) .

ص ٢٢٩ نوازل الجهاد .

٢٢٣ - ٢٩٤ وجوب الجهاد قاصر على وجود الإمام .

(نسخة خطية فى وثائق الرباط تحت رقم ١٦٩٨ / د) . جزءان :

الأول : صفحاته ٣٦٤

الثانى : صفحاته ٣١٨

بخط مغربى وسط ورد ذكره فى ملحق بروكلمان جـ ٢ ص ٦٩٤

ثانياً : نزهة الحادى فى أخبار ملوك القرن الحادى (عشر) .

لابن عبدالله محمد الصغير بن عبدالله بن على الأفرانى المراكشى (ينتهى فى ٢٥ محرم ١١٣٩هـ) .

ص : ١٠٤ — فيها تعريف بالعياشى وذكر بعض مناقبه .

١٠٩ الخبر عن قتله ، وكيف وقع ذلك وسببه .

١١٠ رثاء الشعراء له وقصيدة الأديب البليغ (أبو العباس سيدى محمد المرغونى) .

(نسخة خطية فى وثائق الرباط تحت رقم ٤/د ، ١١٧/د ، ٧٠/د)

ونسخة على المطبعة الحجرية ، وأخرى بترجمة فرنسية ملحقة بها .

وهو يشمل تاريخ المغرب خلال القرن (الحادى عشر الهجرى ــ السابع عشر الميلادى)

والمؤلف عالم من أسرة معروفة بمراكش ولد حوالى (١٠٨٠هـ) ، وارتحل لفاس حيث أخذ العلم على كثير من علمائها ــ وله عدة كتب فى التفسير ، وقد انتهى من كتابه هذا الذى تناول فيه تاريخ فترة هامة من حكم السعديين ــ (١١٣٩هـ)

ــ والنسخة الفرنسية نشرها (هوراس) مع فهرس للإعلام ، وفهرس عام تحت عنوان :

" Nozhet el Hadi; Histoire de la Dynastie Saadinne au Moroc (Paris 1889).

ثالثاً : البدور الضارية فى التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية

لسليمان بن محمد بن عبدالله بن على العلمى الشفشاوفى (١٢٣٦ هـ)

ص ١٨٨ ، ١٣٩ - تهنئة محمد بن أبى بكر الدلائى للعياشى بغزوة العرائش .

ص ١٥ وفاة محمد الحاج الدلائى وتوليه ابنه عبدالله الذى تلقبه المصادر الأوربية (بأمير سلا)

ص ٣١٦ الصفحة الأخيرة من الكتاب - ذكر بها سنة الانتهاء منه .

« ولد المؤلف فى صهوان فى جنوب تطوان حوالى (١١٦٠ــ١٧٤١م) وبات فى (١٩ صفر ١٢٣٢ ــ يناير ١٨١٦) - والكتاب تاريخ مطول لكل العائلة الدلائية والأحداث المرتبطة بها فهو يتحدث فى بعض صفحاته عن التاريخ السياسى للزاوية .

رابعاً : الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد لعبدالقاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن ، إملاق .

وقدأخذ الكتاب الكثير عن نزهة الحادى ، وكذلك عن البدور الضاوية مع بعض الإضافات .

وقد مات المؤلف فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى ورقم النسخة فى وثائق الرباط ٩١/د .

وقد وجدت نسخة أخرى خطية أيضاً فى فاس انتهى منها كاتبها فى ٥ صفر ١٣٠٦ - ١١ أكتوبر ١٨٨٨

خامساً : المعاهدة المعقودة بين سيدى محمد العياشى ، وشارل الأول ملك انجلترا (نقلا عن النسخة الأصلية المحفوظة فى أرشيف ملبورن) .

سادساً : رسم تخطيطى لسلا ١٦٣٧ نقلا عن كتاب :

Jahe Dunton : A True Journall of the Sally Fleet With the proceedings of the voyage. (Published by John Dunton, London Mariner master, of the admicall Called — the Leopard — London 1657).

(British Museum Printed Books — Press Mark E 1943112).

ويحتوى الكتاب وصفاً كاملا المدن الثلاث - (الرباط) و (القصبة)، و (سلا) - وقائمة الأسرى الذين كانوا بسلا .

Mohemmed El - Aiachi

et sa lutte contre les Espagaels et let dotugais (+ 1641)

El A'iachi, faquih et théologien musulman Marocain, passa sa jeunesse à Salé. fut l'élève de quelques éminents faquihs de son slècle. Il se fit distinguer vers la fiu du règne de l'Etat Saadite, durant les premières décennies du XVIIe siècle. Les sutorités rêgnantes au Marec, à la suite de la fin du rêgne du Sultan Ahmed El — Mansour, furent aifaibles et si discerdantens qu'elles se trouvèrent incapables de se défendre contre l'onnemi extérieur. D'une part les regards des Esqagnols et des dortugais se digèrent vers le Noroc, aprês le succès qu'ils axaient remportè contre les Arabes sur la tsrre d'Andalousie. D'autre part, le Marcc devait faire face aux ambitions des Turcs qui s'êtàieut déjà installés en Algérie et en Tunisie.

Les efforts de El - A'iachi es firent ramarquer, en premier lieu, dans le dômaine de la lutte contre les Portugais près de la ville de (Bréga). Après avoir connu la défaite, sur le champ de bataille, les Portugais eurent reconrs aux complôts ponr lui porter préjudice auprès du Sultan ; lequel chercha à d'en débarrasser, mais en vain.

Enfin be compte, El—A'iachi réussit à étendre son ponvoir, de Salé jusqu'à Tetouân.

Anant reussi]â avoir la mainmise sur ces terrains, il conduisit les Narocains en une campagnc véhémente contre les Espagnols â l'Arèche " et " El Ma'mourah " et tous les autres ports ocupés par enx. Il remporta la victoire dans so lutte contre les ennemis du pays.

Lorsqne les pays b'Europe (et emparticulier l'Angleterre) remarquèrent le pouvoir d'El—A'iachi sur les ports Marocains' ils contractèrent avec lui des traiiés commerciaux pour sauvegarder leurs économiques et pour protéger leurs citoyens.

El—A'iachi ne fut pas seulement un homme de guerre, mais

il fut aussi un rêformateur social. Il écrivit plusieurs messages en vu de résoudre maints problèmes sociaux qui se faisaienr senti par sa communauté. Il outeetenait de bons ɹapports avec "N. Ben Abou-Bakre El - Dallai" chof du secte eonnu parcenom: ainsi qu'avec son fils. En outre, il avait égalemeut de qonnes relations avec les Morisques emmigront: de l'Andalousie à Tétouan, Rabat et Salé.

Toutefois. ces bonnes relations ne durdrent pas longtemps, à la suite d'une mésentente entre les deux parties, ce qui l'obligea à entaar eu guerre axec eux.

Mohammed El-Haj El-Délai proposa se médiation, dans l'espoir que El—A'iaohi se réconcilie avec eux, mais sa proposition fut repoussée. Par cansépuent (les Dellaines) es reteurnèrent en guerre avec lui. Il fut attaqué et assassiné le 21/4/1664.

L'étude présentée ci-dessus, exdose la vie et la lutte de El-A'iachi, en se basant sur les ressources oiiginelles et contemporaines, ainsi pue aur les deoɹments officiels, dont on trouvera plus loin quelques zpicimens, en guise d'appendice.

الحـــواشي

(١) انظر :

الأفرانى المراكشى ، أبو عبد الله محمد الصغير بن عبد الله بن على الأفرانى المراكشى :
نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى .
ص١٠٤ النسخة الخطية / ٢٢٢ النسخة الحجرية .
(انظر التعريف بالكتاب والمؤلف ، ملحق البحث — مع نماذج منه) .

(٢) إملاق : عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو إملاق : الخبر عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد ص ٢ .

(٣) انظر التعريف بالكتاب ، فى ملحق البحث - مع نماذج منه .

(٤) نزهة الحادى : المرجع السابق — النسخة الخطية ص١٠٤ رقمها ٤١٠ بوثائق الرباط وهى التى سنشير باستمرار لصفحاتها .

(٥) يزخر الأرشيف الأسبانى بعدد كبير من الراسلات التى تؤيد هـذا الاتجاه ، فكثيراً ما لجأ المتنازعون إما إلى الأسبان) أو إلى العثمانيين فى (الجزائر) لطلب العون والمساندة .

انظر :

Archive General de Gimancas Estade Legajo 477.

(٦) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكادرتية (نشره جورج كولان فى الرباط ١٣٥٣هـ — ١٩٣٤م) . ويرجح أن المؤلف عاصر هـذه الأحداث وأنه عبر عنها خير تعبير ، لكنه حرص على ألا يذكر اسمه خشية أن يبطش به أصحاب السلطان ممن يعنيهم الأمر .

(٧) Prescott : History of the Reign of Ferdinand and Isabella (1890) p. 467.

(٨) ملاحظة : كان لفظ (سلا) يطلق على (الرباط) ، (القصبه) و (سلا) — قبل مجىء الأندلسيين ، لكن بعد ذلك استرجعت (الرباط) اسمها الموحدى ، ويطلق على القصبة اليوم (قصبة الودايا) نسبه إلى جيش (الودايا) الذى سكنها أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام العلوى — أما (سلا) اليوم فهى ضاحية الرباط .

انظر : محمد حجى : الزاوية الدلائية (١٩٦٤) ص١٧٠ .

(٩) أحمد المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين ابن الخطيب جـ٢ ص : ٦١٧ (المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٤هـ) — والكتاب فى أربعة أجزاء — فرغ المقرى منه بالقاهرة فى شهر رمضان (١٠٣٨ هـ — ١٦٢٨ م) .
وسنرى أن الموريسكيين سيلعبون دوراً هاماً وخطيراً فى الأحداث المرتبطة بالعياشى .

(١٠) الباستيون — لفظة أسبانية معناها القلعة ، وكان هـذا الحصن واقعاً خارج باب البحر حيث السفارة الفرنسية الآن (فى مبدأ شارع الرئيس الحبيب بورقيبة) .

(١١) خطاب (Giovanni Battista Gesia) موجود فى :
British Museum - Additional Mss 28359 f. 25.

(١٢) فيشر ، هربرت : أصول التاريخ الأوربى الحديث (ترجمة د. زينب عصمت راشد ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى — مراجعة د . أحمد عزت عبد الكريم — المعارف بمصر ١٩٧٠) ص.ص. ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(١٣) فيشر ، هربرت : المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(١٤) إملاق — مرجع سابق ص١ .

ملاحظة : ردد هذه القصة التى تحاك حول بداية جهاد العياشى أكثر من مرجع — ولا ندرى هل هى حقيقة أم من قبيل ما يثار دائماً حول أعمال المجاهدين والأبطال من من قصص خيالية نضفى على أعمالهم هالة من الروحانية والتمجيد .

(١٥) نزهة الحادى (مرجع سابق — النسخة الخطية ص : ١١٥ (النسخة الحجرية ص ٢٢٥) .

(١٦) نزهة الحادى : المرجع السابق ص ١٠٦ ، النسخة الحجرية ٢٢٦ .

(١٧) يقع هذا الثغر شمال مدينة سلا على مصب نهر سبيو ، ويطلق عليه أيضاً إسم (المهدية) .

(١٨) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية (نشر جورج كولن) ص ١٠٣ .

(١٩) نزهة الحادى ص ١٠٦ (الخطية) ، ٢٢٦ (الحجرية) .

(٢٠) إملاق — ص٥ .

(٢١) عبد العزيز بن أبى الحسن بن يوسف مهدى الزناتى : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غماره (نسخة خطية بوثائق الرباط تحت رقم ١٦٩٨ /D ورقة ١٢٥/ب.

(٢٢) انظر نص فتوى (محمد العربى الفاسى) بهذا الخصوص فى :
الجواهر المختارة — المرجع السابق ورقة ١٢٢ .

(٢٣) الجواهر المختارة — المرجع السابق ورقة ١٢٦ .

(٢٤) إملاق ص. ص ٢٦ — ٣٣ .

(٢٥) إملاق ص.ص ٢٢ — ٢٦ .

(٢٦) إملاق — مرجع سابق ص ٣ .

(٢٧) نزهة الحادى -- مرجع سابق ص ١٠٧ (النسخة الخطية) ، ٢٢٧ (الحجرية) .

(٢٨) نزهة الحادى ص ١٠٧ (النسخة الخطية) والنسخة الحجرية / ص٢٢٧ .

(٢٩) انظر : سليمان بن محمد بن عبد الله بن محمد على الصهوانى الحسنى :
البدور الضارية — مناقب أهل الزاوية ردلائية (نسخة خطية بوثائق الرباط برقم ٢٦١ / د) .
(انظر ملحق البحث — تشريفاً بالكتاب وصاحبه) .

(٣٠) إملاق — مرجع سابق ص ١٣ .

(٣١) نزهة الحادى — مرجع سابق ص ١٠٨ (النسخة الخطية) ، ص ٢٢٨ (النسخة الحجرية) .

(٣٢) نزهة الحادى — ص ١٠٨ (النسخة الخطية) النسخة الحجرية ص ٢٢٨ .

(٣٣) يوجد بمخطوطات المتحف البريطانى عدد كبير من المذكرات المتعلقة بالعلاقات البريطانية المغربية فى هذه الفترة كتبها عدد من السياسيين والعسكريين نذكر منها مذكرات:

(Antony Shereby—1622), (Henry Mainwaring 1611).

كما يوجد عدد من الكتب المعاصرة نذكر منها :

George Wilkins : Three miseries of Barbary; Plague Famine and civil Warres (1604) John Dunton : Atrue Journal of the Sally Fleet (1637).

(٣٤) فشر هربرت : مرجع سابق ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٣٥) نفس المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٣٦) انظر :

1 -- Richard Hakluyt : Principal Navigations of the English Nation (Tome II).

2 — The travels and Adventures of the Shereby brothers. (British Museum - Printed Books, Press Mark 1198 C. 20).

3 — Memoire De S. Scott sur la Commerce Marocain (Avril 1638).

4 — Pere Dan : L'Histoire de Barbarie et ses crossaites (1644).

5 — Reception de l'Ambassadeur D'jouder Ben Abdallah A Londre : 'British Museum, Printed Books, Press Mark 1434, 1—2 (1637).

(٣٧) اشتهرت (سلا) بالذات بصناعة السفن ، وبأسطولها البحرى ، وترجع هذه الصناعة فيها إلى الملك الوحدى عبد المؤمن بن على (١١٣٠ — ١١٦٣م) الذى أسس داراً للصناعة البحرية بسلا — لكن القرصنة البحرية لم تعرف إلا فى عهد الرينيين — وقد أقدم عليها المسيحيون والمسلمون وكانت نظرة المسلمين إليها أنها صورة من صور الجهاد ؛ وانتشرت على وجه الخصوص فى مدن طرابلس (المغرب) تونس ، الجزائر ، سلا — وتطورت فى عهد العياشى فأصبح للسلاويين أسطول ضخم للجهاد تسانده وتمونه دار لصناعة السفن على ضفاف نهر أبى رقراق وكانت هولندة بالذات — أعظم دولة بحرية تزود هذه الدار بحاجتها من المواد اللازمة لصناعة السفن . وعمل فى هذا الأسطول السلاوى عدد كبير

من الموريسكيين ، وقد أطلق الاوربيون عليهم لفظ قراصنة سـلا :
(Les Corsaires de Salé)

انظر : عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة (مجـلة تطوان) سنة ١٩٥٨ عدد ٣ ، ٤ .

وكذلك :
Roger Coindreau : Les crosaires de Salé (Paris 1948).

(٣٨) أشـار كل من الادريسى (٥٤٨/ ١١٥٤) وكذا ليو الأفريقى فى كتاب (وصف أفريقيا) (١٥٢٦) إلى أن كميات ضخمة من السكر تنتج فى اقليم (سوس) بالمغرب ، وأن هذا السكر يتميز عن أنواع السكر الأخرى بحلاوته ، وكان ينتج فى معاصر فيمر القصب بين حجرى المرحى ، ويغلى الناتج — والحقيقة أننا نجهل الطريقة التى كانت تستخدم بعـد ذلك فى تنقية السكر الناتج ، هـل كان الفحم الحجرى هو العنصر الأساسى فى التنقية أم لا ؟ — ومعروف أن الـكثير من مزارع القصب كانت مملوكة للأسر المغربيـة الثرية ويعمل بها مسيحيون من العبيد أو غيرهم . وفى القرن الثانى عشر كان جزء كبير من السكر الناتج يصدر إلى (فينسيا) والبلاد الأوربية الأخرى ، وكان من أسباب ثراء السعديين .

(٣٩) Btitish Museum, Cotton Mss Nero B. xI, f. 298.

(٤٠) Public Record Office - State Papers Domestic Elizabeth vol. Lvii no. 85.

(٤١) انظر رسالة سفير انجلترا فى البرتغال (Thomas Wilsou) بتاريخ ٢٧ يوليو ١٥٧٣ :
British Museum, Harlian Mss 6991, f. 26

وكذلك بخصوص نصوص المعاهدة المعقودة بين انجلترا والبرتغال :
British Museum, Cotton Mss Nero AI. f. 167.

(٤٢) ترتب على تحول النشاط البحرى إلى طريق (رأس الرجاء الصالح) أن أضعف شأن الدول المطلة على البحر المتوسط والتى كانت من أهم مراكز الحضارة فى العصور القديمة والوسطى ، وانتقل ميزان القوى إلى الدول المطلة على المحيط الأطلنطى والبحار المؤدية إليه . ويعتبر القرن السابع عشر بالذات — قرن هذه الدول المحيطية .

(٤٣) يوجد فى المتحف البريطانى (British Museum---Printed Books) عـدد غير قليـل من الـكتب التى تتعلق بالتجارة مع المغرب ، وبنشـاط الشركة التجارية (Barbary Gompany) الـتى أسست لغرض رعاية مصالح التجـار البريطانيين فى المغرب .

(٤٤) هناك قائمة بالهدايا التى أخذت تتدفق على الملك المغربى بعد الانتصار الساحق على البرتغال انظر :
British Museum : Cotton Mss, Nero B. I f. 229, 230.

(٤٥) John; Nicholas : The Progtess and Pnblio Precé-ssions of Queen Eliza beth (1823) p. 288.

(٤٦) Hakluyt : the Principal Navigation of the English Nation (Edition 1598—1600) Tom II. p. III.

(٤٧) أرسل جون هاريسون (John Harrison) عدة تقارير مفصلة من المغرب وقد اقترح أن يستولى الانجليز على (المعمورة) ، وعلل اقتراحه هـذا بأنها مكان مناسب جداً لاستقرار التجار الانجليز حتى يتموا صفقاتهم التجارية ، وأن المجاهد (العياشى) الذى بسط نفوذه على المنطقة حتى فاس ليس متحمساً كثيراً الاستيلاء على المعمورة خشية أن تعود تركيا فتستولى عليها ، كذلك هناك احتمالات بوجود معـدن الفضة فى المنطقة المحيطة بها ، بالإضافة إلى إمكانية زراعة الأراضى الداخليـة ، كما أن وجود حاكم مسيحى فيها يسهم فى نشر المسيحية فى المنطقة كلها .

انظر تقريره فى :

Public Record Office - State Papers. Foreign - Barbary States - XII fol. 154—155.

(٤٨) Public Record Office - State Papers; Foreign. Treaty Papers Batbary States.

(٤٩) Public Record Office - Sate Papers; Foreign Royal Letters Vol. II No. 66.

(٥٠) Public Record Office - Sate Papers. Foreeign Barba-ry States Vol. XII. Fol. 129—139.

(٥١) Public Record Office - State Papers.

Foreigu Barbary States Vol. XII fol. 142—143

(٥٢) Public Record Office - Patent Rolls, Gharles 1st 2472 No. 10.

(٥٣) Public Record Office - State Papers. Foreign Royal Letters vol. II No. 56.

(٥٤) انظر مذكرة الـكابتن (Penne) .

Public Record Office — State Papers Domestic, Charles Ist vol. CCC XXX. VIII No. 51.

(٥٥) Public Record Office—State Papers Domsstie : charles Ist vol. CCCX. LIV No' 4.

(٥٦) الخطاب غير مؤرخ — ومرفق به خريطة لميناء سلا .

Public Record Office—State Papers Domestic Charles I, vol. CCC LIV No. 28.

(وانظر ملحق البحث) .

(٥٧) انظر ملحق البحث وكذلك :

Melbourne Hall (Derbyshire) — Coke Papers Lease 41.

(٥٨) Public Record Office State Paperes, Foreign Barbary State XIII.

(٥٩) Public Record Office – State Papers Foreign Barhary States XIII.

(٦٠) انظر نص المعاهدة فى :

Pnblic Record Office — State Papers Foreign Treaty Papers I.

(٦١) محمد حجى : الزاوية الزلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (الرباط ١٩٦٤) ص ١٤٦ .

(٦٢) إملاق — مرجع سابق ص ١٠ .

ونزهة الحادى ص٥ ١٠ — الطبعة الحجرية ص ٢٢٣ .

(٦٣) لملاق مرجع سابق ص ١٢ .

(٦٤) نفس المرجع السابق ص ١٧ .

(٦٥) البدور الضاوية وقة ٤٩ .

(٦٦) لملاق — مرجع سابق ص ٣٥ .

(٦٧) نفس المرجع ص ٣٧ .

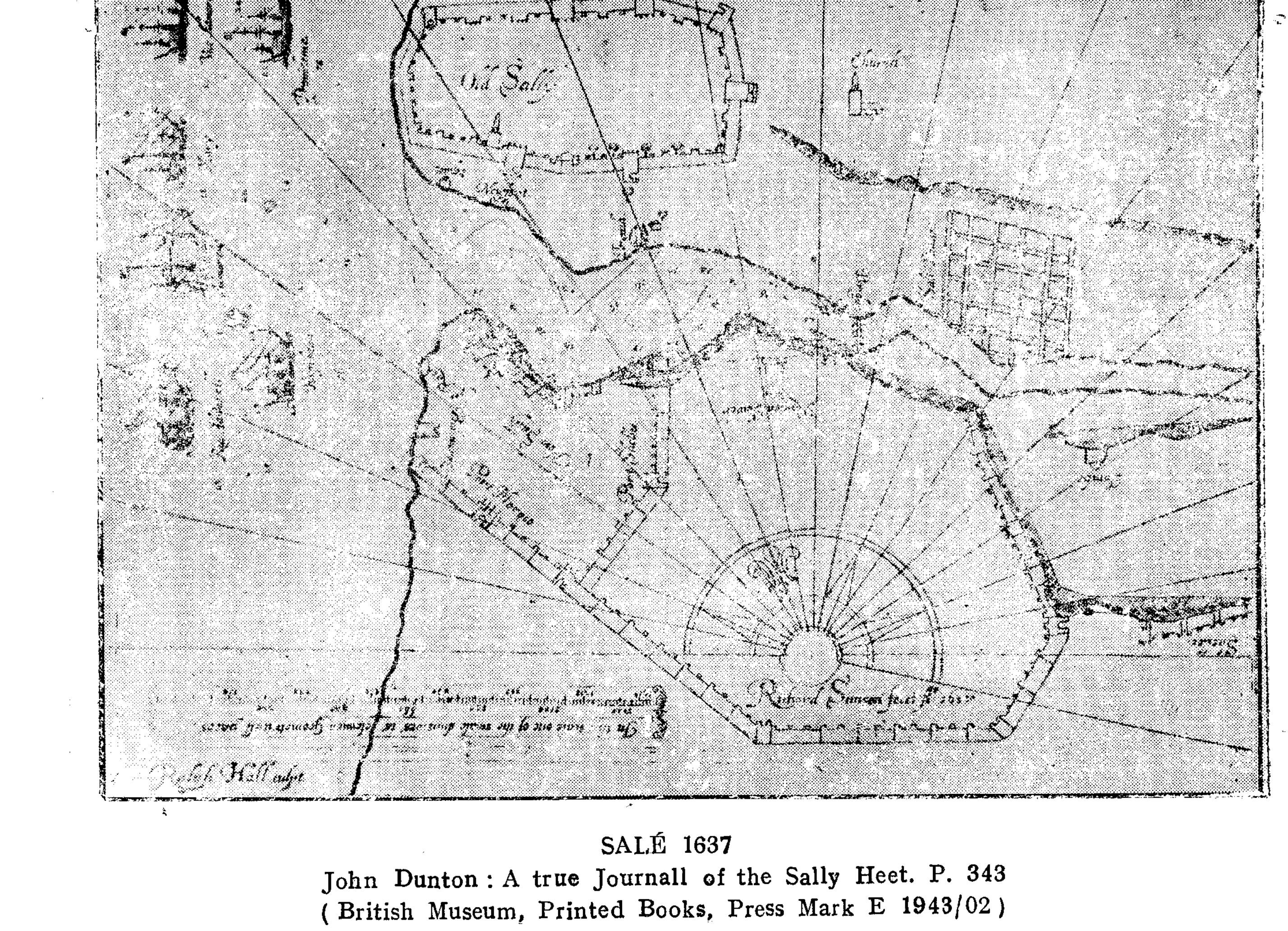
والبدور الضارية ص ٢١٠ .

(٦٨) نزهة الحادى — مرجع سابق ص ١٠٨ ، والنسخة الحجرية ص ٢٢٩ .

(٦٩) لملاق — مرجع سابق ص ٤٢ .

(٧٠) نزهة الحادى ص ١٠٩ ، ١١٠ — والنسخة الحجرية ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٧١) الجواهر المختارة — مرجع سابق ورقة ١٢٥ ب .



SALÉ 1637

John Dunton : A true Journall of the Sally Heet. P. 343

(British Museum, Printed Books, Press Mark E 1943/02)

الأصول الثقافية للنهضة اليابانية الحديثة

١٨٥٤ — ١٩٠٤

للدكتور رءوف عباس حامد

كلية الآداب — جامعة القاهرة

لاريب أن الأصول الثقافية لكل مجتمع من المجتمعات هى محصلة الإنجازات الحضارية فى المجتمع بكل جوانبها : الأدبية ، والفنية ، والصناعية ، والسلوكية ، وغيرها . وتقييماً لأى مجتمع من المجتمعات فى مرحلة من مراحل تطوره الحضارى، إنما يعتمد على مايتوافر له من أصول ثقافية ، وما تتسم به مرحلة التطور هذه من توازن بين المكونات المختلفة للثقافة . وبقدر ما يتحقق هذا التوازن ، يتحدد مسارة التطور الذى يقطعه المجتمع فى مراحل حياته ، والذى يشتمل على جميع العناصر المكونة للحضارة من تراث أصيل ، وأسلوب للتعبير عن ضمير المجتمع ، وقيم جمالية يتسم بها ... الخ . فإذا تطور أحد هذه العناصر بصورة أسرع من تطور العناصر الاخرى ، أو تجمدت بعض هذه العناصر عند حد معين من التطور ، بينما إستمرت العناصر الأخرى فى تطورها ، فان ذلك يؤدى إلى وقوع التناقض بين العناصر المكونة للشخصية الاجتماعية مما يترتب عليه إعاقة عملية التطور الحضارى ذاتها .

وتجربة النهضة اليابانية الحديثة (١٨٥٤ - ١٩٠٤) وهى الفترة التى غلب فيها على التجربة اليابانية الأخذ بالمظاهر المادية للحضارة الغربية من حيث

التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، وإقامة صناعة حديثة، وتكوين مؤسسات الدولة بالمفهوم الحديث، جديرة بالدراسة، فهى تقدم لنا نموذجا للتطور غير المتجانس بين العناصر المكونة للشخصية الحضارية اليابانية. فعلى حين بقى التراث الثقافى للشعب اليابانى جامداً عند مرحلة معينة من مراحل التطور لم تتجاوز حدود المحافظة على الأفكار القديمة المتوارثة، وظل سلوك الشعب منحصراً داخل إطار تراثه الموروث، تطورت الصناعة والأساليب الفنية بصورة سريعة غير متجانسة مع بقية المظاهر الحضارية فى المجتمع اليابانى.

ودراسة مثل تلك التجربة يحتاج منا إلى إلقاء نظرة على الظروف التاريخية التى أحاطت بها وتمت فى ظلها، مع الإهتمام — بصفة خاصة — بالأصول الثقافية التى كانت بمثابة الأرضية التى قامت عليها تلك المرحلة الهامة من مراحل تطور المجتمع اليابانى.

فقد لفتت اليابان أنظار العالم فى عام ١٩٠٤ حين ظهرت على مسرح السياسة العالمية كدولة شرقية حديثة، قادرة على إلحاق الهزيمة بدولة أوربية كبرى هى روسيا، وكان ظهور اليابان كقوة لها شأنها ثمرة جهود نصف قرن من الزمان، عمل الشعب اليابانى خلاله فى صمت وصبر وعزيمة لا تعرف الكلل من أجل بناء الدولة العصرية. وتبدأ تلك الفترة بعام ١٨٥٤ الذى أرغمت فيه اليابان إرغاما على كسر حلقة العزلة التى ضربتها حول نفسها مدة قرنين من الزمان تحت حكم أمراء الإقطاع من أسرة طوكوجاوا Tokugowa Bokufu الذين حجروا على سلطة الإمبراطور، وإنفردوا بحكم البلاد باسمه ومنذ ذلك التاريخ بدأت اليابان مسيرتها على طريق تأسيس الدولة الحديثة.

وبنت اليابان نهضتها الحديثة على يد حركة سياسية قامت فى عام ١٨٦٨، إستعادت سلطة الإمبراطور، وتمت تصفية الإقطاع، وإقامة الدولة القومية

ذات الحكومة المركزية ، وأدخل نظام التعليم الحديث ، وتم بناء الجيش وفق النظام الغربى ، وأقيمت صناعة حديثة ، وأرسيت دعائم الحكم على أسس دستورية تتلائم مع ظروف البلاد، إلى غير ذلك من مظاهر الدولة التى حققتها اليابان فيما يعرف فى تاريخها بعصر مايجى Meiji (١٨٦٨ — ١٩١٢)

يرجع المؤرخون بداية التاريخ اليابانى إلى عام ٦٦٠ ق . م . ، حيث درج اليابانيون على إعتبار عهد الإمبراطور جيمو Jimmu بداية لتاريخ بلادهم بينما يذهب بعض المؤرخين إلى أن اليابان ليس لها تاريخ معروف قبل الميلاد وأن تاريخها إنما يبدأ حوالى نفس الوقت الذى بدأ به التقويم المتلادى . ومهما كان الأمر فان الشعب اليابانى برز إلى الوجود عند مطلع التقويم الميلادى كشعب مستقل يعيش على الجزر اليابانية ، وله حضارته الخاصة المميزة .

وعلى مر تاريخهم القصير ، لم يفقد اليابانيون الصلة بالعالم الخارجى ، والعالم الخارجى هنا هو القارة الأسيوية ، فلم تكن الظروف الجغرافية والتاريخية قد تطورت على النحو الذى نعرفه الآن ، حين ألغيب المسافة ، وأصبحت كلمة « العالم » تعنى الأرض كلها . وإستطاعت اليابان أن تجلب من القارة الآسيوية ألوان الحضارات والثقافات التى سادت فى تلك العصور ، فانتقلت اليها المؤثرات الصينية والمغولية ، إما من الصين مباشرة ، وإما عن طريق كوريا ، فتركت آثارا واضحة على نظام الدولة ، وعلى الحضارة اليابانية . كذلك إنتقلت البوذية إلى اليابان قادمة من الهند عن نفس الطريق، وأصبحت البوذية عقيدة الشعب اليابانى . وخلال عملية الامتصاص الحضارى تلك لم يكن اليابانيون مجرد مقلدين لتراث غيرهم من شعوب ، وإنما إستطاعوا أن يطوروا حضارتهم الخاصة بهم ويطوعوا تلك الحضارات الوافدة لظروف وتقاليد المجتمع اليابانى [1] .

فقد إمتاز اليابانيون بالقدرة على هضم المؤثرات الحضارية الأجنبية ، مع المحافظة في الوقت نفسه — على القيم التي توارثوها عن أجدادهم ، حتى يبدوا ما اقتبسوه من الحضارات الأجنبية وكأنه عنصر أصيل في الحضارة اليابانية ذاتها ، بعد ما يوفقون بين العناصر المكتسبة والعناصر الأصلية المتوارثة .

وهذه المقدرة التي تمتع بها اليابانيون يمكن أن نلمسها في مجالات متعددة، من بينها اللغة اليابانية التي تحفل بالكثير من المفردات الأجنبية، وقد حرص اليابانيون على إتخاذ التراكيب الصينية للدلالة على المفردات ذات المعاني الهامة ، بما في ذلك المفردات التي إكتسبتها اللغة اليابانية من اللغات الأوربية ، وكثيرا ما كانت تحمل الكلمات المستعارة من اللغات الأجنبية معاني متعددة في اليابانية تتجاوز المعنى الذي كانت تحمله في لغتها الأصلية، فقد كانت تلك الكلمات المستعارة في الأصل أسماء، وحين أدخلت على اليابانية إستخرجت منها صيغ مختلفة كالأفعال والصفات بعد إضافة الضوابط النحوية اليها . وبذلك تتحول الأسماء التي إقتبست من اللغات الأجنبية للتعبير عن أشياء لا تتضمنها المفردات اليابانية ، تتحول بعد إدخالها على اليابانية إلى مادة لغوية ذات طابع ياباني يجعلها تختلف كثيرا عن الأصل التي استمدت منه . وبذلك بقيت اللغة اليابانية تحتفظ بطابعها المميز — رغم المؤثرات الأجنبية التي تعرضت لها — دون أن يطرأ عليها تغير ملحوظ [٢] .

وفي ميدان السياسة أيضا كانت اليابان دائما قادرة على هضم الاتجاهات السياسية المختلفة دون أن يتأثر بذلك الكيان السياسي لليابان ، ودون أن يصحب ذلك تغيير الهيئة الحاكمة . فلم تشهد اليابان على در تاريخها ثورة راديكالية تطيح بطبقة حاكمة لتحل محلها طبقة أخرى ، رغم أن النظام السياسي في اليابان لحقه التغيير والتبديل ، فظلت الأسرة الحاكمة تحظي

باحترام الناس وتوقيرهم وإجلالهم بفضل ما كان لها من سلطنة روحية تضرب بجذورها فى أعماق التراث اليابانى القديم .

ونستطيع أن نتبين ظاهرة الامتصاص والهضم الحضارى فى أسلوب حياة اليابانيين من حيث الملبس والمأكل والمسكن ، وكذلك فى الفن الذى حقق الوحدة بين القديم المتوارث والحديث المكتسب فى إطار واحد ،وفى ميدان العقيدة الدينية استطاعت اليابان أن تجمع بين العقائد المتباينة ، والتى تدور حولها خلافات كبيرة وحادة فى بلادها الأصلية فتتحول فى صيغتها اليابانية إلى مزيج جديد من تلك العقائد مجتمعة دون تناقض بينها ، وذلك بعد تطويع تلك العقائد للتراث اليابانى وإدخال بعض عمليات التطعيم عليها ، بما يترتب عليها من حذف وإضافة ، فتبدو فى سماتها اليابانية بعيدة إلى حد كبير عن أصولها التى استمدت منها[٣] .

فقد استطاع اليابانيون أن يجمعوا بين ثلاث عقائد هى : الشنتوية Shintoism (اليابانية) ، والبوذية (الهندية) ، والكونفوشيوسية (الصينية) فى وقت واحد ، ويمزجوا بينها لتصبح عقيدة يابانية واحدة ، تطوع الكونفوشية والبوذية لمعتقدات الشنتوية التى ترتبط بالوطن اليابانى والأسرة الحاكمة. وليس أدل على ذلك من موقف اليابانيين من نظام الحكم الامبراطورى سليل الآلهة ، وفى البوذية اعتبروه «سليل بوذا العظيم» وفى الكونفوشيوسية اعتبر الامبراطور « منبع الفضائل التى يقوم على أساسها المجتمع الخير » .

كذلك كان الحال بالنسبة لفكرة المساواة الاجتماعية من وجهة نظر العقيدة الدينية ، فقد كان الأطفال اليابانيين ينشئون على تقبل التفاوت بين المكانة الاجتماعية للناس ، ووجد هذا الموقف التبرير المناسب فى التراث الدينى اليابانى ، فالناس غير متساوين لأن دماءهم ليست واحدة: الامبراطور — مثلا — تجرى فى عروقه دماء الآلهة لأنه انحدر من نسل الآلهة الشمس

وعلية القوم انحدروا من سلالة ذات منزلة رفيعة متأصلة ، وإذا كان هذا موقف الشنتوية من فكرة المساواة الاجتماعية ، فان التطبيق اليابانى للكونفوشيوسية أخذ بهذا المبدأ أيضاً ، فاعتبر الناس يختلفون اجتماعياً بقدر ما يتوافر لهم من الفضائل : فذوى الفضائل العالية السامية يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، أما أولئك الذين لا يتوافر لهم إلا درجات محدودة من الفضائل فيصنفون اجتماعياً حسب حظهم من تلك الدرجات . كذلك عالج التطبيق اليابانى للبوذية فكرة التفاوت الاجتماعى فربط مكانة الناس الاجتماعية بما لديهم من مقدرة على الكفاح من أجل الخلاص ، وهم كما يتفاوتون فى الصبر على الكفاح ، يتفاوتون كذلك فى التنمية الاجتماعية(٤) .

شىء واحد لم تحاول اليابان أن تتعرف عليه هو « المسيحية » فحين بدأ الجزويت نشاطهم التبشيرى عام ١٥٤٩ قاومهم حكام اليابان ، ومنعوهم من دخول البلاد ، وحرموا على الشعب اعتناق المسيحية ليحافظوا على التراث الدينى اليابانى ، وليحولوا دون تغلغل الأجانب ، ومن ثم التدخل الأجنبى فى البلاد . وقد ظلت فكرة اليابانيين عن المسيحية متأثرة بهذا الاتجاه ، حتى بعد سقوط النظام الإقطاعى وبناء الدولة الحديثة . ويتجلى ذلك بوضوح فى آراء كبار المفكرين اليابانيين فى عصر مايجى المتعلقة بالدين ، إذ يقول فوكوزاوا المفكر اللبرالى : « إن العقلية اليابانية لا تقبل المسائل ذات الوجوه المتعددة ، وإنما تميل إلى تلك التى لها جانب واحد ، فهم يتقبلون المتشابهات ويرفضون المتناقضات ... وإنى أكره الغيبيات ، ولكن الأفكار الغيبية (الفكر التقليدى اليابانى) أحب إلى نفسى من مسيحية الرجل العصرى ، لأنها على الأقل مخلصة وجادة ، وتختلف بصورة جذرية عن ديانة الرجل العصرى التى ليست سوى نوع من الهواية ... »(٥) .

ولكن ذلك لا يعنى أن اليابان أغلقت أبوابها دون المؤثرات الحضارية

الغربية ، فقد أخذ بصيص من الثقافة الغربية يتسرب إلى البلاد عن طريق الهولنديين الذين سمح لهم بالاتجار مع اليابان فى مكان محدود هو جزيرة ديجما Dejime التى تقع بخليج نجاساكى ، فقد قدر لهذه الجزيرة أن تكون الجسر الذى انتقل عبره قبس الثقافة الغربية إلى اليابان منذ أواخر القرن السادس عشر ، حتى منتصف القرن التاسع عشر حين أرغم الكومودور بيرى Commodore Perry القائد البحرى الأمريكى اليابان على فتح موانيها أمام التجارة الغربية فى عام ١٨٥٤ ، ومنذ ذلك الحين بدأت المؤثرات الثقافية الغربية تغزو اليابان لتضعها على أعتاب العصر الحديث[٦] .

ولم تتقبل اليابان الحضارة الغربية بنفس الطريقة التى تقبلت بها الحضارات الآسيوية ، ولم تهضمها بالسهولة التى هضمت بها تلك الحضارات ، فلقيت الأفكار الغربية مقاومة صلبة من العقلية اليابانية التى تكونت على نمط تقليدى معين ، وتأثر التراث اليابانى بالحضارات الشرقية التى اقتبس منها ما اقتبسه ، وكان هذا التراث متلائماً مع أسلوب الإنتاج السائد فى ذلك العهد باعتباره إنتاجاً زراعياً تقليدياً فى ظل نظام إقطاعى ، فلم يكن ثمة تناقض بين القيم المتوارثة وبقية مظاهر الحضارة السائدة فى المجتمع حينذاك فكان التطور متوازنا حتى ذلك الحين ، ولكن إدخال الأساليب الغربية فى التعبير والإنتاج التى تطورت فى ظروف تختلف اختلافاً جذريا عن تلك التى عاشها المجتمع اليابانى لا يتوازن مع القيم التقليدية اليابانية العتيقة . ومن هنا كان نفور اليابانيين من الحضارة الغربية شديداً وكان موقفهم عنها عدائياً متطرفا . لذلك لم يكن غريباً أن يرفع اليابانيون — فى ذلك العهد — شعار « اطردوا الأجانب واستعيدوا سلطة الامبراطور Sonno Joi » فى وجه المؤثرات الحضارية الغربية الوافدة ، وفى وجه التمزق الداخلى الذى عانت منه البلاد فى أواخر عهد الحكام الإقطاعيين من أسرة طوكوجاوا . وأطلق اليابانيون على الأوربيين اسم « البرابرة ذوى الشعر الأحمر » ، وأطلقوا على علوم الغرب

اسم « علوم البرابرة » ، واعتبروا كل من يروج لأفكار الغرب أو علومه خائن لوطنه جزاؤه الإعدام(٧) .

ولكن التحدى الغربى الذى واجهته اليابان على يد بيرى Perry واستسلام الحكام اليابانيين له ، جعل الشعب اليابانى يراجع موقفه من الحضارة الغربية ، فالأمريكيين انتصروا على اليابان وفرضوا عليها الانفتاح على العالم الخارجى وفتح موانيها للتجارة العالمية ، وما كان لهم أن يحققوا ذلك لولا تمتعهم بالقوة التى تفتقر إليها اليابان ، فقد انتصروا لأنهم الأقوى ، ولا بد أن يكون هناك سر لهذه القوة المادية . إذن لماذا لا تبحث اليابان عن هذا السر وتتزود به لتصبح قادرة على مواجهة الغرب أو على الأقل مقاومته .

لذلك صرف اليابانيون النظر عن شعار «اطردوا الأجانب» وبدأ حكام بعض المقاطعات الإقطاعية يشجعون النابهين من أبناء مقاطعاتهم على تعلم معارف الغرب ، وأوفد بعضهم بعثات محدودة إلى بريطانيا وأمريكا لدراسة الهندسة ، وبدأ البعض الآخر إقامة مشروعات صناعية ، وإعادة تنظيم جيوشهم وفق النظام الغربى الحديث . وامتدت محاولات الإصلاح المحدودة هذه لتشمل البلاد كلها بعد نجاح حركة استعادة سلطة الامبراطور فى عام ١٨٦٨ ، فأصبح شعار « التحضر والاستنارة Bunmei Kaika » هو شعار عهد الإصلاح الذى عرف فى تاريخ اليابان باسم عصر مايجى Meiji(٨) .

غير أن ذلك لا يعنى أن النهضة اليابانية الحديثة قامت على أسس فكرية غربية خالصة ، فقد كان التطور الاقتصادى والسياسى الذى حققته اليابان فى عهد مايجى ، منصباً على جانب واحد هو جانب الإنتاج ونظام الحكم ولم يصحبه تطور مماثل فى الأصول الثقافية التى قامت عليها الحضارة اليابانية التى ظلت تحتفظ بطابعها التقليدى الذى وصلت إليه عند منتصف القرن التاسع عشر ، وجمدت عند هذا الحد من التطور فلم تواكب التطور فى النواحى

الاقتصادية والسياسية ، فحدث تناقض كبير بين أسلوب التفكير ومنهج العمل ترك أثراً واضحاً على مسيرة التجربة اليابانية ذاتها .

فقد كان التراث الثقافى اليابانى يضع إطاراً محدداً جامدا للعلاقات داخل المجتمع تدور حول فكرة «وحدة المجتمع» ، كما عبرت عنها الكونفوشيوسية اليابانية ، فالفرد فى ظل تلك الفكرة لا قيمة له بذاته ، ولكن قيمة الفرد إنما تكون بالجماعة التى ينتمى إليها سواء كانت الأسرة أو العشيرة أو الأمة ، إذ تسمو الروابط الاجتماعية على العلاقات الشخصية الفردية . ورغم الاعتراف بما للفرد من شخصية مستقلة ، فان ذلك لا يعنى أن الأفراد يتمتعون بمكانة مستقلة عن الجماعة . وقيمة الفرد ترتبط بمكانة الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها وهى ظاهرة اجتماعية نجد صداها فى اللغة اليابانية التى لا تحتوى على صيغة مفرد وصيغة جمع ، وإنما هناك صيغة واحدة تستخدم للمفرد والمثنى والجمع دون تمييز . كما تبدو أيضاً فى أسلوب المخاطبة حيث تراعى منزلة المخاطب من حيث الجماعة التى ينتمى إليها ، كما تراعى سن المخاطب داخل الجماعة الواحدة ، فيستخدم الصغير صيغة معينة عندما يتحدث إلى من يكبره سناً ، « فالفرد يعبر عن الجماعة ، والجماعة بدورها تعبير عن الفرد » على حد قول أحد فلاسفة اليابان فى القرن الحادى عشر الميلادى[٩] .

وألقت هذه الظاهرة ظلالها على العقيدة البوذية ، فعند اعتناق اليابانيين للبوذية لم يلقوا بالا إلى الاختلاف الواضح بين النفوس البشرية الذى تبرزه البوذية فى أصلها الهندى ، ويتضح هـــذا بجلاء فى قول ريوئين Ryonin (١٠٧٢ — ١١٣٢) مؤسس أحد المذاهب البوذية اليابانية : « إن الفرد يبدو فى جميع الأفراد ، والعمل الذى يستحق الثواب هو كل الأعمال المثابة ، وكل الأعمال الخيرة تتجلى فى العمل الذى يستحق الثواب ، وهى تقود إلى أرض الطهارة بفضل أميدا Amida » وعلى حين تذهب البوذية الهندية إلى أن :

« لا يغنى الأبناء ولا الآباء ولا الأقارب المرء شيئا حين يدنو أجله . . . » ، وأنه « لا سلطان على النفس سوى النفس ذاتها » ، فتركز بذلك على الاعتماد على النفس باعتباره ركن الفضائل ، وترى أن الخير فى الركون الى الذات والبعد عن الناس إذ تقول : « إن أصدقائك هم أصدقاء أنفسهم ... فلماذا تلتمس صديقا ، وحسبك صداقتك لنفسك » ، وبذلك تقوم البوذية فى أصلها الهندى على الفردية ونبذ الجماعة ، نجد التطبيق اليابانى للبوذية يتوامم مع طبيعة المجتمع اليابانى وتراثه التقليدى القائم على نبذ الفردية والإيمان بالجماعة ، فتذهب إلى أنه « يجب أن يكون الفرد أقرب إلى أخواته فى البوذية منه إلى نفسه » ، فتعتبر بذلك عن ذوبان الفرد اليابانى فى الخلية الاجتماعية التى ينتمى اليها (الأسرة) ، وذوبان الخلية الاجتماعية فى الخلية الأكبر منها (القرية) ، لتشكل جميعا كيانا واحدا (الوطن) [١٠] .

ولعل إنفراد اليابانيين بهذه السمة الحضارية يرجع إلى طابع الحياة الاجتماعية الذى ساد اليابان ، والذى كان يتفق مع الظروف الطبيعية للبلاد ، فهى ذات جبلية وعرة ، تكسوها الغابات ، ويحتوى على البراكين التى تنشط أحيانا فتلحق الدمار بما حولها ، ولا تكاد توجد بالبلاد سهول واسعة ، ولا تزيد مساحة الأراضى الصالحة للزراعة عن خمس مساحة السطح . وهى تجمع من حيث المناخ بين الصيف الحار شديد الرطوبة غزير المطر ، والشتاء القارس البرد الذى يتساقط فيه الجليد بغزارة وخاصة فى الشمال والشمال الغربى [١١] . لذلك كان اليابانيون يعيشون فى نضال مستمر ضد الطبيعة ، ومثل هذا الصراع لا يقوى عليه الأفراد ، وإنما يقتضى تضافر الجهود من أجل البقاء . فكان لا بد أن يعيش الناس فى جماعات ذات تنظيم دقيق يتمتع فيها رئيس الجماعة بسلطات واسعة على أفراد جماعته ، حتى أن هذه الظروف الطبيعية تركت آثار واضحة على التكوين النفسى للناس يعبر عنها القول المأثور الذى تناقلته الأجيال منذ القدم ، والذى يذهب إلى أن

« هناك أربعة يثرن الفزع : الزلزال Jishin ، والعاصفة الرعدية Kaminari الحريق Kaji ، والأب (أو رب العائلة) Oyaji » . وليس من الغريب أن تكون سلطة الأب أو رب العائلة صارمة كصرامة الكوارث الطبيعية ، لأن مواجهة الحياة فى مجتمع له مثل تلك الظروف الطبيعية القاسية يقتضى وجود تنظيم دقيق للجماعة ، يتمتع فى ظله رئيس تلك الجماعة بسلطات مطلقة وكلمة مسموعة مرهوبة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الشعوب الهندو — أوربية — على سبيل المثال — كانت تعيش فى الأصل حياة سكان السهول، حيث الرعى والترحال وتعتمد على الصيد والاغارة على الشعوب الأخرى من حين لآخر . ومن ثم قامت العلاقات الاجتماعية بين تلك الشعوب وبعضها البعض على الصراع والمنافسة التى تدفع موجات الهجرة الهائلة لتلك الشعوب ، أما المجتمع اليابانى ، فقد تطور من جماعات محلية تحترف الزراعة وخاصة زراعة الأرز وغلب الاستقرار على حياتها الاجتماعية ، فاستمرت العائلات على تعاقب الأجيال وإرتبطت العائلات التى تقيم فى مكان واحد بأواصر القربى، وعظم سلطان العرف الاجتماعى ، فاذا أكد الفرد ذاته فى مجتمع كهذا لا يسىء إلى نفسه فحسب ، بل يسىء إلى الجماعة التى ينتمى اليها . ومن ثم كانت التربية اليابانية قائمة على غرس قيم الولاء للعائلة الصغرى (الأسرة) والعائلة الكبرى (الأمة) فى نفوس النشء [١٢] .

وترتب على ذلك أن أصبح « البيت Ie » يتمتع بمكانة رفيعة فى التراث الثقافى اليابانى ، وفكرة « البيت » ذات مدلول واسع المعنى يتجاوز حدود بيت الأسرة ليشمل بيت الأمة (الوطن) . ولا بيت بدون آباء ، فالمحافظة على البيت تقتضى مراعاة تعاليم السلف ، ولذلك وجب على الأفراد تدعيم البيت ، والعمل على رفع شأنه ، وإطاعة رب البيت . ولا تعنى فكرة « البيت »

- كما استقرت فى ضمير الشعب اليابانى - أن تكون رابطة الدم هى أساس العلاقة بين من يقيمون فيه ، فلا وزن هنا لصلة الدم ، وإنما رابطة المكان هى التى تجمع بين سكان « البيت » وكذلك رابطة العمل الانتاجى أيضا . فالذين يعملون فى فلاحة الأرض يعدون أفرادا فى أسرة صاحب الأرض حتى لو لم تجمع بينه وبينهم صلة الرحم ، ومن يعملون لدى التاجر فى متجره يعدون ضمن أفراد أسرته أيضا ، لهم ما لأفرادها من حقوق ، وعليهم ما على أفرادها من واجبات .

وقد لعبت فكرة « البيت » دورا هاما فى النهضة الاقتصادية التى شهدتها اليابان فى مرحلة بناء الدولة العصرية عن عهد مايجى ، فلم تكن المشروعات الصناعية الخاصة التى أقيمت ترتبط بأفراد معينين، وإنما قامت تلك المشروعات على أكتاف عائلات كبرى (بالمفهوم اليابانى للعائلة) ، فلم يكن لأصحاب رأس المال دخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى إدارة تلك المشروعات ، وإنما جعلت الإدارة بيد أخصائيين لهم مطلق التصرف ، لا سلطان لأحد عليهم سوى مجلس الإدارة الذى هو — فى نفس الوقت — مجلس العائلة .

ولتفسير ذلك نشير إلى أن مجموعة عائلة Mireui — مثلا — التى مارست نشاطها إلى فى الأعمال المالية والتجارية منذ القرن الثامن عشر ، ثم نقلت نشاطها إلى ميدان الصناعة فى القرن التاسع عشر ، كانت فى حقيقة الأمر تتكون من أحد عشر أسرة رأسمالية متساوية تقريبا لا ترتبط بينها رابطة الدم ، ولكنها مارست نشاطها منذ القرن الثامن عشر حتى الآن تحت اسم « بيت متسوى » . وكذلك الحال بالنسبة لبيوت سوميتومو Sumitomo وزايباتس Zaibatsu التى كانت بمثابة إمبراطوريات مالية احتكارية تسيطر على النشاط الاقتصادى فى البلاد ، وكان كل عامل فى احدى المؤسسات التى أقامتها تلك البيوت المالية الكبرى يعد نفسه مسئولا عن رواج نشاطها ،

وكانت الطريق مفتوحة دائما لمن يظهرون كفاية ومقدرة ممتازة من العمال للترقى فى مناصب الادارة حتى يصبحون أعضاء فى مجلس العائلة صاحبة رأس المال ويحملون لقبها . ومن ثم كان التفانى فى العمل هدف الفرد ليظل إسم العائلة مرموقا ويتحقق النجاح لمشروعاتها (١٣) ولعل ذلك يفسر ظاهرة النمو الاقتصادى السريع لليابان على مدى نصف قرن (١٨٥٤ — ١٩٠٤) فلم يكن هذا النمو العظيم يعتمد على الامكانيات المادية وحدها ، وإنما كانت تغذية التقاليد اليابانية العريقة القائمة على « وحدة المجتمع » .

وأثمرت هذه الوحدة الاجتماعية الفريدة اتجاها أخلاقيا يدفع الفرد إلى التضحية بالنفس والجود بها عن طيب خاطر من أجل مصلحة الجماعة التى يهبها حياته ، ولعبت هذه القيمة الخلقية دورا هاما فى المجتمع اليابانى ، وإنعكس على تاريخه ، وتطورت الفكرة من التضحية بالنفس من أجل الأسرة ، إلى التضحية بالنفس من أجل العشيرة فى ظل النظام الاقطاعى ، إلى التضحية بالنفس من أجـــل الوطن والامبراطور فى مطالع العصر الحديث (١٤) .

وكان من الصعب أن تنسجم هذه الرؤية التقليدية للمجتمع مع روح العصر الحديث الذى بدأت اليابان تطرق أبوابه فى عصر مايجى ، ومع اللبرالية الغربية التى كانت تمثل الإطار الأيديولوجى لذلك العصر والتى تقوم على أساس إسقاط القيود عن حرية الأفراد ، ومشاركتهم بصورة إيجابية فى إدارة أمور البلاد على قدم المساواة وفى محتوى ديمقراطى .

لذلك لم تشهد اليابان فى مرحلة بناء الدولة العصرية (١٨٥٤ — ١٩٠٤) ثورة برجوازية على نحو ما عرفته أوربا ، فقد أقصى الحكام الاقطاعيين من أسرة طوكوجاوا عن الحكم بعد ما سلبوا السلطة الفعلية من الإمبراطور

مدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، واستعاد الامبراطور سلطته كاملة ، وتم ذلك كله على يد فريق من الأمراء الاقطاعيين أنفسهم الذين عرفوا باسم الساموراى Samurai بهدف انقاذ البلاد من الفتن والانقسامات الداخلية ، والحيلولة دون وقوعها تحت نير الاستعمار الغربى وخاصة بعد مااستسلم نظام طوكوجاوا للأمريكيين وقرر فتح موانيه أمام التجارة العالمية بعد قرنين كاملين من العزلة التى فرضت على البلاد .

وكان الامبراطور الذى يتربع على العرش حينذاك هو الامبراطور موتسهيتو Mutshito الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشر من عمره . ومن الطريف أنه كان بين الساموراى الذين تزعموا هذه الحركة بعض أفراد من أسرة طوكوجاوا نفسها ، فساهموا بأيديهم فى تقويض سلطة عائلاتهم لحساب الامبراطور الصبى . ولكنه موقف يتسق تماما مع العقلية اليابانية التى تكونت على نمط معين يستند إلى التراث الفكرى اليابانى فالامبراطور ليس مجرد حاكم سياسى ، ولكنه يعد سليلا للآلهة عبادته فرض واجب على كل يابانى. وتستند هذه الفكرة إلى العقيدة الشنتوية التى تذهب إلى أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة ، ثم انفصلت السماء عن الأرض ، وبعد إنفصالهما هبطت الآلهة Izanami والآله Izanagi من السماء على جزيرة Onokoro وخلقا معاً جزر Oyashima (الجزر اليابانية) ، ثم خلقا بعد ذلك بقية الآلهة : إله الرياح ، واله الأشجار والجبال ، ولقيت الآلهة Izanami حتفها متأثرة بحروقها البالغة حين وضعت اله النار . وتذكر الأساطير الشنتوية أن زوجها الآله Izanagi اشتاق لرؤيتها ، فذهب إلى أرض الليل حيث التقى بهائم عاد مرة أخرى إلى العالم واغتسل من تراب الموت فاذا بثلاثة آلهة يخرجون من عينيه وأنفه ، ومن بين هؤلاء الآلهة الثلاثة آلة الشمس Amaterasu Omilkami التى إنحدر من نسلها أباطرة اليابان .

ومثل هذه التوليفة من خلق الكون والنظام السياسى نادرة الوجود فى

الحضارات الشرقية الأخرى بما فى ذلك الحضارة الفرعونية وأكثر من ذلك فان لفظ oyake فى اليابانية القديمة كان يقصد به (العائلة الرئيسية) أى العائلة الامبراطورية ، بينما أطلقت كلمة Koyake على الناس كافة وتعنى (العائلة أو العائلات الصغرى) . ومن ثم ساد الاعتقاد أن العائلة الامبراطورية هى نواة الشعب اليابانى كله ، وإرتبطت بهذه العقيدة مفاهيم « الأمة المقدسة » والشعور الوطنى المتطرف الذى إمتاز به الشعب اليابانى حتى أن الأباطرة درجوا على أن يضمنوا ديباجة المراسيم التى يصدرونها عبارات مثل : ... « نحن مالك ثروات العالم ... نحن مالك زمام القوة فى الدنيا ... » (١٥) .

وإذا أدركنا ذلك كله فهمنا الدوافع التى جعلت فريقا من الساموراى يثورون على إخوانهم فى السلاح والمصلحة من أجل إستعادة سلطة الامبراطور وإقامة دولة قومية مركزية عصرية قوية تحمى البلاد من الخطر الذى كان يتهددها وتنقذها من الوقوع تحت نير الإستعمار الغربى . أضف إلى ذلك فكرة الولاء للبيت كموطن للأسرة الصغيرة أو البيت (اليابان) كوطن للأمة اليابانية ، وهى فكرة غرست فى تكوين العقلية اليابانية شعورا وطنيا متطرفا يمزج بين الولاء للوطن وطاعة رب العائلة (الامبراطور) والتضحية بالنفس فى سبيلهما .

فمنذ عهد بعيد إستقر فى أذهان اليابانيين أن بلادهم « أعظم بلاد العالم قاطبة » لأن الآلهة صنعتها قبل صنعها لبقية بلدان العالم ، فهى بمثابة الابن البكر للآلهة ، وهى أرض لها قداستها وإحترامها . ولعل أول ذكر لعبارة اليابان العظمى Dai Nippon » — التى راجت فى فترة ما بين الحربين العالميتين — يرجع إلى القرن التاسع الميلادى حين أورد الفيلسوف اليابانى Dengyo هذه العبارة فى كتاباته . ولم يكن لهذه العبارة — عندئذ — مدلول سياسى ، وإنما قصد بها صاحبها أن اليابان أنسب البلاد للعقيدة البوذية . وإستقر مفهوم « اليابان العظمى » فى القرن الرابع عشر الميلادى عند كونها « أمة مقدسة » جاءت من نسل الآلهة الشمس ، ومن ثم وجب على أبنائها أن يعملوا

على جعلها أعظم بلاد الدنيا ، وأن يظل الأباطرة الذين إنحدروا من نسل الشمس متربعين على عرش اليابان ورأى اليابانيون فى المفهوم السياسى « للدولة » اليابان ذاتها حيث يحتل الامبراطور منزلة الأب بالنسبة للأمة اليابانية [١٦] .

وقدمت الكونفوشيوسية الأساس النظرى الذى قام عليه هذا الشعور الوطنى المتطرف ، فقد اعتنق اليابانيون الكونفوشيوسية التى إتخذها الصينيون من قبل نظرية رسمية لمفهوم الدولة والسلطة (فيما عدا الجانب الخاص بتغيير الحاكم الفاسد) وذلك على الرغم من إختلاف وجهة النظر الخاصة بالدولة عند فلاسفة الصين عنها عند اليابانيين ، فبينما رأى الصينيون الدولة شيئا مثاليا نموذجيا أشبه ما يكون بالمدينة الفاضلة،رأى اليابانيون فى الدولة الحقيقية اليابان ذاتها حيث الحاكم والأب يحتلان نفس المنزلة . لذلك نعى المفكرون اليابانيون على كونفوشيوس مغادرته لبلاده سعيا وراء البحث عن مجتمع أفضل يحكمه حاكم أعدل . وفى ذلك يقول يوشيدا (١٨٣١ — ١٨٥٩) أحد دعاة حركة التجديد فى اليابان : كان كنفوشيوس ومنشيوس على خطأ عندما تركا بلدهما وذهبا ليخدما دولة أخرى ، لأن الحاكم له نفس منزلة الأب وأن من يصف الحاكم بالرعونة والظلم مثله كمثل من يرمى أباه بالحماقة ، ويترك بيته حيث تقيم عائلته ، ويلجأ إلى بيت الجيران ويصبح أبنا لهم ، ولذلك فان كونفوشيوس كانا قصيرا النظر ، ولا يمكن أن نلتمس مبررا لما أقدما عليه » [١٧] .

وقد وجه هذا الشعور الوطنى الذى يعد الوطن بيت الأمة ، والحاكم رب البيت ، النظرة اليابانية إلى البوذية فرغم انتشار البوذية فى اليابان على نطاق واسع ، رفض اليابانيون فكرة « الدولة » عند البوذية .فذهب مفكرو القرن الرابع عشر الى ضرورة إعتناق الفكر البوذى مع التغاضى عن الجانب الخاص « بالدولة» ، ويبررون ذلك بأن رؤية البوذية للدولة هندية .وقد يكون حكام

الهند منحدرين من سلالة البشر أسندت اليهم شعوبهم مهمة الحكم ، ولكن العائلة الامبراطورية اليابانية هي العائلة الوحيدة التي إنحدرت من صلب الآلهة ، ولذلك لا يجب أن تكون سلطتها موضع مناقشة .

وقد تجلت ملامح هذا الشعور الوطني الذي عرفته اليابان قبل عهد مايجي في تضحية اليابانيين منذ القدم بحياتهم من أجل بلادهم وإيقاف حياتهم على خدمتها وهي سمة لم تتوافر لدى معظم شعوب الشرق فيما قبل القرن التاسع عشر . وقد تطورت «الوطنية» اليابانية من مفهوم الدولة اليابانية ذاته وليس من مفهوم « الدولة » كمعنى مجرد ، ولذلك صلة وثيقة بظاهرة « الوحـــدة الاجتماعية » التي تربط بين الناس والأرض والسلطة في إطار واحد ، وقد ساعد الموقع الجغرافي على احتفاظ اليابان بهذه الوحدة وثيقة العرى ، فهي تتكون — كما هو معروف — من جزر معزولة عن القارة الأسيوية ، ولم تعهد الغزو الأجنبي إلا في حالتين أولهما الغزو المغولي الذي لم يقدر له النجاح ، وثانيهما الاحتلال الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية . ودعم هذا الشعور الوطني الفياض قيام صلة الفرد بالدولة على أساس أسرى فالشعب الياباني أسرة واحدة ذات أصل واحد تسكن بيتاً واحداً هو اليابان ويرعاها رب واحد هو الامبراطور .

وبذلك توافرت لليابان ملامح « وطنية » واضحة ، قبل القرن التاسع عشر بزمن بعيد ، وقبل وصول المؤثرات الفكرية الغربية الحديثة إلى البلاد . وقامت تلك الملامح على أسس راسخة من التراث الثقافي الياباني ، لتعبر عن واقع يختلف اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً اختلافاً جذرياً عن فكرة «القومية» بمفهومها الحديث .

لذلك كان شعار « استعيدوا سلطة الامبراطور » الذي اتخذته الحركة المناهضة للحكم الإقطاعي — يفعل فعل السحر في نفوس الناس . ولم يلاق القائمون على الحركة مقاومة ذات بال ، فحققوا هدفهم بإقصاء آخر حكام

طوكوجاوا ، وإقامة سلطة قومية مركزية ، وإلغاء الإقطاع ، وإقامة نظام تعليم حديث مقتبس من الغرب ، وصناعة حديثة ، وجيش حديث وفق النظام الغربي . وأطلق على عهد الامبراطور Mutsuhito منذ تمت الحركة بنجاح فى عام ١٨٦٨ حتى وفاته فى عام ١٩١٢ اسم عهد مايجى Meiji (أى الحكم المستنير) . ولكن بناء دولة عصرية على النمط الغربى لم يكن مجرد تقليد أعمى ، ونقل مباشر لأنظمة الغرب ، وإنما أخذ القائمون على أمور البلاد من الثقافة مالم يتعارض مع تراثهم الفكرى ، ووفقوا – أحياناً – بين تراثهم الموروث والفكر الغربى الوافد فيما لايمس التقاليد اليابانية العريقة ، ورفضوا الأخذ بمالايتفق مع الخلفية الحضارية للأمة اليابانية وخاصة فيما يتعلق بنظام الحكم فلم يكن بناء الدولة الحديثة مقروناً بتبنى اللبرالية الغربية قاعدة لنظام الحكم الجديد ، أو الأخذ بالديمقراطية كاطار للنظام السياسى لتناقضهما مع العقلية اليابانية التى لاتعترف بمبدأ « المساواة » ولاتجادل فى حق الامبراطور فى ممارسة سلطته الأبوية بلاحدود على أبناء شعبه .

ومن ثم تركزت السلطة فى يد صناع النظام الجديد ، أى العناصر العسكرية من الساموراى ، فتكون منهم مجلس البلاط ، وشغلوا المناصب الوزارية ، ومارسوا حكم البلاد حكماً مطلقاً باسم الامبراطور حتى عام ١٨٧٣ حين انقسموا على أنفسهم حول مسألة غزو كوريا ، وانشق الجناح المثقف منهم الذى تلقى تعليمه فى الغرب ، ونادى بضرورة إصدار دستور يقر مبـــدأ المسئولية الوزارية ، لتبدأ بذلك حركة المطالبة بالدستور التى عرفت فى تاريخ اليابان الحديث باسم حركة الحرية وحقوق الشعب Jiyu Minken Undo التى تزعمها مثقفوا الساموراى وأعيان الريف ، وكانت موجهة ضد استبداد الساموراى وانفرادهم بالسلطة ، ولم تكن موجهة ضد الامبراطور . وما كاد الامبراطور يصدر إعلاناً (فى أبريل ١٨٧٥) يشير إلى رغبته فى أن « يقيم نظاماً دستورياً بصورة تدريجية لتحقيق النفع العام » حتى خمدت نيران

الحركة . ثم جدد الامبراطور الإعلان فى ١٨٨١ ، فوعد باصدار الدستور بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ .

وفى غضون تلك الفترة تكونت ثلاثة أحزاب سياسية هى : « الحزب الحر » Jiyuto ، و « الحزب التقدمى » Rikken Kaishinto ، و « الحزب الامبراطورى » Teiaets ولم تكن تلك الأحزاب السياسية تعبر عن مصالح طبقية متباينة ، فقد جاء أعضاؤها من طبقة واحدة هى ذات الطبقة المسيطرة على مقاليد السلطة فى البلاد ، وإنما كانت الأحزاب تعبيراً عن اختلاف وجهات النظر بين قيادات الأرستقراطية الحاكمة . وكان الانتماء للحزب السياسى — فى ذلك الحين — لا يعنى اعتناق برنامج معين ، أو أفكار معينة ، وإنما كان يعنى — فى المحل الأول — الولاء الذى يربط الأعضاء بشخص زعيم الحزب . ولا يعنى ذلك أن الأحزاب السياسية التى ظهرت فى عهد مايجى لم تتأثر بالفكر الليبرالى الغربى ، وإنما كان تأثرها بقدر محدود لا يتجاوز حدود المطالبة بمسئولية الحكومة أمام مجلس نيابى منتخب من بين أبناء الصفوة الممتازة وليس من القاعدة الشعبية العريضة . وكانت عضوية الأحزاب قاصرة على نفر من المثقفين الذين ينتمون إلى الطبقة الحاكمة . أما جماهير الشعب فكانت ترى فى نظام الحكم السليم ذلك الذى يعمل على بناء اليابان الحديثة ويجد حلا للمشاكل اليومية التى يعانى منها الناس ، يضع حداً للكساد الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى الثمانينات على وجه الخصوص [١٨] .

وحين صدر الدستور فى عام ١٨٨٩ كان منحة من الامبراطور إلى الشعب وخلع الدستور على الامبراطور سلطات غير محدودة ، يعاونه مجلس البلاط الذى كان يضم صفوة ممتازة من أعضاء الأسرة الامبراطورية ، ثم مجلس آخر — كان المخطط الرئيسى لسياسة اليابان الداخلية والخارجية حتى عام ١٩٣١ — هو مجلس كبار الساسة Genro وتكون البرلمان من مجلسين هما : مجلس النبلاء الذى كان يضم جميع أمراء البيت الحاكم وزعماء البيوت الإقطاعية القديمة ،

ثم مجلس النواب ويضم ممثلين للشعب روعى فى اختيارهم أن يكونوا على قدر كبير من الثراء ، وذلك أفسح المجال أمام الفئات الاجتماعية التى استفادت من التطور الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى عصر مايجى لتسمع صوتهـا للحكومة دون أن يكون لها حق مراجعة أو نقض قرارات السلطة التنفيذية[١٩].

وهكذا جاء الدستور اليابانى معبراً عن واقع المجتمع اليابانى حينذاك ، مركزاً السلطة كلها فى يد الامبراطور والصفوة الممتازة التى كانت تملك زمام الأمور قبل صدور الدستور . وارتضت الجماهير هذا الدستور لأنها لم تجد فيه ما يتناقض مع التقاليد الموروثة التى تربت عليها وتراثها الحضارى العريق .

ورغم أن الفصل بين السلطتين : الروحية والزمنية ، كان من أسس الليبرالية الغربية ، فإن اليابان ظلت — على النقيض من ذلك — تنظر إلى السلطتين باعتبارهما شيئاً واحداً لا يتجزأ حتى هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية . فقد كانت الحياة السياسية مرآة صادقة للمعتقدات اليابانية التقليدية على نحو ما رأينا ، ولم ينظر اليابانيون إلى المجتمع إلا من هذه الزاوية ، فحرية الأفراد بمفهومها الليبرالى لم تكن واردة على الإطلاق ، وإنما رأى اليابانيون فى المواطن الصالح انعكاس صادق للدولة القوية ، فإذا صلحت الحكومة صلح أمر الناس ، ورفاهية المجتمع رهن بمشيئة الحاكم ، أما القوانين فتعبر عن وجهة نظر الحاكم فيما يراه لازماً لصلاح أمر المجتمع . ولم تر العقلية اليابانية — حينئذ — فى تلك القوانين الحارس الأمين على حقوق الأفراد ، والضمان الأكيد لحريتهم الشخصية ، لأن ذلك يعنى تقويض دعائم الوحدة الاجتماعية ، التى قام عليها المجتمع اليابانى ، والتى تعد المجتمع أسرة واحدة ، ولا قيمة للفرد إذا انفصل عنها أو خرج عليها ، إذ المجتمع عند اليابانيين — ينقسم إلى حكام ورعية ، ومهمة الدستور — فى رأيهم — أن يكون دليلا للحكام وليس حامياً لحقوق الأفراد[٢٠] .

لذلك بقيت القيادة السياسية — فى ظل الدستور الذى صدر فى عصر مايجى — بيد الساموراى ، الذين رأوا أن خير اليابان يتطلب تحقيق درجة عالية من التقدم المادى من خلال التصنيع والأخذ بالأساليب التكنولوجية الغربية مع التمسك فى الوقت نفسه بالقيم السياسية التقليدية للشعب اليابانى التى تقوم فى معظمها على الأساطير القديمة. فحرصوا على إقامة صناعة حديثة تعتمد على الأساليب التكنولوجية الحديثة وتقوم على ملكية الدولة لأهم مصادر الإنتاج مع تشجيع المشروعات الخاصة وتقديم العون لها من أجل بناء اقتصاد قوى متطور ثم تسليمها مصادر الإنتاج التى احتفظت الدولة بملكيتها تدريجياً وخروج الدولة من مجال الإنتاج ، والعمل فى نفس الوقت على إحياء القيم التقليدية التى ترجع إلى عصور خلت والتركيز عليها فى عملية التربية والتعليم ، والتمسك بها كأساس أيديولوجى لمجتمع يتمتع بالفرفاهية الاقتصادية والتقدم المادى .

وخلال عملية البناء المزدوج للمجتمع اليابانى الحديث الذى يجمع التقدم المادى جنباً إلى جنب مع الفكر التقليدى ، لم يفرض الحكام حظراً على حرية الفكر أو حرية القول ولم يحجروا عليهما ، ولم يفرضوا القيود التى تحد من حرية التعبير ، لأنه لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك ، طالما أن أفكار الناس - فى ذلك العصر — لم تكن تختلف جذرياً عن رؤية الحكام للقواعد التى يجب أن يشيد عليها بناء الدولة الحديثة . فقد قامت فى عصر مايجى أحزاب سياسية — على نحو ما أشرنا - ولكن تلك الأحزاب لم تكن تعدو أن تكون « جمعيات سياسية » ، لأنها اتفقت جميعاً على الغاية التى تنشدها لبلادها ، ولكن تعددت وجهات نظرها حول السبيل الذى يجب أن يسلك لتحقيق تلك الغاية .

لقد كان الضمير اليابانى يرى فى الأفراد خدم للمصلحة العامة : مصلحة الأسرة ومصلحة الدولة ، ولا أهمية للفرد بذاته ، كما كان يرى أن علاقة الحكام

بالناس لاتختلف على طابع العلاقة بين الآباء والأبناء . وقد جاءت الأحزاب السياسية فى عصر مايجى نتاجاً للضمير اليابانى فى ذلك الحين ، فلم تكن تختلف جذرياً مع الهيئة الحاكمة ، بل كان أعضاء تلك الأحزاب ينتمون إلى الطبقة الحاكمة بصورة أو بأخرى . وبذلك ظلت السمات الرئيسية للعلاقة بين السيد والأتباع فى النظام الإقطاعى تشكل طابع الحياة السياسية فى اليابان تحت حكم مايجى على الرغم من أن الإقطاع ألغى بصفة رسمية فى عام ١٨٧١ .

وقد ظل هذا الطابع غالباً على الحياة السياسية فى اليابان طوال مرحلة تكوين الدولة العصرية فى عهد مايجى . غير أن التوسع فى التصنيع، وازدياد عدد السكان صحبته هجرة مستمرة من الريف إلى المدن ، فعلى الرغم من ارتفاع نسبة المواليد فى الريف اليابانى خلال ذلك العهد وتوفير الرعاية الصحية للسكان، ظل عدد سكان الريف ثابتاً ، وامتصت المدن التى قامت بها الصناعة الحديثة أكبر قدر من السكان . وأدت هذه الهجرة المتصلة للشباب من الجنسين إلى المدن والمراكز الصناعية إلى أضعاف الروابط الأسرية التى قام عليها المجتمع اليابانى ، غير أنها لم تقض عليها قضاء تاماً ، وينعكس هذا التطور على الأدب فى عصر مايجى ، فنجده يحفل بالصراع بين الأسرة والفرد حيث تنتصر الأسرة غالباً (٢١) .

ونستطيع أن نتبين هذا الصراع الكامن تحت سطح المجتمع فى الأعمال الروائية التى ظهرت فى عهد مايجى ، ففى رواية «ماذا بعد Sore Kara »التى كتبها ناتسومى سوسيكى Natsnme Suseki ، يصف الكاتب انطباع شاب يدافع عن أبيه فيقول : « تلقى والده تربيته على النحو الذى كان ينشأ عليه الساموراى قبل عصر مايجى ، وما تلقنه الوالد أصبح يختلف عن حقائق الحياة اليومية ، ولكنه لا زال يعتقد في صلاحية تلك القيم التي تعلمها لكل

العصور ، رغم أن ظروف الحياة أثبتت عدم صحة ذلك الاعتقاد . فقد تغير أسلوبه بتغير الظروف المعيشية حتى أصبح واقعة اليوم لا يكاد يشبه واقع الأمس إلا قليلا على الرغم من أنه لا يشعر بذلك التغير . ولا ريب أنه لا زال يظن أن تربيته العسكرية الصارمة سر نجاحه ، ولكن دايسكى Daisuke (الابن الشاب) ينظر إلى الأمور بصورة أخرى فكيف يستطيع المرء تلبية حاجات الحياة العصرية من خلال قيم اقطاعية ! فمهما بذل المرء من جهد فان الصراع العنيف سينشب لا محالة بين المرء ونفسه ... » .

ويتجلى هذا التباين بين ما حققته اليابان من نهضة حديثة ومن القيم التقليدية للمجتمع الإقطاعي فى رواية أخرى كتبها اشيكاوا تاكوبركو Ishikawa Tokuboku أشهر شعراء عصر مايجى بعنوان Kumo wr tensai dearu يبدو فيها البطل فى نفس ظروف الكاتب نفسه لا يرى فى المجتمع اليابانى فى عصره إلا نموذجاً للفساد لا يستحق إلا الدمار. وقد كتب المؤلف خطابا إلى أحد أصدقائه ذكر فيه أنه اضطر إلى نشر هذه الرواية حتى يحصل على بعض المال ليدفع التزاما قديما نحو شقيقه الأكبر أهمله منذ زمن بعيد ، ولم يحدد هذا الالتزام بصورة واضحة، ولكنه يرتبط بالقيم اليابانية التقليدية التى تدعو للتكافل والتضامن بين أفراد الأسرة كلها ، وبطل هذه الرواية كما صوره المؤلف ساخط على قيود المجتمع التى تسلبه حريته وتجعله عبدا لها[٢٢] .

ومهما كان الأمر فان هذا الصراع بين جيل الشباب الذين تفتحت عيونهم على مجتمع متطور من الناحية التكنولوجية يعيش بقيم إقطاعية بالية لم يكن يستطيع التعبير عن سخطه بصراحة مطلقة ولم يتحول ذلك النوع من المعاناة إلى صراع إيديولوجى أو حزبى لأن أحدا من اليابانيين لم يكن يجرؤ على الجهر بمناصبة قيم المجتمع اليابانى العداء دون أن يجد نفسه فى مواجهة تهمة الخيانة للدولة ودون أن يعد خارجا على عقيدة الشعب اليابانى كله

وقد تحمل المثقفون اليابانيون عبء هذه المعاناه نتيجة التناقض بين واقع الحياة وقيم المجتمع ردحا طويلا من الزمان .

غير أن أسلوب التعبير الغربى تسرب إلى الحياة الفكرية اليابانية من خلال بعض المثقفين الذين احتكوا بالفكر الغربى وتأثروا به بدرجات متفاوتة ويأتى على رأس هؤلاء ثلاثة من كبار مفكرى عصر مايجى هم : فوكوزاوا Iukuzawa وأوتشيمورا uchimura وأوكاكورا Okakura ، ينتمون إلى الجيل المخضرم الذى عاصر عهد طوكوجاوا وعصر مايجى وانحدروا من أسر إقطاعية عريقة فكانت تربيتهم تقليدية شأنهم شأن أبناء الساموراى ، وحين اشتدت أعوادهم نهلوا من منابع الثقافة الغربية ، كما قدموا اليابان والثقافة اليابانية إلى الغرب فى مؤلفاتهم التى نشروها باللغة الانجليزية ، فتجلت فيهم عملية الاحتكاك الفكرى بين اليابان والثقافة الغربية الانجليزية والأمريكية على وجه الخصوص . وظلوا طوال حياتهم يعتقدون أن ثمة رسالة حضارية تقع على عاتق اليابان هى إيقاظ الشرق وإنقاذه من وهدة الاستعمار . فعلى اليابان — فى رأيهم — أن تعين شعوب الشرق على الاستفادة من الجوانب الإيجابية فى الحضارية الغربية التى تساعد على تطوير مجتمعاتهم وتجنب مفهوم المدنية الذى تقدمه دول الغرب لشعوب الشرق فعلى حد تعبير فوكوزاوا « المقصود بالمدنية عندما يتطرق الحديث إليها بين رجال الغرب هو خروج الشعوب الشرقية من مرحلة الحياة الهمجية إلى مرحلة العبودية للرجل الأبيض » .

ومستقبل اليابان عند أولئك المفكرين يعتمد إلى حد كبير على الاهتمام بالتربية والتعليم وتطوير البلاد اقتصاديا مع تلوين العقيدة المسيحية بالتراث اليابانى تماما كما فعلت اليابان بالكونفوشيوسية والبوذية . وانتقد فوكوزاوا فى كتابه أصول الحضارة اليابانية Nihon Bunmei no Yurai الاتجاه الذى كان سائدا فيما قبل عصر مايجي من اتخاذ العلم نوع من الترف وعزلة العلماء

عن المجتمع ودعا إلى استقلال العلم عن سلطة الدولة وإلى اتجاهه إلى الأخذ بالمنهج التجريبي والعمل على خدمة المجتمع وحل مشاكله وما يقال عن العلم يمكن أن يقال أيضا — فى رأيه — عن الفن والعقيدة الدينية .

يتجلى أثر الفكر اللبرالى فى تكوين فوكوزاوا بوضوح فى مفهوم التطور الحضارى عنده . فهو يرى أن هذا التطور يؤدى إلى زيادة تعقد العلاقات الإنسانية وتشابكها على المستوى المحلى والعالمى سواء بسواء ويصحب هذا التطور تشعب الوظائف الاجتماعية لكل الفئات التى تعيش فى المجتمع فلا تستقر الأوضاع الاجتماعية على حال واحد ، وتسقط كل الحواجز التى تصنف الناس على حسب مولدهم ، فكل فرد يجب أن ينظر إليه من خلال أعماله وليس من خلال أصله الاجتماعى . فعلى حد تعبيره « ليست أعمال كل من انحدروا من أصول رفيعة طيبة بالضرورة ، وليست أعمال كل من انحدروا من أصول وضيعة سيئة بالضرورة » وفى هذا نقد صريح للتقاليد اليابانية التى تبرز قيم الأسرة وتركز على الروابط الاجتماعية المحدودة الدائرة ، ولا تعتبر الفرد إلا فى نطاق الجماعة التى ينتمى إليها ففكرة المساواة واتخاذ الفرد وانجازاته أساسا لتحديد دوره فى المجتمع والمساواة بين الأفراد بغض النظر عن أصولهم الطبقية إنما كانت فكرة جديدة على العقلية اليابانية فى ذلك الحين .

لذلك كان من الطبيعى أن يشن أنصار المحافظة على التراث التقليدى اليابانى حملة شعواء ضد فوكوزاوا ، ويتصدى فوكوزاوا لهذه المعارضة فى مقال مشهور نشره بجريدة تشويا Choya Shimbun جاء فيه : « انهم يخلطون بين الأشياء بطريقة عشوائية نتيجة مايقدمونه من اقتراحات ، فهم يفترضون أن المساواة فى الحقوق بين جميع أفراد الشعب مأخوذة من المبادىء الجمهورية والمبادىء الجمهورية مأخوذة من المسيحية ، والمسيحية ثقافة غربية ... وهم يفترضون أنه طالما كانت ثقافة فوكوزاوا غربية ، فان نظريته الخاصة

بحقوق الشعب مستمدة من المسيحية والمبادىء الجمهورية ... وترجع مثل هذه الاقتراحات إلى رؤية الأشياء من جانب واحد ... فتاجر الخمر ليس بالضرورة عاقرها ، وصانع الحلوى ليس بالضرورة آكلها ، ولا يجب أن نحكم على التاجر بمجرد رؤيتنا للبضاعة الموجوده فى متجره ... وبذلك يشير فوكوزاوا إلى أن الأفكار التى يقدمها إنما تلبى حاجة المجتمع تماماً مثل البضاعة التى يعرضها التاجر تلبية لطلب السوق . وهو إصرار منه على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات .

وقد اتفق مع فوكوزاوا فى هذا الإطار الفكرى زميله أوتشيمورا واوكاكورا فرأيا فى تدعيم روح الاستقلال الفردى وإطلاق حرية الفرد دعامة أساسية للنهضة الحديثة ، وقاعدة الاستقلال الوطنى تمكن اليابان من أن تلعب دور الوسيط بين « أوربا المادية » و « آسيا الروحية » وتفتح أبواب الشرق المحافظ أمام الحضارة الغربية المتقدمة[٢٣] .

غير أن دعوة هؤلاء المفكرين كانت تبدو غريبة فى ذلك العصر فقد ارتضى اليابانيون واقعهم المتصل بتراثهم القديم وألفوا الحياه فى دائرة الروابط الاجتماعية المحدودة ولم ترى أبصارهم إلى تحقيق المساواة التامة بين المواطنين فى مجتمع هرمى حدد فيه موقع كل طبقة بصورة تقليدية مسلم بها من جميع القوى الاجتماعية والسياسية فيما عدا قطاع محدود من المثقفين المفكرين .

وإذا كان هناك تناقض فكرى عانى منه بعض اليابانيين فى ذلك العصر، فرد ذلك إلى طبيعة الحياة فى مجتمع يمر بمرحلة جديدة من مراحل تطوره الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، بما تتضمنه من تباين شائع بين الموروث والمكتسب من المظاهر الحضارية المادية ، فتغيرت عادات الطعام والملبس. أهملت بعض العادات التى تتنافى مع طابع المجتمعات المتحضرة ، وترجمت الكتب والآثار الأدبية الغربية إلى اللغة اليابانية فتركت بصماتها على البناء

الفنى للأعمال الأدبية اليابانية فى حدود ضيقة لأن اليابانيون لم يتحمسوا لأسلوب التعبير الغربى ، كما لم يأخذوا بأساليب الحياة الغربية دفعة واحدة، وإنما كانوا يأخذون بها تدريجياً وبحذر شديد .

وخلاصة القول أن النهضة اليابانية الحديثة — فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر — قامت على أصول ثقافية يابانية خالصة مستمدة من التراث اليابانى التقليدى ، تغذيها تلك المقدرة الفائقة على امتصاص الحضارات الأجنبية التى امتاز بها الشعب اليابانى على مر تاريخه القصير ، وهضمه للمؤثرات الحضارية وإدماجها فى التراث اليابانى حتى تبدو وكأنها جزء أصيل منـــه ، فاستوعب اليابانيون الحضارات الشرقية الهندية والصينية والمغولية ، وحاولوا استيعاب الحضارة الغربية بنفس الطريقة فأخذوا منها الجانب المادى وصدوا عن جانبها الفكرى ، وأدى ذلك إلى فقدان التوازن بين العناصر المكونة للشخصية اليابانية التى كانت تعمل بأسلوب آخر متنافس تماماً مع أسلوب العمل .

غير أن « الوحدة الاجتماعية » التى قام عليها المجتمع اليابانى قدمت الحافز القوى الذى جعل الشعب يساند عملية بناء الدولة العصرية ، ويشارك فيها بهمة لا تعرف الكلل . فقيام المجتمع اليابانى على وحدة اجتماعية متداخلة نواتها الأسرة وإطارها الأمة خلق لدى اليابانيين شعوراً قومياً فريداً جعل الإحساس بالوجود مرادفاً لمجد الوطن ، وجعل التضحية فى سبيل الأسرة الصغيرة (العائلة) أو الأسرة الكبيرة (الأمة) غاية كل يابانى وهدفه الأسمى ، فلم تلق عملية تأسيس الدولة القومية العصرية أى عقبات . وجاء النظام السياسى الدستورى الذى ركز السلطة فى يد الامبراطور وحفنة من كبار رجال الدولة متمشياً مع العقلية اليابانية ، وإن بدا متنافراً مع إطار الدولة العصرية بالمفهوم الليبرالى الغربى .

وهكذا كانت ظروف اليابان الحضارية تقدم تربة صالحة لنمو الأفكار

الفاشية وقيام دكتاتورية عسكرية ، وهو ماحدث بالفعل فى ثلاثينات هـذا هذا القرن ووضع اليابان على الطريق إلى هزيمة عام ١٩٤٥ . ولذلك كانت عملية إعادة البناء بعد الحرب الثانية تركز على تهيئة الجو الملائم لتحقيق قدر أكبر من الديمقراطية ومحاربة الفكر اليابانى التقليدى فأرغم الامبراطور على إصدار إعلان ينكر فيه ألوهيته ، ومنح البلاد دستوراً يعطى للشعب سلطات أوسع فى مراقبة الحكومة ، ووضع أساس جديد للتربية هدفه تنشئة جيل ذا أسلوب مختلف فى التفكير من جيل ماقبل الحرب ، والعمل على إضعاف الروابط الاجتماعية العائلية التى تمثل محتوى ذلك الفكر التقليدى ، ورغم ذلك كله لم يقطع اليابانيون صلتهم بتراثهم الحضارى وظلوا أوفياء لأسلافهم متمسكين بتقاليدهم العريقة ، ويثبت الشخصية اليابانية تتسم بالازدواجية والبون الشاسع بين أسلوب التفكير ومنهج العمل .

الحــواشى

(١) Sansom, G. B: 1he Western Wo.ıld and Japan, U.S. A 1950, pp 167—69.

(٢) Nakamura, H : Ways of ihinking of Eastern People, Hawaii 1964, pp 400—2.

(٣) Ibid, p 405.

(٤) Haltom, D. G : Modern Japan and Shinto Nationalism, 3 rd. edition, U.S. A 1963, pp 25—90.

(٥) Fukuzawa : Gomplete Works of Fukuzawa, vol II, p 184.

(٦) Yanaihara, T : A Short History of Modern Japan, (Tokyo 1966) pp 3—4.

(٧) Keene, D : The Japanese Discoyery of Europe 1720—1830; London 1969, pp 31-36.

(٨) Beasley, W. G : rent Britain and the Opening of Japan, London 1951, pp 133—44.

(٩) Nakamura H. : Op. cit.[pp 409—13.

(١٠) Ibid, pp ƥI4-15.

(١١) Cressey; G. B : ƴsia's Lands and Peopls, N. Y 1944, pp 120—23.

(١٢) Nakane, C : Japunese Society, Un. of Calif. 1972, pp 8—22.

(١٣) Horie, T : The Trans for matiön of the National Economy, A Chapter in Japan's Economic History (Tobat,ed : Op. cit./ pp 99, 80—84).

(١٤) Ibid, pp 12—16.

(١٥) Masaharu, A : ƴ History of Japanese Religion, 1930, pp 105-7.

(١٦) Nakamura, H : Op. oit.. pp 434-35.

(١٧) Ibid, pp 445-48.

(١٨) Nobutaka, I : The Beginning of Political Democracy in Japan, 1550, pp 195-201.

(١٩) Ibid, p 210.

(٢٠) Koltom, D. C : Op. cit., pp 115 - 20.

(٢١) للمزيد من التفاصيل حول الاتجاهات الأدبية فى عصر مايجى راجع :

Kunitomo: Tadao : Japanese Literature Since 1863, Tokyo 1938.

(٢٢) Smith, T ; The Agrarian Origins of Madern Japan Sranford Un. Press 1970, pp 206 - 7.

(٢٣) Maruyama, M : Fukuzawa, Uchimura and Okoknra. Mei:i Intellactuals and Westernizatfon. (in The Modenization of Japan, vol II, IDE, Tokyo 1766). pp 594 - 611.

مصادر البحث

- Beasley, W. G : Great Britain and the Opening of Japan, London 1951.
- Cressey, G.B : Asa's Lands and Peoples, New York 1944.
- Horie, T : The Transformation of the National Economy, A Chapter in Japan's Economic History (in, Tobata, ed. : The Modernization of Japan, vol I, IAEA. Tokyo 1966).
- Holtom, D.B : Modern Japan and Shinto Nationalism. 3 rd, ed., 1963.
- Keene, D : The Japanese Discovery of Europe 1368, Toky 1938.
- Maruyema, M : Fukuzawa, Uchimura ond Okakura, Meiji Intellectuals and Modernization (in : Modernization of Japan, vol II, IDE, Tokyo 1966).
- Masaharu, A : Histoey of Japanese Religion, 1930.
- Nakamura, H : Ways of Thinking of Eastern Peoples, Haweii 1964.
- Nakane, C : Japanese Society, Un. of California Press 1972.
- Nobutaka, I : The Beginniugs of Political Democracy in Japan, 1950.
- Sansom, G.B : The Western World and Japan, 1950.
- Smith, T : The Agrarian Origins of Modern Japan, 1970.
- Yonaihara, T : A Short History of Monern Japan (in : Tobata, ed : The Modernization of Japan, vol I, IAEA; Tokyo 1966).

وزارة الخارجية المصرية

بين الإلغاء (١٩١٤) والإعادة (١٩٢٢)

دكتور يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ الحديث المساعد ـ كلية البنات ـ جامعة عين شمس

ظلت وزارة الخارجية المصرية رمزا من أهم رموز السيادة الوطنية على امتداد تاريخ مصر الحديث ، وتتعدد دلالات تأكيد هذه الحقيقة :

١ - فمن ناحية ، وقبيل الاحتلال البريطانى ، ظلت صلاحيات هذه الوزارة ، تحت مختلف الأسماء ديوان أمور أفرنكية أو نظارة خارجية ، تتضاءل وتزداد فى إيقاع متناغم مع تقلص وإتساع قاعدة الاستقلال المصرى .

فبينما اقتصرت هذه الصلاحيات على التعامل مع الأجانب الموجودين فى مصر حتى أواخر عصر محمد على - كما جاء فى قانون السياستنامة الصادر عام ١٨٣٧ - ، فقد اتسعت لتشمل « المعاهدات الدولية والمطابع والمطبوعات الأوروباوية والمحلية » - كما جاء فى الأمر العالى الصادر عام ١٨٧٨ بشأن اختصاصات النظار ووظائفهم - وكان هذا الإتساع تعبيراً عما تحصلت عليه مصر من الدولة العثمانية على عهد الخديو اسماعيل من مظاهر الاستقلال .

٢ - من ناحية أخرى ، فقد كانت هذه الوزارة دائماً محل رغبة جامحة من جانب القصر للسيطرة عليها ، والذى أدرك بدوره قيمتها كرمز للسيادة الوطنية ، ورأى أن سيطرته عليها تمكنه من ممارسة تلك السيادة من خلالها

ولعل أوضح ماوصل إليه القصر فى السعى لتحقيق رغبته فى تلك السيطرة نجاحه فى الإشراف التام على كل الوظائف الديبلوماسية، بل أكثر من ذلك نجاحه فى خلق نوع من الوحدة الوظيفية بين الخارجية وبين الديوان الملكى .

٣ — من ناحية أخيرة، وعلى عهد الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ — ١٩١٤) فبالرغم من أن سلطات الاحتلال قد سلبت وزارة الخارجية المصرية كثيراً من صلاحياتها من الناحية الواقعية ، إلا أن هذه الوزارة ظلت الواجهة التى تتعامل من خلالها السلطات الاحتلالية مع ممثلى الدول الأجنبية فى العاصمة المصرية .

وعلى ذلك، وبالرغم من الوجود الاحتلالى، فقد ظل للخارجية المصرية دورها ، بل وأهميتها ، فى إطار الجهاز الإدارى والسياسى للبلاد . ويكفى تدليلا على هذا أن نسجل أنه من بين ثمانية ، هم وزراء خارجية ذلك العهد ، تولى ستة منهم رئاسة الوزارة خلال تلك الفترة أو بعدها ، هم على التوالى شريف ونوبار وبطرس غالى وحسين رشدى ويوسف وهبه وعدلى يكن ، بل وفى أكثر من حالة كان رئيس الوزراء يشغل فى نفس الوقت منصب وزير الخارجية .

* * *

كما أن كل الدلالات السابقة تدعم الحقيقة المطروحة بأن وزارة الخارجية المصرية ظلت رمزاً للسيادة والاستقلال الوطنيين مما يكسب أى متابعة لتاريخها بعداً خاصاً ، فإن هذه الحقيقة على الجانب الآخر هى التى أدت إلى إلغاء هذه الوزارة مع القرار بإعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ ، كما أنها هى التى أعادتها إلى الوجود مع إلغاء الحماية بعد ذلك بما يزيد على سبع سنوات ، وعلى وجه التحديد فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

ذلك أن كل الإجراءات التي اتخذت عشية إعلان الحماية إنما كانت تؤكد عديداً من المزايا للاستقلال المصري — ولو في إطاره الظاهري — فيما عدا إلغاء وزارة الخارجية المصرية .

فتقطيع بقايا روابط الإتصال بين مصر والدولة العثمانية إنما كان يعني إنهاء روابط « التبعية » التاريخية التي ظلت تربط القاهرة باستنبول لنحو أربعة قرون، ثم تغيير لقب الخديو إلى لقب السلطان للحاكم من أبناء الأسرة المالكة إنما كان يعني تمتع هذا الحاكم بنفس اللقب الذي تمتع به الحكام العثمانيون من قبل ومن بعد ، كما أن تحول « النظارة » إلى « وزارة » إنما كان يعني زوال السبب الذي حرم مصر من استخدام التسمية الأخيرة طوال تاريخها الحديث وذلك لأنها مستخدمة في استنبول مما استتبعه الرفض بأن تكون هناك وزارتان أولاهما في العاصمة التركية المتبوعة والثانية في العاصمة المصرية التابعة ، ومن ثم فقد كان على القاهرة أن تكتفي « بنظارة » (!)

إذن كان لا بد من عمل يؤكد أن مصر لم تحصل على «استقلال» بإعلان الحماية البريطانية عليها وإنما تحولت إلى « تبعية » ، وقد تمثل هذا العمل في القرار بإلغاء وزارة الخارجية المصرية .

الالغاء :

تعددت موضوعات النقاش بين سائر الأطراف المعنية بتقرير المصير المصري قبيل إعلان الحماية على البلاد : من وزارة الخارجية البريطانية ، إلى دار المعتمد البريطاني في القاهرة ، إلى الوزارة الرشدية التي كانت قائمة في البلاد وقتذاك ، إلى الأمير حسين كامل الذي اقترح كبديل للخديو عباس الثاني الذي كان قد تقرر خلعه .

ويلاحظ قارىء الوثائق البريطانية السرية أن كثيراً من هذه الموضوعات كانت محلا للمساومة والمجادلات الطويلة ... حتى قضية الحماية نفسها خضعت لهذه المساومة وتلك المجادلات .

امر واحد كان موقف الحكومة البريطانية فيه حاسماً وغير قابل للنقاش أو المساومة ، هو إلغاء وزارة الخارجيـــة المصرية ، كما يبدو من مجموع المراسلات المتبادلة بين ممثل المعتمد البريطانى فى القاهرة المستر شيتام وسير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية .

تؤكد إحدى هذه المراسلات أن التخطيط لإلغاء وزارة الخارجية قد واكب التفكير فى فرض الحماية ، فكما جاء فى إحدى برقيات وزير الخارجية البريطانية إلى القاهرة فى منتصف أكتوبر ١٩١٤ « إن إعلان الحماية يحتم إشرافنا على العلاقات الخارجية المصرية »[1] .

ومع اتفاق رجال الوكالة البريطانية فى القاهرة مع حكومتهم على حتمية الإشراف البريطانى على العلاقات الخارجيـة المصرية فإنهم قد تقدموا بعدة اقتراحات للتنفيذ على النحو الآتى :

١ ــ أن تتم الاتصالات بين الحكومة المصرية وممثلى الدول الأجنبية فى القاهرة من خلال ممثل الحكومة البريطانية فى العاصمة المصرية .

٢ ــ الإبقاء على الهيكل القائم لوزارة الخارجية للقيام ببعض الأعمال الإدارية تحت إشراف رئيس الوزراء المصرى وذلك باعتبارها «هيئة تتعامل فى المسائل الخارجية من وجهتها المصرية » .

٣ ـ كما أثار « شيتام » مسألة الاتصال بممثلى الدول الأجنبية صاحبة الامتيازات ، ورأى أنه إذا طلب من هؤلاء أن يتصلوا فى كافة الأحوال بالممثل البريطانى فى القاهرة فإنهم سوف يفقدون الميزات العديدة التى ظلوا يتمتعون بها من وراء اتصالهم المباشر بالحكومة المصرية فى مسائل عديدة مثل العقود وغيرها .

ومن ثم فقد اقترح أن يطلب من ممثلى الدول صاحبـــة الامتيازات الاتصال بوكيل وزارة الخارجيـة المصرى فى كافة الأمور التى يرون عدم ضرورة الاتصال بالممثل البريطانى بشأنها .

وقد دعم اقتراحه هذا بأن هيئة موظفى الوكالة البريطانية لن تستطيع مواجهة كل الأعباء المترتبة على إلقـاء مسئولية العلاقات الخارجية المصرية على عاتقها(٢) .

ببساطة كانت اقتراحات رجال الوكالة البريطانيـة فى القاهرة تدعو إلى نوع من « الإشراف غير المباشر » من جانب الدولة الحاميـة على شئون الخارجية المصرية .

وبحسم وبدون نقاش على غير ما جرت عليه العادة فى سائر الموضوعات رفضت لنـدن اقتراحات دار المعتمد البريطانى فى القاهرة التى جاءها الرد سريعاً قبل مضى ٢٤ ساعة على تقديمها ، وقبل أن يصبح لهذه الاقتراحات أى وزن ، ولقيمة هـــذا الرد فى تاريخ وزارة الخارجية المصرية نثبته بنصـه :

« مراسلة رقم ٨٢ فى مجلد الخارجية البريطانيـة رقم ٤٠٧ / ١٨٣
« من سير إدوارد جراى إلى المستر شيتام .

(برقية رقم ٤٢٥)

« وزارة الخارجية فى ١٥ ديسمبر ١٩١٤
« رداً على برقيتـكم رقم ٣١٨ فان روح الحماية أن الدولة الحامية هى
« المسئولة وحدها ومباشرة عن العـلاقات الخارجية للبلد المحمية .
« وأن حكومة جلالته تعنى أن المنـــدوب السامى سيصبح وزيراً
« للخارجية كما هو الحال فى تونس ومراكش . ويمـكن أن تبقى

« إدارة الخارجية القائمة بالرغم من ضرورة إدخال بعض التغييرات
« عليها بعد إعلان الحماية ، ولكن يجب أن تقتصر الاتصالات
« الرسمية لممثلى الدول الأجنبية على وزير الخارجية فقط ، وهو
« المندوب السامى ، وفى حالة غيابه يتم الاتصال بممثل المندوب
« السامى وليس بوكيل الخارجية أو رئيس الوزراء . والمندوب
« السامى بوصفه وزيراً للخارجية سوف يبعث بالمراسلات التى
« تصله إلى الإدارة التى يراها مع تعليماته الخاصة . ويجب وضع
« نظام دائم للاتصال بين المندوب السامى وبين إدارة الخارجية »[٣].

ولتزيد الخارجية البريطانية قرارها حسماً بادرت بوضعه موضع التنفيذ فأرسلت إلى شيتام « ممثل المعتمد البريطانى » فى القاهرة تبلغه أنه قد أصبح « ممثلا للمندوب السامى ولوزير الخارجية المصرية » ، وأنه جارى إبلاغ كافة الدول صاحبة التمثيل الدبلوماسى فى مصر بأن اتصالات ممثليها الدبلوماسيين يجب أن تتم من خلال المندوب السامى[٤] .

ثم مع إعلان الحماية بعد ذلك بيومين وتشكيل وزارة حسين رشدى الثانية فإنها قد تشكلت بدون وزير للخارجية[٥] ، ولأول مرة فى تاريخ النظام الوزارى المصرى ، الذى بدأ عام ١٨٧٨ ، تختفى وزارة الخارجية ، رمزاً للسيادة البريطانية الوافدة ، وإهداراً لأهم رموز الاستقلال المصرى ، وتعبيراً عن ديمومة الاحتلال الأجنبى للتراب الوطنى .

* * *

بالرغم من أن ظروف الحرب وما استتبعها من إعلان الأحكام العرفية ومصادرة الحريات لم تتح كثيراً لجموع المصريين العاديين الاحتجاج على تقنين الوجود البريطانى فى البلاد باعلان الحماية عليها ، إلا أنه وفى أكثر من وثيقة من الوثائق البريطانية يقرأ الباحث ذلك الاحتجاج المصرى

المكتوم ضد إلغاء وزارة الخارجية المصرية ... أو بمعنى آخر ضد نظام الحماية على البلاد .

نختار من هذه الوثائق اثنتين :

أولاهما : رسالة كتبها اللورد هاردنج وكيل وزارة الخارجية البريطانية إلى المندوب السامى فى القاهرة فى يولية عام ١٩١٧ يقول فيها بالحرف الواحد « إنه من السهل إدراك عدم قبول المصريين لقيامنا بالغاء وزارة الخارجية المصرية ولممارستنا لعمل طالما كنا نقوم به من الناحية الفعلية قبل تغيير النظام »[١] .

ثانيتهما : ما اقترحه رشدى باشا رئيس الوزراء المصرى على دار الحماية ، ولأكثر من مرة ، كما تسجل إحدى مذكرات السير وينجت المندوب السامى فى القاهرة المؤرخة فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، بنوع من تقسيم الإشراف على الشئون الخارجية المصرية بين السلطات المصرية والسلطات البريطانية .

أكثر من ذلك — كما جاء فى نفس المذكرة — أن رشدى باشا قد حث السلطان أحمد فؤاد ليقوم بنوع من الضغط على المستر شيتام ، الرجل الثانى من رجال الحماية بعد وينجت ، لتوافق السلطات البريطانية على تنفيذ المقترح المصرى .

ومع ما تعبر عنه المذكرة السابقة من رفض لهذا المقترح على اعتبار أنه يمثل تحدياً للسيطرة البريطانية على الشئون الخارجية المصرية ، فقد سجلت فى نفس الوقت أنه « يشكل تناقضاً أساسياً لشروط الحماية ، كما أنه غير عملى إذ لن يستطيع الممثلون الأجانب فى القاهرة التعامل مع سلطتين »[٧] .

ونلاحظ على أصوات الاحتجاج تلك أكثر من ملاحظة ، فهى من ناحية قد بدأت تتردد بين سطور الوثائق بعد نحو ثلاث سنوات من إعلان الحماية ، وذلك نتيجة لتحسن الأوضاع العسكرية للدولة الحامية مما يسمح بطرح مثل هذه الموضوعات دون حساسية ، ثم أنها من ناحية أخرى قد ظهرت بعد وفاة السلطان حسين كامل والذى كان يعتبر عهده عهد استسلام للوجود البريطانى .

ملاحظة ثانية : فان هذه الاحتجاجات قدمت من الجانب المصرى باستحياء واضح ، وبقناعة المغلوب على أمره ، إذ لم تتجاوز مطالب رشدى باشا «المشاركة فى الإشراف على العلاقات الخارجية المصرية» ، وهو ما كانت الوكالة البريطانية ذاتها تدعو إليه قبيل إعلان الحماية .

الملاحظة الثالثة : ولكن وبالرغم من ذلك فان مجرد تقديم الاحتجاج ، ومن رئيس مجلس الوزراء المصرى ، أى من أحـــد أطراف السلطة ، وبتدعيمه من السلطان أحمد فؤاد ، وهو طرف آخر لها ، فان ذلك كان يمثل بالقطع صدى لتيار وطنى قوى من خارج السلطة ، على اعتبار أن مثل هذه المطالبة التى يمكن أن تحرج الوزارة أو السلطان أمام سلطات الحماية لا يمكن أن تصدر عنهما دون الإحساس بأن وراءهما رأى عام قوى مساند .

وتتأكد جدية هذه الملاحظة إذا علمنا أنه بعد أقل من أسبوعين من تقديم الاقتراح المذكور ، وكنتيجة لضغط محدود من جانب المنـــدوب السامى يطوى رشدى باشا اقتراحه متمتما بأنه يعلم «أن الحكومة البريطانية لن توافق على سماع شيء عن الآمال الوطنية المصرية قبـــل نهاية الحرب»[٨] .

الأعادة :

وتنتهى الحرب فى نوفمبر ١٩١٨ وتتلاحق الأحداث لتنفجر ثورة ١٩١٩ وتدخل القضية الوطنية و(مسألة) إعادة وزارة الخارجية المصرية فى إطارها فى مرحلة جديدة .

وتتبدى أهمية (المسألة) من ذلك الرأى الذى سجلته لجنة ملنر فى تقريرها المشهور والذى جاء فيه بالنص « أدركنا ونحن فى مصر أن المصريين جميعهم، والسلطان ووزراؤه فى جملتهم ، يرومون أن تمثل بلادهم سياسياً فى الخارج مهما اختلفت آراؤهم فى المسائل الأخرى ، وكانوا كلهم متمضين من الغائنا منصب وزير الخارجية عند إعلاننا الحماية وتسليمنا وزارة الخارجية إلى المندوب السامى البريطانى[٩] » .

ولكن ومع كل التغيير الذى أصاب وضع مصر الدولى فإن « وزارة الخارجية المصرية » ما كان بالامكان أن تعود على نفس النحو الذى كانت عليه من قبل ، لأكثر من سبب :

(١) فقد سقطت السيادة العثمانية على البلاد والتى ظلت قيداً على إمتداد مصر بعلاقاتها إلى دول العالم وإن كانت هذه الدول قد امتدت بعلاقاتها إلى مصر .

لا يمنع ذلك من تسجيل حقيقة أخرى ألا وهى أن هذا القيد لم يحرم مصر من قيام « علاقات سياسية » مباشرة بينها وبين سائر الدول عن طريق « القنصليات العامة » أو « وكالات » تلك الدول فى القاهرة لا من خلال « سفاراتها » فى العاصمة التركية .

(٢) وكان اسقوط الدولة العثمانية كزعيمة للعالم الإسلامى جانبه الآخر المتمثل فى تنافس البلاد الإسلامية الكبيرة على إرث مركز الزعامة الذى خلا .

ويذكر السير ويجت المندوب السامى البريطانى فى القاهرة فى تقرير سرى مؤرخ فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٨ أن عدداً من المسئولين المصريين قد أفضوا إليه برغبتهم أن تحتل بلادهم هذا المركز ، وعن أملهم « ألا تضغط بريطانيا على الشخصية المصرية إلى الحد الذى يمنع مصر من السعى إلى الحلول محل تركيا كأولى دول العالم الإسلامى(١٠) » .

وهذا الطموح لم يكن يناسبه ، على وجه التأكيد ، عودة وزارة الخارجية القديمة التى اقتصرت اتصالاتها على ممثلى الدول السياسيين فى القاهرة ، وإنما كان يستلزم إقامة جهاز فعال يمتد بالدعوة وبالدعاية إلى خارج البلاد وذلك لتحقيق مثل هذا الطموح ، ومن ثم كانت وزارة خارجية ماقبل الحماية جهازا قاصراً أمام تغييرات ما بعد الحرب .

على الجانب الآخر كان منتظراً أن تقف بريطانيا موقفاً مختلفاً من الآمال المصرية .

(١) فمن منطلق رفض إلغاء الحماية ما كانت لندن لتقبل أن تعيد إلى الوجود مؤسسة سياسية يتناقض وجودها مع إستمرار نظام الحماية ، أو على الأقل إستمرار التبعية المصرية لها .

(٢) ثم حتى بعد إقتناع حكومة لندن بأن «الحماية علاقة غير مرضية» بين البلدين ، وهو ما أعلنته فى بلاغ رسمى مشهور صادر فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ ، ثم ما كان منتظراً أن يتبع ذلك من الموافقة على إعادة « وزارة الخارجية المصرية » ، فإن هذه الإعادة ما كانت لتتم على النحو الذى يحقق الطموح المصرى ولأكثر من سبب .

أحد هذه الأسباب : ما يمكن أن يترتب على حرية مصر الكاملة فى ممارسة علاقاتها الخارجية من « إيقاع بريطانيا العظمى فى ارتباكات » ـ

على حد تعبير تقرير لجنة ملنر - ، إذ أنه فى ظل « العلاقة الخاصة » التى أرادت الحكومة البريطانية أن تستبدلها بنظام الحماية كان مطلوباً لون من الانسجام بين السياسة الخارجية لكل من الحكومتين البريطانية والمصرية ، والذى ما كان يتأتى بدون إشراف فعال من جانب الشريك الأقوى على العلاقات الخارجية للشريك الأصغر ، وذلك على حد التصور البريطانى .

سبب آخر : وهو زيادة المخاوف البريطانية من قيام مصر بالدور الذى طمحت إليه نحو زعامة العالم الإسلامى ، خاصة على ضوء ما تمخض عن الحرب من تمدد الوجود البريطانى إلى بعض البلاد الإسلامية القريبة ، إرثاً عن الدولة العثمانية المنهارة ، وبالذات فى فلسطين والعراق .

وإذا كان الإنجليز قد أعربوا فى كثير من المناسبات عن مخاوفهم من أن تصل أفكار الجامعة الإسلامية إلى أملاكهم فى الشرق البعيد ، فى الهند ، وذلك قبل الحرب العالمية الأولى ، فبالأحرى أن تزداد حدة هذه المخاوف ، مع ازدياد الرغبة المصرية فى قيادة العالم الإسلامى ، ومع التصاق أملاكهم الجديدة بمصر إلى هذا الحد .

سبب ثالث : ما يمكن أن يستتبع إعادة وزارة خارجية مصرية ذات تمثيل سياسى فى الخارج من إنفتاح مصر أكثر على دول كبرى تنافس بريطانيا وضعها فى المنطقة ، وما يمكن أن يترتب على هذا الانفتاح من زيادة حجم تبادل التمثيل الدبلوماسى لتلك الدول بما يصحب هذا من « انفساح المجال لدسائس يمكن أن تكون عواقبها وخيمة »[11] ، كما جاء فى التقرير الرسمى للجنة ملنر .

من هذين الموقفين المتناقضين لمصر ولبريطانيا نحو قضية إعادة وزارة الخارجية المصرية ، ثم نحو الحجم الذى يمكن أن تعود عليه هذه الوزارة ، دار حوار طويل بين الطرفين استمرار لنحو ثلاث سنوات .

* * *

فى المباحثات التى جرت بين لجنة ملنر وبين الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول خلال شهرى يونية وأغسطس عام ١٩٢٠ اشترك فيها الانجليز بمبدأ « ضرورة أن تبقى إدارة جميع العلاقات الخارجية المصرية فى أيد بريطانية »(١٢) .

ويذكر اللورد ملنر فى تقريره أن أعضاء لجنته قد خرجوا من هذا المبدأ بقرار هو « أن تقتصر السيطرة البريطانية على علاقات مصر السياسية . وأما مصالح مصر التجارية وسواها من مصالحها الخارجية غير السياسية فالأفضل تركها بيد المصريين . وهذه المصالح كثيرة وعددها آخذ فى الازدياد ، فاتساع نطاق التجارة والمواصلات وازدياد عدد المصريين الذين يسافرون إلى البلاد الخارجية أو يقيمون بها وخصوصاً فى غرب أوربا . والعلاقات العديدة التى تحصل لهم هناك تحتاج هذه كلها إلى حماية رسمية . فإذا ظل سفراء بريطانيا العظمى وقناصلها يرعون مصالح جميع الأفراد المصريين خارج بلادهم ثقلت أعباء ذلك جداً عليهم . لذلك رأينا أن تعين مصر ممثلين لها فى الخارج على أن تكون صفة هؤلاء قنصلية لا سياسية »(١٣) .

على الجانب الآخر نص المشروع الذى قدمه الوفد المصرى على حق مصر فى التمثيل السياسى فى الخارج ، كما رأى إمكان أن يقوم الممثل الانجليزى فى البلاد التى ليس لمصر تمثيل فيها « بالدفاع عن المصالح المصرية وفق آراء وزير الخارجية المصرى »(١٤) ، وكان معنى ذلك أن يقتصر الدور البريطانى فى العلاقات الخارجية المصرية على التنفيذ لا المشاركة أو الإشراف .

وقد حاول الطرفان التوصل إلى اتفاق وسط فكان ما تقرر من « تمتع مصر بحق التمثيل فى البلاد الأجنبية » ، ثم ما صحب هذا القرار بوضع القيود عليه من تعهد مصر « بألا تتخذ فى البلاد الأجنبية خطة لا تتفق مع

المخالفة أو توجد صعوبات لانجلترا ، و « بالا تعقد فى أية دولة أجنبية أى اتفاق ضار بالمصالح الانجليزية »[١٥] .

وكانت هذه القيود وغيرها مما دعا سعد زغلول إلى أن يقرر أن المشروع الذى تقرر عرضه على الأمة « ظاهر الاستقلال والاعتراف به ، وباطنه الحماية وتقريرها ، ففيه من خصائص الحماية ومميزاتها الشىء الكثير » ، مما دفع المصريين إلى رفض ذلك المشروع .

بهذا الرفض تجمد الموقف وتم وأد محاولة « إعادة وزارة الخارجية المصرية » على الخطوط التى قررها المشروع المذكور .

* * *

جاءت الخطوة التالية من الجانب البريطانى حين أعلن فى ٢٦ فبراير ١٩٣١ بأن الحماية لم تعد علاقة مرضية .

ومع ما تم الاتفاق عليه فى المباحثات مع ملنر والتى شارك فيها عدلى يكن من عودة وزارة الخارجية ، ومع إعلان ٢٦ فبراير للبريطانى تصور عدلى باشا بعد أن ألف وزارته التى تقـــرر أن تتولى المفاوضات الرسمية مع الحكومة البريطانية ... تصور أنه قادر على تعيين « وزير خارجية » فى هذه الوزارة ، وقد تضمنت احدى البرقيات السرية التى طارت إلى لندن فى ٢٣ مايو ١٩٢١ طلب الموافقة على هذا التعيين[١٦] ، ولكن جاء الرد صريحاً وقصيراً وباتراً بأن « التسليم بتعيين وزير خارجية لمصر يتعارض مع الأسس التى وضعتها وزارة الخارجية البريطانية للمفاوضات » (!)[١٧] .

ذلك أن هذا التسليم مع وجود مبررات معقولة له فيما تصوره عدلى يكن إلا إنه فيما خططت له حكومة لندن كان يحرم المفاوض البريطانى من ورقة

للمساومة ، هذا من ناحية ، كما أن التسليم بعودة وزارة الخارجية المصرية دون الاتفاق المسبق على حدود صلاحيات هذه الوزارة، وعلى طبيعة العلاقة بينها و بين السلطات البريطانية من جانب آخر ، كان يمكن أن يسبب كثيراً من المتاعب للحكومة الانجليزية لم تكن راغبة فيها .

واستسلاماً للرفض البريطانى شد عدلى يكن رحاله إلى لندن للدخول فى مفاوضات سياسية دون وزير خارجية ، لأنه غير موجود (١)

ويتفق المؤرخون عـــلى أن الجانب البريطانى فى تلك المفاوضات التى عرفت « بمفاوضات عدلى — كرزون » قد قبض يده عن كثير مما قد منحه فى مشروع ملنر .

ولعل أظهر ما كان من سياسة « قبض اليد » قد بدا فيما يتعلق بعودة وزارة الخارجية المصرية .

حقيقة وافق المشروع البريطانى على أن « تتولى الشئون الخارجية لمصر وزارة الخارجية المصرية تحت إشراف وزير معين لذلك » إلا أنه اشترط جملة شروط أفقدت إعادة هذه الوزارة أى معنى له .

فمن ناحية أوجب المشروع «وجود أوثق الصلات بين وزارة الخارجية المصرية والمندوب السامى البريطانى الذى يقدم كل المعونة الممكنة للحكومة المصرية فيما يتعلق بالمعاملات والمفاوضات السياسية » .

من ناحية أخرى ألزم المشروع الحكومة المصرية بعدم الدخول « فى أى اتفاق سياسى مع دولة أجنبية بدون أن تستطلع رأى حكومة جلالة ملك بريطانيا بواسطة المندوب السامى البريطانى » .

ومن ناحية ثالثة قرر المشروع استمرار الحكومة البريطانية فى « تولى المفاوضة على إلغاء الامتيازات الحالية مع الدول ذوات الامتيازات »[١٨] .

وبمقتضى هذا المشروع لم تكن وزارة الخارجية المصرية لتختلف كثيراً عن وضعها في ظل الإلغاء حين كانت تحت الإشراف البريطاني برئيس مصري هو وكيل الوزارة فيما عدا أنها استمرت تحت نفس الإشراف برئيس مصري بلقب وزير هذه المرة (!)

وقد أدرك الوفد المصري هذه الحقيقة مما دعاه إلى أن يسجل في رده الرسمي بأنه « لا يتصور أن تتوفر لدى وزير الخارجية الحرية التي يقتضيها القيام بأعباء منصبه وتحمل مسئوليته إذا كان ملزما بنص صريح بأن يبقى على إتصال وثيق بالمندوب السامي . فان ذلك معناه أن يكون خاضعاً في الواقع لمراقبته مباشرة في إدارة الأمور الخارجية .وعدا ذلك فان الالتزام بالحصول على موافقة بريطانيا العظمى على جميع الاتفاقات السياسية، حتى ما لا يتناقض منها مع روح التحالف ، فيه إخلال خطير بمبدأ السيادة الخارجية »[19] .

وكانت النتيجة المنطقية أن رفض الجانب المصري الاقتراحات البريطانية الخاصة بعلاقات مصر الخارجية ضمن رفضه للمشروع البريطاني برمته ، وتأجلت عودة وزارة الخارجية مرة أخرى .

* * *

أدى فشل مفاوضات عدلي - كرزون ونفي سعد زغلول إلى سيشل في أواخر عام ١٩٢١ إلى أن يواجه الوجود البريطاني في مصر موقفاً قريباً مما واجهه عام ١٩١٩ خاصة بعد استقالة وزارة عدلي يكن في ٨ ديسمبر ١٩٢١ .

وكان على حكومة لندن أن تتحرك بسرعة لتواجه الموقف المعقد الذي تجدد أمامها . وفي مثل هذه المواجهة بادرت بمحاولة تأليف وزارة جديدة عرضتها على ثروت باشا أقوى شخصيات الوزارة المستقيلة .

وقد رفض الرجـــل تشكيل وزارة إدارية على النحو الذي شكلت به

الوزارات السابقة خلال نفى سعد زغلول إلى مالطة ، ورأى أن تشكيل وزارة سياسية يستلزم وضع «برنامج سياسى» لها وافقت الحكومة البريطانية على نشره فى ٣٠ يناير ١٩٢٢ وقد جاء فيه بعد شرط « تصريح الحكومة البريطانية بإلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر بداءة ذى بدء» ، مباشرة الشرط « بإعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سفراء وقناصل »(٢٠).

لم تملك الحكومة البريطانية أن تعترض على مثل هذا البرنامج، كما لم تملك أن تضع حدوداً على صلاحيات وزارة الخارجية الجديدة ، ومن ثم لم يكن أمامها سوى السعى لفرض لون من التقييد على العلاقات التى تزمع هذه الوزارة إقامتها .

وكان الماريشال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة أول من فكر فى هذا التقييد فى رسالة طويلة له إلى لندن فى ٥ ديسمبر ١٩٢١ فيما أسماه « بمبدأ مونرو بريطانى » يمنع الدول من التدخل فى الشئون المصرية على غرار مبدأ مونرو الذى أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية لمنع الدول من التدخل فى شئون جاراتها ، وقد رأى أن تطبيق مثل هذا المبدأ سوف يقلل من احتمالات تدخل أى دولة فى شئون مصر(٢١) .

بمعنى آخر أن حكومة لندن وقد فشلت فى الإتفاق مع أى مفاوض مصرى على تقييد انفتاح مصر بعلاقاتها الدبلوماسية على الخارج ، فانها قد سعت إلى إيقاف هذا الانفتاح من خارج مصر لا من داخلها .

والواقع أنه كان لبريطانيا بكل القوة والهيبة التى خرجت بهما بنصرها فى الحرب الأولى أن تطبق مثل هذا المبدأ على مصر .

وبتصريح ٢٨ فبراير المشهور الذى أنهى الحماية البريطانية على البلاد ، ونص على أن تكون مصر « دولة مستقلة ذات سيادة » أمكن إعادة وزارة

الخارجية المصرية فى وزارة عبد الخالق ثروت التى تألفت فى اليوم التالى للتصريح وقد تولى هذه الوزارة رئيس الوزراء نفسه .

ثم بالكتاب الدورى الذى أرسلته حكومة لندن إلى كافة ممثليها فى الخارج فى ١٥ مارس من نفس السنة – بعد موافقة البرلمان الانجليزى على التصريح – أعلنت ما أسماه اللنبى « بمبـــدأ مونرو البريطانى » ليبلغه هؤلاء إلى الحكومات المعتمدين لديها .

وقد جاء فى هذا الكتاب بأنه :

« سيكون للحكومة المصرية حرية إعادة إنشاء وزارة للخارجية
« تمهيداً لتمثيل مصر فى الخارج تمثيلا دبلوماسياً وقنصلياً .

« ولن تمد بريطانيا العظمى فى المستقبل حمايتها على الرعايا المصريين
« فى البلاد الأجنبية إلا فى الحدود التى تطالبها بها الحكومة المصرية
« وإلى الوقت الذى يتم فيه تمثيل مصر الدبلوماسى فى تلك البلاد .

« بيد أن إنهاء الحماية البريطانية على مصر لن يمس الأوضاع القائمة
« بالنسبة للدول الأخرى فى مصر بأى تغيير .

« إن رخاء مصر وسلامتها ضروريان لأمن الامبراطورية البريطانية
« ولذلك فانها ستحتفظ على الدوام بالطابع الخاص للعلاقات بينها
« وبين مصر والذى طالما اعترفت به الحكومات الأخرى ، وذلك
« من حيث أن هذا الوضع مصلحة بريطانية قصوى . وقد أوضح
« الاعتراف البريطانى باستقلال مصر وسيادتها هذا الوضع .
« وقد أبقته حكومة صاحب الجـــلالة من حيث إنه من الأمور
« المتصلة بحقوق الامبراطورية البريطانية ومصالحها اتصالا حيوياً ،
« ولن تسمح بمناقشته من جانب أي من الدول الأخرى .

« وبناء على هذا المبدأ ستعتبر محاولة أى من تلك الدول للتدخل
« فى شئون مصر عملا عدائياً ، كما ستعتبر أى عدوان على الأراضى
« المصرية عملا تعاقب عليه بكل الوسائل التى تملكها » .

وقد حرصت بريطانيا فى نفس الوقت أن تضع لها «عيناً» على الوزارة الجديدة فكان ما تم مع إنشائها من تعيين المستر «كين بويد» السكرتير الشرقى بدار الحماية مديراً عاماً بوزارة الخارجية المصرية .

وعلى هذا النحو تم إعلان الاستقلال المصرى بتحفظات غير مرغوبة، وعادت وزارة الخارجية المصرية وقد فرض على إمكانيات امتداد علاقاتها إلى الخارج وصاية غير مطلوبة .

وكان على مصر أن تبدأ مرحلة جديدة من الكفاح باستكمال أسباب استقلالها الوطنى سواء بالتخلص من تحفظات تصريح ٢٨ فبراير أو من وصاية مبدأ مونرو البريطانى .

الحـــواشى

(١) F.O. 407/183 No. 24 Grey to Cheetham, Oct. 17,1914 Tel. No. 266

(٢) Ibid No. 80 Cheetham to Grey, Dec. 14,1914 Tel. No. 318 Conf.

(٣) F.O. 407/183 No. 82 Grey to Cheetham; Dec. 15,1914 Tel. No. 425.

(٤) Ibid No. 84 Grey to Cheetham, Dec. 19,1914 Tel. No. 428.

(٥) قرارات تشكيل الوزارة الرشدية الثانية — الوقائع المصرية العـــدد ١٧٢ لعام ١٩١٤ .

(٦) F.O. 407/183 No. 107 Hardinge to Wingate July 25, 1917.

(٧) Ibid No. 127 Wingate to Balfour, Dec. 9,1917 Tel. No. 1320 Conf.

(٨) F.O. 407/183 No. 164 Wingate to Hardinge, Dec. 27,1918 Private.

(٩) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية جـ٢ التمهيد ملحق عن تقرير اللجنة البريطانية برئاسة اللورد ملنر ص٨٦ .

(١٠) F.O. 407/183 No. 163 Wingate to Balfour, Dec. 26, 1918 Tel. No. 1944.

(١١) أحمد شفيق : المصدر السابق — تقرير ملنر ص٨٧ .

(١٢) المصدر السابق ص٨٥ .

(١٣) نفس المصدر ص ٨٥ .

(١٤) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية — البريطانية جـ١ ص ٦٧ .

(١٥) نفس المصدر السابق جـ٦ ص٦٩ — ص٧٠ .

(١٦) F.O. 407/189 No. 135 Allenby to Curzon, May 23, 1921 Tel. No. 355.

(١٧) Ibi Ndo. 146 Curzon to Allenby, May 25,1921 Tel. No. 302.

(١٨) أحمد شفيق : المصدر السابق ص٤٥٥ — ٤٥٦ .

(١٩) أحمد شفيق : المصدر السابق ص٤٦٥ .

(٢٠) نفس المصدر ص ٧١٢ .

(٢١) F. O. 407/191 No. 40 Allenby to Curzon, Dec. 5,1921 Tel. No. 656.

(٢)

كشف الكربة فى رفع الطلبة

تأليف

محمد بن أبى السرور البكرى الصديق

تقديم وتعريف وتحقيق
الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية البنات ـ جامعة الأزهر

تمهيد :

تتناول مخطوطة «كشف الكربة فى رفع الطلبة» لمحمد بن أبى السرور البكرى، قضية هامة من قضايا تاريخ مصر فى العصر العثمانى «وهى قضية الصراع الذى نشب، منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر، بين جند الحامية العثمانية من جانب، والباشوات العثمانيين من جانب آخر، وتوضح المخطوطة أسباب هذا الصراع. وتأثيره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر من ناحية، وعلى الحكم العثمانى نفسه من الناحية الأخرى، ولإيضاح ذلك فان هذا التقديم سوف يتناول العناصر التالية :

(١) ثورات جند السباهية فى الفترة التى تؤرخ لها المخطوطة، وهى الفترة الممتدة من ٢ شوال سنة ٩٩٧ هـ ـ ١٤ أغسطس ١٥٨٩ م وحتى

١٠ ذى القعدة سنة ١٠١٧ هـ — ١٥ فبراير ١٦٠٩م — وأسباب هذه الثورات وموقف الباشوات منها .

(٢) التعريف بالمخطوطة ومؤلفها وموقفه من الأحداث التي سجلها كمعاصر لها .

(٣) خاتمة وتقويم .

* * *

أولا — ثورات جند السباهية :

بدخول مصر فى حوزة السلطنة العثمانية فى ٣ محرم ٩٢٣ هـ - ٢٦ يناير ١٥١٧م، اضمحلت مكانتها السياسية وانهار نظام الحكم المملوكى الذى كان قائما فيها ، ووضع العثمانيون نظاما لحكم مصر، كان يتألف من عدة هيئات (الوالى — الديوان — الحامية — المماليك) ، وهى هيئات متداخلة بعضها فى بعض ، وقد ترتب على مشاركة هـذه الهيئات فى إدارة البلاد ، قيام صراع فيما بينها للسيطرة على شئون الحكم من ناحية ، وللحفاظ على الامتيازات الخاصة بكل هيئة من الناحية الأخرى .

فن الناحية الأولى، نجد أن الديوان والحامية والمماليك هذه الهيئات التى كان الهدف من إيجادها مساعدة الوالى فى حكم البلاد، أصبحت تنازعه السلطة بل وأضعفت من نفوذه ، وعملت فى كثير من الأحيان على عزله ومحاسبته على ما كسبت يداه فى نهاية مدة حكمه ، كما دخلت هـذه الهيئات فى صراع مستمر فيما بينها شغلها فى معظم الأحيان عن تدبير أمور الحكم فى البلاد ، هذا إلى جانب أن كل هيئة شغلت بفرض امتيازات مادية لها على السكان مستغلة فى ذلك نفوذها وقوتها . وكان من بين هذه الامتيازات الضرائب

غير المشروعة التى فرضها جند السباهية على سكان الريف[1] وبالغوا فى فرضها وتحصيلها بالقوة ، وكانت محاولات الباشوات إلغاء هذه الضرائب الظالمة ، السبب المباشر فى ثورات هؤلاء الجند ضد الباشوات منذ سنة ٩٩٧هـ -١٥٨٩م،وحتى القضاء على هذه الثورات نهائياً سنة١٠١٧هـ - ١٦٠٩م على يد الوالى محمد باشا ويمكن توضيح ذلك فيما يلى :

كان جند السباهية الذين يقيمون فى الريف المصرى ، يتكونون أساساً من ثلاثة فرق من فرق الحامية العثمانية فى مصر ، (الجمليان ، التفنكجيان ، الشراكسة) . وكان منوطاً بهؤلاء الجند حفظ الأمن فى الريف ، ومساعدة رجال الإدارة فى جمع الأموال الأميرية المقررة على القرى ، وصدِّ هجمات العربان من الإغارة عليها ، ومراقبة زراعة الأراضى ، والمحافظة على مياه الرى وحسن توزيعها . ولكن جند السباهية استغلوا نفوذهم ، والوظائف المخوّلة لهم فى الريف ، وفرضوا لأنفسهم على أهل القرى ضرائب غير مشروعة . وكان أبرز هذه الضرائب فى القرن السادس عشر ، ضريبة أسموها «الطلبة»، وهى مبالغ من المال . كان هؤلاء الجند يطلبون من كاشف الأقليم — ليعطوها صفة شرعية — أن يكتبها لهم على ناحية من النواحى . أو على شخص ، أو مجموعة من الأشخاص . بحجج وهمية ، وبالغ الجند فى مقدار هذه الضريبة التى كانت تختلف من حالة إلى حالة حسب أهـــوائهم ، حتى زاد مقدارها على مقدار الأموال الأميرية فى كثير من الحالات ، وقد حدث على

---

(١) كانت الضرائب التى فرضها العثمانيون على السكان تعرف باسم « المال الميرى » ، ثم زيدت هذه الضرائب بضريبة أخرى فى القرن السابع عشر ، عرفت باسم « المضاف » ، ولكن رجال الإدارة والجند فرضـوا لأنفسهم على السكان ، ضرائب وعادات أخـرى أصبح يطلق على مجموعها اسم « البرانى » كانت قيمتها المادية فى معظم الأحوال تفوق قيمة « المال الميرى » .

انظر : دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن « الريف المصرى فى القرن الثامن عشر » ص ص ١٠٠ — ١٢٣ .

سبيل المثال أن قرية بالمنوفية كانت إقطاعا لمحمد بن أبي السرور البكري. كانت الأموال الأميرية المقررة عليها مائة ألف نصف فضة ، ولكن غرمت فى الطلبة ضعف هـــذا المبلغ[1] وصار جند السباهية يفرضون الطلبة « على الفلاحين والمزارعين ، فى ساير الأقاليم ، وعلى العمالين والبطالين وصاروا يضاعفونها فى كل سنة من السنين ، إلى أن زادت على أموال المقاطعات » ، وبالغوا فى فرضها وهددوا الكشاف كى يكتبوا لهم الأوراق بها ، إلى أن وصل الأمر أن يكتب لهم « فى كل شهر طلبة ، ولم يزل يعظم أمرها إلى أن صار يكتب للناحية الواحدة فى اليوم ثلاث طلب أو خمس فخربت البلاد لذلك »[2] وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن هؤلاء الجند كما تذكر المصادر المعاصرة ارتكبوا مع سكان الريف كثيراً من المظالم وساءت أحوال الفلاحين نتيجة لأعمال جند السباهية التى لم يستطع الفلاحون لها دفعا . ولم يكن هناك أمامهم من سبيل سوى الشكوى لكل باشا جديد حين قدومه إلى مصر ، عله يستطيع أن يضع حدا لسوء تصرفات جند السباهية وتعسفهم معهم .

حاول الباشوات إلغاء « الطلبة » التى كانت سبباً فى خراب البلاد وتدهور أحوال أهل الريف وكانت محاولة الباشوات هذه سبباً فى تمرد جند السباهية ضدهم ، لأن هؤلاء الجند اعتبروا أن إلغاء « الطلبة » إلغاء لأهم امتياز اقتصادى لهم ، أصبحوا يعتبرونه حقاً مقررا لهم على سكان الريف ، وكانت أولى ثورات جند السباهية فى سبيل حفاظهم على هذا الامتياز فى عهد الوالى أويس باشا (١٢ جماد الثانى ٩٩٤ — ٢ شـــوال ٩٩٧ هـ / ٣١ مايو ١٥٨٦ م — ١٤ أغسطس ١٥٨٩ م) ، فحين حاول

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، الكواكب السائرة « ٢٧ أ » ، التحفة البهية ٥٥ ب ، ٥٦ أ .

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، ورقة ١٥ .

هذا الوالى أن يقف فى وجه أعمال هؤلاء الجند ، ويلغى «الطلبة» هجموا على قصره بالقلعة فى (٢ شوال ٩٩٧ هـ / ١٤ أغسطس ١٥٨٩ م) ونهبوا موجوداته، وأخذوا ابنه رهينة حتى ينزل الوالى على إرادتهم ويصدر أوامره بالسماح لهم بأخذ «الطلبة»، ولم يستطع قاضى القضاة والدفتردار بالنصح تارة ، وبالتحذير تارة أخرى إرجاعهم عن غيهم ، فاضطر أويس باشا — تحت تهديد هؤلاء الجند وارتكابهم كثيرا من أعمال السلب والنهب فى القاهرة - إلى إصدار أوامره بالسماح لهم بأخذ «الطلبة» حسب أهوائهم(١) .

كان هذا الانتصار على الوالى سبباً فى ازدياد تعسف الجند مع الأهالى من جانب . ومع الباشوات من جانب آخر . وتكرر حصارهم للقاهرة والهجوم عليها ، وارتكابهم لأعمال السلب والقتل فيها ووصلت جرأتهم حدها حينما تصدوا للوالى إبراهيم باشا (١٤ ذى الحجة ١٠١٢ هـ / ١٤ مايو ١٦٠٤ م) وتمكنوا من قتله هو والأمير محمد بن خسرو فى (١ جمادى الأولى ١٠١٣ هـ / ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤ م) وطافوا برأسيهما فى شوارع القاهرة . وكان ذلك جراء اهتمام هذا الباشا بأمر إزالة الطلبة ، والقضاء على الجند المتمردين ، فأكد جند السباهية بهذا التصرف قدرتهم على تحدى كل من تسول له نفسه الوقوف فى وجه الامتيازات التى فرضوها لأنفسهم على السكان .

---

(١) دكتور عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ، ص ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، ثورات العساكر فى القاهرة ، فى الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر ومغزاها ، طبع دمشق ، ص ص ٣ — ٤ — ٥

وجاء محمد باشا الكرجى (٩ رجب ١٠١٣ — صفر ١٠١٤ هـ / ٢٨ نوفمبر ١٦٠٤ يونية ١٦٠٥ م)

وكان مكلفاً من قبل السلطان بمنع الطلبة ومعاقبة قتلة إبراهيم باشا .
واستعمل هذا الباشا القسوة مع جند السباهية ورغم قسوته معهم ، فإنهم « لم ينتهوا عما نهو عنه ، وبغوا وعتوا أكثر من الأول » ولم يستطع الباشوات الذين أتوا بعد محمد باشا الكرجى ، القضاء على بغى هذه الطائفة حتى وصلت أخبار أفعالهم الشنيعة . وما يعانيه الرعايا منهم إلى السلطان أحمد بن محمد بن مراد (١٠١٢ هـ — ١٠٢٦ هـ / ١٦٠٣ م — ١٦١٧ م) ، فكلف محمد باشا (٧ صفر ١٠١٦ — ١٠٢٠ هـ / ٣ يونيو ١٦٠٧ — ١٦١١ م) — الذى تنعته المصادر المعاصرة ، « بمعمر مصر » ، و « مبطل الطلبة » — « برفع الطلبة وإبطالها بالكلية » ، وقد تسلم هذا الباشا من الأهالى وهو فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة كثيرا من الشكاوى ضد مظالم جند السباهية والطلب التى يفرضونها على الأهالى ، بدون وجه حق ، طالبين منه أن ينقذهم من هذه المظالم(١) . وتنفيذا لما كان مكلفا به الباشا من السلطان ، فانه ابتدأ عهده بتجريد ثلاثة عشر سنجقا من رتبهم ورواتبهم ونفيهم من القاهرة ، واتفق مع الديوان على أمرين :

١ — التفتيش عن قتلة إبراهيم باشا .

٢ — إزالة الطلب وإيقافها فورا .

وتحقيقاً لسياسته فإنه بدأ عهده ، بالاشتراط على الكشاف

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة فى رفع الطلبة وجه ورقة ٣٨ ، دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات العساكر فى القاهرة ، ص ص ١١ — ١٢ ، بلاد الشام ومصر ، ص ٢٤٩ .

والأمناء(١) ، عدم كتابة طلب للجند مطلقا ، وهددهم بأن من يكتب منهم طلبة لأحد من الجند يكون القفطان الذى يلبسه كفنه ، وأمر برفع المظالم من القرى والنواحى . وأبرز لأمراء الجندوالسناجق ، وجميع العسكر خطا همايونيا متضمنا رفع « الطلبة » وأن « كل من سعى فى أخذها أو تسبب فى طلبها بحيلة من الحيل ، أو سبب من الأسباب يكون ساقطا مخرجا من ديوان الجند ، بعد التنكيل الشديد به ، والتمثيل والتحقير » فاقسم له الجند جميعهم « يميناً واحداً وأشهدوا على أنفسهم أنهم من الآن لا يمشون فى طريق شىء يقال له الطلبة، ولا يطلبونها ولا يتفوهون بذلك ولا يذكرونه على ألسنتهم ، ولا يقرّون عليها . وكل من عاند وخالف يكونوا عليه . ويقبضون عليه »(٢) .

وتنفيذا لسياسة الحزم التى اتبعها محمد باشا ، أرسلت الاوامر التى تقضى بإيقاف الطلب ومعاقبة من يتجرأ على طلبها . إلى الإدارات المحلية فى الريف، وألقى القبض على بعض الكشاف المخالفين ، مثل كاشف المنوفية ، وكاشف الغربية وكاشف البحيرة . وتم قتلهم وتعيين آخرين فى مناصبهم . وأخذ العهد عليهم بالتزام الدقة والحزم فى تنفيذ جميع الأوامر الصادرة برفع المظالم الواقعة من جند السباهة على سكان الريف . ولكن سياسة الحزم هذه التى اتبعها محمد باشا لم تلق قبولا لدى طائفة من جند السباهة . فتمردوا ضدها ، وتصدى بعضهم لكاشف الغربية الجديد ، وهددوه بالقتل ، فهرب وغرق فى النيل أثناء هربه(٣) فكان هذا الأمر من الأسباب التى زادت من تصميم

---

(١) الأمناء ، مفردها أمين ، وهو موظف حكومى . كان يقوم بجباية المال الميرى قبل تطبيق نظام الالتزام ، فى جباية الأموال المقررة على الأراضى الزراعية .

(٢) محمد بن ابى السرور البكرى ، كشف الكربة ظهر ورقة ٤١ ، ووجه ورقة ٤٢ .

(٣) نفسه ، ورقة ٢ .

محمد باشا على مقاتلة المتمردين . الذين كانوا بدورهم قد أعدوا العدة — رغم تعهدهم السابق بإطاعة الأوامر — لإظهار تمردهم وإعلان عصيانهم لأوامر الباشا — التي رأوا فيها قضاء على امتيازاتهم — وتأكيدا لإعلان تمردهم ، فانهم اجتمعوا فى مختلف الأقاليم فى (أواخر شوال وأوائل / أواخر يناير ، وأوائل ذى القعدة ١٠١٧ هـ / فبراير ١٦٠٩ م) فى مقام السيد أحمد البدوى بطنطا ، وتحالفوا على عدم رفع « الطلبة » ، وعلى قتل الأمير مصطفى كيخيا الجاويشية وغيره من السناجق المؤيدين لسياسة الباشا ضدهم ، وإمعانا فى تحديهم لسياسة الباشا والدولة ، فانهم اختاروا من بينهم رئيسا عينوه سلطانا عليهم ، وقسموا مصر إلى أقسام فيما بينهم ، وتنفيذا لبرنامج عصيانهم . فان جموعهم اتجهت صوب القاهرة تبغى محاصرتها وإجبار الباشا على الاعتراف بشرعية مطالبهم ، وفى أثناء سيرهم تجاه القاهرة روعوا أهل الريف . وعانت جميع قرى الدلتا الكثير من مظالمهم .

علم محمد باشا بتحرك هؤلاء الثائرين ، فجمع العناصر الموالية له من سناجق وجاويشية ومتفرقة وانكشارية وعزب ، وحثهم على نصرة السلطان ضد أعدائه الخارجين على أوامره ، وعين مصطفى بك كخيا الجاويشية قائدا على هذه العناصر . ومنحه رتبة السنجقية بهذه المناسبة ، وعمل محمد باشا كذلك على الاستفادة من قوة العربان ، ضد هؤلاء الجند المتمردين ، فاستعان ببعض قبائل البدو . ولكى يكسب قواته قوة على قوات المتمردين فانه زودها بست مدافع والتقت قوات الباشا مع المتمردين يوم (١٠ ذى القعدة ١٠١٧ هـ / ١٥ فبراير ١٦٠٩ م) فى الخانقاه (الخانكة) وتمكنت من محاصرتهم وإجبارهم على

التسليم . وتسليم سلطانهم المعين من طرفهم، وسبعة وسبعين من رؤسائهم فأمر الباشا بقتلهم ، وجرد الباقين من سلاحهم ، وتعقبت القوات الحكومية فلول المتمردين وقتل كل من تظفر به منهم ، واتضح بعد المعركة أن هناك عناصر ليست من الجند اندست بين المتمردين ، إثارة للشغب . وبقصد المنفعة الشخصية . وبناء على نصيحة قاضى العسكر أمر الباشا بنفى من بقى من الجند المتمردين إلى اليمن ، وبذلك تمكن محمد باشا من القضاء على هذه الفتنة . وإبطال اعتداءات جند السباهية على سكان الريف ، ورفع عن كاهلهم أعباء « الطلبة » . التى عانوا الكثير من جرائها ، فارتاحت نفوس أهل الريف . وهدأت أحوالهم ، واعتبر المعاصرون هذا الانتصار على جند السباهية « الفتح الثانى فى الدولة الشريفة العثمانية » ، ولقب محمد باشا بألقاب « معمر مصر » و « مبطل الطلبة »[1] . وبدأ الكتاب والشعراء المعاصرون . كل يدلى بدلوه فى وصف هذا الانتصار ، وصفات هذا الباشا القوى الذى خلص مصر من أعمال هذه الطغمة الفاسدة المفسدة ، ووجد محمد بن أبى السرور البكرى أن أعمال هؤلاء الكتاب والشعراء رغم كثرتها لم تؤد الغرض المنشود منها فى وصف هذا الانتصار والتأريخ لهذا الحدث المظيم من أحداث تاريخ مصر. لذا شرع فى وضع مؤلفه « كشف الكربة فى رفع الطلبة » مبيناً الأسباب التى دفعته إلى ذلك بقوله « فهذا تأليف منيف ، ومختصر لطيف ، اقتضى الوقت

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة ، أوراق ٦٤ — ٦٦ ، التحفة البهية ، ورقة ٥٥أ ، الكواكب السائرة ، ورقة ٢٦ب ، النزهة الزهية ، ورقة (٣٧) .

— دكتور عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ص ٢٥١ ؛ ثورات العساكر فى القاهرة ص ص ١٢ — ١٣ .

— Shaw, J. Stanford, The financial and Administrtive organization and development of ottoman Fgypt, princeton 1956.

— Holt, P. M. Egypt and The Fertile crescent 1515 — 1922 apolitical history P 76.

إبرازه على وفق المراد ، ومنهج الصحة والسداد ، فيما وقع فى هذا العام ، الذى هو عام سبعة عشر وألف من هجرة النبى عليه الصلاة والسلام ، من الجند الأشقيا اللئام ، والأهوال والضرر العام ، للخاص والعام ، وقد لهج غالب الأذكيا بالديار المصرية بتنميق هذه القضية ، بمؤلفات نثرية ، وتواريخ شعرية ، فأتعبوا أنفسهم من غير فائدة ، ولم يبلغوا الغرض ، ولم يظهروا لبدايتهم عايدة ، واقتضى الحال وضعه على هذا المنوال ، وإن لم أكن من فرسان ذلك الميدان ، فإن الحق سبحانه وتعالى قد ألهم وأعان ولم أقصد بذلك إلا العظة والاعتبار . وانتشار تلك الأخبار . والاطلاع على حوادث الدهر الدوار ، واختلاف مطاوى الليل والنهار ، ومعرفة أحوال بنى النوع ، مما يوقظ الأذهان ، ويشحذ الأفكار ، ويزيد بصيرة أولى البصائر والاستبصار ... وسميته « كشف الكربة فى رفع الطلبة » ، وخدمت بذلك حضرة مولانا وسيدنا الوزير المعظم والدستور المكرم ، والمشير المفخم ، حضرة مولانا محمد باشا[1] .

* * *

ثانياً : التعريف بالمخطوطة ومؤلفها وموقفه من الأحداث التى سجلها كمعاصر لها :

مخطوطة « كشف الكربة فى رفع الطلبة » تأليف محمد بن أبى السرور

(١) محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة ، ورقة ٣ .

— من الذين كتبوا عن الطلبة ، خلاف من ذكرهم المؤلف فى هذا النص . محمد البرلسى السعدى ناسخ المخطوطة الذى ولى منصب القضاء بالاسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، حيث وضع مؤلفاً عن « الطلبة » يكاد يكون نصه متقارباً مع هذا النص الذى ننشره اليوم . ومؤلف محمد البرلسى يحمل عنوان « بلوغ الأرب برفع الطلب » وتوجد نسخه منه على ميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية . التابع للجامعة العربية برقم ٩٣٧ ، ونقوم حالياً باعداد دراسة عن هذه المخطوطة ، ونشر نصها قريباً .

البكرى . تصور جانباً من تاريخ مصر السياسى والاقتصادى والاجتماعى

فى الفترة الممتدة من (٩٩٧ — ١٠١٧ هـ / ١٥٨٩ — ١٦٠٩ م) حين تمكن محمد باشا

(١٠١٦ — ١٠٢٠ هـ / ١٦٠٧ — ١٦١١ م) من القضاء على ثورة جند السباهية فى

(٩ ذى القعدة ١٠١٧ هـ / ١٤ فبراير ١٦٠٩ م) ورغم إشارة المؤلف إلى مؤلفه القيم هذا ، فى

مؤلفاته الأخرى ، فإنه كان يعتبر فى حكم المفقود[1] ، وحقيقة الأمر أن

---

(١) أشار الدكتور محمد أحمد أنيس فى بحثه عن « مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى » طبع معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة سنة ١٩٦٢م ، ص٢٣ ، وفى البحث الذى تقدم به إلى ندوة ألفية ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م ، وفى البحث الذى تقدم به إلى ندوة «عبد الرحمن الجبرتى وعصره» ، التى نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة سنة ١٩٧٤ تحت عنوان « الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ص ١٢ أشار فى هذه الأبحاث ، بأن مؤلف« كشف الكربة فى رفع الطلبة» غير موجود ، ولم يستطع أن يعثر عليه وذكره فى كل الأبحاث باسم محرف هو « تفريج الكربة فى رفع الطلبة » .

— وأشار الدكتور عبد الكريم رافق فى مؤلفه القيم عن « بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ — ١٧٩٨ م) الطبعة الثانية . دمشق ١٩٦٨ ، ص٢٠٢ . بأن هذا المؤلف « لا يعرف مكان وجوده الآن » .

— وذكر الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى فى بحثه الذى تقدم به إلى ندوة ألفية القاهرة سنة ١٩٦٩م ، بعنوان « دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى» ، هامش ص ٣٩ أن مؤلف ابن أبى السرور موجود فى مصر ، وأن اسمه « كشف الكربة فى تفريج الغمة » . ولكن الدكتور الشناوى لم يذكر مكان وجوده ، وأخطأ فى اسم الكتاب كما هو واضح، كما أنه اعتبر تاريخ الانتهاء من نسخ المخطوطة سنة ١٠٢٢ هـ — ١٦١٣ م، هو النهاية التى تؤرخ لها المخطوطة ، والحقيقة أن المخطوطة تؤرخ للفترة من ٩٩٠ هـ ١٥٨٢م إلى ١٠٢٠هـ/١٦١١م وهى نهاية مدة حكم محمد باشا .

وهكذا يتضح مما ذكره كل من السادة الأساتذة السابقة أسماؤهم ، أن هذا البحث ظل غير معروف للباحثين . ولم يطلع عليه أحد ، حتى وفقنا الله بمساعدة الصديق « عبد الجواد صابر اسماعيل » الذى يقوم حالياً باعداد رسالة دكتوراه عن « مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثمانى» بقسم التاريخ بكلية اللغة العربية، بجامعة الأزهر، فى العثور على هذا المؤلف القيم ==

هذا المؤلف يوجد فى مكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بسوهاج، تحت رقم ٨٣٠ تاريخ ، حيث كتب على غلافه الذى نسخ بخط البرلسى الرفاعى الشافعى مانصه « كتاب كشف الكربة فى رفع الطلبة » تأليف الشيخ الكاتب الكامل الفاضل الشيخ محمد البكرى ، كما توجد نسخة أخرى لهذه المخطوطة ، مصورة عن النسخة السابقة ، بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٧٦٤ تاريخ ، وقد أخطأ واضع فهرس المخطوطات فى نسبة تأليف هذه المخطوطة إلى ناسخها محمد البرلسى الرفاعى الشافعى . رغم وجود النص السابق على الصفحة الأولى من الميكروفلم .

والمخطوطة تقع فى أربع وثمانين (٨٤) ورقة وكل ورقة مكونة من وجه وظهر ، وكل وجه يحتوى على (١٠) أسطر ، وكل سطر يحتوى (١١) كلمة. وقد كتبت بخط النسخ الواضح الجميل وكتب على رأس كل عشر ورقات كلمة « جزء » ، ولذا نجد المخطوطة قسمت إلى تسعة أجزاء ، حيث يوجد على رأس الورقة (٨١) اسم « الجزء التاسع » ، ومن دراستنا للمخطوطة وأحداثها . وجدنا أن هذا التقسيم غير قائم على أساس ، فهو لم يقم على فواصل ، أو وقفات محددة فى سرد الأحداث ، والتفسير الصحيح لهذا التقسيم أن الناسخ كان ينسخ كل عشر ورقات فى كراسة ، ويطلق عليها « جزء » وهكذا دواليك .

ومن المؤكد أن النسخة المحفوظة بمكتبة سوهاج أقدم نسخة منقولة ومقابلة على النص الذى كان محفوظاً بخزانة أحمد بن زين العابدين بن محمد

= وبعد أن اعتمدت على مؤلف « كشف الكربة فى رفع الطلبة » فى دراستى عن « الريف المصرى فى القرن الثامن عشر » التى حصلت بها على درجة الدكتوراة فى التاريخ الحديث ، من جامعة عين شمس ، والتى قامت جامعة عين شمس بطبعها على نفقتها بناء على توصية لجنة المناقشة ، بعد ذلك رأيت تعميما للفائدة من مؤلف ابن أبى السرور البكرى ، العمل على التعريف به ونشره ، وشجعنى أستاذى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على هذا العمل الذى نقدمه اليوم للباحثين للانتفاع به .

البكرى ، حفيد المؤلف حيث نجد فى نهاية المخطوطة النص التالى « بلغ مقابلة وتصحيحاً بمزيد الاعتناء ، وتم ذلك يوم الخميس بعد العصر فى عاشر ربيع الآخر سنة ١٠٢٢ هـ ، فلله الحمد على ذلك » أى أن هذه النسخة كتبت بعد التأليف بخمس سنوات ، فلقد كتبها المؤلف سنة ١٠١٧ هـ — ١٦٠٩ م ، كما نص على ذلك فى وجه الورقة الثالثة من المخطوطة .

والمخطوطة بعد المقدمة التى أشار فيها المؤلف إلى السبب الذى دعاه إلى وضعه هذا المؤلَّف تعالج الموضوعات التالية :

١ — التعريف بالطلبة وماهيتها .

٢ — باشوات مصر من سنة ٩٩٠ هـ — ١٥٨٢ م إلى سنة ١٠٢٠ هـ — ١٦١١ م . وموقف كل منهم من الجند ومشكلة الطلبة .

٣ — ثورات جند السباهية ضد هؤلاء الباشوات .

٤ — من آخر ظهور ورقة (٦٦) يبدأ المؤلف فى ذكر الروايات والأشعار التى سجلها من أفواه الثقات من الناس ، عن الأحداث التى عالجها .

والمؤلف خلال كتابته لتاريخ هذه الأحداث ، يستطرد ، فى بعض المواضع لسرد بعض العظات والأحاديث والأمثلة التى تطابق ، واقع الحال ، لذا اضطررنا لحذف هذه الأجزاء من المخطوطة ، لخروجها عن الموضوع الرئيسى ، وليكتمل تسلسل حوادث الموضوع الذى تعالجه . وقد أشير إلى موضوع كل جزء محذوف فى موضعه .

وأسلوب المخطوطة متناسق وغير ركيك ، والمؤلف يسير فيه على طريقة التراجم فهو بعد المقدمة يذكر وصول الباشا ، وأهم صفاته والأحداث التى وقعت فى عصره ، كما سبقت الإشارة .

المؤلف :[1]

هو محمد بن زين العابدين بن محمد بن أبى الحسن بن أبى السرور البكرى، توفى باتفاق المصادر فى ليلة الجمعة (١٢ ربيع الأول ١٠٨٧ هـ / ٢٠ مايو ١٦٧٦ م)، عاش حياة علمية حافلة ، فقد اشتغل بعلوم الحديث والتفسير ، وعلوم القول ، وأصول التصوف ، والتاريخ ، واشتغل بالتدريس فى الجامع الأزهر ، وله مؤلفات عديدة . تعالج تاريخ مصر منذ بداية الحكم العثمانى وحتى الفترة التى عاصرها[2] ، ولما تقدمت به السن اعتزل التدريس فى الجامع الأزهر ،

---

(١) انظر بخصوص ترجمة محمد بن السرور البكرى المصادر التالية :

(أ) محمد توفيق البكرى ، بيت الصديق . القاهرة ١٩٠٥ ، ص ص ٧٣ — ٨١ .

(ب) محمد المحبى ، خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، دار صادر بيروت ، جـ٣ ، ص ص ٤٦٥ — ٤٦٨ .

(جـ) على مبارك « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، جـ ٣ ، طبع المطبعة الأميرية ١٣٠٥ ص ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(٢) مؤلفات محمد بن أبى السرور البكرى هى :

(أ) الكواكب السائرة فى أخبار مصر القاهرة ، صورة بمعهد المخطوطات العربية رقم ٤١٩ تاريخ .

(ب) اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية . دار الكتب ، تحت رقم (٨٠م) .

(جـ) المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، دار الكتب رقم ١٩٢٦ تاريخ .

(د) النزهة الزهيــة فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دار الكتب ، رقم ٢٢٦٦ تاريخ .

(هـ) الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة ، دار الكتب المصرية، رقم ٢٢٦١ تاريخ .

انظر بخصوص هذه المؤلفات : دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ص ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، دكتورة ليلى عبد اللطيف «ابن أبى السرور البكرى عصره ومؤلفاته » بحث منشور ضمن الكتاب التذكارى لسمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث ، طبع جامعة عين شمس ١٩٧٦ ، ص ص ٢٣٦ — ٢٥٤ .

واشتغل بالإفادة فى منزله ، وآلت إليه رئاسة البيت البكرى . وحج إلى بيت الله الحرام في عام ١٠٧١ هـ ١٦٦٠ . وكان مسموع الكلمة عند العامة والخاصة وشفاعته مقبولة عند الكبراء والوزراء .

أما من حيث وضعه المادى ، فقد كان محمد بن أبى السرور ثريا واسع الثراء . وكانت له بعض القرى كاقطاع خاص به ، وقد ذكر هذه الحقيقة فى معظم مؤلفاته فى معرض حديثه عن أعمال جند السباهية فى الريف ، حيث ذكر أنه ، وأهل قرية كانت تابعة له ، عانوا الكثير من أعمال هؤلاء الجند ، ولا غرابة فى ذلك فابن أبى السرور ، من أسرة لها مكانتها الدينية المرموقة فى المجتمع المصرى ، مما كان سببا فى ثراء هذه الأسرة ، ورخاء حالتها الاقتصادية ، ولا غرو فقد سجلت دفاتر الالتزام ، ووثائق المحكمة الشرعية. أسماء الكثير من أفراد هذه الأسرة كملتزمين . منذ بدأ تطبيق النظام فى مصر سنة ١٠٦٩ هـ ١٦٥٨ م[1] .

ونعلم من مؤلفات محمد بن أبى السرور أنه كان يعيش عيشة علية القوم، فقد ذكر الكثير من القصص التى تدل على ذلك . وذكر أن والده كان يمتلك بيتاً على بركة الرطل حيث كانت تقام بيوت الأثرياء ، وكبار موظفى الإدارة ، فى ذلك الوقت :

عاش محمد بن أبى السرور فترة بدأت فيها أمور الحكم العثمانى ، فى مصر تضطرب ، نتيجة لازدياد نفوذ الجند على نفوذ بعض الباشوات . وتعسف هؤلاء الجند مع الأهالى ، وقد رصد هذه الأحوال فى مؤلفاته ، ورغم مبالغته فى مؤلفاته الأخرى ، فإنه فى « كشف الكربة فى رفع الطلبة » كان صادقاً إلى درجة كبيرة فى تصويره لأعمال جند السباهية ، وقريباً من الواقع .

* * *

---

(١) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

ثالثاً: خاتمة وتقويم:

هذه لمحة موجزة عن الظروف والأحداث التى مر بهـــا تاريخ مصر وشعبها فى الربع الأخير من القرن السادس عشر . وبداية القرن السابع عشر، توضح بصورة موجزة كيف أصبح أهل البلاد يعانون من ظلم الجند ، ومن قسوة رجال الحكم العثمانى ، رصدها المؤلف فى مؤلفه هذا الذى ظل مجهولا حتى شاءت الأقدار له أن يرى النور ، وخير مانقدمه الآن النص الذى دوّنه المؤلف .

ففيه صورة واضحة لأحداث تاريخ مصر فى تلك الفترة وانعكاساتها على واقع المجتمع المصرى فى مختلف نواحيه الاقتصادية ، والاجتماعيـــة السياسية .

كتاب كشف الكربة فى رفع الطلبة

تأليف

الشيخ الكاتب الكامل العالم الفاضل الشيخ محمد البكرى

برسم خزانة

سيدنا ومولانا الشيخ الإمام

العالم العلامة والحبر الفهامة إمام المفسرين

خاتمة المحدثين مفيد الطالبين مربى المريدين مرشد السالكين

وحيد دهره وأوانه وفريد عصره وزمانه

سيدنا ومولانا شهاب الدنيا والدين الشيخ أحمد

ابن المرحوم الشيخ زين العابدين بن الأستاذ الشيخ محمد البكرى

الصديقى الشافعى فسح الله فى مدته

وطول حياته ونفع المسلمين ببركات

علومه آمين

البرلسى الرفاعى الشافعى فسح الله تعالى فى مدته

وضاعف فى أجره ومثوباته بحق محمد وآله وذريته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أقام قوام الشريعة الغرا بحمده ورفع طريق منار المحبة الزاهرا بمنده . وأباد أهل الجود والطغيان . وقطع دابر ذوى الذيغ والعصيان . الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة السلطان . الذين هم فى ذيغ الضلالة يعمهون . وزين لهم الشيطان أعمالهم . فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، أحمده على أن هدانا للدين القيم . ونشكره على إهانة البغاة الطغاة . ومن يهن الله فاله من مكرم . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . الحكم العدل . الذى يقتص من الظالم للمظلوم فى يوم الفصل . ونشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، عبده ورسوله وحبيبه وصفيه وخليله

ورقة (٣)

سيد ولد عدنان ، الذى قال من شق عصى هذه الأمة (وهو)[١] جمع فاقتلوه كاينا من كان . الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين وملاذاً للعايذين[٢] وجعله رسول الله وخاتم النبيين فأخبر ﷺ عن السر المصون . ونبأ بما كان وما يكون . من أول الزمان . وإلى يوم يبعثون . ونبأ بصدور الملاحم والفتن والحوادث والمحن . وما يقع طول السنين بين الخلفا والملوك والسلاطين . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا دعايم الإسلام . ورفعوها بالسيف والقلم حتى صارت كالأعلام . وسلم تسليما كثيراً . دايماً عزيزاً . وبعد فهذا

---

(١) أضفنا هذا الضمير ، ليستقيم سياق الكلام ، انظر كذلك وجه ورقة ٥٢ ، حيث أورد هذا الحديث ، وبه ضمير «هو» .

(٢) محو بعض الحروف .

تأليف منيف . ومختصر لطيف . اقتضى الوقت إبرازه على وفق المراد . ونهج الصحة والسداد . فيما وقع فى هذا العام . الذى هو عام سبعة عشر وألف من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام[1] من الجند الأشقيا اللئام . والأهوال العظام . والضرر العام .

ظهر ورقة (٣)

للخاص والعام . وقد لهج غالب الأذكيا بالديار المصرية ، بتنميق هذه القضية ، بمؤلفات نثرية وتواريخ شعرية[2] . فاتعبوا أنفسهم من غير فائد . ولم يبلغوا الغرض ولم يظهروا لبدايتهم عايدة . واقتضى الحال وضعه على هذا المنوال . وإن لم أكن من فرسان ذلك الميدان فإن الحق سبحانه وتعالى قد ألهم وأعان ، ولم أقصد بذلك إلا العظة والاعتبار . وانتشار تلك الأخبار والاطلاع على حوادث الدهر الدوار . واختلاف مطاوى الليل والنهار ، ومعرفة أحوال بنى النوع ، مما يوقظ الأذهان ويشحذ الأفكار ويزيد بصيرة أولى البصائر والاستبصار . مع ما أضفت إلى ذلك من النكت العجيبة ، والنوادر والاستطرادات الغريبة ، مما يقضى لمتأمله العجب . ويكتب على آماق

---

(١) ١٦٠٨/١٦٠٩م .

(٢) من الذين كتبوا عن هذه الحوادث :

— محمد البرلسى السعدى ، الذى عمل قاضياً شرعياً بالاسكندرية ودمياط ورشيد ، واسم مؤلفه « بلوغ الأرب برفع الطلب » ومخطوطة محمد البرلسى ، قريبة جداً ، بل إنها متشابهة فى أسلوبها مع مخطوطة محمد بن أبى السرور ، وسوف نعرض لها فى دراسة أخرى ، وللبرلسى السعدى قصيدة شعرية باسم القصيدة السعدنية . ألحقها بمخطوطة بن أبى السرور من ورقة ٨١ إلى وجه ورقة ٨٣ .

— كذلك قال بعض المعاصرين شعرا فى تأريخ حوادث هذه الفتنة مثل الشيخ عبد الواحد البرجى والشيخ عبد المنعم الماطى . ورقة ١٨ ، وبعض من لم يذكر اسمهم ورقة ١٥ وورقة ٢٤ ، وكذلك قال الشيخ على الملاح شعرا ، مؤرخاً لهذه الفتنة ، ظهر ورقة ٧٤ ، والشيخ عبد الله الدنوشرى ، ظهر ورقة ٧٦ .

الجفون بماء الذهب وسيمته كشف الكربة فى رفع الطلبة . وخدمت بذلك حضرة مولانا وسيدنا الوزير المعظم والدستور المكرم والمشير المفخم . حضرة مولانا محمد باشا يسر الله تعالى (له)[1] من الخيرات مايشا ، كافل المملكة الإسلامية . والأقطار الحجازية . الوارد ترجمته فى محله إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أسأل اتباع سلوك الحق والهام طريق الصدق . إنه ولى ذلك والقادر عليه . وفى الحقيقة فإن الكل منه وإليه . وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم(*) .

وقد كانت مصر قبل الآن قد اختل أمرها وضاقت معيشة أهلها وكثر شرها وخربت قراها وضعفت فلاحيها وانفصمت عراها ، وانقلبت أحوالها ، وخست أموالها ، ونقصت غلالها ، لما أراد الله تعالى لها فى القدم ، من نقلها من الوجود إلى العدم وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وجلاء الفلاحين ، وازدراء الشرع المبين ، وقد اتسع الخرق ، وزاد الحرق . وأصل ذلك كله قيام طايفة من الجند المكتوبين فى بلاد الأرياف مع كشّاف الأقاليم[2] . فأظهروا العناد وسعوا فى الأرض بالفساد .

---

(١) أضفت كلمة (له) لتوضيح سياق الكلام .

(*) حذفت من النص الجزء الذى يلى العلامة الموضوعة وحتى بداية الورقة ١٢ لخروجه عن طبيعة الموضوع ، حيث أن المؤلف يتحدث فيه عن مصر وطبيعتها وفضائلها وخيراتها ، على عادة مؤرخى ذلك الزمان عند الحديث عن أى بلد من البلدان .

(٢) المقصود بالجند المكتوبين فى بلاد الأرياف ، جند السباهية ، وهم جند ثلاث فرق من فرق الحامية العثمانية فى مصر (الجمليان — التفكجيان — الشراكسة) أنظر بخصوص هذه الفرق :

— أحمد شلبى بن عبدالغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات من ص١٩ — ٢١ .

— عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ص١٤٤ — ١٤٥ ، ٢٤٢ .

— عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، من ص ٥٤ — ٦١ .

ظهر ورقة (١٢)

وأحدثوا شيء سموه الطلبة[١] على الفلاحين والمزارعين، فى سائر الأقاليم، وعلى العمالين والبطالين، وصاروا يضاعفونها فى كل سنة من السنين، إلى أن زادت على أموال المقاطعات، بل عمت وطمت، ولم يقدر أحد على المرافعات، وذلك غير ما صدر منهم من الأمور الشنيعة، والأفعال المنكرة الفظيعة من الزنا واللواط جهاراً، وافتضاض الأبكار نهار، لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يأتمروا بأمر ولاتهم ولا يمتثلوه، وصار لهم أسمطة وأطعمة غالية المقدار، تحمل إلى خيامهم آناء الليل وأطراف النهار، وتهديد الكشاف بما فيه القتل إن قصروا عن ذلك، بل ويسلكون بهم أسوء المسالك، وصار المسلمون معهم فى أمر مريج. ليس لهم منه خلاص، بل أضحوا فى غاية التعويج، صار أرزل الجند وأقلهم مقلداً بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة والخيول المسومة والعدد المقومة، والمرد

ورقة (١٣)

الجميلة المزينة بأنواع الزينة المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول فى لهو وفرح لا يزول، وإن وجدوا أيضاً ولداً مقبول الصورة أخذوه من والده بالسيف، وقد حصل منهم غاية الحيف، مع الفسق بنساء الفلاحين، وافتضاض أبكار بنات المسلمين، بل وقتل بعضهم وسلب ما معه، وغير ذلك من القبايح المنكرة، والحوادث الشنيعة المبتكرة وذلك هو مفتاح (ما)[٣]

---

(١) الطلبة هى ضريبة أصبح جند السباهية يفرضونها على الفلاحين، كأجر لهم على طلبهم للفلاحين لمقار رجال الإدارة عرفت فيما بعد باسم «حق الطريق».

وقد غالى جند السباهية فى عدد مرات فرضها، كما غالوا فى قيمتها حيث كانوا يقدرونها حسب أهوائهم، وأصبحوا يأخذون من الكشاف أوراقاً تجيز لهم فرض هذه الضريبة الظالمة، كما كانت سبباً فى قيام هذه الفتنة التى تؤرخ لها هذه المخطوطة.

(٢) أضفت حرف (ما) لتوضيح سياق الأسلوب.

سنذكره فى هذه الوريقات ونسطره من الدواهى العظام، والأمور التى توجب المقت من الملك العلام ، وكان سبباً لوقوع الطابة وظهور تلك الكربة ، وذلك أن حضر مولانا أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام والعز والاحتشام، مولانا الوزير ابراهيم باشا بكاربكى[1] الديار المصرية فى سنة تسعين وتسعماية[2] بعد انفصال مولانا حسن باشا الخادم ، لما ورد إلى مصر وعمل تفتيشاً[3] عاماً على مولانا حسن باشا المشار إليه ، وأظهر

ظهر ورقة (١٣)

عليه خيانات عظيمة ، وكتب عليه حجج بذلك، أقبلت عليه العمال والملتزمين وهادوه وخدموه بأموال كثيرة ، فضبط ذلك ضبطاً جيداً ، وأضافه لبيت المال الشريف ، لعفته واستقامته ، ولكونه من حرم السلطنة الشريفة الخاص وهو ليس كغيره وصوم نفسه وعف وأضاف ما كان يأخذه البكاربكية لأنفسهم لجانب السلطنة الشريفة ، وسلك مسلكا حسناً مع غاية من التواضع ، وصار يسلك الأماكن التى لا ينبغى للحكام إتيانها من المنتزهات

---

(١) بكاربكى : لقب كان يطلق على « باشوات مصر » فى بداية الحكم العثمانى ومعناه أمير الأمراء .

(٢) ١٥٨٢ م ، يذكر المؤلف فى مؤلفه « النزهة الزهرية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » ص ٩٠ ، أن إبراهيم باشا ولى أمر مصر فى ١٤ ربيع الآخر ٩٩١ أى ٧ مارس ١٥٨٣م .

(٣) أصبح الباشوات العثمانيون المعزولين يخضعون منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر ، لعملية المحاسبة على يد الباشوات الذين يخلفونهم ، فكان الباشا المعزول ينتظر وصول الباشا الجديد ، الذى يقوم بدوره . بعقد الديوان فى المكان الذى ينزل فيه الباشا المعزول ، وكان الروزنامجى يقوم فى هذه الجلسة باظهار حساب الباشا ، وما بقى فى ذمته ، فإذا اتضح بقاء شىء عليه ، يقوم بتسديده ، ويترك التصرف فى أمره للباشا الجديد ، الذى كان يملك حق التخفيف عنه ، أو إعفائه من بعض دينه كما يتراءى له . انظر الدكتورة ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى؛ الباب الثانى .

والبساتين والذهاب إلى الأماكن البعيدة نحو دمياط ورشيد والصعيد ، وغير ذلك ، قاصداً بذلك التفحص عن أحوال الرعية ، والاطلاع على مايفعله الكشاف والحكام والملتزمين ، والتفرج والتنزه وصار فى كل حين يعطى الترقيات[1] والانعامات والصدقات الوافرة ، خصوصا فى القرافتين وفى مقام حضرة سيدنا الإمام الشافعى رضى الله عنه ويقــــرب القرابين وقل يوم جمعة إلا

ورقة (١٤)

ويرسل فيها الصدقات وكان ذلك دأبه إلى حين توجه إلى الديار الرومية ولما حان عوده إلى الديار الرومية ضبط ما كان أهدى إليه، وجعله مالامقرراً يحمل إلى الخزاين العامرة السلطانية، وأقام مقامه فى ذلك أمير الأمرا الكرام، كبير الكبراء الفخام ، حضرة مولانا سنان باشا الذى كان دفتردار فى زمانه وألزمه بذلك وجعله بكلربكيا بمصر ، وكتب ذلك عليه بحجة شرعية عند حضرة مولانا وسيدنا قاضى القضاة شيخ مشايخ الإسلام ، قاضى العساكر المنصورة، ومفتى السلطنة الشريفة بالديار الرومية، مولانا محمد أفندى بستان زاده ، دامت فضايله ، على حكم مايحمل الآن، وبعلوفات العسكر ، وقد كان تجمد عليه من علوفات العسكر، ستة أشهر فأكثر، وأخذ ما كان قبض، مال السنة الجديدة . وتوجه إلى الديار الرومية . ثم توجه حضرة ابراهيم باشا إلى الأبواب العالية وعين فخر الأمرا عمدة الكبرا

ظهر ورقة (١٤)

مولانا سنان باشا المشار إليه ألزمه بما كان أخذه من العمال والملتزمين ، وجعل الخزينة التى هى على حكمها الآن تحمل إلى الأبواب العالية الخنكارية

---

(١) الترقيات : المكافآت .

وأشهد عليه بذلك كما ذكرنا فضاق عليه الحال بسبب ذلك جداً، ثم عينت ايالة مصر المحروسة، لمولانا وسيدنا أمير الأمرا الكرام، كبير الكبرا الفخام، ذو القدر والاحترام، والعز والاحتشام، حضرة مولانا أويس باشا أعطاه الله تعالى من أنواع العزة والسعادة ماشا، فلما ورد إلى الديار المصرية في سنة خمس وتسعين وتسعماية[1] وجد أحوال الخزينة متضايقة جداً، فتواطأ مع بعض الأجناد على قطع علوفات[2] أرباب الدكاكين والحرف والمتسببين من الجند فركب عليه العسكر بسبب ذلك، وتطرقوا إلى قطع علوفات أولاد العرب، وحسن له بعض شياطين الأمرا قطع علوفات ثلاثة أيام كافة على سائر العساكر ففعل. ونعوذ بالله من ذلة العاقل. ولما آن أوان تقسيط البلاد عين جميع الأقاليم للقاضي

ورقة (١٥)

على بن القاق فكان يبيع الأقاليم بيعاً، ويضيف ما كان يأخذه من الخدم من الكشاف والملتزمين على الأقاليم السلطانية، ويطلب منهم أيضاً خدمة ثانية على حكم عادة الخدمة، فمن رضى بذلك ألبسه قفطاناً، وكتب له بذلك تذكرة ليأخذ على موجبها تقسيطاً، ولما أن تم الأمر على ذلك، وصار القاضي على ابن القاق يتصرف فى أقاليم مصر ويعطيها لمن أحب واختار، ولا يؤخذ تقسيط البلاد إلا على موجب تذكرته فتمايلت عليه جند مصر بهذا السبب، وتشامخ هو أيضاً وطلع أنفه للسما، وتعالى وصار أمر مولانا أويس باشا مع مع أمره كما قال بعضهم.

أمرك مردود إلى أمره　　　وأمره ليس له ردُّ

(١) ١٥٨٦/١٥٨٧م .. يذكر المؤلف فى مؤلفه « النزهة الزهية » ص ٩١ أن أويس باشا تولى حكم مصر فى جمادى الآخرة ٩٩٤ / مايو ١٥٨٦م .

(٢) علوفات أى مرتبات .

وقد صارت الكلمة منحصرة فيه وحده، ولما كان الأمر كذلك، صارت الكشاف يكتبون للجند أوراقاً تنافيع ، فصاروا يأخذونها شيئاً فشيئاً، إلى أن ترقى الأمر، فصار يكتب فى كل شهر طلبة ، ولم يزل يعظم أمرها إلى أن صار يكتب للناحية الواحدة ،

ظهر ورقة (١٥)

فى اليوم ثلاث طلب أو خمس فخربت البلاد لذلك — وتخلخلت وتسحب غالب الفلاحين وشرعوا فى أفعال قبيحة جداً ، ومن جملة ما فعلوه ،والأمر الذى اقترحوه(*). وهى الفعلة التى سارت بها الركبان، وتداولتها أيدى الرواة إلى منتهى الأزمان ، الفعلة المنكرة والواقعة القبيحة المشتهرة . مع حضرة مولانا المرحوم أويس باشا، وهو أنه فى ثانى شوال سنة ٩٩٧هـ، هجموا عليه فى الديوان الشريف بعدّهم وعديدهم وفعلوا معه حقارة عظيمة جداً بحيث أن أحدهم تعدى ودخل إلى محل حريمه وأخذ له ساعة فلكية لا قيمة لها[1] . وسيف غالى الثمن وقوس مثمن ، وأخذوا يرمون بالسهام ، وتعدوا وقطعوا ثلاث ختمات شريفة جراءة على الله تعالى بالسيوف، مع قتلهم فى ذلك اليوم ثلاثة أنفار من أتباعه، ثم لم يكفهم مافعلوه ، ومن قبيح أمرهم ابتدعوه ،حتى ركبوا وهجموا على بيت مولانا وسيدنا قاضى القضاة وشيخ مشايخ الإسلام. ملك العلما الأعلام

---

(١) أى أن قيمتها لا تقدر بثمن ، أنظر كذلك « النزهة الزهية » ص ٩٢ حيث يذكر « وأخذوا أنفس ما وجدوه من الأسباب ، ومن جملة ذلك ساعة عظيمة يعرف بها الأوقات وسيفاً محلى بالفصوص المثمنة وقوس لا قيمة له » .

(*) هكذا فى الأصل وصوابها « اقترفوه » أى ارتكبوه .

ورقة (١٦)

ملاذ الخاص والعــــام ، مولانا أحمد أفندى الأنصارى القاضى بمصر المحروسة يومئذ،وهو بشباك المقعد ينظر إليهم ولم يعرفه الخبر ،فتعدوا وقطعوا داخل حوشه،رأس شخص يدعى عثمان باش جاوش بلوك الكملية،فى يومهم ذلك ، وكانت له مصلحة هناك،ثم قبضوا على القاضى على بن القاق ملتزم الغربية المذكور وعلى القاضى شمس الدين بن زحلق ناظر الحرمين الشريفين بمصر فى يوم الأربعا رابع الشهر المذكور وسجنوهما بالعرقخانة ، وأصبحوا يوم الخميس خامسه طلعوا الطايفة إلى الديوان الشريف،وأحضروهما من العرقخانة وأنفذوا حكم الله تعالى فيهما ، بأن قطعت رءوسهما بالديوان الشريف ، وعلقتا بالجيزة بالسلطان حسن بالرميلة وقبضوا على حضرة مولانا محمد باشا ابن المرحوم أويس باشا . ووضعوه عند فخر الأمراء الكرام . عمدة الكبرا الفخام . الجناب العالى الأمير حسن بيك الشهير بسكران حسن ، رهينة إلى أن يعمل لهم ما يرومونه ونزلوا بكركبتهم إلى باب زويلة .

ظهر ورقة (١٦)

فرأوا شخصاً يدعى أحمد جاوش فأنفذوا حكم الله تعالى فيه قتلا ، وهرب الأمير الكبير أحمد العادلى ملتزم البحيرة أياماً، وتوارى الأمير مصطفى أمير الحاج الشريف تلك السنة . وطلبوا سفرت حسن المقاطعجى . وكذلك بن العادلى والقاضى بدر الدين السملاوى،وقفلت الحوانيت، ونهبوا بعض أسباب الناس . وأهانوا أولاد العرب إهانة شديدة،من أخذ خيولهم وما عليهم من اللباس الحسن،وكل من وَجَدَ ولدا مليحاً مع والده أخذه منه جبرا بالسيف ونادى مناديهم أن أولاد العرب لا يستخدمون مماليكا بيضاً ، وأن اليهود والنصارى لا يستخدمون عبيدا ولا جوارا،والكشف عليهم بعد ثلاثة أيام ولا يتزيون أولاد العرب بزى الأتراك،وصاروا يجتمعون طوايف طوايف

فيجلسون بحوانيت السكرية بباب زويلة ، وتذهب طايفة منهم إلى بيوت الأكابر من أهل المناصب من أولاد العرب وهم يرمون بالبندق ويصيحون صياحاً عظيما

ورقة (١٧)

ويدخلون على الكبير ، وهم على تلك الحال فيرتعب منهم ارتعاباً شديدا ، فيأخذون منه ما يقولوه، وإن لم يدفع لهم ذلك فما يفده إلا البطش بل والقتل، فيشترى الكبير نفسه بما يدفعه لهم، وممن دخلوا إليه على هذه الهيئة المرحوم القاضى زين العبادى كاتب المحاسبات الشريفة ، فارضوا خاطرهم بكل وجه ممكن المرة بعد الأخرى وهلم جرا ،وهرب الشيخ محي الدين الغزى الحنفى فإنهم قصدوا منزله فهرب منهم، كذلك جماعة أخر، ثم إنهم أيضاً فى يوم الأحد ثامن شوال طلبوا قاضى مصر مولانا ملا أحمد الأنصارى[١] المشار إليه، هو والأمير الدفتردار وقاضى مكة المشرفة يومئذ، وفخر الأماجد حاوى المقاصد والمحامد ، مولانا محمد جلبى يغلى زاده ، قايم مقام كاتب الديوان الأعلا ، وجميع العسكر أن يجتمعوا فى مدرسة مولانا السعيد الشهيد السلطان حسن بالرميلة طاب ثراه وكذلك فخر العلما عمدة الفضلا مفتى المسلمين ، أوحد المفسرين ، مولانا شمس الدين

ظهر ورقة (١٧)

محمد التى يرمق أفندى الحنفى الرومى فوعظهم وعظاً شديدا وحذرهم غضب الله تعالى وغضب رسوله وغضب ولى الأمر ، فأرسل حضرة مولانا أويس باشا بيوريلديا شريفا(*) ، لحضرة مولانا قاضى مصر، أن يفعل للجند

---

(١) تولى قضاء مصر فى أواسط جمادى الأولى ٩٩٦ / أبريل ١٥٨٧م .
انظر « النزهة الزهية » ص٩٣ .

(*) فى الأصل « بيوريلدى شريف » .

المذكورين جميع ما طلبوه ويخلصه من أيديهم وذلك بعد أن عاثوا وأفسدوا وضربوا بندقاً كثيرا ، وتمردا وافرا ، وبعد أن أشهروا أسلحتهم ، وطلعوا بالخيول إلى القلعة المنصورة ، والديوان الأعلى ،وأخربوا الرفوف ،ولما أن وعظهم مولانا محمد افندى المشار إليه كتب محمد جلبي حجة بين الفريقين بأشيا على حسب مرادهم،وما سلم الله تعالى أويس باشا من القتل إلا أجله ، وقد توفى بعد ذلك بالسكتة عند حضور أجله وفى هذه الواقعة يقول الشيخ العلامة عبد الواحدالبرجى :

قد أصبح العالم فى حصر ... فعجل اللهم بالنصر
فمصر قد أوبقها أصرُها ... ومن له صبر على الأصر

ورقة (١٨)

يا صاحبي الأمر مستعجل ... قف نبكى على مصر

وقال الشيخ عبدالمنعم الماطى موالا(*) مؤرخا :

نظام مصر العزيزة قد غدا مخروم
وصار فى أرضها القاطن بها محروم
وذل فيها العزيز الفاضل المكروم
لما بتاريخها جارت عليها الروم

٩٩٧ هـ
سنـــة
١٥٨٩ م

(*) فى الأصل موال .

وأعظم من ذلك كله وأشد اجتراء وتجبرا وعتوا واعتزازا ، قضية مولانا أمير الأمراء الكرام ، كبير الكبرا الفخام ، صاحب القدر والاحترام والعز والاحتشام ، المتمسك بلطف الملك الممجد حضرة مولانا السيد الشريف محمد باشا حافظ الديار المصرية . والأقطار الحجازية . أدام الله تعالى إقباله . وأفاض عليه نعمه وإجلاله . أنشا فتنة من الجند المذكورين كفى الله تعالى شرها وأذهب عزها وذلك أنه كان فى أواسط شهر الله رجب المرجب سنة ست وألف من الهجرة النبوية[1] ، اجتمع جماعة من العسكر من ساير الأقاليم ، وحضروا إلى مصر فوجدوا حضرة

ظهر ورقة (١٨)

مولانا الباشا المشار إلى حضرته فى الربيع ، قد كان متحفظا منهم ومعه طايفة من العرب كالأمير المكرم والكبير المفخم ، الأمير مقلد أمير اللواء الشريف السلطانى . وشيخ العرب عطا الله ، وفخر الفرسان الشجاع الشهير الأمير على بن الخبير، كل واحد منهم فى مخيم . وقد ركب الأمير دالى محمد فى جماعة كثيرة ، وكذلك كل واحد من أمرا الصناجق المحافظين بمصر فلما نزل من الربيع والأمرا المذكورين ، محفوفين بركابه الشريف، فنظروا إليهم ، وإذا هم كالجراد المنتشر فأخذ كل واحد من الروس فى الهرب فقصد الصـوة فقاصعوا عليه، واحتاطوا به، ورموا بندقا كثيرا، ونحوا عنه طايفة الينكجرية، هذا والطايفة يسبونه سبا بليغا ، وحاصروه مقدارا من النهار فقال لهم أيش مرادكم، فطلبوا منه الدالى محمد المذكور، وكان من أماثل العسكر الخاقانى، ومن أكابر الجاويشية، ومن أهل الكرم والجود ، وله خيرات وصدقات على الفقراء، وكان أقل صدقاته الربع القرش .

---

(١) فبراير ١٥٩٨م .

ورقة (١٩)

لا يتصدق بأقل منه وكان من أهل الشجاعة فى الفروسية ، وأكثر ما كان يحسن لظاهر الجند بالخيول والقفاطين والشلاوير وغير ذلك . والأمير محمد جلاد خصمى الصوباشى ، والأمير مقلد المشار إليه ، والأمير مراد بن السكرى المحتسب بمصر ، والأمير جعفر رافضى ، وداود أغا الصغير . وجماعة أخر ، ليقتلونهم فأجابهم إلى ذلك ، وقال أمهلونى ثلاثة أيام فزعق كل منهم شرع الله بيننا وبينك ، وطلبوا مولانا قاضى القضاة شيخ مشايخ الإسلام ، فحضر الموالى العظام عبد الرؤوف أفندى القاضى بمصر يومئذ ليحكم بينهم وبين مولانا الباشا ، بمدرسة المرحوم السلطان حسن طاب ، ثراه فأجابهم إلى ذلك فتوجه طايفة كثيرة منهم إلى جانب المدرسة ، وكان من الألطاف الخفيفة على ساير البرية ، أن الله سبحانه وتعالى أرسل ريحا عاصفا عجاجا ، وقد ثار العجاج من ساير الفجاج ، وأظلم الجوجدا ، فأرسل إليه كتخدا العزب أن ينجو بنفسه النفسية ويتقدم

ظهر ورقة (١٩)

ويدخل من باب العزب فهمز بفرسه ودخل الباب وأغلق بعد دخوله ، فعندما وصل إلى الحوش ، ونزل عن جراده ، وأراد التوجه إلى محله ، داس على ذيل قفطانه من الدهشة الشديدة . وقد جاءت بندقة ففاتت رأسه ، بدوسه على ذيله ، وسلم الله سبحانه وتعالى ، وقتلوا طايفة من خاص جماعته ، وسلبوا أثوابهم منهم ، حضر أمير الأمرا ، كبير الكبرا ، حسن باشا المدعو بالسكران ، بكلربكى الحبشة يومئذ ، وفخر الأمر الكرام عمدة الكبرا الفخام . بيرى بيك أمير الركب الشريف الحجازى ، ووعظاهم وزجراهم ، فلم يتعظوا ولم ينزجروا ، ثم ذهبوا بجمعيتهم قاصدين لمنزل الأمير محمد ، المدعو بدعوى توزى" فلما أن أوتوا عند طورق المدرسة الشيخونية بالصليبة فصادفوا فخر الأمرا الكرام ،

عمدة الكبرا الفخام ، الأمير محمد الشهير بآشحى محمد بيك فنصحوهم ووعظوهم فقالوا له وأنت الآخر من المطلوبين فقتلوه وقطعوا رأسه ، وختم الله له بالشهادة . ثم توجهوا إلى منزل الدالى محمد بقناطر السبـــاع وقد كان عنده طايفة

ورقة (٢٠)

من شجعان العسكر وأبطالهم وفرسانهم ، منهم الأمير ناصف الدالى والأمير محمد جلاد خصمى ومن شاكلهما وقد كانوا ربطوا على الفرار، من هذه الديار، إلى حين سكون هذه الفتنة ، وانطفاء نار هذه المحنة ، فبادروا إليهم وعاركوه وعاركهم مدة طويلة من نهار ، وقتل من الطايفتين نحوا من عشرة أنفس ، فلما كثروا عليه فرّ هارباً إلى داخل منزله ، وقفل الباب ، وجلس فى كوشك لطيف يشرف على مأذنة المدرسة البُردكية التى بها محكمة قناطر السباع، فصعد جماعة منهم إلى المأذنة المذكورة ، وضرب أحدهم بندقة محررة فجاءت البندقة فى رأسه نفذت إلى الجانب الآخر ، وجاوا وأطلقوا النار فى بابه ودخلوا المنزل وطلعوا إلى الكوشك، وهو مضروب بالبندقة فقطعوا رأسه وعلقوها بباب ذويلة . وقد نهبوا جميع ما بمنزله من الأسباب والبراق والتجملات والخيول الجيدة وكانوا نحو من مائة رأس خيل من الخيول

ظهر ورقة (٢٠)

الجياد المثمنة والسيوف الكمر والرخوت الكمر . مما يساوى جميعه تقريبا خمسون ألف ذهب بل أكثر وتركوه ملقى على الأرض ، وأما الجماعة الذين كانوا عنده ، فانهم رأوا أن البلا قد حلّ بهم وأن لا منجا لهم من ذلك إلا بالهرب، فتحوا باب البركة وتسحبوا منه وتركوا جثة الأمير محمد المذكور على حالها، ثم أنهم تعقبوا أولاد العرب المتزيين بزى الأوروام ولبسهم فكل

من وجد واحداً منهم على تلك الحـــالة قتله ، وقد قتلوا أنفساً عديدة منهم وقفلت محاكم مصر . واختفى مولانا قاضى القضاة ويسى أفندى قاضى الديوان الشريف، وما سلم من القتل إلا بأجله ، وهرب الأمير مقـلد وداود أغا وابن السكرى والمطلوبين كلهم . ومحمد السـو باشى بمصر ، وولوا كشافاً بالأقاليم باتفاقهم وسو باشى وتحـكموا فى مصر وأهلهـا و نُسى ذكر حافظ المملكة . وكل من وقع له ظلامة يقول الله ينصر العسكر، وخرجوا عن أمر السلطنة جدا فالأمر

ورقة (٢١)

الجزء الثالث

حضرة خضر باشا

إلى الله تعالى وذلك بقضائه وقدره وما شاء فعل . ولم يزالوا فى غيهم وضـلالهم القديم والجديد إلى أن ورد أمير الأمراء الكرام ،كبير الـكبرا الفخام ، ذو القدر والاحترام ، والعز والاحتشام، مولانا الوزير خضر باشا . بوّأه الله من العزة والعظمة مايشا . بايالة الديار المصرية . فلما كان فى يوم الأحد عشرى شهر رمضان المعظم قدره وحرمته سنة تسع وألف[١] طلع العسكر وقاضى مصر المحمية يومئذ ، إلى الديوان العالى. وهم على ما هم عليه من طلب الشر ،وقد طلبوا كتخدا حضرة مولانا الوزير الموحى إليه إلى حضرته، هو الأمير بهرام وبعض جماعة . وطلبوا من مولانا أفندى الموحى إليه النظر بينهم فى دعاوى يدعونها بسبب الشونة وبعض أمور احتجوا بها وكان الـكتخدا يومئذ عند حضرة مولانا صاحب السعادة فنزل

---

(١) ١٥ مارس ١٦١١م .

من باب الكيلار، وهو متوجه إلى أن وصل إلى نوبة خانة الجاووشية فهجموا عليه وقطعوه بالسيوف قطعاً وقتلوا أيضا حسين الترجمان والمعلم .

ظهر ورقة (٢١)

يوحنا البيلاوى(*) النصرانى المباشر، وكل ذلك بالديوان العالى وطافوا برأس الكتخدا، وعلقوها بباب زويلة، وتوجهوا إلى بولاق، وقتلوا بها بعض خزان الغلال وعاثوا وطغوا، ونهبوا أموالا وأولادا، والمرجع إلى الله سبحانه وتعالى وأعجب وأغرب(**) من ذلك وأبشع وأشنع التى هى الطامة الكبرى والصاخة العظمى والواقعة المدلهمة الظلما التى هى لم يسطر نظيرها فى كتاب ولا فى تاريخ من التواريخ الإسلامية وإلى الآن. وقعت فى زمن مولانا وسيدنا أمير الأمراء الكرام ، كبير الكبرا الفخام . صاحب القدر والاحترام والمجد

الوزير ابراهيم باشا

والاحتشام ، المحفوف بمزيد اللطف العميم ، مولانا الوزير حاج إبراهيم باشا بكاربكى الديار المصرية . كان تغمده الله بالرحمة والرضوان . المقطوع بعدلته فى الأنام . ملاذ الخاص والعام . وذلك أن حضرته الشريفة، وطلعته المنيفة توجه فى يوم الجمعة المباركة غاية شهر ربيع الثانى سنة ١٠١٣ (١) بنفسه النفيسة . إلى ناحية شبرا لقطع سد قناطر

ورقة (٢٢)

ابن المنجا فى موكب عظيم. وعزة وتعظيم. فى(***) القلعة الشريفة وإلى ساحل بولاق مصر. ونزل فى العقبة المعدة له، والمراكب المحفوفة به إلى ناحية شبرا

(*) فى النزهة الزهية « النبلاوى » ص ٦٥ .

(**) فى النص الأصلى والمغرب . وربما كان خطأ إملائياً ، وصوابه « وأغرب » كما كتبناه .

(١) ٢٤ سبتمبر ١٦٠٤م .

(***) هكذا فى الأصل . وربما يقصد «من» وهو الصواب .

المذكورة ، فنزل بدولاب حضرة مولانا الوزير الأعظم ، والدستور الأكرم ، والمشير الأفخم ، المحفوف بلطف رب العباد ، مولانا مراد باشا الوزير الأعظم يومئذ وإلى الآن ، عامله الله تعالى بجزيل الفضل والإحسان ، وبات به وقد توجه فى هذا اليوم المذكور جمع كثير من أشقيا العسكر المخذول وغيرهم من الجند إلى القرافة ، وتحالفوا فى مقامات الأوليا والصالحين ، على قتل الوزير إبراهيم . وأكدوا الإيمان وأنقوها وباتوا على ذلك . ثم فى صبيحة يوم السبت مستهل شهر جمادى الأولى من تلك السنة(١) توجهوا بقضهم وقضيضهم إلى ساحل بولاق لملاقاته وهم متسلحين بكامل أسلحتهم وأهبتهم الوافرة فاستمروا هناك إلى وقت أذان الظهر فبلغهم الخبر ، أن حضرة مولانا الوزير المشار إليه جالس بالدولاب المذكور

ظهر ورقة (٢٢)

هذا وهم على الحالة التى وصفناها إلى أن وصلوا إلى الدولاب . فبلغ خبرهم لحضرة مولانا الوزير نصره الله عليهم ، وأنهم فى غاية الكثرة وإشهار الأسلحة والشدة وطلب الشر ، فلم يشعر ، إلا وقد حضر إليه بعض أصحاب الألوية الشريفة وقال له يامولانا ، قم فى هذا الوقت ، فانزل فى العقبة قبل أن يتلاحق القوم ، واطلع إلى القلعة خفية وافعل بعد ذلك ما تريد ، فاغلظ على القايل ولم يلتفت إلى كلامه ، وقال ماقُدِّر سيكون . ولعمرى أنه كان رأياً مباركا ولكن لا يفيد الحذر مع القدر . ولله در القايل ... شعر :

إذا أراد الله أمراً بامره	وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصم أذنيه وأعمى قلبه	وسل منه عقله سل الشعر
حتى إذا نفذ فيه حكمه	رد عليه عقله ليعتبر
فلا تقل فيما مضى كيف مضى	فكل شيء بقضاء وقدر

---

(١) ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤ م .

واستمر جالساً فى مكانه بالقصر داخـــل الدولاب وعنده من أمراء الصناجق الأمير المكرم عثمان بك العثمانى

ورقة (٢٣)

الخالدى والأمير بايزيد باشا، والأمير محمد بن خسرو ، والأمير درويش محمد ابن مولانا قاضى القضاة عثمان افندى دوقه كين زاده، القاضى بمصر المحروسة كان ، وكان حاضراً فى ذلك المجلس أيضاً سيـــدنا ومولانا أقضى قضاة الإسلام ، أولى ولاة الأنام، فخر الموالى العظام ، قدوة الأهالى الفخام، مولانا مصطفى أفندى عزمى زادة، قاضى القضاة بالديار المصرية، دامت عليه نعم رب البرية ،والأمير الكبير والعلم الشهير الأمير مصطفى استقامت ناظر الأموال الديوانية بمصر المحمية . وبعض صناجق أخر، ومن الجاويشية والمتفرقة مالا يعد، فطلع إلى القصر المذكور من الجند الأسباهية خمسة عشر نفرا، والسيوف بأيديهم ووقفوا تجاهه والشر طالع من أعينهم يتطاير كتطاير الشرر فلما رآهم على هذه الحالة قال لهم ايش مرادكم يا عسكر الشيطان أنا ما أعطيتكم علوفاتكم وترقياتكم بزيادة ، فقالوا له أقصر نحن ما نريد إلا روحك فلما

ظهر ورقة (٢٣)

رآهم على الشدة والغلظة والشر الزايد وإنهم لا يريدون إلا البطش به وقتله تشهد وقام على أقدامه فضربه شخص منهم بالسيف على وجهه فسقط إلى الأرض وتراكمت عليه السيوف ، ثم أنهم قطعوا رأسه بعد أن شنعوا به ، فلما رأى الأمير محمد بن خسرو ذلك ، قام على أقدامه وقال حاس يا طايفة ، هذا ما هو مليح تقتلوا وزير السلطان ، فقالوا له أنت هنا يافاعل، ياثارك ، ثم ضربوه بالسيوف وقطعوا رأسه ، وألحقوه به ، وحصل لمولانا قاضى مصر ضربة على جبهته ، هذا والعسكر تحت القصر كالبحر الزاخر يموجون

موجا متلاطما ، يكاد يأكل بعضهم بعضا وإذا بالرأس أخرجوها لهم من الشباك ، فسكن الاضطراب والهيجان يسيرا . وقد نزلوا بالرأسين إلى أسفل، وأما الأمير عثمان فانه توارى ، وكذلك كل من كان بالمجلس من الأمراء ، وقتل أيضا من الينكجرية ثلاثة أنفار ، وأخذت الرأسين على رمحين طايفين بهما البلد

ورقة (٢٤)

وهم ينادون عليهما هذا جزاء من أفتن ، بين عسكر السلطان ، ثم أتوا بهما إلى باب زويلة ، وعلقوهما على سقيفتهما إلى ثانى يوم بعد طلوع الشمس فأخذا الراسين ، ودفنا رحمة الله تعالى عليهما ، وقال بعضهم مؤرخا :

قتلت عسكر المليك وزيرا	ضربته بالسيف ضربا شديدا
قطعت رأسه ومات فأرخ	للنعيم الوزير راح شهيدا[1]

ولبعضهم مؤرخا شعر : سنة

١٠١٣

مذ رأيت الباش ولى	وانقضى والناس نعيا
قيل هل مات بحق	قيل فى التاريخ بغتا

١٠١٣[2]

وأصبح أحوال الناس فى غاية التشويش والاضطراب لعدم من ينظر فى أمورهم وذكر أن الطايفة المذكورة، ذهبوا إلى فخر الأمراء عثمان بك، يسألونه أن يكون قايم مقام، فأبى وامتنع فأقاموا لانا شيخ الإسلام قاضى مصر ، قايم مقام ، وجعلوا الأمير ناصف سوباشى، ثم ألبس قاضى مصر شخصا قفطانا ليكون داوادارا ، فبينما هو مار بالخلعة تحت الغورية وإذا بطايفة

(١) قائل هذين البيتين الشيخ عبد الرحمن الملاح ، وقد ذكرهما المؤلف فى النزهة الزهية ، ص ١٠٣ ، مع تحريف بسيط فى البيت الثانى حيث ذكره على الوجه التالى :

قطعت رأسه وقد أرخوه   للنعيم الوزير راح شهيدا

(٢) ١٦٠٤ م .

ظهر ورقة (٢٤)

حضرة مولانا محمد باشـا الخادم

من الجند رواه كذلك ، فسحبوا عليه ، وضربه أحدهم بسيف هذل كتفه، وغير ذلك من الأمور العظام ، فنسأل الله تعالى العفو والعافية، وأن لا يسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، ولم يزل الأمر على ذلك، الى أن ورد مولانا أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام، مولانا محمد باشا الخادم الكرجي، بكلر بكي الديار المصرية ، فلما أن ورد إليها حضر إليها من الاعتاب السلطانية جا ينكيرباشي راس الجاينكرية ورئيسهم وبيده خط همايون، الذى هو بالسعادة مقرون . وأحكام شريفة لجميع الصناجق . ولجميع عساكر الديار المصرية ، بمنع الطلبة، والفحص عن أصلها، وعن سبب قتلة مولانا ابراهيم باشا الوزير ومن قتله فاجتمعوا كلهم فى قرة ميدان ،وحضر أيضا مولانا الشيخ العلامة العمدة محمد أفندى التى برمق . زيد فضله . فطلب حضرة مولانا محمد باشا الجواب من كبرايهم عن ذلك

ورقة (٢٥)

لكونهم هم المسئولون عنــه . وأجتمع جميع العساكر فى قرا ميدان كما تقدم فقال لهم ، أسألوا الامرا الصناجق، والأغوات، وأكابر الدولة، وبقية العسكر عن سبب ذلك فنزل الامر والأغاوات وطال بينهم القيل والقال وقالوا إن فيكم المفسدين ومن يجب إزالته. فان كنتم تريدون العفو عن ذنبكم فاتوا بالمفسد منكم، ليخرج من حقه، فاتفقوا بعد أن كتب أسماء جماعة منهم على ذلك . وقفل باب قرة ميدان الكبير ، ونزل بالمصحف الشريف مولانا محمد أفندى التى برمق والأمير المبجل على الهلالى كتخداء الجاويشية ،ووقفا على حافتى الباب، وخرج العسكر نفرا نفرا ، وكل من خرج حلّفوه على أنه

على كلمة واحدة، وأن يكون معاونا للدولة وأن يحضروا المطلوب من المفسد منهم، وأن لا يحصل منهم فساد لأحد من الرعايا، ولا يخرجوا عن أمر الملك ولا عن طاعته، ولا يتعرضوا لمجالس الشرع الشريف وتقدم

ظهر ورقة (٢٥)

لهم بذلك مجالس سابقة، لم نذكرها خوف الاطالة فصار يطمّنهم ويأخذ منهم إلى أن أخذ منهم جماعة كثيرة شيئا فشيئا بحسن تدبيره، ولو بقى بمصر ما بقى منهم واحدا . وكل من ظفر به منهم أرسله إلى المشبك ، ثم تمادوا على هذا الحال من تلك الزمان، وإلى هذا الأوان ولم ينتهوا عما نهوا عنه زجروا وحلفوا وتزايد أمرهم . وظهرت(*) قوتهم وغدرهم وبغوا وعتوا أكثر من الأول . وما قدر فى الأزل فهو واقع لا مانع منه ولادافع وقد قلت

مصر لك الله لقد أصبحت ... يبكى عليها بالدموع الغزار
عن حالها حالت وقد أصبح الـ ... حال بها فى شغل قلب احار
فلا رجاء لا ولا ماء منا ... كلا ولا جاربه يستجـار
ولا أمـير بأمر مشفق ... أعان عان ثم راج أجـار
ولا ولى يتـولى اذا ... كشف من الله لدفع الاصار
فمن لذى محنـة وشدة ... ذو غيرة أو منقذ من عثار
فالهجرة الهجرة من مصر لا ... مقام فيهـا والفرار الفرار
ليس لها كاشفـة دونه ... برحمة تدرك ذو الاختيار

ورقة (٢٦)

فالغوث أنت الغوث منك الرجا ... أنت ملاذى أنت والمستجار
وصل يارب على المصطفى ... وآله والصحب آل الوقار

ولما أن تم الأمر على هذا الحال . من تقلب الأحوال . وكثرة الأهوال

(*) فى الأصل وظهر، ونعتقد أنه خطأ من الناسخ وصحة اللفظ « وظهرت » كما كتبناه .

وركوب الاخطار . وعدم البصيرة والاستبصار ، وكل من ورد بعد ذلك من البكلاربكية إلى ديار مصر المحمية . لا ينبغى له إلا أخذ هذه الطايفة بالملاطفة اذ لا تعمل فيهم كثرة المجانفة ، لما ألفوه من المخالفة وقد وقع بسبب ذلك عامة الرعايا فى المهالك.وأنتشرت هذه البلية الطامة والرزية العامة والأخبار الموحشة، والبلايا المدهشة ،إلى حضرات السلطنة الشريفة والسدة الخاقانيه المنيفة سلطان سلاطين الزمان وخاقان خواقين العصر والأوان ، وخليفة الله الأعظم فى أفراد بنى نوع الانسان، ثالث العمرين صرامة وحزما من ملوك ال عثمان ، ظل الله الممدود على كافة أهل الايمان . وسيفه المسلول بيد القهر على أهل البغى والعدوان .

ظهر ورقة (٢٦)

قاتل الكفرة والمبتدعة والخوارج وسائر حزب الشيطان القايم بفرض الجهاد لاعلاء كلمة الله تعالى ،واذلال أهل العصيان . لم تكتحل عين الزمان بمن يوازنه أو يوازيه ،ولا تنظر أحداق النجوم مع كثرة دورانها حول السما والأرض من يساميه أو يساهيه . صاحب الأمامة العظمى، والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر . مرغم أنوف الفراعنة كاسر تيجان الأكاسرة،قاصر قصور القياصرة. هازم جنود البغاة وجيوشها. هادم حصون الطغاة،فهى خاوية على عروشها اسكندر الزمان الذى نصر محمدا صلى الله عليه وسلم فى هذا الأوان وا كبت له[1] عدا واذل من أستطال وأستعز بجهله على شريعته قاعدا . وصار الاسلام والمسلمين بجهاد الكفرة والملاعين وازالتهم فى حصن حصين ومكان مكين وازال الجور عن الأمة ، وردعهم كيد الكايدين سلطان الحرمين المحترمين، حامى القبلتين ملك البرين والبحرين والعرب .

---

(١) بياض فى الأصل .

ورقة (٢٧)

والعجم والروم واليمن . والترك والعراقين ، والشرق ، والغرب ، والحبشة ، والهند والخافقين . ملك جهان، ناشر علم العلم والإحسان ، جامع ذيول الأقطار ، فاتح البلاد والقلاع ، مبيد الطغاة والبغاة والمدافع والقلاع، المؤيد من السما، المنتصر على العدا. مدبر البلاد بالعدل والإيمان . ناصر الشريعة المحمدية بالفضل والأمان. السلطان الأعظم . والليث الغشمشم. والبحر القطمطم. ذى الجيش العرمرم واسطة عقد ملوك آل عثمان ، ذى الفضل والإحسان. المحفوف بأصناف الطاف عناية الملك الصمد ، حضرة مولانا السلطان المعظم المبجل، أحمد بن مولانا السلطان الأعظم الأمجد الأفخم، محمد خان بن المرحوم مراد خان بن عثمان ، شعر :

ملك إذا ضـــاق الزمان بأهله	بخلا توسع فى المـكارم وانفسح
يكسو السحايب إذا تجارى كفه	فالغيث من جنباتها عرق رشح
ويكلّف الأسد الهصور بِمَدّ لِه	فى القفر أن يرعى الغزال إذا سنح

ظهر ورقة (٢٧)

خلد الله تعالى ملـكه ، وأعز أنصاره ، وضاعف عظمته واقتداره ، وختم بكل خير وسعد أعماله ، وقرن بالنجح والسلامة آماله . وأجرى أحكام سلطنته فى أكناف أطراف الربع المسكون، ماتعاقبت الأعوام والسنون. وجعل الملك كلمة باقية فيه وفى عقبه إلى يوم القيامة . ومنحه فى الدنيا والآخرة مايليق بعظمته وجلاله . من أنواع العزة والـكرامة . شعر :

وهـــذا دعاء لايردُّ لأنه	يزان به كل الورى والممالك
تراه بلا شك أجيب لأنه	إذا ما دعونا أمنته الملايك

أنعم بايالة مصر المحمية من الوزارة العلية . لحضرة مولانا وسيدنا الوزير المعظم ، والمشير المفخم ، والدستور المكرم ، مهد أموراً لجمهور الأمم منصف المظلوم ممن ظلم نظام العالم ، رافع آثار الجور والفتن ، وقالع مآثر الظلم والإحن ، وجواد لم يمحق الهلال إلا ليكون نعلا لحافر جواده . ولامدت الثريا أكفها الخضيب ، إلا للتمسك بذيل كرمه وإمداده

ورقة (٢٨)

ولاسل الصبح سيفه ، إلاقال الله أكبر على أعاديه ، ولا احمرت الشفق من الخافقين إلاحرمة لحرمة خافق لوايه . ولاأمطرت السحب إلا بكاء من خشية جلاله ، ولااستقرت البروق إلاخجلا من لمعان سيوفه ونصاله . ولاتحلت الخناصر بالخواتم إلالأنها تعقد عليه ، ولا كحلت العيون السود بسوادالنور الباصر ، إلالتستشرق النظر بالنظر إليه ، ولاتفتحت الدوى أفواهها ، إلالتنطق بمدحه السنة الأقلام ، ولاحبر الحبر بياض الطروس بسواد السطور إلاليشير أن الليالى والأيام من جملة الخدام . ليث عرين الوطيس بأساً وجاشاً . مولانا الوزير المعظم . الوزير محمد باشا كافل المملكة الإسلامية بالديار المصرية وتلك الأقطار الحجازية والآثار النبوية . أنعش الله تعالى به بساط البسيطة انتعاشاً . ولازال عمود خيام هذا الدين القويم بمصر المحروسة بعدالته المأنوسة قايما وكلما نوت أعداه فعلا مضارعاً كان سيفه جازماً ، وهو الذى

ذكر الوزير سلحدار محمد باشا وهو معظم الكتاب

قمع

ظهر (٢٨)

الأعدا من أوباش الطايفة المخذولة . وأخذهم بالنواصى . وبدد شمل البغاة العصاة ، وفرقهم إلى الأقاصى . وهو الذى من حل فى فنايه ، أمن من عوارض

الفنا ، ومن استجار بحماه . خلص من بوايق الردا والبلا ، ومن استظل بظل رأفته ، وجده الظل الظليل ، ومن التجأ بمقيل حماه ، وجده أحسن مقيل ، وهو الذى من قصد بابه ماخاب ، ومن لزم جنابه الشريف عاش وطاب . وهو الذى دأبه إغاثة الملهوف، وإسدا المعروف ، وهو الذى اصطفاه الله ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، وهو الذى منحه الله تعالى من المكرمات أوفى قسم وقلت :

ولو أن أشجار البلاد خلقن فى ... أقلام خط والمداد الأبحــــرا
وأردت حصر فضايل جمعت له ... دون البرية كنت فيه مقصراً

اللهم أدم عبدك هذا الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك ، سيفك القاطع وغضبك اللامع . بيت :

صل عنه وانطق به وانظر إليه تجده ... ملء المسامع والأفواه والمقـــل

ورقة (٢٩)

اللهم أشكر عن العالم سعيه ، وأنفذ فى أقطار البلاد المصرية أمره ونهيه . وأصلح اللهم له أواسطها وأطرافها وأرجايها وأكنافها . ويسر أمره . واشرح صدره . وارزقه الوفاة على الإيمان ، بجاه محمد سيد ولد عدنان . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى منتهى الدوران . ثم إن حضرة مولانا الخنكار الأعظم . أوصاه بأهل مصر والحنو عليهم ، ونشر العدل فيهم ، ومعاملتهم بالعدل والإنصاف ، ورفع الظلم والجور والاعتساف . وكان من أعظم الوصية الأكيدة على ماذكر ، إبطال الطلبة ورفعها بالكلية ، وكل من خالف وعاند وكابر وكابد وكايد قتل شر قتلة ، واستبيح ماله بلامهلة . وهو مصغ لكل مايقول ، يمتثل لجميع ماخوطب به من الأوامر الخنكارية . بغاية

القبول وأعطاه خط همايون الذى هو بالسعادة مقرون . فلما قضى من القسطنطينية المحمية الأرب ، وجدّ فى الاجتهاد إلى الديار المصرية

ظهر ورقة (٢٩)

الطلب . نزل فى السفن التى هى فى البحر كالأعلام . قاصداً ثغر الاسكندرية ثم منها إلى الديار المصرية ، سايرا بسلامة الله تعالى فى ذلك البحر الفسيح تارة بالكورك وتارة بالريح . فبعد يسير من المسير لاح له الثغر المذكور وقد ازداد رفعة وسروراً خضعت الأعناق وتطاولت الأحداق . لذلك المرأى المدهش . وانتعشت النفوس بذلك المنظر الشريف المنعش ، فأى صدر ماشرح عند رؤيته، وأى قدر ماتضاءل عنده مشاهدة عزه وعظمته ، وأى بدر ماغاب . وأى شمس ماتوارى ضياؤها فى الحجاب ، وقد تلقاه بالاستقبال فى الديار المصرية أكابرها وأعيانهـا . ومن القاهرة المعزية وأمراؤها وأركانها وفضلاء دولته وعظماؤها وهنؤه بالسلامة وقد حفت به الكرامة قلت :

ياوزير بك تهنى فيك نال المحب ما قد تمنى
فرح الدهر والورى بك حتى صفق النهر والحمـام تغنى
هـذه الدولة التى كل عطف حين يملى ثنـاؤها تنثنى

ورقة (٣٠)

هى لمـا درت بأنك تجـلى فى حلاها زادت بهاءاً وحسناً

وقلت أيضاً :

ياوزير البر يامنقـذ الأمم وأسعد وابشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك هذا المصر ملتئما وهـل بعدلك مصر غير ملتئم
يافاعل الخير طبعاً منه تكرمه ومولى العرف فى مصر بلاميم

قد أصبحت بك مصر بعد غربتها ... مأهـــولة بـكم فى غاية النعم
مكفولة منكم أبدا بخير أب ... وخـــير بعل فلم تيتم ولم تيم
فالنيل من بعد غدر قد وفا وغدا ... جار كبحر نـوال منك ملتطم
بالشكر كل لسانى ناطق أبدا ... محمدى الخلق محمـــود بكل فم

هذا وقد استبشر جميع أهل الثغر بطلعته ويمن غرته . فنصب سرادقه الشريف العالى . ورواقه المنيف السامى المتعالى . بفيحاء الجزيرة الخضرا المنصورة الزهرا . المحفوفة بالأوليا والصالحين والشهدا من صحابة أشرف المرسلين خارج الثغر المذكور باليمن والحبور . وقد حفت به جنود النصر والاقبال وأحدقت باطناب مخيمه الشريف الكماة والأبطال . وتطأطأت قلتم تراب

ظهر ورقه (٣٠)

اطنابه ، جباه الإقبال . وحصل من حضرته إنعام عام ، فى ذلك المقام وزاد كل واحد من العسكر فوق مايليق من الترقى من عثمانى فأزيد ، ولم يحرم أحد من الأنعام ونالوا جميعا غاية المرام . هذا وهمته الشريفة للنظر فى أحوال الرعايا والأمم وإنصاف المظلوم ممن ظـلم ، وذلك أن شخصا شكى إليه أن نفرين من الجند أتوه فى طلبة بناحية إدكو[1] وأخذ جمـــله فيها ، فأمر باحضارهما . فذهب جاويش ليحضرهما فوجدهما تركا الجمـل وهربا فسلمه لصاحبه . وكان يومئذ قاضى الثغر المـذكور . مولانا وسيدنا أقضى قضاة المسلمين ووالى ولاة الموحدين . معدن الفضل والجود واليقين ، حاوى كمالات المتقدمين والمتأخرين . خادم شريعة سـيد المرسلين مولانا حسن أفندى ابن مولانا قاضى القضاة . فخـر الولاة . تقى الدين أفندى التميمى الدارى الحنفى طاب ثراه ، وأدام مولانا ولده المشار إليه ، فواجه مولانا الوزير وقابله ، وحصل له منه غاية الالتفات والإقبال وباسطه وحادثه

(١) ويقال «إتكو» بالتاء . هكذا كتب على هامش النص .

ورقة (٣١)

وعطف عليه . ومال بكليته إليه — وسأله عن أمور بالثغر. توجب السؤال، فردها بالطف إشارة وأظرف عبارة . ثم بعد فراغه من الحديث عن القديم والحديث . توجه من يومه ذلك هو مولانا حسن أفندى التميمى المشار إليه، وهو يسايره إلى زيارة مقام حضرة مولانا وسيدنا الشيخ الأكبر، والكبريت الأحمر ، القطب الربانى ، والعارف الصمدانى ، مربى المرتدين ، وقدوة الناسكين ، وامام المسلكين ، ذو الأنفاس الطاهرة ، والكرامات الظاهرة ، والأسرار الباهرة ، والمكاشفات الفاخرة ،الأستاذ الأعظم ، والولى الأقدم قطب الأقطاب. وسيد الأنجاب ، مولانا الشيخ أبو العباس المرسى . نفع الله تعالى المسلمين ببركاته ، وعاطر أنفاسه ، واستيناسه ، بخلواته وجلواته ، وتبرك بالمقام الشريف ، وحصل له بذلك غاية التشريف ، وتنفل ببعض ركعات ، وقرأ بعض آيات ، ورزق وفاز بالثواب العظيم ، والأجر المقيم ودعا لحضرة مولانا الخنكار الأعظم

الشيخ أبو العباس المرسى

ظهر ورقة (٣١)

بالنصر والتأييد ، والعز والشرف المزيد ، كل ذلك وهو بغاية الخضوع ، والخشوع ، والتواضع . والسجود والركوع ، وأعطى ووهب ، وقرب وتقرب ، وفرق شيئا كثيراً ، وأعطى غنيا وفقيرا ، وأغدق على أهل المقام الشريف ومجاوريه ، وحصل منه غاية الأنعام ، وضحى بكثير من الأنعام ثم منه وإلى زيارة مقام فخر الأوليا ، وعروس الاصفيا الذى كان يسمع أصوات آذان ديوك العرش فى كل مساء وصباح ، ويجيبهم بحى على الفلاح ذو الرتب العلية ، والكرامات السنية ، والمواهب الربانية ، أبو الروح ، سيدى ياقوت العرشى ، تلميذ مولانا الشيخ أبو العباس المرسى ، وهو فى

غاية ما يكون من الخضوع والسكون، وفعل من الأنعامات كفعله المتقدم . المغنى(*) والفقير والمعدم . ثم سار منه إلى زيارة مقام العلم الكبير ، والولى الشهير، ذو الفضل الأثير ، والكرامات التى ليس لها نظير ، الصالح

ورقة (٣٢)

أبو الحسن الشاذلى

الأوحد، الفرد البارع الأمجد . شيخ مشايخ الطايفة الشاذلية، بثغر الاسكندرية ومصر المحمية سيدى أبو الحسن الشاذلى، نفع الله المسلمين ببركاته الباهرة ، وأسراره الطاهرة ،ووهب وأعطى ، وفرق شيئا كثيرا على عادته ، ثم منه إلى زيارة مقام سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى ، سيــــدى أبو الفتح الواسطى ، ثم منه إلى مقام الشيخ الأعظم،والولى الأفخم ، الذى خضعت له الأســـود والوعول والفهود فى الأقاليم السبع ، سيدى نجم الدين السبع ، ثم منهَ إلى زيارة صاحب الإشارات والمعانى سيدى عبد الله اليمانى ، كل ذلك ومولانا حسن أفندى ، يساريه فى ركابه الشريف فى الذهاب والإياب، وقد حصل لهم بذلك جزيل الأجر ومزيد الثواب، وبما أنعم على الفقراء والمجاورين بالمقامات الشريفة والحضّار والغيّاب قد حصل لهم الانتعاش والارتفاق وملأوا بالدعاء

أبو الفتح الواسطى

ظهر ورقة (٣٢)

له رحاب الأرض ، وآفاق الأفاق . ثم توجه فى يومه ذلك بعد انقضا الزيارة قاصد الكشف على الحصار[1] الكبير الأشرفى . إنشاء إمام المسلمين

(*) هكذا فى الأصل وربما كانت صحتها « الغنى » .

(١) الحصار = الحصن .

وقامع الكفرة والمتمردين . المالك الملك السعيد الشهيد ، السلطان قايتباى المحمودى(*) ، المقطوع بولايته وعدله ، سقى الله ثراه من سجال فضله ، وكشف بنفسه النفيسة على الحصار المذكور كشفا شافيا وتأمله تأملا وافيا . فوجد به خللا فى بنايه فبرز ، أمره الشريف بترميمه وعمارته أتقن عمارة ، وأمنعها وأحصنها وأنفعها ثم صعد منه إلى المسجد المبارك بأعلى الحصار المذكور المستجاب فيه الدعا فزاره وتبرك به وجلس هناك وقرأ وتهجد وركع وسجد وسأل الله تعالى الدعا ، وأرجو أن دعاءه الشريف لا يخيب ، فان الله سبحانه وتعالى ، قريب مجيب ، ثم أنعم على من بالحصار من الجند القاطنين به ، ونظر إليهم ، وأكرمهم ، وكذلك لأرباب شعاير

ورقة (٣٣)

المسجد ، من الفقراء وغيرهم . وقرب قربات كثيرة ، وأنعم إنعامات أثيرة غزيرة . وعمر الحصار بعد ذلك عمارة جيدة حسنة مانعة ، فى غاية الإتقان والأحكام على وجه المكنة والإتمام(**)

ثم إن مولانا الوزير نصره الله تعالى ، رجع من الحصار المذكور ، إلى زيارة مقام مولانا وسيدنا الولى الشهير ، والعلم الخطير ، من عمت بركاته أهل الغرب والشرق ، سيدنا عبد الله البرق ، وحصل له بزيارته غاية البركة والأجور والحظ والسرور ، وفرق وأغدق وأنعم وتصدق ، ثم بعد انقضاء زيارة تلك المشاهد العظام والمقامات الشريفة الجسام . وقد فاز بالأجور والحبور ، عمد إلى سرادقه الشريف ، ومخيمه المنيف ، وهو بغاية التعظيم والتشريف ، هذا ، وفى أثناء ذلك النهار ، لم يستقر له قرار إلى أن توجه ومولانا حسن أفندى فى ركابه الشريف

(*) من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة تولى السلطنة فى الفترة من ١٤٦٨ حتى ١٤٩٦ م .

(**) حذفنا هنا بقية وجه هذه الورقة ٣٣ وحتى بداية ظهرها لخروجه عن الموضوع.

ورقـة (٣٤)

كعادته ، يسايره ويسامره ، وهو فى غاية ما يكون ، من الرفعة والعظمة والعز الشامخ والهيبة التى ملأت الآفاق ، والمجد الباذخ ، إلى زيارة مولانا وسيدنا وخلاصة الأوليا بلا نزاع ، وسلطان الأصفيا بلا دفاع ، الزاهد الورع الأوّاب، الساجد المتهجد التوّاب، ذو الأنفاس الطاهرة دو الكرامات الباهرة ، والفضايل المتكاثرة ، صاحب الولاية على الاطلاق ، ولى الله تعالى، والعارف به ، الشيخ عبد الرازق ، وزار المقام الشريف ، وصلى وابتهل وتوســـل إلى الله سبحانه وتعالى ، وسأل وقرأ وتهجد . وركع وسجد ، وحصل له غاية الثواب والأجور ، بزيارة هـذا الولى المشهور ، وضحى وأغدق ووهب وتصدق ، وأحسن إلى جميع المترددين إلى ذلك المقام ، من الزوار والقراء والمنشدين ، وإلى جماعة الوعاظ والصوفية ، وطلب منهم الدعا باخلاص نية ، ثم توجه منه إلى زيارة الباب الأخضر الذى هو لإجابة الدعا مجرّب مشتهر . ثم إلى الجامع الأخضر الكبير الذى يتبرك

ظهر ورقة (٣٤)

به الصغير والكبير ، وصلى وتهجد . وركع وسجد ، وحصل له بزيارة من بتلك الحومة من الضحايا والشهدا والصلحا والنجبا ، ثواب جزيل ، وأجر عظيم ، ودعى وسأل الله تعالى إجابة ما فى ضميره ، وأن يوفقه فى إقامته ومسيره ، وطلب منه مزيد البركات ، والعنايات بخالص النيات

ومشى بعض خطوات إلى المسجد المبارك العمرى ، داخل الجامع الأخضر المذكور الذى أنشأه مولانا وسيدنا الصحابى الكبير ، والعلم الخطير ، والشجاع الشهير ، فاتح الديار المصرية ، وأميرها فى الخلافة العمرية ، بعناية رب البرية ، السيد عمرو بن العاص الأموى ، رضى الله تعالى عنه وأرضاه ، وانفرد بنفسه النفيسة فيه ، وشكر الله تعالى وحده ، وعرف نعمة الله عليه ، وهو من المتواتر عنه أن الدعا عنده مستجاب هذا ومولانا الوزير المشار إلى

حضرته العلية ، مواصل الاحسان والانعام ، فى مقامات الأوليا ، وفقرا الاسكندرية بكرة وعشية مع رفع ظلامات كثيرة، ودفع محدثات كالشمس ظهيرة ، ماسكا عصا الشرع

ورقة (٣٥)

الشريف بكلتا يديه ، جاعلا الشريعة المطهرة ، نصب عينيه ، ثم أنه تمالح هناك ، بقتل الأمير برويز كاشف إقليم المنوفية ، لشدة ظلمه وجوره ، وشكاية الرعايا فيه ، ومزيد عتوه وفجرره ، ثم توجه فى طالع سعيد ، ووقت مبارك حميد رشيد ، إلى محروسة رشيد ، وهو بالأهبة الكاملة والسعادة الشاملة ، ثم فى مسير على مقام مولانا وسيدنا الصحابى الأكبر ، والعلم الأشهر ، العالم الكامل العابد ، الراكع الساجد ، الصايم القايم الزاهد ، ذو المناقب الكثيرة ، والبركات الأثيرة ، والكرامات الشهيرة، الواثق بالملك البارى ، سيدى جابر الأنصارى ، نفع الله تعالى ببركاته الطاهرة ، وأسراره البـــاهرة فى الدنيا والآخرة ومقامه الشريف ، خارج الثغر السكندرى من باب رشيد المعمور ، فعطف مولانا الوزير المشار إليه ، وقصد زيارة مقامه الشريف بقلبه وقالبه ، وتوجه بغاية الخضوع والاستكانة والخشوع وإجراء الدموع . وأخذ

ظهر ورقة (٣٥)

فى القراءة والصلاة والابتهال ، والدعا لله الملك المتعال ، وأجرى عليه من الأنعام أثر باق على ممر الليالى والأيام، فرأى فيه بعض خلل فى عمارته، وتضايق المقام ، فأمر لمتوليه والناظر عليه يوميذ ، هو فخر الأماجد والأعيان الأمير محمد بن بلال ، من أماثل الأمراء المتفرقة بالديار المصرية، زيد مجده ، بعمارته وتوسعته وإتقانه وإصلاحه وتبييضه ، فامتثل ذلك ، ووسع المقام الشريف توسعة مشرقة نيرة جيدة فى غاية الإمكان ، ونهاية الإتقان ، وأنعم مولانا الوزير على من بالمقام الشريف ، من المجاورين والمترددين إنعاماً غزيراً ،

وذبح لهم من الأضاحى كثيرا ، وأرصد على المقام المنيف بعد ذلك ملاحة مستجدة استجدت خارج الثغر السكندرى ، بعرض من مولانا قاضى القضاة حسن افندى المشار إليه ، وكتب بذلك مكتوباً عجيباً بخطه وافق هذه الرسالة المباركة ، وإمضاً مولانا حسن أفندى دام فضله ، غلتها فى كل سنة ألفى نصف يصرف من ريعها على سماط يعمل فى كل ليلة

ورقة (٣٦)

جمعة واثنين على الدوام والاستمرار ، برسم الفقرا والمقربين والمنشدين ، وأحيا تلك الليلتين بالقرآن والذكر والإنشاد ، وصار ذلك أثراً باقياً فى صفحات الزمان ، مكتوباً فى صحايف مولانا الوزير المعظم ، محمد باشا الذى كان فى ذلك ، أجلسه الله تعالى على الارايك ، وسلك به أشرف المسالك ، وجنبه الردى ، ونجاه من المهالك ، بالنبى والملايك آمين(*) ، ثم إن حضرة الوزير نصره الله تعالى ، لم يزل بجد السير ، إلى أن وصل بسلامة الله تعالى إلى الثغر الرشيدى المحروس ، وهو على ما هو عليه من العظمة والجلالة فنظر فى أحوال أهالى الثغر ثم توجه إلى الحصار الذى هناك بنفسه النفيسة ، فوجده فى غاية العمار والاتقان[1] والأسلحة الكاملة والعدة الوافرة الشاملة ، وحصل بذلك الحظ المعظم والبسط الزايد ، وأنعم على من بالحصار من العسكر والمرابطين ، وأرباب الشعاير بالزاوية التى به ، والمقيمين ، ولما شكت بعض الرعايا من شخص من الجند كان هناك يدعى ، ترك محمد ، من طبعه

ورقة (٣٧)

ايذا الناس والتمرد والعناد[2] ، شديد الباس صعب المراس لا يسمع كلام

ذفنا بقية وجه هـــذه الورقة وظهرها وحتى بداية الورقة ٣٧ لخروجه عن

الأصل «والاتفاق» ، والصواب «والإتقان» كما كتبناه .

الأصل « والعناء » والصواب «والعناد» كما كتبناه .

مشير ولا يعي بكبير ولا صغير ، فأحضره مهاناً حقيرا ، ذليلا أسيراً، فسجنه وأنفذ بعد ذلك أمر الله فيه ، وكان جباراً عنيدا وشيطاناً مريدا ، لم يسلم أحد من أذاه وشره وضُره ثم انقضا أربه من الثغر المذكور ، والنظر فى مصالح الأمور وتوجه مصحوبا بالسلامة ، مع العزة والكرامة ، إلى أن وصل إلى كوم الأفراح المزيل للأتراح ، الباعث على الانشراح نفع الله تعالى بمن سكن به من الأوليا والصالحين ، والشهدا المغازين ، وزاره ومن به من الصحابة والمخلصين ذوى النجابة ، وأحسن على عادته المألوفة ، ثم سار وأكابر الدولة والعسكر المنصور محفوفين به ، والسعد يخدمه ، هذا وكل من ورد عليه، من الكشاف والأمنا والملتزمين ، يقابله بسن ضاحك ووجه مبتسم ، وبشر وإقبال ، ويلبسهم الخلع والتشاريف ، وكل من ألبسه

ورقة (٣٨)

قفطانا شرط عليه ، أنه يمشى بالاستقامة مع الرعايا . وأن لا يكتب لأحد من الجند طلبة مطلقاً ، ومتى بلغه عن أحد منهم مخالفة ، وأنه أعطى طلبة لفرد من أفراد العسكر ، يكون ذلك القفطان كفنه ، وتم على ذلك ، وكلما ورد على ناحية من النواحى ، أو قرية من القرى، يرفع ظلامة من يرفع إليه فيه الظلامة ، إلى أن وصل مصحوباً بالسلامة[1] الله تعالى ، إلى ناحية شبرا المدينة ، وجزيرة الفيل ، وهو كما ذكرنا بغاية العظمة والهيبة ، فنصب له سرادق هناك ليس له نظير ، والسعد يقدمه والدولة تخدمه ، والرعايا تهنيه ، ويستبشرون بالنظر إليه ، والعساكر صفوفا بين يديه ، وكان دخوله إلى شبرا يوما مشهودا ، وهو التاسع عشر من شهر الله صفر الخير سنة ١٠١٦[2] فى طالع سعيد ، وساعة سعيدة مباركة ، فأقام بها ثلاثة أيام فى أرغد عيش وأهناه

---

(١) لعل صحتها بسلامة .

(٢) ١٥ يونية ١٦٠٧م .

وأمرّه وأمراه، ثم توجه بوجهته الشريفة منها إلى دار سعادته، ومحل عظمته وإيالته

ظهر ورقة (٣٨)

ومقر جلالته وسيادته، بقلعة المصر الصلاحية المنصورة المحمية، حميت عن كل أصرو بلية، وجميع الأمرا الصناجق والجـــاووشية، وأكابر الدولة والخدام، والنوبتجية، واقفون على الأقدام، فأنعم عليهم بالترقيات الجسيمة، والانعامات العميمة وسلموا وانصرفوا، وصار يأتى إليه طايفة بعد طايفة، وجماعة بعد جماعة، يسلموا وينصرفوا، وكذلك طايفة القضاة والعلما، والأفاضل والعظما، يأتون إليه ويهنونه ويقبلون يديه، وحصل لأهل مصر برؤيته السرور العام والتأمين والتطمين والاستبشار التام، وكان جلوسه بالقلعة المنصورة الأيوبية والتخوت اليوسفية، يوم السبت المبارك حادى عشرين الشهر المذكور(١)، زاده الله عزا وإجلالا، وهيبة وعظمة وإقبالا، وبلغه أعلا مراتب الرضا حتى يقول جميع العالم هكذا هكذا وإلا فلالا، وكان الأمر كذلك والحمد لله على ذلك، وكان ما بدا به من

ورقة (٣٩)

الخيرات، وإسداء المبرات، زيارة الأوليا والصالحين على عادته فى كل قطر، بالقرافتين الكبرى والصغرى وهلم جرا، خصوصا حضرة سيدنا ومولانا إمام الأيمة وناصر السنة، صاحب العلم النفيس، أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الهاشمى المطلبى، سلطان مصر عن يقين، وحامى حوزتها عن المفسدين والمعتدين، وقرأ عنده شيئا من القرآن المجيد، وتضرع إلى مولاه

---

(١) ١٧ يونية ١٦٠٧م.

بأن يرزقه التوفيق والتسديد ، وأحسن وتفضل ، وفرق وأغدق ، على من بالمقام الشريف من القطان والمجاورين والزوار وكان شيئاً جليل المقدار ، ثم سار منه إلى زيارة مقام مولانا الإمام المجتهد ، المجيد البارع(*) ذو الكرامات الظاهرة والأنفاس الطاهرة ، الترياق المجوب والباز الأشهب ، مولانا أبو الليث بن سعد الفهمى القلقشندى المصرى ، نفع الله تعالى بعلومه وبركاته ثم إلى مولانا وسيدنا ولى الله على الإطلاق ، ومن أوتى عنان

ظهر ورقة (٣٩)

العلوم الاستحقاق ، القاضى بكار ، ذى العدل والإيثار ، ثم منه إلى ضريح أمير الأمراء الكرام كبير الفخام ، مولانا على باشا الخادم بكلربكى الديار المصرية(**) ، تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ، ثم توجه من فوره إلى زيارة مقام الولى العارف بالله تعالى الصحابى الكبير العارف الشهير ، سيدى عامر بن عقبة الجهنى ، ثم إلى مقام ولى الله تعالى والعارف به ، فارس مطايا بالقرافة الصغرى ثم إلى مقام سيدى أبو السعود بن أبى العشاير ، ثم السادة الشاذلية والوفائية، بهمة علية ، وطلعة بهية ، ثم زار غالب المشاهد المصرية والأوليا ذو الكرامات السنية ، وذلك مع جلوسه الشريف فى حلق العلم ومجالس التفسير بالجامع الأزهر ، فى الليالى المشرقة وزيارة الزوايا المشهورة بالأوليا ليلا ، داعيا ، وطلبه الدعا هناك ، وكلما زار مشهداً من المشاهد ومعبداً من المعابد ، يتصدق كثيراً ويعطى سراً

ورقة (٤٠)

وجهراً ، غنياً وفقيراً ، ويقرب أغناما على عادته فى الزيارات ، وموطن

(*) تكررت كلمة « المجيد » فحذفناها ، حتى يستقيم النص ، وربما كان تكرارها خطأ من الناسخ .

(**) تولى ولاية مصر من ٩٦٦ هـ/١٥٥٨م وتوفى بمصر فى ٣ ذى الحجة ٩٦٧ هـ / ٢٥ أغسطس ١٥٦٠ م .

الأدعية المستجابات ، استجلابا للدعوات الصالحات ، وصار ذلك دأبه كل حين ، يتعاهد زيارة الأوليا والصالحين ، بحيث أن ذلك لا يشغله عن النظر فى أحوال الرعايا ومصالح البرايا ، والنظر إليهم بعين المعدلة والإنصاف ، وكف أكف الجور والاعتساف ، وخلاص المظلوم من ظالمه ، والمحكوم عليه ظلماً من حاكمه ، وتعمير البلاد ، وتأمين العباد ، واستجلاب خواطر الحاضر والباد ، وقطع جادرة أهل الفساد والبغى والعناد . وأكرم الفقها والعلما وإحسان إلى المقترين[1] من الرعايا والضعفا ، وجذب قلوب الفلاحين والمزارعين ، كل ذلك والرعايا فى أيام دولته ، فى ظل ظليل ، وشراب سلسبيل ، وعيشة راضية ليس لها مثيل ، وتم الحال على هذا المنوال ، إلى أن دخل أوان توزيع الأقاليم المصرية على العمال والملتزمين ، فوزع كل اقليم على من يليق به ، من غير خدمة مطلقا ، وكان من جملة من أنعم عليه من الكشاف

ظهر ورقة (٤٠)

وأكابر الملتزمين ، شخص يدعى الأمير حسن الحلوجى ، أعطاه ولاية اقليم الغربية وأخلع عليه قفطانا عظيما ، وحصل له بذلك غاية الحظ بهذه المرتبة والحلة العلية ، وتوجه فى يوم من الأيام إما بقصد الفرجة أو السفر مسروراً مغبوطا ، وجلس بمكان يقال له سبيل البردان ولم يعلم أن المنية رايدته إلى ذلك المكان ، وهو على شاطىء بحر النيل المبارك ببولاق ، فلم يشعر إلا وقد هجم عليه جماعة من طايفة اللوند المفسدين ، والارازل المتمردين ، وسيوفهم مشهورة ، فهرب منهم إلى بعض السفن وما للنجاة فادركوه وضربوه بالسيوف ، فسقط من حلاوة الروح ، إلى البحر فتتبعوه بين المراكب ، وأكملوا موتته وأخرج من البحر مقتولا ، وجهز وغسل ودفن فى ترابه ، ومحط إيابه ، فلما بلغ حضرة مولانا الوزير أيد الله تعالى

---

(١) لعلها المقفرين .

سعادته وأدام سيادته، هذا الأمر الفظيع، المستصعب الشنيع، استشاط غيظا وغضباً وتأجج لهباً وبرز أمره الشريف باجهار المناداة لجميع العسكر

ورقة (٤١)

المنصور، من يا كل علوفة مولانا السلطان، نصره الله تعالى وأدام أيام دولته الزهرا وعامله بالطافه الخفية دنيا وأخرى، من عثمانى إلى ألف من غير تخلف أحد منهم، فامتثلوا الأمر العالى واجتمعوا فى محل يدعى قره ميدان، سفل القلعة المنصورة،فأقام سنجقا سلطانيا، ولواء خاقانيا، ونادى من كان طايعا لله سبحانه وتعالى ورسوله وولى أمره، فليقف تحت هذا اللواء السلطانى، ويدخل إلى ذلك الظل الممدود الخاقانى، وكل من خالف ولم يوافق يعرف ما يحل به، وكل من أبى وخان وسعى فى الأرض بالفساد حاربناه وقتلناه، وبمحضر كل من أمراء الألوية الشريفة من المستحفظان بمصر المحمية، فاجابوا بمزيد السمع والطاعة، ووقفوا ولاذوا بذيل السنجق السلطانى، وقالوا نحن عبيد مولانا صاحب السعادة، ومن خالف وعاند قتلناه، فلما تمسك منهم حضرة الوزير بذلك أخرج لهم خط همايون

ظهر ورقة (٤١)

الشريف المتقدم ذكره المتضمن لرفع الطلبة، وانه كل من سعى فى أخذها أو تسبب فى طلبها، أو بحيل من الحيل أو سبب من الأسباب، يكون ساقطا مخرجا من ديوان الجند، بعد التنكيل الشديد به والتمثيل والتحقير، وقد ذكر لهم مولانا صاحب السعادة، نصره الله تعالى، أن من البلوكات طايفة مفترون أشقيا، يصدر منهم فى كل حين، مثل هذا الفساد الشنيع، من التجرى على قتل الأمراء وأرباب الدولة، وأكابر المملكة ونحو ذلك، فان كنتم ترومون الصفح عنكم فيما فعلتموه سابقا، والعفو عن تلك الأمور

المخالفة فتقبضوا عليهم، وتسلموهم لنا لنخرج من حقهم، فقالوا نعم، وأجابوا بمزيد العز والطاعة، وقبضوا على كل من كان معروفاً بذلك ممن كان حاضرا، وأسلموهم لحضرة مولانا الوزير، نصره الله تعالى، وحلفوا جميعاً يميناً واحدة، وأشهدوا على أنفسهم، أنهم من الآن لا يمشون فى طريق شىء يقال له الطلبة، ولا يطلبونها، ولا يتفوهون بذلك، ولا يذكرونه على ألسنتهم، ولا يقرون عليها، وكل

ورقة (٤٢)

من عاند وخالف يكونوا عليه ويقبضون عليه ويحضرونه لحضرة مولانا الوزير، وصاروا كل من عرفوا منه ذلك، يفعلون به ذلك ويكبسون عليه، ويحضرونه فيخرج من حقه، وقد سكنت الفتنة بهذا الموجب، وحصل للرعايا الراحة العظمى، واليسار بعد العسر، كذلك لفلاحى الأراضى والمزارعين الذين هم كانوا فى غمرتهم يعمهون، لحصل لهم غاية الإنتعاش، واتسعوا غاية الإتساع، بعد أن كان الواحد منهم لا يملك كراع، بل ولا ريش دجاجة، ولا قطعة من كماجة، فصار عندهم الأوز والدجاج والأبقار والأغنام، وغاية الأنعام، آمنون مطمئون فى ظل الدولة الظليل. نايمون فى اغيظ مقيل، الكبير منهم لا يتحول على الصغير، ولا يأخذ أحَـدٌ من أحد شيئاً من الباعة إلا بالشىء الكثير، وصار الذئب والغنم فى مقام واحد ومرتبة واحدة(*) ومع ذلك فكانت طايفة من الأشقيا الارازل الأغبيا فى أسنانهم، طعم حلاوة الطلبة، ولم يصبروا على الصبر، فصاروا يصابرون عليها، ويحتالون بأنواع الحيل، على الكشّاف فى أخذها، ويحسن له بعضهم بعضا فى التحيُّل على ذلك، ويعبرون على الكشاف بسين ساسان على مطاوعتهم فى ذلك.

(*) حذف هذا الجزء وحتى منتصف وجه ورقة ٤٤ لخروجه عن الموضوع.

ظهر ورقة (٤٤)

والكشاف يمتنعون عن ذلك أشد امتناع ، خوفاً على نفوسهم وأرواحهم فقدر الله سبحانه وتعالى بعد مدة يسيرة أن شخصاً يدعى (١) ،
أبرز حكماً شريفاً عند رجوعه من سفر الشام ، من جانب السردار الأعظم بمنصب دوادارية الغربية(*) ، وأنعم عليه بذلك من حضرة مولانا صاحب السعادة نصره الله تعالى ، وألبسه قفطاناً ، ودفع إليه حكماً شريفاً بذلك ، خطاباً للحاكم الشرعي بها ، هو مولانا فخر قضاة الإسلام ، أولى ولاة الأنام ، رافع شرايع الأحكام ، خادم شريعة النبي عليه الصلاة والسلام ، مولانا إسماعيل أفندي الرومي الحنفي ، دامت فضايله ، وقدوة الأكابر حاوي المحامد والمفاخر ، الجناب العالي ، الأمير محمد الحلوجي ، كاشف ولاية الغربية أعز الله تعالى جنابه ، بتمكينه من ذلك ، فلما ورد الدوادار المذكور بالحكم المذكور ، وقرى بالمحكمة الكبرى بالمحلة ، بمحضر من الأمير الكاشف محمد الحلوجي ، أجابا بمزيد الامتثال ، وألبس الأمير الكاشف الدوادار المذكور قفطاناً

ورقة (٤٥)

على العادة ، وأمر أن ينادى في أسواق المحلة وشوارعها بذلك ، فمرّ وهو لابس القفطان ، على بعض بيوت القهوات ، وكان بها جماعة من الأجناد ، فلما نظروه كذلك هجموا عليه والسيوف مشهورة بأيديهم ، وأرادوا قتله ، وتكلموا بكلام قبيح جداً ، وقالوا له متى لبست هذا القفطان ، أو تصرفت في هذا المنصب قطعناك ، فمن خوفه على نفسه من القتل ، قلع القفطان ، وأقبل راجعاً ، إلى أن دخل المحلة الشريفة ، والكاشف مقيم بها فدفع القفطان

(١) بياض في المخطوط .

(*) الدوادارية كانت في اصطلاح ذلك العصر تعني السكرتارية حيث أن وظيفة الدوادار هي حمل دواة الأمير أو السلطان ويقوم بابلاغ الرسائل عنه ، وتقديم القصص والشكاوى إليه .

إليهما بعد أن أعلمهما بما وقع من طايفة الجند ، وإذ بطايفة من الجنـــد ، دخلوا إلى المحلة الشريفة ، وحصل منهم سباً شنيعاً فى حق الكاشف لا ينبغى ذكرها ، وقالوا فى أثناء ذلك ، ايش هذا الذى عملته داودارا ، هذا ما يستحق أن يكون مشداً فى أقل القرى ، فقال الأمير الكاشف ، أنا ما أعطيته هـذا المنصب ، وإنما مكنه منه حضرة مولانا صاحب السعادة ، مرتباً على إعطاء السردار الأعظم فتزايد

ظهر ورقة (٤٥)

كل منهم فى السفه ، وقلة الأدب الزايد ، وتم الأمر على المنع .

فكانت هذه الفعلة منبهة وداعية إلى فعل ما سنذكره ، من كتابتهم لبعضهم بعضاً من ساير الأقاليم ، واستدعائهم لجميع طوايفهم المكتتبين بالبلاد ، الأسباهية من البلوكات الثلاث ، من إقليم المنصورة والدقهلية والشرقيـــة والمنوفية ، والبحيرة ، والقليوبية من ساير الجند المكتوبين ، أن يجتمعوا فى يوم الجمعة المبارك ، بمقام مولانا القطب الربانى والعارف الصمدانى . سيدى أحمد البدوى ، نفع الله المسلمين ببركاته بطندتا(*) فكان اجتماعهم فى أوايل شهر الله القعدة الحرام سنة سبع عشرة وألف(١) فاجتمع بالمقام المذكور، ساير الجند من الأقاليم المذكورة ، وتحالفوا داخل المقام الشريف تحلفهم المعتاد ، وتعاهدوا وتعاقدوا وأوثقوا الإيمان ، على أمور يفعلونها ، وأن يكونوا فى ذلك على قلب رجل واحد ، فى العسر واليسر والموت والحياة ، وفى جميع ما فى نيتهم أن يفعلوه ، وأن لا يتخلا أحد منهم

ورقة (٤٦)

عن الآخر ، ومن جملة ما تعاقدوا عليه ، ما جعلوه سلماً لفعلهم ، طلب بعض

(*) طنطا

(١) أوائل فبراير ١٦٠٩ م .

جماعة من أكابر الدولة ، ليفعلوا بهم ، مايحبوه ويختاروه من قتل وغيره ، وأخذ الطلبة التي هي معظم هذه الفتنة وسببها أولا ، وتوارد أخبارهم بذلك من البغاة وغيرهم واشتهر عنهم ذلك وشاع ، وملأ البقاع واليفاع ، وأعجب ماحكى أن بعض الجند المقيمين بالمنوفية ، هجموا على الكاشف بالإقليم ، هو فخر الأكابر سليمان بن درغوت ، وطلبوا منه كتابة وصولات الطلبة وتعللوا بأنهم كانوا فى السفر السلطانى ، وأن الذى كان معهم نفذ وراح ، وقد باعوا ماعندهم من العدد والآلة ، ولم يبق معهم شىء يباع ، وقد ركبتهم الديون ، فذكروا أن لهم ثمانية عشر خدمة ، وأنه لابد أن يطلقها لهم ، فاستمهلهم ثلاثة أيام ، خوفاً من شرهم وأعرض الواقعة على حضرة مولانا صاحب السعادة بالتفصيل ، والتمس مايبرز به أمره الشريف من ذلك ، على يد كتخدايه المقيم

ظهر ورقة (٤٦)

بمصر ، فلما وقف مولانا الوزير المشار إليه على العرض المذكور ، استشاط غضباً زائداً ، وصمم على منع ذلك المنع الكلى ، ومن أعان على ذلك سراً أو جهراً ، وفعله كان بروحه ، فلما تبين لهم حقيقة المنع ، من أمر الطلبة ، وماطلبوه من الأمرا ، فاجتمعوا ومعهم جميع أتباعهم ولفيفهم ، وطلبوا أطلابهم وأخذوا معهم ، من وجدوه من طايفتهم من أهل الشقاوة ، المعدين لخراب البلاد ، وإيذا العباد ، من البطالة الذين لاعلوفة لهم ، وما انضم إليهم من أهالى الفساد ، وكتبوا باتفاقهم مكتوباً على حسب مرادهم ، لحضرة مولانا الوزير محمد ، سلمه الله تعالى ، وحماه من كل سوء ، ونصبوا منهم أربع سناجق لكل بلوك سنجقاً ، والأغوات الذين لاعلوفة لهم سنجقاً ، على حدتهم ورتبوا جموعهم ونشروا أعلامهم ، وجعلوا لهم كتاباً ، اضبط أسمائهم ، وعملوا يوقلمة ، وتجمعوا وجمعوا وهم بآلات الحرب والقتال ، مستعدين للطعن والنزال

ورقة (٤٧)

وقد صاروا لا يمرون على قرية إلا ودمّروها ، ولا ناحية إلا وأخربوها ، وخرجوا عن الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، ودهكوا زراعات الفلاحين بحوافر خيولهم ، خصوصاً مايتعلق بالأمنا والملتزمين ، وذلك خلا مايجدونه من الأغنام والسوايم ، وأنواع المشارب والمطاعم ، مما لا يجوز فى ملة من الملل ، ولا يردعهم بمعنى ذلك قول ولا عمل ، ولما رأى الأمنا ذلك ، وعظم مصيبة ماهنالك فزعوا إلى الديوان العالى ، دامت له المعالى وطلبوا مبارزتهم ، وقالوا نحن فينا الكفاءة لحربهم وخزيهم إن شاء الله تعالى ، هذا والطايفة المذكورة لا يزدادون إلا تمرداً وعناداً وعتواً وفساداً ، مستمرين على ضلالهم وغيهم وإضلالهم . وأخذهم ونهبهم ورعبهم ورهبهم ، ومن جملة عكوساتهم وأمرهم ونكوشاتهم ، أنهم نزلوا بمكان يقال له منى جعفر بشرقية بلبيس فأقاموا فيه وهو قريب من مكان يقال له تل

ظهر ورقة (٤٧)

اليهودية فأقاموا به أولا ، وصار كل يوم يمر ، وهم فى زيادة داعية من الفساد والشر والعناد ، فلما أن تقرر خروجهم واتضح وظهر وفشى واشتهر ، وطرق خبرهم سمع مولانا الوزير . نصره الله تعالى ، فأمر منادياً ينادى لجميع من بمصر من العساكر المطيعين للسلطنة الشريفة ، من أمراء الألوية المنيفة والجركسية والأمرا والمتفرقة والجاووشية ، وماوجد من الأسباهية المقيمين بالديار المصرية والعزب والينكجرية ، وغيرهم ممن يأكلون العلوفات الخنكارية ، من عثمانى إلى أكثر ، وساير الأمرا من الأقاليم بآلات حربهم وعَددِهم وعُددِهم ، ومن يعتمد بهم فى إصابة الرأى ، وحسن التدبير والسياسة ، فلما حضروا نصب ديواناً طنانا ، فى خصوص تلك الطايفة الفاجرة الخارجة المارقة المنافقة ، وطلبهم القتال ، وخروجهم وعدم الامتثال ، وقد فـوّض

الوزير أمره إلى الله تعالى مستشيراً فى سواله

ورقة (٤٨)

وأرى من اعتمد عليه من أمراء الألوية صورة نقش ضميره فى مرآة مقالة عملا بمن قال ...

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر ... فالحـــق لا يخفى على رأيين
المرء مرآة تريه وجـــهه ... ويرى قفاه بجمع مرآتين(*)

قال الناقل فمنهم من أشار ، بأن الرأى المتين والمنهج المبين ، أخذ خواطرهم وتطيب نفوسهم بما يطلبونه، ويرغبون إليه ويرومونه ، إلى أن تنطفى نايرة هذه الفتن ، ويندمل جرح هذه المحن ، فإن الأمر ربما يتسع ولا يمكن أن يلتيم ، ويتسع الخرق ويشتد الحرق ، ويترتب على ذلك أمور صعبة المرام. بعيدة الالتيام ، من هلاك الأنفس والأموال ، ودهك الرعايا والرجال ، وإذا توجه كل أحد إلى محله ، يمكن أن يؤخذ منهم المفسد بالتدبير ، ولا ينبؤك مثل خبير ، فلم يلتفت مولانا الوزير إلى هذه الإشارة ، ولا أقرّ على هذه العبارة ، وقال بعضهم بل نقاتلهم إلى أن يحكم

ظهر ورقة (٥٠)

الله سبحانه وتعالى بيننا وبينهم إما بغلبة أو غيرها ، وذلك كلام الناصح للسلطنة الشريفة ، الباذل مهجته ونفسه فى مرضاتها المنيفة ، والناصح لله ولرسوله ولولى الأمر والمسلمين ، وذوى الرأى والتمكين ، والعقل الرصين ، حضرة فخر الأمرا ، وذخر الفقرا ، زين الدين صالح أمثل أمرا الألوية الشريفة ، بمحروسة

(*) حذفنا بقية هـذه الورقة وحتى منتصف وجه ورقة ٥٠ لخروجه عن موضوع النص .

مصر حفظه الله تعالى وأعانه على فعل الخيرات ، ودفع المنكرات فقال من المحال أن نرجع عنهم ، إلا بالقتال والحرب والنزال ، إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم بمشيئته ، فقبل حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى هذا الكلام ، من الأمير صالح ، وأجابه إلى ذلك ، جميع الأمرا وعساكر المسلمين ، فأقام حضرة مولانا الوزير نصر الله به الدين، فخر الأمرا الكرام ، عمدة الكبراء الفخام ، ذو الجد والتشمير والاهتمام ، الأمير مصطفى مير اللوا الشريف السلطانى سردارا على العساكر الشريفة ، لما علم وتحقق أنه أولى بذلك من غيره ، ولحق وعين معه شدا لعضده ، ودفعا لسآمته وملالته ، مولانا فخر الأماجد والأكابر ، حاوى المحامد والمفاخر ، الجناب العالى ،

ورقة (٥١)

والكوكب المنير المتعالى ، الأمير مصطفى كتخداء الطايفة الجاووشية بالديار المصرية ، وساير الأمنا والملتزمين ، وانعقدا الإجماع على ذلك ،وذلك بعد أن برز أمره الشريف بيورلدى منيف للطايفة المذكورة . على يد مولانا فخر العلماء، وعمدة الأفاضل النبلا ، الأكمل الأفضل ، الأورع والأعدل ، مولانا محمد أفندى ، الشهير بالتى برمق ، أدام الله تعالى فضـــله وكذلك ، اغاة التوفكجيان ، على أغا ، من مضمونه الوعظ السديد ، والتحذير الأكيد ، من غضب الله تعالى وغضب رسوله وغضب السلطان ، وإقلاعهم عما نووه وقصدوه وما عليه من البغى والعناد الذى اعتمدوه ، وتزيين الشيطان لهم ، وتحسين ذلك لهم وغرورهم ، وعدم انقيادهم ، وشقهم العصا ، وخروجهم من غير طايل ، ولا تحصيل حاصل ، وأن يرجعون إلى الله سبحانه وتعالى ، ويتوبون ويقلعون وينيبون ،فإن فعلوا ذلك بصدق واعتقاد وحسن اعتقاد سومحوا بما صدر منهم ، وعطفت مراحمنا عليهم وغفرنا لهم

ظهر ورقة (٥١)

الذنوب السالفة ، والآتية ، وأنعمنا عليهم بما تقرّ به أعينهم ، من الترقيات الجسيمة ، والأنعامات العميمة ، وباؤوا إلى ظل ظليل ، وأحسن مقيل ، وإكرام وتبجيل ، مع كثير من هذه النصايح ، فتوجه المذكورون إليهم ، وقرىء البيورلدى الشريف عليهم ، مع ما أورد عليهم مولانا محمد أفندى المشار إليه، من نصايح وعظات، تلـيّن القلوب ، وتقرّب القاصى من الشمال إلى الجنوب ، فكان معناها ومضمون فحواها، هو أنه ليس بخاف على العاقل اللبيب ، الفطن الأريب ، أن الاتسام بصفة العصيان ، والخروج عن طاعة سلطان الزمان ، من سمات الغرور . وصفات كل غبى مغرور، مخالفة أوامر السلطان البسيطة ، الذى أوامره فى أطباق الآفاق محيطة صاحب العسكر الجرار ، كالجراد المنتشر والجنود الغالبة ، والجيوش المنصورة التى لا تعدّ ولا تنحصر ، ولقد كنتم غارقين فى نعم السلطنة فى ألذ عيش، وأنعم بال ، وأطيب حال ، فصرتم كما قال الله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت

ورقة (٥٢)

مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . فمثل هـذه الأفاعيل الواقعة منكم لا تصدر من عاقل ، ولا يتجرأ عليها بالاقدام الا طاغ غافل ، ولو تحصن بالمعاقل ، ولكن نحن نبريكم أن يقع منكم شىء من هذه الوقايع ، أو يصدر عنكم مثل هذه الشنايع ، وقد قرن الله سبحان وتعالى فى كتابه المجيد الأمر بطاعة وطاعة رسوله ، طاعة ولاة الأمور ، فقال تعالى مما لا يخفى عنكم ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، وأمر الشارع صـــلى الله عليه وسلم بقتل من خلع ربقة الطاعة ، وخالف الأمة والجماعة ، فقال عليه الصلاة والسلام ، وأمره لاحق بأمر القرآن ، « من أراد

أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جمع فاضربوه بالسيف ، كاينا من كان ، وحيث كان الأمر كذلك ، فاللايق بكم التبرى عن هذه الفتن ، والتنصل من صدور هذه الشنايع ماظهر منها وما بطن ، ومن الظاهر المعلوم أن هذه الفعايل لم تصدر من عاقل .

ظهر ورقة (٥٢)

بل من غوغاء الاتباع الأشقياء ممن أغواهم الشيطان ، واستخفهم البغى والطغيان، فإذا فعلتم ذلك تفوزوا بالحظ الأوفر، واللحظ السلطانى الأكبر، الذى هو أعزّ من الكبريت الأحمر ، وأن أبيتم ونأيتم ، وخالفتم وعصيتم فهذا ظن واهى ، ورأى متناه فى الغباوة غاية التناهى ، والأمر حينئذ عظيم، والخطر جسيم ، والله هو الغفور الرحيم(*)

ظهر ورقة (٦٠)

ولما سمعوا ذلك ، وسخن فى آذانهم ، ولم يتعظوا به ، وبما ضرب من الأمثال والآيات والأحاديث الواردة فى معنى ذلك . وخالفوا وعاندوا ، وعتوا واستكبروا . واستمروا على الفساد والطغيان ، فتوجه المشار إليهما وفاوضا حضرة مولانا الوزير بذلك ، فانعقد الإجماع على حربهم وقتالهم، بحضرة مولانا صاحب السعادة ، ونزل السردار المشار إليه ، من الديوان الشريف من ساعته ، ونصب أوطاقه داخل قرة ميدان ، وأجهر النداء بمصر لجميع العسكر ، بأن يأتوا بأسلحتهم وآلات حربهم ، وأن يضربوا خيامهم عند السردار ، وكل من تخلف كان معدودا من الأشقيا ، فأقام جميع الأمرا والصناجق ، ونصبوا خيمهم عند خيم السردار، وباتوا عنده فى قرة ميدان،

(*) حذفنا بقية الورقة (٥٢) وحتى السطر الأول من ظهر ورقة (٦٠) لأنه عبارة عن أمثال للتدليل على واقعة الحال واستطراد وخروج عن موضوع النص .

وعين للحرس مولانا الجناب العالى ، والكوكب المنير فى أفق المعالى ، الأمير صالح بيك ، والأمير الكبير ، ذى الرأى المنير ، يوسف الغطاس ومعهما بعض سناجق وجانب من العسكر المنصور إلى أن نزلوا إلى الريدانية وباتوا

ورقة (٦١)

الجزء السابع

بها ، وربطوا الطرقات وتوجه فخر الأمرا ، الشجاع الشهير ، الأمير على ابن الخبير ، ومن معه من عربانه وأهل تحدثه ، فأخذ ناحية جزيرة الفيل [١] ، وشبرا وتلك الطرقات ، وباتوا بالريدانية ، ثم ورد الخبر بأن طايفة من الأشقيا ، هجموا على الأمير يوسف والأمير قانصوه ومن معه ، وذلك بعد العشا الآخـــرة من الليل ، أمر صاحب الدولة والسعادة ، أيده الله تعالى ونصره عليهم باجهار الندا ، فى سائر شوارع مصر ليلا لسائر العسكر ، أن لا أحد يتخلف عن الأمير يوسف ويثبت عنده بآلات حربه وعدته ، فتوجه غالب العسكر فى تلك الساعة ، ولم يتأخر إلا القليل عند السردار المشار إليه ، وذكر أنه لم يكن لما ذكر من مجى الطايفة المخذولة ضجة ، وإنما كان ذلك من بعض الأوهام والتوهمات ، وذكر أنهم لما عزموا على ذلك فى تلك الليلة ، فأرسل الله تعالى ريحا عظيمة ، وسحابا ثقيلا ، كادت منها أن تمور الجبال ، وحصل للناس بسبب ذلك غت شديد ، ووحل عظيم ، ثم انكشف ذلك عند طلوع الفجر ، وصارت

ظهر ورقة (٦١)

السما صاحية مصحية ، بمنّ الله ورحمته ، وكفى الله تعالى شرهم وأصبحوا على ذلك ، رجفت مصر غاية الارجاف ، وعمل يوقلمة عامة ، وضبطوا من وجد

---

(١) كانت إحدى النواحى التابعة للجيزة أنذاك .

حين ذلك ، من أسباهية البلوكات الثلاث ، فمن وجد وكتب اسمه ، كان ذلك سببا لبقاء نفسه ومهجته ، ومن لم يوجد فهو من الأشقيا ، وذلك كله قبل أن يرسل لهم حضرة الوزير بيوريلدى شريف يعظمهم فيه ويحذّرهم على يد من ذكر فيه ، ثم بعد ذلك كله واستمرارهم على عنادهم وكثرت عليهم داعية الفساد ، فطغوا وبغوا وبطروا ، وجحدوا النعمة ، ونفخ الشيطان فى آنافهم ، وقد ازدادوا بغيا وعدوانا ، وشوفه حضرة مولانا الوزير عن قبايح أفعالهم ، واستمرارهم على ماهم عليه من العناد وكان برز أمره الشريف أولا بأن جميع من يأكل علوفة السلطنة الشريفة ، يجهز نفسه ، ويتسلح ويبيت عند السردار المشار إليه ، وذهبوا بلامة حربهم وأسلحتهم ، وأقاموا ليلتهم وأصبح مولانا السردار المشار إليه صبيحة يوم الاربعا المبارك

ورقة (٦٢)

سابع ذى القعدة الحرام سنة ١٠١٧[1] ، هو فخر الأمرا الكرام كبير الكبراء الفخام الأمير يوسف بيك ، وأمير عربان هوارة بأقليم دجرجا بالوجه القبلى الشهير بالغطاس لا زال محروسا برب الناس ، وفخر الأمرا الكرام ، عمدتى الكبراء الفخام ، الأميرين الكبيرين المكرمين المبجلين ، الأمير قانصوه بيك ، والأمير محمد بيك الشهير بجبجى . وفخر الأمراء الكرام ، عمدة الكبرا الفخام ، ذو القدر والاحترام . والعز والاحتشام . صاحب الرأى الناجح ، الأمير زين الدين صالح بيك ، أمير اللوا الشريف ، والمحمل المنيف ، وفخر الأكابر ، مستجمع المحامد والمفاخر ، شيخ عربان الجيزة ، نجل الأمرا العزيزة . ذو الفضايل الغزيرة . شعر

متفرع من دوحـــة عربية	هى والشجاعة جآنا من عنصر
مثل الحسام جلا الصياقل متنه	حتى ترقرق فيـه ما الجوهر

---

(١) ١٢ فبراير ١٦٠٩م

الأمير الكبير ، على بن الخبير ، وصحبهم من العساكر المنصورة ، مايسد عين الشمس فى كبد السما ، ولم يبق بمصر إلا طفل أو شيخ هرم ونحو ذلك ، وبرزوا بالعاديات ضبحا والموريات قدحا فى كتايب أمثال الجبال وعد

ظهر ورقة (٦٢)

الحصى والرمال ، متسلحين بأنواع العَدَدِ والعُدَدِ وآلات الحرب الزرَدَ يدكون الأرض دكا ، ويصكون أديم الأرض صكا ، واختلطت الأصوات بصهول الخيول ، وزعقت الزمور والطبول ، ومضوا سايقين وإلى الأجر والثواب سابقين ، وللنصر والظفر مراقبين واشعلوا نار الحرب وتهيأوا للطعن والضرب ، فاصموا الآذان بأصوات كالصواعق ، تهلك بالصعق ، أو كصيب من السما ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، وقامت القيمة وما آن أوانها ، ووقعت الواقعة وماحان زمانها ، ولكن ظهر للعيون عيانها ، وبهر البصاير برهانها ، وقد اشتاقوا إلى التَّصاف ، وتهيجوا لملاقات المصاف وهزوا المناكب والأعطاف ، واستعملوا آلات السلاح ، وتقلدوا بالبيض والصِّفاح ، ونشرت الإعلام والرايات ، ودقت الطبول والكاسات وزلزلت الأرض زلزالها ، وكادت السما أن تمور بأبطالها . بيت

حملوا عِناق الأسد تحت ضلوعهم ولوَوا عما يهم على الأقمار

ورقة (٦٣)

وتقلدوا يوم الوغى بصوارم أمضى إذا انتصبت من الأقدار
قوم إذا لبسو الدروع حسبتهم كسحاب بغيث ممطـر بنهار
إن خوفوك رأيت كل كريهة أو أمنوك لقيت دار قرار

ومعهم من المدافع الكبار والضربزانات المعدة لقطع الأعمار وهتك الأستار ، مايهدّ الجبال الرواسى ، ويحز الأعناق والنواصى تجرهم الخيول العِراب ،

محفوفين بعساكر تحجب السحاب ، وتوجهوا إلى الريدانية ، وبقيت أوطاقه الشريف بها ، وكذلك جميع من معه من الأمراء والعسكر ، وكان ذلك يوم الأربعا سابع شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٠١٧ . وكان يوما مشهودا ، حضره جميع أكابر مصر وعلمايها وأماجدها وفضلايها وقضاتها وقرائها حتى النساء والصبيان والحفدة والغلمان ، وشاهدوا ذلك الموكب العظيم ، الذى يقارب فى العظمة يوم الزينة ، واستمر حضرة السردار بالريدانية . إلى أن تكامل العسكر وتوجه من يومه ذلك إلى بركة الحاج الشريف(١) بجميع العساكر

ظهر ورقة (٦٣)

ونصب مخيمه الشريف هناك تجاه الطايفة المخذولة ، لما انتقلوا من محطتهم الأولى ، وفى يوم الخميس ثامن الشهر المذكور(٢) برز أمر حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى باجهار الندا ، لجميع السوقة والمتسببين والقهوجية وأرباب الموازين ، بأن يذهبوا إلى محل السردار المشار إليه ، ببضايعهم وينصبون صيوانا عظيما للبيع والشراء على العسكر المنصور ، وأن يسيروا مع السردار حيث ما سار ، فتوجهوا كلهم ، وجعلوا هناك سوقا عجاجا ، هذا وقد ملأت العساكر سهول الأرض ووعرها ، وثار العجاج وملأ الفجاج ، وبرز أيضا أمر حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، لجميع طوايف العربان الشجعان ، من سائر الأقاليم والجهات المشهورين بالفروسية والشجاعة ، بأن يحضروا جميعا إلى السردار بحيث أنهم لا يختلطون بالعسكر ، وأن يكونوا خلف

---

(١) من النواحى القديمة ، وعرفت ببركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج فى كل سنة أو نزولهم بها عند العودة ، وهى الآن إحدى نواحى مركز شبين القناطر ، بمحافظة القليوبية .

(٢) ١٣ فبراير ١٦٠٩م .

الطايفة المخذولة، وفى وجوههم وقدامهم وأمامهم ويحاصرونهم ويضيقوا عليهم ، لحضر كل من شيخ العربان قاهر الفرسان حسن

ورقة (٦٤)

الدهين ، وشيخ العرب منتهى الطلب محمد البكريجى ، ونخر الأماجد حاوى المحامد ، الأمير حماد بن نخر الأمراء الأمير مقلد أمير اللوا الشريف بمصر المحروسة ، وشيخ العرب المجيد ، ذو الرأى السديد ، أمثل الفرسان وشيخ مشايخ العربان شيخ العرب عبد العزيز بن الفاضل الكامل شيخ العرب صيام العايدى ، وشيخ العرب المشهور، والشجاع المخبور، عمران بن أبى عويضة وسائر طوايف العربان المخبورين الشجعان ، من كل قطر ومكان ، وكل منهم فى جيش كثيف من عربان، ولفيف كالسيل المنهمر ، والجراد المنتشر ، رجالا وفرسانا زرافات وعقبانا باحقاف وحوافر ، وسيوف بواتر ، كالأسود الكواسر كما قيل . شعر :

قوم بيت على الحشايا غيرهم	ومبيتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح فى الدما قناتهم	فكأنهم سفاين فى أبحر
لا تأكل السرحان شلو طبيبهم	مما عليه من القنا المتكسر

نثر : فارهفوا البيض والصفاح ، وتقفوا متون العسالة الرماح ، وقد داروا حول الاشقيا دوران الخاتم بالأصبع

ظهر ورقة (٦٤)

والسوار بالمعصم ، وأهل التقوى بأهل الفجور ، والنور بالديجور ، ورغموا أنافهم ، ونفـروا الأفهم ، وردوا إلى المثين الأفهم ، ومد النقع على رءوسهم أعظم رواق ، وضرب العثير فى الجو أوطاق سد به حجب الآفاق ، ونقصت

من طباق السبع أرضين طبقة . وزادت فى طباق السموات واحدة من الطباق وضيقوا عليهم المسالك ، وفسيح الممالك ، والفلوات والفضاء ، ونزلوا عليهم نزول مبرم القضا ، وقطعوا إحساسهم ، وأخمدوا أنفاسهم ، وقصدوهم من كل جهة خايضين غمار الموت ، وهجموا عليهم هجوم الليـــل ، واندفقوا ولا اندفاق الغيث ، ولما أن رأى الأشقيا العساكر المنصورة راكبين قفاهم ، ومشايخ العربان خلفهم ، كفاهم ولم يعلموا البلا من أين أتاهم ، وكابدوا أحوال الموت وشارفوا أهوال الموت وأخذهم الطيش من كثرة الجيش ، وضاقت عليهم الأرض ، ونغص لهم العيش ، وجبنوا عن القتال ، وآل أمرهم إلى الانحلال والانخزال ، بيت .

وضاقت الأرض حتى أن هاربهم إذا رأى كل شيء ظنه رجـــلا

ورقة (٦٥)

وقيل أيضاً ، شعر :

أبى الله إلا أن يمـــوتوا أذلة وفَرّاً وسيّان المنيـــة والفرُّ

ولو صـــبروا ماتوا كراماً أعزة ولكن عند الحرب خانهم الصبرُ

نزوعهم الأحلام فى ساعة الكرى ويقرعهم خوفاً إذا استيقظوا الفجرُ

طووا مكرهم تحت الضلوع خيانة لحاق بهم خبث الطوية والمكرُ

نيّلهم أوطانهـــم وتذكروا وحق لأوطان إلى أهلها النكرُ

لقد ركضت خيل المنايا فأوجفت بهم ولهم فيهـــن اتى منهم نكرُ

وقال لسان الحال فيهم ، شعر :

ولزهم القتـــال إلى طـــراد	أحدّ سـلاحهم منه الفـرار
مضموا متسابقى الأعضا منـه	بأرجلهم لارءوسهم عثار
يرون الموت قداماً وخلفـــا	فيختارون والموت اضطرار

نثر : أوقع الله الرعب فى قلوبهم ، وصاروا حيارى لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، وحصلت لهم السكتة ، ودهمتهم البهتة ، حتى لقد حكى عنهم أن الشخص منهم كان فى فمـه بعض بندق رصاص ، فلما شاهد ذلك الهـول الفظيع والأمر القطيع . تساقط البندق من فِيه وهو لا يشعر ، وقد نـكست بيارقهم ، وانعكست .

ظهر ورقة (٦٥)

ألويتهم ، وصار الواحد منهم لا يحقق النظر إلى صاحبه ، وهو جالس بجانبه وتراهم سكارى وماهم بسكارى ، وقد برز لهم فخر الأكابر ، حاوى المحامد والمفاخر الأسد الشجاع والفارس المطاع ، ليث العرين بأساً ، وأقواهم مراساً ، الواثق برب البرية ، الأمير مصطفى كتخدا الجاووشية من أمامهم فى كبـكبة عظيمة ، وتلاه الفارس المشهور ، والشجاع المخبور ، صاحب الأقوال والأفعال والأيادى الطايلة فى الحرب والنزال ، الأمير الممجد الدالى محمـد جرجس بيكى ، والفارس الشجاع الشديد ، والأسـد الهصور الصنديد ، الأمير على بن الخبير ، ومعهما من طايفة العربان والأسود والعقبان ما يملأ الأرض بالطول والعرض أمَمَـاً لا تحصى ، وشجعانـ لا تستقصى ، فصار بعضهم ينسحب ، وبعضهم يلحق بالعسكر السلطانى ، ثم غارت الخيول والعساكر على من بقى منهم ، لما تسحَّب غالبهم ، بل وظهر من الجميع كبـكبة يريدون الفرار ، ويولون الأدبار ، وكان منهم من هرب وفات منهم ، من فاته الطلب ، وصار باقيهم طعمة

ورقة (٦٦)

للسيوف والسباع ، ونهب مامعهم من السلاح والكراع ، وذهبوا شذر مذر ، وتفوق بعضهم أيدى سبأ لم يظهر لهم حس ولا خبر ، ومالت العساكر المنصورة على باقيهم كل الميل ، وأعدموهم القوة والحيل ، وقتلوا منهم مقتلة كبيرة ، وقطعوا من رءوسهم رءوسا كثيرة ، وطرحت جثث القتلى فى الأراضى والبقاع والأودية والتلاع ، بعد ما أكلت أشلاهم الضباع والسباع ، ومنهم من ألقى نفسه فى الماء وانقلب ، والبعض من أخذ فى الهرب ، وبعضهم أتى ذليلا حقيراً ، وطلب الأمان وأن لا يموت عاصياً ، حيث لا ملجأ له ولا ناجياً وقد طلب جمع مما بقى منهم الأمان ، وتابوا من البغى والعصيان ، وذلوا وقالوا نحن عبيد مولانا السلطان ، عطف عليهم حضرة السردار وأعطاهم الأمان خيراً منه لهم ، بعد المذلة والإذعان ، وصار كل من يعرف خيمته من البلوكات ، يأتى له ذليلا حقيراً مهاناً أسيراً ، بعد أن ينزع ما عليه من سلاح وعدة وآلات حربهم المستعدة ، ويجعلون محارمهم فى رءوسهم ورقابهم ، ويأتون سعياً ويكشفون رءوسهم وأرجلهم حفياً .

ظهر ورقة (٦٦)

ويمرغون وجوههم على التراب ، راغمين تلك الآناف التى كانت تحكى فى عظمتها السحاب ، وصار السردار كل من ورد عليه منهم يسلمه إلى إغاته ، ويشهد عليه أنه إذا ورد إلى مصر وتمثل بين يدى الوزير يسلمه إليه ، من كبير أو صغير ، ثم عاد حضرة السردار المذكور ، وقد قطعت منهم رءوس ورفعت على الأسنة العوال والرماح الطوال ، وسيقت بين يديه الخيول المقلوعة والأسلاب المنزوعة ، والجماجم المقطوعة ، فحمد الله تعالى شكراً ، وتضرع إليه سراً وجهراً ، من حوله وقوته واعترف أن ذلك بحول الله وإرادته ، ولقد قيل شعر :

وإذا بغى باغ عليك وحزته وأقتله بالمعروف لا بالمنكر
فإذا تكرر بغيه يأتيه من قبل الإله جزاه فى المحشر

ذكر وضوح هذه الفتنة ورفع الالتباس :

مما نقلناه من أفواه الثقاة من الناس ، وذلك أنه لما سار حضرة السردار ، وصحبته العساكر ، وأمامه المدافع ، وخلف المدافع طايفة الينكجرية والعزب .

ورقة (٦٧)

وعلى ميمنته الأمير يوسف الغطاس ، والأمير الكبير قانصوه ، وعلى يساره الأمير مصطفى كتخدا الجاوشية ، ومعه من الفوارس كل أسد عابس أقواهم بأساً وأشدهم مراساً ، الفارس الهمام ، والبطل المقدام ، الأمير أحمد ابن الفارس المشهور ، والأسد الهصور الأمير محمد الدمرداش ، فلم يزالوا سايرين ، إلى أن وصلوا إلى ناحية المطرية ، فتقدمهم الأمير مصطفى كتخدا الجاروشية ، ومعه الطايفة التى تلوز به ، وأرسل شخص يدعى مصطفى أخو خباجى سليمان ، وقزلباش على مملوك ترياقى درويش ، والأمير أحمد الدمرداش ، ليكشفوا له خبر الطايفة المخذولة وما هم عليه ، فساروا فوجدوهم نازلين على قبة العجمى ومرياقوس على شاطىء الماء ، تجاه بركة الحاج الشريف - وعادوا وأخبروا الأمير مصطفى المذكور بذلك ، وهو أخبر حضرة السردار به ، هذا وقد ثار عجاج عظيم ملاء الخافقين إلى أن كادت القيمة تقوم ، فاستمروا على سيرهم إلى أن وصلوا .

ظهر ورقة (٦٧)

بركة الحاج الشريف ، والسردار تخلف وراه ، وسبقه الأمير مصطفى المذكور إلى أن وصل لقبة الإعجام تجاه الطايفة المذكورة ، والأمير يوسف

استمر سايراً على بركة الحاج إلى أن أتى إلى قرب الخانقاة ، ووقف إلى أن جاء السردار إلى بركة الحاج ، وكل من المذكورين واقف تجاه الطايفة المخذولة ، واجتمعوا كلهم أجمعين فعمل السردار ديواناً ، حضره أعيان الأمرا الصناجق وأكابر الدولة، ومن جملتهم مولانا شيخ الإسلام محمد أفندى التى برمق ، وشاوروا فى أمرهم هل نبدوهم بالمقاتلة ، أو يرسلوا إليهم لينظروا مافى خميرهم ، فقال لهم التى برمق أفندى نرسل لهم ونزجرهم عما يرومون من المعاندة ، فارسلوا إليهم الأمير سليمان بن ازدمور ، وترياقى درويش، وتوجها إليهم بكتاب يدعوهم إلى الإنصـــاف ، وأن يتوجه كل أحد إلى موضعه ويسألوا من حضرة مولانا السردار ومن معه من الأمرا ، أن يسألوا حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى الصفح .

ورقة (٦٨)

عنهم والعفو لما سلف منهم ، بشرط دفع العوايد السابقة ، فتوجهوا وذكروا له ماقاله السردار ، فقالوا له بعد ماسألهم ، لايمكن الصفح الذى سألناكم فيه أولا ، بدفع عوايدنا من الخدم على جارى العادة القديمة ، فقالوا ذلك لايمكن ، وقال لهم الأمير سليمان ، إن سمح بذلك يقع بسببه فساد كبير ، فبرز من بينهم شخص يدعى زنطاريه ، وسحب السيف من وسطه ورماه إلى الأرض ، وقال نحن مايفصل بينناإلا هذا ، فعند ذلك رجع الأمير سليمان ومن معه للسردار ، واعلموه بذلك ، فتوجه السردار إلى أن نزل تجاه الطايفة على شاطىء الماء ببركة الحاج الشريف ، ونصب مخيمه هناك ، فقال لهم مولانا محمد أفندى التى برمق ، نحن لايمكن أن نحاربهم حتى نكرر عليهم المراسلات وننظر مايقولوه ، فان كان موافقاً للشرع الشريف فعلناه ، وإن كان مخالفاً له أبطلناه ، فأرسل لهم السردار ثانى مرة ، القاصد الأول فكرر ذلك عليهم ، وسألهم عن سبب خروجهم وإن يكفّوا عن ذلك فقالوا .

ظهر ورقة (٦٨)

له ما يمكن ، أن يقع بيننا صلحا حتى تعينوا لنا شيئا من خدمنا ، نستعين به على قيام أودنا ، ولو كان شيا قليلا . فقالا لهم القاصد إن كان مرادكم ذلك فتكتبوا ورقة بما فى مرادكم ، وتعينوا أحداً من البلوكباشية من جانبكم ، يكون رسولا ، فأجابوا لذلك ، وكتبوا ورقة للسردار ومن معه ، من مولانا محمد أفندى التى برمق المومى إليه ، ومن أمرآ الصناجق ، وجميع العساكر ، ووضع ختمه بها من كان متعينا منهم ، وارسلوها صحبة خرسيس محمد بلوك باشى وديك أوصردى حسين ، وذكروا فى ورقتهم أن حضرة مولانا صاحب الدولة ، يعين لنا ماسمح به خواطره الشريفة ، من طلبنا القديمة ، وقدرها عشر طلبة ، فانه لو فرق ذلك على الشهور ، كان ذلك فى كل شهر خدمتين ، وأن أبى ذلك فالسيف بيننا وبينكم ، وحضر القصاد صحبة الأمير سليمان المذكور للسردار ، وعلى دبوانا عجاجا ، وحضر فيه كل من كان حاضراً مع السردار ، وقرئت الورقة عليهم ، فطلب الرأى فى ذلك فمن قابل أنه لابد .

ورقة (٦٩)

من عرض الأمر على حضرة مولانا الوزير ، ونشفع عنده فى تعيين شيء لهم ، لأجل إطفاء هذه النايرة ، وقد استصوب هذا الرأى أكثر من كان حاضراً ، ماعدى حضرة الأمير مصطفى كتخدا الجاووشية ، فانه قال لايمكن ذلك أبداً ، ولا أن نعين لهم شيئا من الأشياء ، قليلا ولا كثيراً فان عينا لهم دارهم وإن كانت قليلة فانها تتضاعف بعد ذلك كما فعل أولا ويقع الفساد بعد ذلك ، ولا يمكن التلافى ، ولم نكن مأمورون بالصلح ، وإن كان ولابد فتكتبوا الواقعة وتدفعوا إلى الورقة المحضرة منهم ، وأنا أتوجه بنفسى ، وأعرض الأمر على حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، وما يبرز به أمره الشريف يكون العمل به ، فتكتبو عرضا بما وقع ودفعوا له المحضر الذى

ورد من عندهم ، فتجهز ليلا وأخذ صحبته الأمير أحمد الدمرداش ، واشحى محمد جاوش داودار القليوبيـة ، وجناجي سليمان ، وقزال موسى ، وبعض جاووشيه ، وحضر ليـــلا وطلع الديوان الشريف ، بما معه من الأوراق واجتمع .

ظهر ورقة (٦٩)

بحضرة صاحب السعادة ، نصف الليل ، وقبل يده ودفع إليه ما معه من الأوراق ، وقص عليه ما عنده من الأخبار ، والتمس ما يبرز بأمره الشريف وما قاله الأمير مصطفى كتخدا الجاووشية إنكم متى سمحتم لهم بشيء استمر الفساد وتمكن وتزايد ، فعند ذلك أمر حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، لا يصفح عنهم حتى يفرغوا عن شيء يقال له الطلبـة ، أو يقطعوا بالسيف عن آخرهم ، وكتب بذلك بيورلديات شريفة للأمير السردار ، وللأمير صالح بيك ، وللأمير يوسف ، ومن هناك من الأمرا والعساكر ، وفوّض الأمر فى ذلك الأمير مصطفى بيك السردار ، وكذلك للأمير مصطفى المشار إليه ، فتوجه من ساعته ، ومن معه للسردار ليلا ، فوصل إليه عند طلوع الشمس وقد كان حضرة السردار ، أرسـل يطلب منهم جماعة من البلوك باشية ، لينعقد الصلح عنهم على يدهم ، فأرسلوا الطايفة المخذولة خرسيس محمد وديك أوصردى حسين ، يطلبون تابع أغاة الـكملية ويعينه عندهم ، ويرسلون

ورقة (٧٠)

لهم من أرادوا من البلوك باشية ، ليتكلموا معهم على مرادهم ، فلما وصـل للأمير مصطفى كتخدا بما معه ، من البيورلديات الشريفة ، ووجد عند السردار الجماعة المذكورة ، وقال لهم أنتم إلى الآن على فسـادكم ، وركب السردار من ساعته ، وركب من معه من العسـاكر ، وتقدم الأمير مصطفى كتخدا الجاووشية المشار إليه ، فى كبـكبة عظيمة ، وكذلك الأمير يوسف

الفطاس ، وقدم المدافع نحو العدو . وأخذهم من خلفهم ، الأمير محمد جركس بيكى ، والأمير على بن الخبير ، ومعهما من العربان مالا يُعَدُّ يُحدُّ ، وقد أخذ حسن ومحمد الكريبجى ، وساير طوايف العربان روس الجبال من كل مكان ، وأما الطايفة المذكورة فإنهم حملوا أسبابهم على دوابهم ، وأخذوا أسلحتهم ، فلما أن رأوا ما حل بهم ، ذهلوا وحاروا وخاروا واستجاروا ، وتشاوروا فيما بينهم ، فمنهم من صمم على القتال ، ومنهم من فشل فتقدم ، منهم شخص يدعى ب[1] ،

ظهر ورقة (٧٠)

وجا بحضرة الأمير مصطفى كتخدا الجاووشية ، ونزل من على حصانه ، فقبل ركابه ، وطلب الصفح ، فأجيب إلى ذلك ، ثم أنهم صاروا يأتون طوايف طوايف ، ويقبلون ركاب السردار ، ومن بجانبه من الأمراء ، ويتوجهون عند أغاواتهم تحت اللواء السلطانى ، ومن عاند وأصر على القتال ، أخذته السيوف ومن هرب قتلته العرب ، وغرق منهم خلق كثير فى البركة ، ونهبت العربان أسبابهم ، وقطعت منهم رؤوساً من كبار المفسدين ، وأما البلوكباشية فإنهم ساروا إلى أن جاؤا إلى الأمير مصطفى ، وقبلوا ركابه ، وأتوا إلى الأمير السردار وقبلوا ركابه أيضاً ، وهم صاغرين ، فعطف عليهم ، وقد كفلهم ، وسار من وقته إلى الخانقاة السرياقوسية ، هذا غاية أيضاح هذه القضية .

ذكر عود حضرة السردار إلى مصر المحمية وانقضاء هذه القضية ، ثم أصبح حضرة السردار المشار إليه يوم السبت المبارك الحادى عشر(*) ، من الشهر المذكور ورتب العساكر ، وجمع من معه

---

(١) هكذا فى الأصل ولم يذكر اسم الشخص وإنما ترك بياض .

(*) ١٥ فبراير ١٦٠٩ م .

من السناجق والأمرا ، ونشر الأعلام والسناجق السلطانية ، والبيارق الخاقانية ، وسارت العساكر يتلو بعضها بعضا ، وجهزت البشاير إلى حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى، وقد خرج جميع من فى مصر من المأمور والأمير، والكبير والصغير ، والغنى والفقير ، والعالم والمشير ، لملاقاته فى أزقة مصر ، بحيث أنه ضاقت الشوارع المصرية بهم ، والأسواق وزحام الحوانيت ، فأول من تقدم فخر الأكابر والأعيان ، الأمير مصطفى كتخدا الجاووشية، ومعه ثلاث رؤس وتسعه أنفار فى الحديد ، منهم يوسف تابع شاملى مصطفى، الذى كان رسولا بمكاتيب الغز فيما بينهم ، يساقون بين يديه أذلاً ، مهانين من وقت الضحى من ذلك اليوم ، وطلع للديوان الشريف ، وقبل يدحضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، وظفر فقابله بالبشر والقبول ، وشكر له سعيه ، وأفرغ عليه خلعة سنية ، ثم تلاه الأمير على بن الخبير ، والعالى محمد جركس بيكى

ظهر ورقة (٧١)

وقبلا يده وهنياه بدوام النصر والظفر ، ودعيا له بدوام الدولة ، فأفرغ عليهما الخلع السنية ، وصارت العساكر تتلوا بعضها بعضا ، فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم ، قدم السردار المشار إليه ، والسناجق العثمانية منشورة على رأسه ، والنوبة تدق من خلفه ، وبين يديه البلوكباشية المذكورين فى ثلاثة زناجير حـــديد ، وعشرين رأساً مرفوعة علي الرماح ، والسناجق

والأمرا محفوفون به ، وكذلك حضرة الأمير يوسف الغطاس ، فطلع الأمير السردار طلعته عظيمة ، وقد ارتجت مصر اطلوعه ، وقابل حضرة مولانا وسيدنا الوزير المعظم ، صاحب الدولة والسعادة والعزة والعظمة والسيادة ، بما معه من الروس والبلوكباشية ، وقد بلغ جميع مراده من خيرى الدنيا والآخرة ، وظفره بهذه الطايفة المارقة الفاجرة ، وبما حفه من النصر الإلهى ، والالطاف الخفية ، وتأدية هذه الخدمة على وجه النجح والتمام ، فقوبل بأنواع القبول والتهانى ، وشمله النظر الشريف بأنواع القرب والتدانى ، وحصلت له المرتبة الكبرى بنيل الأمانى ، وكانت

ورقة (٧٢)

ساعة فرح وسرور وابتهاج ، وبشاشة وحبور ، وحمد الله سبحانه وتعالى على بلوغ المرام ، وشكر له على ما تجدد من الإنعام العام ، وما تحقق من النصرة على الطايفة المخذولة الليام ، وأفرغ على كاهل السردار المشار إليه الخلع السنية ، وأتحفه بالتشاريف البهية ، وأخلع على كل من كان معه ممن يستحق التشريف من الوضيع والشريف ، ومنحهم بجميع المطالب والمقاصد والمآرب ، وكان جزاؤهم جزاء موفوراً ، وعطاؤهم عطاء مشكوراً ؛ ومع ذلك فقد ادخروا أجراً عظيما وأجراً جميلا ؛ وافراً كريماً ، ونالوا الحظ عند الله سبحانه وتعالى ؛ وعند الناس من الذكر الجميل الذى ما عليه قياس ، إذ بذلوا نفوسهم وأموالهم فى طاعة الله سبحانه وتعالى ؛ وطاعة رسوله ، وولى أمرهم ، ونفع المسلمين ؛ والاجتهاد فى قمع الطايفة المخذولين وقد بقى لهم هذا الذكر الجميل فى صفحات الدهر ؛ وناهيك بهذا العز والفخر ؛ فالله سبحانه وتعالى يديم دوام أيام هذه الدولة الشريفة العثمانية ؛ ما بقى الدهر ؛ وينصر بهم المسلمين

ظهر ورقم (٧٢)

ويؤيد بهم الإسلام ؛ ويبقى سلطنتهم الزاهرة العاطرة القاهرة على الدوام ؛ إلى يوم القيام . شعر

وهـذا دعاء لا يرد لأنه يزان به كل الورى والممالك

فحمد الله سبحانه وتعالى حضرة مولانا الوزير ؛ وأطلق بين يدى خالقه لسان العجز والتقصير ؛ واعترف بنعمة الله تعالى ؛ وفضله الكبير ؛ وفرح المسلمون بنصر الله ؛ ودوران الدايرة على الطايفة الرذلة الأشقيا القواه ؛ وانقطاع جادة البغاة الطغاة ؛ لكنه إذا أراد الله سبحانه وتعالى أمراً هيا أسبابه ؛ وإذا قدر شيئاً سهل صعابه ؛ وكشف جلبابه ؛ وقد قيل

ولست بعيداً من تناول مطلب عسير إذا ما يسرته المقادر

وإن لم يمنك الله عما تخافه فلا الحصن مناع ولا الدرع ساتر

فقطع حضرة الوزير رءوس ؛ من كان مع السردار فى ذلك اليوم ؛ فى الديوان الشريف فى ساعة واحدة ؛ وصار كلما جيء له بأحد منهم يفعل به ذلك ؛ إلى أن استوفى بقية يومه ما ينوف على أربعين نفراً ، خلا ما كان على الأرماح وغير ما تلاشته العربان المحيطة بأوطاقهم

ورقة (٧٣)

منهم ومن أتباعهم ، مع تتبع أثرهم والجهد الجهيد فى طلبهم ، وكل من حضر إليه منهم فعل به السياسة ، وكان ذلك فى زمن قضاء حضرة سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام ملك العلما الأعلام ملاذ الخاص والعام ، فخر الموالى العظام ، خادم شريعة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، مولانا

محمد أفندى الشهير بيحى أفندى ، الناظر فى الأحكام الشرعية والقضايا الدينية والتعلقات الديوانية بمصر المحمية ، وبحضرته مولانا فخر العلما العظام ، عين أعيان الموالى الفخام ، العالم بالاستحقاق الراقى بفضله إلى أعلى الطباق الواثق بلطف المعيد المبدى ، مولانا حسين أفندى باشا زاده ، بلغه الله تعالى فى الدارين مراده ، وحضرة مولانا أعلم العلما المتبحرين ، أفضل الفضلا المتشرعين ذو التدقيق والتحقيق ، الهادى إلى أقوم طريق ، الواثق بالملك الممجد ، مولانا أحمد أفندى قاضى المدينة المنورة ، على الحال بها أفضل الصلاة والسلام وغيرهم ، ثم فى ثانى يوم أمر حضرة الوزير لسائر أغوات البلوكات

ظهر ورقة (٧٣)

بعمل يوقلمة ، لساير أسباهية البلوكات ، بأن يميزوا من كان بمصر قبل الوقعة ، فمن كان بها قبل ذلك عفى عنه ، ومن كان بعد ذلك يأتى به ويضرب عنقه . فقتل فى ذلك اليوم أيضاً نيف وتسعين نفراً واستمر القتل إلى أن بلغ ماية وبضع وأربعين شخصاً ، وقتل أيضاً من جميع الأشقيا شخصاً يدعى تكلى ناصف ، داوادار المنوفية ، وبابا ناصف ، وشخصاً يدعى بابا برون وغير ذلك ، ثم أجهر الندا الشريف بأن لا أحد من الناس يؤويهم ، وكل من آوى أحداً منهم ، قوبل على ذلك أشد المقابلة ، وبرز أمره الشريف بعد ذلك ، برفع السيف عنهم ، وأن يتوجهوا إلى اليمن ، وكل من تخلف منهم يعمل معه الحقارة ، فأتو إلى حضرته الشريفة طايعين ، وكتبوا أنفسهم ولم يتأخر منهم إلا من كان بمصر ، وكان غايباً عنهم ، ثم تتبعوا آثارهم حتى لم يبق منهم أحد ، ونظفت بقاع الأرض منهم أجمعين ، نصره الله تعالى على العدا ، وجنبه الردا ، وكتبه من السعدا ، دايماً سرمدا ، فلقد كان يقطع أيامه كلها من المسا

ورقة (٧٤)

إلى الصباح ، وإلى أن يؤذن المؤذن بحى على الفلاح فى سجود وركوع ، وتضرع وهجوع ، وخضوع واجرا دموع ، وتلاوة القرآن والذكر والتبتل والحمد ، والشكر والدعاء إلى ذى الجلال ، ورفع أياديه الشريفة للكبير المتعال ، بكشف هذه النقمة ، وزوال الغمة ، ويسأله النصر والتأييد ، وقطع دابر كل جبار عنيد ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاه وبلغه مناه ، وحقق رجاه ولم يخيب مسعاه ، ونصره على اللئام البغاة ، ولقد صدق الله ورسوله بما وعد به من البشرى ، فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ، فان لم يفعل ذلك إلا لعمار البلاد ، وتأمين العباد ، خالصاً لله فى جميع المراد ، فى قطع دابر أهل الفساد ، ولم يزل يكرم العلما ويحسن إليهم كعادته معهم ، ويتلطف بهم ويحنو ويعطف عليهم ، ويجبر خواطرهم ، مع تقوية الضعفا من الفلاحين والرعايا ، وجذب قلوب كافة البرايا ، إلى أن عمرت مصر بعد تدميرها وخرابها ، ودب فيها

ظهر ورقة (٧٤)

ماء الحياة ، وصارت فى غاية النزاهة ، وعلو النيل السعيد فى أيامه وكثرة المياه . وقد فاض إحسانه الخاص والعام ، وشملهم بأنواع الفضل والكرم والإنعام ، ورفعوا أيديهم بالدعا بدوام سطان الإسلام ظل الله فى الآنام ، خلد الله تعالى ظلال سلطنته على الاستمرار والدوام ، وشيد أركان خلافته إلى يوم القيامة ولم يقم بعد ذلك قايمة للبغاة المخذولين ، وتلى عليهم قوله سبحانه وتعالى ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، وقلت مؤرخا فى ذلك :

قال لى صاحب وقد ثارت الا جناد للحرب يبتغون النزالا

ما الذى قلت قلـــت أرّخ　　قرا الواو وكفى الله المؤمنين قتالا
١٠١٧ هـ(*)
سنـــة

وقال الشيخ على الملاح مؤرخاً :

أجنـاد مصر قد طغـوا　　وبجهـلهم قـد باهـوا
طلبـــوا ببغى طلبـة　　عنهـا نهـــانا الله
وخالفـوا لمليـــكهم　　وبخلفهـم قـد فاهـوا
فـلاقى الوزير محمـد　　بالنصر من مـولاه

ورقة (٧٥)

ليردهم عن بغيهـم　　فأبو اتبـاع رضاه
وتجمعـوا لقتـاله　　ارخت هـدّ بغــاه

وقلت فى معناه :

جاشت بغاة الجند يوم غرورهم　　يتضامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم　　فولغن فى علق النجيع الأحمر
فهناك لم تر غير نجمه مقبـــل　　فى أثر عفـريت رجـيم مـدبر
لا يعدمنك المسلمون فـكم يد　　أوليتهم معـــروفاً لم تنـكر
أمنت ساحتهم وصنت حريمهم　　ورددت عنهم قاصمات الأظهر
ما أن أراك الله إلا آمراً　　فيهم بمعروف ومنـكر منـكر

قلت ، ومن أعجب العجب فى هذه الواقعة أنه بعد صدورها بشىء يسير برز أمر حضرة مولانا الوزير

(*) ١٦٠٩م .

ه الله تعالى ، باجهار الندا ، فى شوارع مصر بقطع ما علا من الأرض بالقصبة ، وبحث الحوانيت على العادة ، وشرعوا فى ذلك ، فمر شخص من الناس ، وقال ما هذا فأجاب آخر وقال له : إن حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، أمر بقطع أثر الجند المفسدين من الأرض الذى مشوا عليها :

فقال الفقير مؤرخاً :

فى وقعـة الأجنـاد قد	حارت عقول وفـكر
والحـق أجـرى لطفه	على الوزير فانتصر
وقطـع الأرض الـتى	مشـوا عليهـا وعفـر
وأبدل الله العـلى	بالصفاغب الكدر
ولم يجـب دعاؤه	وفق القضـا والقـدر
وقـد أتى تاريخـه	قطـع الله الأثر

هذا وما أنشاه مولانا الوزير وجدده من العماير الشريفة والسرايا المنيفة الشامخة العماد ، الباذقة العهاد التى تشاهى المشهى وتعاوق العيون فى الارتفاق والشهوق من ذلك ترميم

ورقة (٧٦)

رخام الروضة الشريفة النبوية بالمدينة المنورة ، على الحال بها ، أشرف الصلاة والتحية ، ومنها ما عمره بمصر القديمـة تجاه المقياس الشريف ، على شاطىء بحر النيل المبارك ، وهو السراى العظيم ، والبناء الفخيم ، لجا فى غاية الإتقان والتعظيم ، بحيث أنه لم يعمر نظيره بالديار المصرية والأقطار المغربية ، ومنها تجديد الجامع المؤيدى بالقلعة المنصورة . فانه أنشأ ذلك بعد

سقوطه ودثوره واندراس معالمه وشونه ، إلى أن صار من العمارة فى غاية الإتقان ، أحسن وأتقن من عمارته فى ذلك الزمان ، ومنها عمارة سيدى سارية وإتقانه وترميم بنيانه ، وفى ذلك يقول الشيخ على الشباسى مؤرخا فى تجديد عمارة الجامع المؤيدى بالقلعة(*) :

تدارك هـذا البيت بعد سقوطه ... وزير أتى بالعـدل أيده الله
فلقت وقد ألهمت ذاك مؤرخاً ... محمد باشا معدن الحكم أنشاه

ومن جملة عمـايره الشريفة أيضاً ، حوش الأوليا الكاين بالقرافة الكبرى ، وفارس قطايا ، وما تهدم

ظهر ورقة (٧٦)

من المساجد والزوايا والربط والمساجد ، والجوامع والمعابد ، وجدد عمارة المقام النورى الكاين ذلك تحت الربع بالقاهرة المعزية . سفل مدرسة المرحوم السعيد الشهيد السلطان المالك الملك المؤيد شيخ طاب ثراه ، عمارة حسنة شريفة متسعة متقنة منيفة ومن أعظم مآثره الحميدة ، تجديد عمـارة القلعة السعيدة الصلاحية الأيوبية ، وإصلاح ما تهدم من بنيانها ، وما تساقط من أركانها عمارة متقنة كبناء عاد أو كأرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، حتى صارت نزهة للناظرين وبهجة للقاطنين والواردين ، أثراً باقياً مع بقاء الزمان وانقضا الدوران .

وفى ذلك يقول فخر المتأدبين الشيخ عبد الله الدنوشرى الشافعى خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المعزية مؤرخاً فى تجديد القلعة المنصورة ، شعر :

(*) جامع عظيم أنشأه الملك السلطان المؤيد ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، وهو من أشهر الجوامع وأعظمها وأوسعها .

هـذا بنـاء أشرقت أنواره ... وبه بهـاء زاد فى غيرانهـا
فى غاية الإتقان أصبح خالصاً ... ولحسنه شهدت عقول أولى البها

ورقة (٧٧)

فى دولة السلطان أحمد ذى العلا ... ذاك الذى مقـداره فوق البها
فالقلعة الغـرآ قرت حسنها ... بعمارة طول الليالى فى ازدها
ولسان حال الـكون قال مؤرخا ... هـذا البنا بنا سـعد بالبها

وقال مؤرخاً أيضاً

فى دولة السلطان أحمد ذى العلا ... أنشـا الوزير المستطاب محمد
هذا البـنا مجدداً تاريخه ... هـذا بنـا للسـعود ممهـد

ومنها أنشأ العماير الشريفة الفايقة البهية الرايقة ، فى أماكن غير ذلك كثيرة ، منها وقفه للركابة العظمى بمحمل الحاج الشريف ، والركب المنيف ، يحمل عليها الفقرا والمساكين والأرامل والمنقطعين والعاجزين الحجاج إلى بيت الله تعالى الحرام ، وزيارة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ،ومنها تجديده للحصار الأشرفى بثغر دمياط المحروس ، فإنه أنشأه عمارة جديدة متقنة ، بعد ما كان أعفى أثره ودثر ، فصار فى العمارة والتوسيع والاتقان لا يقاس عليه حصار ولا مكان ، مع بناء ما تهدم من الحصار الأشرفى بالثغر السكندرى وغير ذلك من الثغور .

ظهر ورقة (٧٧)

ومنها ماجدده وعمره وأنشاه بالمقياس الشريف ، وزينه أحسن زينة ، وعماره قاعاته المسكنية واتقان بنائه وبياضه وزخرفته إلى أن صار ، بهجة للناظرين

ونزهة للمتفرجين ، ومنها أمره بعمارة جامع المرحوم سليمان باشا ببولاق القاهرة وزيادته زيادة وافرة ، وتزيينه وتحسينه وإتقانه وتزيينه ، وكانت زيادة فى محلها لازدحام الناس فى الصلاة ، أبهى من زيادة جامع البحر ببولاق(*) والجامع الكبير برشيد المسمى بجامع زغلول ، وأبهاه وأسماه وغير ذلك من العمائر الشريفة والآثار المنفية ، والربط والقناطر والخيرات والمآثر التى لم يتقدم نظيرها لأحد قبله ، ولا لمن يأتى بعده وهذا كله من حسن طريقته وصفاء عقيدته(**) ، وحصل السرور التام ، والفرح العام ، واطمأنت العباد ، واستقرت البلاد ، ورخصت الأسعار ، وتقطرت الأمطار وعمرت الديار وحصل الأمان ، وطاب الزمان واعتدل الأوان ، وزال الخوف والارتجاف ، فنسأل الله ثانيا وثالثا ، أن يزيد هذا الوزير المعظم تأييداً ، وأن يؤيدة مدى الدهر تأييداً ، وأن يساوى فى الدخول تحت أمره شامخ ذات الغمائم بدل العمائم ، ويعلق النعائم عوضا عن التمايم ، وماذا .

ظهر ورقة (٨٠)

عسى أن أقول راغبا ، وإن كنت قاصراً ، باطنا فى الدعاء وظاهراً ، ولو كنت على استدخال نجوم السماء ، ورمال الدنيا فى عداد البراعة فى اليراعة قادراً ، لم أبلغ المعشار مما يليق بذلك المقام الغالى ، ولم أتى الآباء يسر اليسير من المناسب لجنابه العالى ، طاول الله تعالى بدولته العالية الغالية ، أعمار الأبد ، وحرسه بكلماته العشر ، ومدارات الأفلاك التسع وثمانية حملة

(*) يقع الآن بخط باب البحر ، وبه ضريح الشيخ محمد البحر ، وضريح الشيخ تاج الدين .

(**) حذفنا بقية الورقة وحتى منتصف وجه الورقة (٨٠) لخروجه عن موضوع النص .

العرش ، والسبع المثانى من الجهات الست ، والحواس الخمس ، والعناصر الأربع ، والإثنين الله ثالثهما ، الله الواحد الأحد آمين » .

آمين آمين لا أرضى بواحدة   حتى أضيف إليها ألف آمينا

وقلت ... ...

وإنى إن أعطيت فى القول بسطة   وطاوعنى فيها بنانى المحبر

لا أعلم أنى فى الثنا مقصرا   ولو غرف النساخ سبعة أبحر

وفى هذه الواقعة يقول مؤلفها ، العبد الفقير محمد السعدى البرلسى(*) .

ورقة (٨١)

الجزء التاسع

لم يرو من نقل الأخبار والسيرا   مثل الذى فى ربا مصر العزيز جرا

ولا رأى مثله فى أعصر سلفت   رأى وشبه ذاك الخطب ليس يرى

مصيبة دهمت فينا فما تركت   للقب قلبا ولا عينا ولا أثرا

مصيبة محقت فيه الذين دنوا   لها ولم يجدوا من دونها وزرا

بعد السوط عذاب قد أحاط بهم   فالبعد عنهم رضا ما زال معتبرا

أما ترى الجند فى مصر قد احتشدوا   وما صفى وردهم حتى سقوا كدرا

(*) هذه القصيدة من تأليف محمد السعدى البرلسى ، وله أيضاً مؤلف عن واقعة الطلبه هذه ، باسم « بلوغ الأرب برفع الطلب » وقد سبقت الإشارة إليه، انظر ص٣٠٩ وربما قصد بقوله « مؤلفها » أى مؤلف هذه القصيدة والقصيدة السعدنية الأخرى التى يمدح بها محمد باشا من وجه ورقة ٨٢ الى وجه ورقة ٨٣ ، ص ص ٣٨٠ — ٣٨٢ من هذه الطبعة . والواضح أنه أقحم هاتين القصيدتين أثناء نسخه المخطوطة ، مع ما نقله المؤلف من أفواه الثقاة عن هذه الواقعة ، يستفاد ذلك مما ذكر فى نهاية ظهر الورقة (٨١) عن القصيدة الثانية حيث قال « وقد خدمت جنابه الشريف بهذه القصيدة الطنانة لتكون ختاما لهذه الرسالة الرنانة ، مدحا فى مقامه العالى ، وتفننا فى وصفه الغالى) وهى « القصيدة السعدنية » .

عم الفضا بها أجسامهم قعدا	في كل قلب تراه منهم عبرا
دئت إليهم جيوش النصر كاسرة	قتلا وأسرا في يوم الجزا سفرا
أشد ما سمعت أذناى صارخهم	يوما فأوقر سمعي من روى الخبرا
لاغرو إن فطرت تلك القلوب أسى	منهم لخر اقائهم فطار الحجرا
شجعان حرب لعيب قد نسخته	مذ أقبلت بجيوش تذهل الفكر
لو نال إيوان كسرى بعض صدمتهم	لا نهد منه بنا آل العز وانكسرا
فصادموهم ففروا من تصادمهم في	صورة أعجزت عن وصفها الشعرا
ولم يكن أحد يرجى سـلامته	فتلك داهية حان لهم سحرا
في الشرق والغرب والبحر والمحيط	وفي سهل ووعر لم يظهر لهم أثرا
ولوا حيارى وذل البغي بقدمهم	فالبعض قتلى وبعض لقوم قد أسرا
هذا قضاء من الرحمن أخذلهم	ومن يرد قضاء الله والقدرا

ظهر ورقة (٨١)

وهـذه عبرة جات لمعتبر	في كل أمر عجيب فأنعم النظرا
فالحمد لله ذل البغي أهلكهم	جمعاً وسلم منهم هذه الصورا
أما ترى رؤوسهم فوق الرماح وفي ال	جنزير رءوسهم قدامهم دورا
فالشكر لله إذ كانت مواهبه	تزيد بالفضل والنعمى لمن شكرا
إذ صافنا وحمانا في منازلنا	بكافل الملك إذا هدى لنا الظفرا
لولاه في مصر لم يحفظ لنا وطن	ولا قضينا به دهرنا الوطرا
أتى فشمر ذيل العزم حين أتى	بهمة قد كفتنا الهم والحذرا
قد جاء بالنصر فالرحمن ينصره	على العدو الذي لولاه لانتصرا

وزير تهابه ملوك الأرض من خضعت | له الأسود ومن دانت له الأمرا
محمد وهـو سيف الله يشهره | فدام فيه بحسن الذكر مشتهرا
كالليث يحمى الشرا والرعب سطوته | فكيف أن زارته الناس أوزارا
فالله يحميـه ما غنت مطوقة | فحركت بالنسيم العود حين سرا

وقد خدمت جنابه الشريف بهذه القصيدة الطنانة لتكون ختاماً لهذه الرسالة الرنانة مدحاً فى مقامه العالى وتفنناً فى وصفه الغالى ، وهى القصيدة السعدنية :

لك الحمد يامولاى فى السر والجهر | على نصرة المولى المؤيد بالنصر

ورقة (٨٢)

وزير عظيم الشأن ثاقب رأيه | يجهز فى آن جيوشاً من الفكر
أباد له بالباس كاسرة العدى | ولكنها بالجود جابرة الكسر
محمد مولانا الوزير ومن غدا | أوامره فى مصر وأحكامه تجرى
به أمن الله البلاد وطمن الـ | عباد فكل بات منشرح الصدر
حمى حوزة الإسلام بالسيف والقنا | ومهد ملكا قد تمزق بالشر
وشتت شمل المارقين وردهم | مثال قرود شاردين من الذعر
وقطع رءوساً من كبار رءوسهم | لهم باطن السرحان والطير كالقبر
ولا زال فيهم عامل السيف عاملا | ولا برحوا فى الذل بالقتل والأسر
بكل حديد الطرف أسمر ان رنا | إلى مقتل أصماه بالنظر الشزر
ومن أبيض لا يعرف الصفح إنما | يعاملهم بالحـد فى لبة النحر
مضاربه لا تنثنى عن ضريبة | إذا راح يحكى البحر فى المد والجزر

يرش بالعدو يبرى أسهما منه | وفى العلم والجدوى يريش ولا يبرى
وإن جرد الهندى عاينت شعلة | بها شرر ترمى بها الدهر كالقصر
يجرهم للموت نون قيسية | ماقلت أن النون من أحرف الجر
مواظبة للخميس فى طوع ربها | وخدمة باريها ملازمة الوتر
لمدركة تنمى كنانة سهمه | وعامله المياد ينمى إلى النصر
وأسيافه مشهورة فى عداته | يذيقهم بالفكر عاقبة المكر

ظهر ورقة (٨٢)

فما اضطربت فى غير قلب سيوفه | وما اختلجت أرماحه فى سوى نحر
فيا أوحد الدنيا ويا واحد الورى | وزيراً عظيما سامى المجد والقدر
يمنيك فيها اليمن والأمن والمنا | ويسراك حصت فى البرية باليسر
فكم قد روينا من عواليك مسنداً | ليوم نوال عن عطاء وعن بشر
لك الله من مولى ندا جود كفه | يساجل موج البحر بالشيم الغر
أصابعه عشر تزيد على المدا | فلا غرو إن أغنت عن النيل فى مصر
فقم وارتشف يا صاح من فيض كفه
لتروى حديث الجود من طرق عشر
فيا جود مولانا الوزير ترفقا | على مهل كى يغرق الناس فى بحر
بأفق علاه قلعة الجبل ازدهت | وهزت حياء فوق قادمة النسر
وحصناً غدت ذات البروج وعمرت
وصار لها الفخر ذاكراً على ذكر
فيا حافظ الإسلام من طعن طاعن
يصيب ويخطى فى الحديث ولا يدرى
خدمت سجاياك العلا بقصيدة | يتيمة فكر نخبة الدهر والعمر

وكالذهب المسبوك صفت بيوتها كميت لحول الشعر من خلفها يجرى

وقدمت فيكم إليكم هـــدية ومن عجب أن تهدى الدر للبحر

وقد سطرت فى عام سبع وعشرة وألف سنين فى الحساب لمن يدرى

حياك العبد الـــكسير محمد وسعدى أصل والبراس فى الذكر

يلف حيـــاء وجهها طيب نشرها
فتحلوا طباق الحسن فى اللف والنشر

ورقة (٨٣)

وإن كنت قد أقلعت عن مدح غيركم
لما فيه من وزر فقـد فزت بالأجر

وفى النفس حاجات وفيـــك مكارم
يناجيـــك عن أسرارها عالم السر

فعش وابق واسلم وأغز واغنم وسد ودم
وارق وأسعد فى سرور مدى العمر

بجاه أجل المرســـلين محمد عليه سلام الله ما عز القمرى

وآل له ثم الصحابة جمعهم فما منهم إلا فتى سامى القدر

سوق يروج فيه ما كسد من بضايع الفضلا ويرغب فيه ما زهد من شاجر العظما النبلاء مثل الأعرابى وإهداء قربة ماء إلى خليفة الزمان . وإهداء رجل جرادة إلى حضرة نبى الله سليمان ، معلوم عند كبرا أهل الشان أهديت إلى جنابه الكريم ومقامه الفخيم هذه الرسالة التى لم ينسج فى هذه الواقعة على منوالها ولا سمحت قريحه بمثالها ، ولم يعارضها من له فى فن التاريخ باع مديد ولم يحم حولها طاير فضلى ،

ظهر ورقة (٨٣)

ولو كان العماد بن عبد الحميد ، لمـــا فيها من النكت الظريفة والاستطرادات اللطيفة والعظمة والاعتبار ، واختلاف أحوال الفلك الدوار ، وتقلبات الليل والنهار وقد كنت فى ذلك كله كمن أهدى إلى البحر الدرر ، والتمر إلى هجر ، والغرض هو التعلق بحبال الآمال ، والتوسل إلى التوصل إلى فايض الإحسان والأفضال ، والالتجا إلى ذلك الظل الظليل ، والمجد الصافى الأثيل من جور الزمان الظلوم . فقد أناخ الدهر بكلكله على طلاب العلوم ، وصارت الجهلة ظالمين على أرباب الفهوم . ثم انتعشوا بعض الانتعاش ورجعت إليهم أرواحهم عند الانتعاش . وذلك كله بشمول نظر حضرة مولانا الوزير المعظم ، المشار إلى ذاته ، متع الله المسلمين بطول حياته ، وأنا أرغب إلى الله تعالى وأسأل . وبجناب نبيه محمد أتوسل ، أن يرزقنا التوفيق . ويرشدنا إلى أقوم طريق . ويجعلنا أول فريق ، ويحفنا باللطف ، فهو نعم الرفيق ، هذا آخر ما أردت جمعه فى هذه الأوراق .

ورقة (٨٤)

من كل معنى ظريف ، وأثر مبارك شريف ، رق معناه وراق واطف مواده فى الأسماع والأذواق ... فدونك أيها الفاضل اللوذعى ، الكامل الفطر الألمعى ، الناظر فى هـذا المؤلف العجاب ، المتصفح لوجنات هذه العذرا الكعاب . ما أودعت فيه من اطايف الآداب وأدرجته من ظرايف النكت المحتوية على العجب العجاب ، ومع ذلك فلا أدّعى رتبة الكمال ، فوق ذى عـــلم عليم ، ولا أزعم النزاهة عن النقص والعيب ، فالمنزه من كل عيب هو الملك القدوس العزيز الحكيم ، فالأليق بالفاضل إذا عثر بشي مما كبا فيه المؤلف

وعثر أن يسدل الزلل ويقيل العثار ، ويستر الخلل والعوار ، فالكريم غفار ، والحليم ستار ، والصلاة والسلام الأكملان الأطيبان ، الأذكيان الأعطران على سيدنا محمد الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله المزهين ، وأصحابه المطهرين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

بلغ مقابلة وتصحيحاً بمزيد التقييد والاعتنا وتم ذلك
يوم الخميس بعد العصر فى عاشر ربيع الآخر
سنة ١٠٢٢هـ / ٣٠ مايو ١٦١٣ م

فلله الحمد على ذلك

التركية فى العامية المصرية

للدكتور حسين مجيب المصرى

من الحق قولنا إن لدراسة العامية من الأهمية ما لا يقل عن دراسة الفصحى ، وليس من المبالغة فى شىء أن نشير إلى كون تلك العامية أجدر باهتمامنا فى بعض الأحايين وماذاك إلا لأنها لغة تخاطب كانت أو لغة أدب، منطلقة من القيود والحدود صريحة الدلالة منبعثة من رغبة فى التعبير المستقيم، طيعة فى تأثيرها بما يموج حولها . وهى فى هذا كله من صفاتها قد تكون على العموم أصدق فى دلالتها وأعرق فى صراحتها من لغة الفصحاء التى ربما كان لها من قيودها ما ألزمها حدود نطاق لا تتجاوزه . فالعامية بهذه المثابة خير معبر عن روح الشعوب حين تمس حاجة الشعوب إلى ذكر مايحزنها ويبهجها أو وصف مصائرها أو التحدث حديثاً ينم عن المفصل من تاريخها والخاص من أمورها .

وعليه ، ينبغى لنا حين نتصدى لها كلغة تدور على الألسنة فى أحاديث القوم . ولغة يعبرون بها عن خوالج النفس ويصفون الحياة بكيفية ينطلقون فيها على سجيتهم اللغوية وسليقتهم التعبيرية . ونحن فى هذا المقام ناظرون إلى العامية المصرية من حيث تأثرها بالتركية ليس إلا .

ونحن إذا ماذهبنا نتلمس تاريخاً لبدء التعارف بين المصريين والأتراك رغبة منا فى تصورنا لهم متعايشين مختلطين ، سبق من الفهم أن ذلك كان عام ١٥١٧م، حين فتح السلطان سليم الأول مصر . غير أن واقع التاريخ ينفى هذا

الحسبان . فقد تعرف المصريون إلى الترك قبل ذلك بطويل زمان . وقدم الترك ولاة للعباسيين على مصر . ومنهم يزيد بن عبد الله التركى الذى وليها من قبل الخليفة المنتصر . كما وليها أزجور التركى . والكندى صاحب كتاب ولاة مصر يميز هذين الواليين بجنسيتهما التركية . كما ولى المعتز ابن طولون عليها سنة أربع وخمسين ومائتين . وهو تركى أصيل كما يستدل من اسمه — فطولون بمعنى بدر التمام . وأسس بمصر دولة ظلت قائمة سبعة وعشرين عاماً ثم استقلت بمصر دولة تركية أخرى هى دولة الأخشيديين وقد تسموا بهذا الإسم نسبة إلى ملوك فرغانة والأخشيد لقبهم .

وحذا الفاطميون فى مصر حـــذو العباسيين فى بغداد . فاستقدموا واستخدموا الترك جنوداً وحراسا .

وهنا وقفة لا بد منها مخافة أن يخرج بنا السرد التاريخى عما نحن بصدده ولنطرح هذا السؤال وهو هل أثر هؤلاء الأتراك بلغتهم فى لغة المصريين؟ والجواب على ذلك أن هذا جائز عقلا وليس من الحتم أن يجوز واقعا . كما أنه يفضى بنا إلى سؤال آخر وهو ما إذا كان الترك الذين خالطوا العرب فى بغداد قد أثروا فى لغة العرب .

ونحن لا نملك سندا من تاريخ للإجابة على هذا السؤال . وأكبر الظن أن هؤلاء الأتراك الذين دخلوا فى دين الله أفواجاً عرفوا العربية وكان حتما أن يعرفوها لغة لكتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم . وإن كان من المستبعد ألا يتحدثوا بلغتهم القومية ولو فيما بينهم .

ثم ينجلى هذا الغموض شيئاً ما فيما يتعلق بتأثير الترك فى لغة المصريين حين ندرك العصر الأيوبى . فنحن نعلم أن الأيوبيين أقبلوا الإقبال الشديد على شراء المماليك واستعان صلاح الدين ونور الدين بجند من الترك . وتلا تلوهما الصالح نجم الدين أيوب فبنى لهم الشكنات فى جزيرة الروضة .

ولكن لم يكن لهؤلاء الأتراك بالمصريين خلطة إلا فيما ندر ، وشكلوا طبقة عسكرية منفصلة عن أهل البلاد ، وإن قيل إن التركية كانت لغة الحديث فى قصر صلاح الدين ومعسكره وإن جميع مؤرخى تلك الدولة أطلقوا عليه اسم الدولة التركية وها هو ذا ابن النبيه من شعراء الأيوبيين يحدثنا عن جمال الترك بقوله :

الله أكبر كل الحسن فى العرب   كم تحت لمة ذا التركى من عجب

كما طرق نفس المعنى شاعر أيوبى آخر وهو يقرظ ديواناً من الشعر العربى لشاعر تركى فقال :

وكنت أظن الترك تختص أعين   لهم إن رنت بالسحر فيها وأجفان
إلى أن أتانى من بديع قريضهم   قوافى هى السحر الحلال وديوان

أما فى عهد المماليك فإن التركية أصبحت لغة القصر . وكان المصريون يمقتون المماليك أشد المقت . وقلما جرى مع ألسنة هؤلاء كلام بالعربية . وما أصهروا إلى أهل مصر إلا فى الندرة .

ويستبين من هذا كله أن التركية كانت فى القصور والمعسكرات . ولغة أهل الحول والطول من السلاطين والحكام وذوى البطش من أهل السيف . فكان يدرؤها عن أهل مصر أبواب وحجاب . وربما كراهية تنفر منها كما نفرت من أهلها .

وأياما كان فلا يستقيم فى الفهم ألا يكون قد تسرب إلى المصريين منها ولا بعض مفرداتها .

ولو يفوتنا قولنا إن هذه التركية لم تكن العثمانية التى نأنسها ونعدها الثالثة من لغات الأدب الإسلامى .

وبعد الفتح العثماني ، انعقدت الصلات بين المصريين والأتراك العثمانيين ، ولا نعرف بين هؤلاء وهؤلاء من العداء والمقت مثل ما نعرف في عهد المماليك فلقد ذكر أحد الرحالة في القرن السادس عشر أن المماليك يعايشون العرب كما يعايش الذئب الحمل ، ولطالما انتشب القتال بين العرب والمماليك .

أما في عهد العثمانيين ، فتبدلت الحال غير الحال ، واستعان العثمانيون بالعرب على تنظيم المجتمع المصري وبسط الأمن في ربوع البلاد . مما ينهض دليلا على أن العثمانيين كانوا على وفاق مع الجمع الغفير من أهل مصر . وما من شك في مثل أن هذا التعاون لابد موطد للصلات بين الأتراك وأهل مصر . كما أنه يتيح للغة الحاكمين أن تؤثر في لغة المحكومين وتلك الحقيقة أقرب إلى الفهم . وتصح تعليلا لتسرب ما لا يحصى كثرة من الألفاظ التركية إلى العامية المصرية .

ومما يذكر أن تلك الألفاظ التركية لم تدخل لغة المصريين مصرية كما كان الشأن في الفارسية التي يمر بها العرب فكانت جزءاً لا يتجزأ من متن اللغة العربية ، بل إنه يجيء التركية في العامية كما هي وإن حرفتها ألسنة المصريين .

ولا نستحسن في هذا المقام أن نحاول حشداً لتلك الألفاظ أو إحصاء لأن ذلك كثير متسع يطول شرحه ويسئم ذكره . فمن الخير تقسيم تلك الألفاظ اقساماً يستدل منها على شيء .

واول ما نصادف منها اسماء الطعام والشراب . ففي العامية المصرية كثير من أسماء الأطعمة . ونلاحظ أنها من ألوان الطعام الطيبة الفاخرة في الأغاب مثل أوزى وهي في التركية توزى بمعنى الحمل وكندوز من أوكوز بمعنى الثور . أما كباب وكوفتة فلفظان فارسيان وثالثهما موزة وهي في الفارسية

مازو . ومن صنوف الخضر مايعرف بالقللى وهو من تورلو تورلو فى التركية بمعنى التنوع . والضولمة . وهى طولمة بمعنى الممتلىء أو الحشو . أما الحلوى فمنها الشكلمة وأصلها شكرلمة . والخشاف كلمة فارسية بمعنى الماء اللذيذ وقد انتقلت من الفارسية إلى التركية ومنها إلى العربية .

وحسبنا هذا القدر من الأسماء الذى يستدل منه على أن العثمانيين يهتمون بطعامهم . وهذا مانعهده إلى اليوم . فمن يزر استانبول يلحظ كثرة المطاعم وحوانيت الحلوى فيها .

كما ندرك من هذا . أن الحكام وذوى اليسار من العثمانيين فى مصر عرفوا أهلها صنوفاً خاصة بهم . وكثيراً من أدوات الطهو مازالت إلى اليوم بأسمائها التركية .

ومما يعرف عن الترك ميلهم إلى جمال الفنون وروعتها ، وحسبنا أن نذكر ترحيل السلطان سليم لمهرة الصناع المصريين إلى استانبول ليفيد الترك من حذقهم فى فنونهم . وهذا يذكرنا بلاحقة فى العامية المصرية وهى (جى) فإنها فى التركية تفيد معنى صاحب الحرفة أو الفن .

أما الملابس. فمازالت بعض أسمائها تركية ، ومن تلك الأسماء ما اندثرت مسمياتها اليوم مثل (جنتيان) وهو نوع من السراويل تلبسه الفلاحات . واذكر أنى سمعت هذه الكلمة منذ خمسين عاماً فى أغنية من أغانى الحاجات. فهل كانت الفلاحة المصرية تلبس هذه السراويل أو أنها كانت خاصة بحاجة تركية ومنها الضترى وهى فى التركية انتارى وهو نوع من القمصان ، ولكنها فى العامية المصرية مبتذلة . ومن الألفاظ ما بقيت على تركيتها ومالها من بدل مثل (أويه) وهى حلية يزودان بها ماتستر به بعض النساء رءوسهن . أما الطربوش وأصله فى الفارسية سربوش بمعنى غطاء الرأس . فكان خاصاً بالنساء وقد وردت هذه الكلمة فى شعر بالتركية العامية للشاعر واصف

الأندرولى المتوفى ١٨٤٥ م ، وفيه يجرى الكلام على لسان أم تنصح ابنتها بألا تخيط الأزرار فى طربوشها لأن ذلك يخرجها من أصول الحشمة .

ومن الألفاظ التركية ماهو مشتق من العربية غير أن له مدلولا خاصاً ليس له فى العربية مثل (حرامى) بمعنى اللص وهذا اللفظ مهجور فى لغة الترك ولكنه باق فى العامية المصرية فكأنه مات فى التركية ليحيا فى العربية .

أما كلمة بقشيش وهى فى الفارسية بخشش بمعنى الهبة والعطاء . فقد ماتت فى الفارسية لتحيا فى التركية والعامية المصرية . ومن الألفاظ التى نتوهمها عربية وهى تركية كلمة عربة ، فلا وجود لها فى معاجم العربية لأنها إرابا فى التركية . وهى تذكرنا بكلمة حنتور وهى تركية ماخوذة من المجرية Hinto .

ومن الألفاظ التى هجرت فى الفارسية وانتقلت منها إلى التركية (دستور) وهى لاتستخدم الآن فى التركية وإن بقيت فى العامية المصرية بمعنى الإذن. والإذن فى حال خاصة عند الرغبة فى التعبير عن الرجاء والاعتذار .

ومن المستطرف أننا لانعدم الألفاظ التركية فى كلام أطفالنا . فهم حين يلعبون بالكرات الصغيرة المعروفة بالبلى يقول البادىء باللعب أنا البرم . من بر فى التركية بمعنى أول . كما أن الصغار إذا أرادوا العبث بالحمار الناهق قالوا له زر . وهى الأمر فى التركية من المصدر زارلمق بمعنى النهيق . أما الألفا، وهو رئيس التلاميذ فى الفصل فهو الصيغة التركية لقلفا أو خليفة بمعنى من يخلف المدرس .

أما أسماء الاعلام فى مصر فمتأثرة بالتركية إلى حد بعيد فكل اسم ينتهى بتاء مفتوحة مثل حكمت ونصت وبهجت هو فى صيغته التركية .

وحسبنا هذا القدر من الألفاظ التركية التى إندمجت فى العامية المصرية.

وانتشر إلى أثر التركية فى الأدب الشعبى عند أهل مصر ونذكر أول مانذكر تلك الأغانى التى تغنيها الأم لطفلها وهى تسكنه وتهدئه لينام . وهذا النوع من الأغانى كثير فى العامية المصرية كثرته فى التركية . والأرجح أن يكون أهل مصر قد عرفوه من الترك ففى التركى والعربى من هذه الأغانى كلمتان تترددان فى كل أغنية وهى (هو) من أسماء الأصوات و (نى) وهو اسم تلك الأغنية فى التركية المشتق من (نانو) فى الفارسية وهذا ما أدخل على العامية المصرية فعلا هو (يهنن) بمعنى أن تغنى الأم لصغيرها حتى ينام .

ومن الدليل على أن المصريين كانوا يعلمون بوجود هذه الأغانى عند الترك ويتأثرون بها تلك الأغنية .

نته نته بالتركى

نته نته بالعربى

يالله تنام يالله تسكت

وادبح لك جوزين كتكت

وهذه الأغانى على سذاجتها تعبر عن الأفكار الشائعة والتقاليد المتوارثة . فمعلوم أن عوام المصريين يفضلون أن يولد لهم ولد على أن تولد لهم بنت . وهذا ماتؤكده الأغنية التى تقول الأم فيها :

لما قالوا دى بنيه

لانهدّ ركن البيت على

كما قالوا ده ولد

اشد ضهرى واسند

ونحن نصادف ألفاظاً تركية فى تلك الأغانى المصرية .

ومن الأغانى الشعبية مايعرف بالموال . وقد وصف الشاعر التركى فاضل بك فى القرن الثامن عشر امرأة مصرية تتغنى به . والمتبادر إلى الذهن أن الموال من المواليا وهى نمط من الشعر العامى عرفه العرب فى العصر العباسى غير أن القواميس التركية تنص على أن الكلمة تركية .

ومن الأدب الشعبي عند الترك والمصريين مايعرف بخيـــال الظل ، وينعقد إجماع المؤرخين على أن الترك فى آسيا الشرقية أخذوه عن الصين . والصين أهل مهارة فى الصناعة .

فكانوا يرسمون على قماش أوورق صوراً للانسان والحيوان حتى يتكون ستار مزدان بالصور والنقوش ثم يلف بهذا الستار مايشبه مصباحاً كبيراً موقداً فتبدو صور الستار ، ثم يدار المصباح حول نفسه لتعاقب الصور أمام المشاهدين .

وفى رأى أن العثمانيين عرفوا خيال الظل أول ماعرفوه فى عهد السلطان أدرخان حام ١٣٥٩ م، وفى رأى آخر أنهم أخذوه عن المصريين . ويقال عن السلطان سليم بعد قتله طومان باى أنه استدعى خيالياً وأمره أن يمثل صلب طومان باى على باب زويله وأعجب السلطان كل الإعجاب بماشاهد وشاء أن يصحبه ذلك الخيال إلى استانبول ليدخل البهجة على نفس ولده الأمير سليمان القانونى خيَّر سماتة من هؤلاء الخياليين الذين استقدمهم أبوه من مصر بين البقاء فى تركيا والعودة إلى مصر . ويعتمد بعض الباحثين على هذا الخبر فى إثبات أن الأتراك عرفوا خيال الظل من المصريين .

ولكن الجدير بالذكر هو أن هذه المعروضات أو التمثيليات كانت تشرح بالعربية والتركية وشخصياتها من الشعبين المصرى والتركى . وهذا ماينطبق

على ما يعرف بالقره كوز أو مسرح العرائس . وقيل إن الحوار بين القره كوز وغيره من الشخصيات كان يدور بالعربية والتركية فى عصر محمد على . وهذا مؤكد أنه كان يتيح للمصريين أن يتفهموا بعض ما يسمعون بالتركية . وتلك وصلة ولا شك بين اللغتين أوجدها ذلك الفن الشعبى . وليس بمستبعد أن يكون بعض المصريين قد تلقنوا شيئاً من التركيـة بمشاهدة هذه التمثيليات وعرفوا أن ألفاظها ماضمنوها لغتهم العربية وأجروها على ألسنتهم ومنـذ أربعين عاماً نظم أحمد شوقى أغنية باللغة الدارجة بعنوان (بلبل حيران) وفيها يتمثل البلبل عاشقا للوردة يعبر لها عن هواه ويبثها شكواه . وما من ريب فى أن هذا الشاعر إنما عرف ذلك من قراءة له فى الأدب التركى القديم أن البلبل يعشق الوردة ولا يغنى إلا إلى جانبها . وشعراء الصوفية يرمزون بذلك إلى وفاق المعانى وخفى الرموز .

وغير شك أن التركية بعـــد انسرابها فى عامية المصريين أدخلت عليها كثير من الألفاظ الفارسية التى شكلت الـكثرة الـكاثرة من ألفاظها . فلنا أن نقول إن لغة المصريين أصبحت مظهراً لالتقاء اللغات الإسلامية الثـلاث فى لغة واحدة . ولعله المظهر الأهم الأوضح لاتحاد المسلمين فى تفـكيرهم وتعبيرهم وشعورهم المتجلى فى أدبهم الفصيح والشعبى كتجليه فى لغتهم الفصحى والعامية .

ونذكر فى ختام هـذا المقال كلمتين تجريان على لسان الطفل إذا جاع وظمىء . فهو يقول (مم ، وهى كلمة تركية) بمعنى الطعام . ويقول (امبو) وهى كلمة مصرية قديمة بمعنى ظمآن . فكأن كلمتيه مصرية أصيلة وتركية دخيلة تدوران وهما متلازمان فى أول ما يجرى له من الـكلام على اللسان .

نظرة جديدة إلى جمال الدين الأفغانى

احمد عبد الرحيم مصطفى

عرض لكتابى :

— Nikki R. Keddie, Sayyid Jamal al - Din Al Afghani — apolitical biography.

(University of California Press, 1972)

— Elie Kedourie, Afghani and Abduh - an essay on religious unbelief and political activism in modern Islam (London. Frank Cass, 1966)

من ملامح دراسات السير لدينا إفتقارها إلى النظرة النقدية وتميزها بعـــدم الاتزان فى إصدار الأحكام . فهى تتصف بوجه عام بالعمومية والعاطفية والاستغراق فى النظرة الواحدة التى تجعل كل شىء إما أبيض أو أسود — ومن ثم المبالغة فى تقييم دور القادة والزعماء وإحاطتهم مع الزمن بما يشبه القداسة التى يحاط بها أولياء الله الصالحون ؛ حيث تضعف النظرة النقدية وتقوى الاتجاهات التبريرية وتبدو الحقائق أو التفسيرات الجديدة خروجا على المألوف . مرجع ذلك كله عدم انتشار المفاهيم الاجتماعية فى تفسير التاريخ وتمركز الأحداث حول شخصيات بارزة — على طريقة توماس كارليل — يفترض أنها هى المسئولة عن تحويل مجرى التاريخ ، لا باعتبارها حصيلة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسائدة فى عصر من العصور .

وجمال الدين المعروف بالأفغانى من الشخصيات البارزة التى حظيت —

ولا تزال تحظى - بالاهتمام والدراسة فى الشرق والغرب : وذلك راجع إلى اقتران اسمه بمقاومة الاستعمار الغربى والحركة الدستورية واتجاه التجديد الإسلامى فى عدة بلدان إسلامية . ورغم ذلك توجد فى حياة الأفغانى جوانب كثيرة غير واضحة حتى الآن مرجعها غموض شخصيتها وتمرسه بالأسلوب الشيعى القائم على التقية والذى يقتضى عدم الافصاح الصريح عن النوايا . وإذا كانت حياة الأفغانى قد كتبت بعدة لغات ، فإن الدراسات الخاصة به مما كتب قبل عام ١٩٦٢م ، لا تعتبر كافية أو دقيقة تماما . ذلك أن مؤرخ الأفغانى تواجهه صعوبتان - فمن ناحية نجد أن معظم المادة المرتبطة بحياته مستقاة عن روايات صادرة عن الأفغانى وتلاميذه - وهو فيما يرويه يبالغ فى تصوير أهميته بالنسبة إلى الدوائر الحاكمة فى كثير من البلدان : فأينما حل تصوره هذه الروايات على أنه كان موضع ترحيب من الحكام الذين يقربونه إليهم ويعرضون عليه أرفع المناصب ، ثم ما يلبث أن يصطدم بهم ويتعرض للطرد سواء فى الهند وأفغانستان أو فى إيران ومصر وتركيا . وترتبط هذه الصعوبة بعدم توفر الوثائق المستقلة التى تفصل فى حقيقة الأحداث ، فلما كان الأفغانى قد أمضى حياته فى عدة بلدان وجب على مؤرخه أن يقوم بكثير من الرحلات وأن يلم بكثير من اللغات التى التى قد تساعده على التنقيب فى دور وثائق عدة دول . وبالاضافة إلى ذلك تواجه مؤرخ الأفغانى روايات متناقضة يناصبه بعضها العـــداء فى حين يتصدى بعضها الآخر للدفاع عنه ، ولا يتصف بالحياد إلا أقلها - وكل ذلك مما يعقد مشاكل الحكم التاريخى عليه .

وقد ظهرت أخيراً سير للأفغانى لا تستند إلى رواياته هو ومريديه وحدها - فقد كتب عنه بالإنجليزية كل من نيازى بيركز [(١)] وسلفيا

(١) Niyazi Berkes, The development of secularism in Turkey. Montreal, 1964

حييم[1] وألبرت حوراني[2] وإلى كدورى[3] وألبرت قدسى زاده[4] وغيرهم . أما أكثر الدراسات شمولا واوقعا فقد نشرتها هومابا كدامان باللغة الفرنسية فى عام ١٩٦٩[5] ، وفيها أفادت من مصادر أخرى أهمها الأوراق التى تركها الأفغانى فى طهران فى عام ١٨٩١ م، والتى نشر فهرست لها باللغة الفارسية بالاضافة إلى نص بعض الوثائق . وهناك ترجمة مفيدة للأفغانى يتضمنها كتاب نشر باللغة الفارسية فى عام ١٩٦٠ م ، ويحتوى على مراسلات حكومية إيرانية تتعلق بالأفغانى مستقاة من أرشيفات الحكومة الإيرانية غير المطروقة بوجه عام . ورغم ذلك فثمة مصادر أخرى فارسية وتركية وعربية عن الأفغانى لم يفد منها الباحثون كثيراً ، وكذلك الحال بالنسبة إلى المصادر الوثائقية المصرية . وبالاضافة إلى ذلك فإن أوجه نشاط الأفغانى فى كل من الهند واستنبول وروسيا القيصرية لاتزال غامضة .

وتراجم الأفغانى التى كتبت قبل عام ١٩٦٠ م ، ترتكز على مصدرين نذهب بروفسور كدى إلى أنهما مضللان أو متحيزان هما تاريخ حياة الأفغانى الذى نشره الشيخ محمد عبده فى بيروت فى أواسط الثمانينات من القرن الماضى حين جعله مقدمة لمقال « الرد على الدهريين » ومقال نشره جورجى زيدان عن الأفغانى فى مجلة الهلال فى عام ١٨٩٧م ، بعد وفاة جمال الدين بقليل وذكر فيه أنه استقى معلوماته من محمد عبده وأديب

---

(١) Sylvia Haim (ed.). Arab nationalism. Berkelez and los Angeles, 1962.

(٢) Albert Hourani, Arabic thought in the liberal age, 1778 — 1939. London.

(٣) أحد الكتابين اللذين نعرض لهما .

(٤) Albert A. Kudsi - Zädeh. Thə legacy of Sayyid Jamal àl—Din àl—Afghàni in Egypt. Unpublished dissertatiòn, Indiana University. Bloomington 1964.

(٥) Homa Pakdāmàn, D. Jāmal — ed Din Assad Abadi dit Afghàni, Paris, 1969.

اسحاق . ويصطنع محمد عبده فى عرضه الدفاع عن الأفغانى ويدحض ما رواه بعض مريديه فى مصر عن زندقته وعدم تمسكه بالدين معتمداً فى ذلك على ما رواه الأفغانى عن نفسه شأنه فى ذلك شأن جورجى زيدان . وعلى حين أن دراسة محمد عبده تقف عند عام ۱۸۸۰ م نجد أن مصادر جورجى زيدان ضعيفة فيما يتعلق بالسنوات التالية لعام ۱۸۸۵م .

أما بروفسور كدى مؤلفة الكتاب الأول الذى نعرض له فتشغل وظيفة أستاذ للتاريخ بجامعة كاليفورنيا (لوس إنجليس) . وقد كرست عدة سنوات لتتبع حياه الأفغانى وفكره رحلت خلالها إلى بعض البلدان التى عاش فيها حيث حصلت على مادة جديدة من دور وثائق لندن وباريس وطهران وغيرها . ثم قامت على دراسة هذه المادة دراسة نقدية بذلت فيها جهدا كبيرا ووفقت فى جانب كبير منها فى تمحيص كمية كبيرة من الأدلة المتضاربة الخاصة بتوقيت وظروف رحلات جمال الدين وعلاقاته الشخصية ودوافعه وأفكاره . كما يبرز تحليل المؤلفة كثيرا من التناقضات التى نلمسها فى أفكار جمال الدين ويوضح أن الصورة التقليدية للأفغانى باعتباره نصيراً مخلصا لتعاليم الاصلاح الاسلامى مضللة إلى حد كبير . حقيقة أنه كان مفكراً حراً ظل يقدم رسالته بحيث تتناسب مع مستمعيه على اختلاف مشاربهم واعتبر الدعوة الدينية أداة لأهداف سياسية ، إلا أن بروفسور كدى تبرز أن تقدميته فى المجال الدينى كانت تابعة لهدفه السياسى — ومن ذلك أن ارتباطه بحركة الجامعة الاسلامية لم يبدأ إلا فى عام ۱۸۸۳ م، حين بدأ يتقرب من السلطان عبد الحميد وأنه أبدى استعداده فى مناسبات تالية للتخلى عنها حين رأى أنها تتعارض مع قضايا أخرى . بل أنها تبرز أن عداءه للإمبريالية البريطانية لم يمنعه من عرض خدماته على الحكومة البريطانية فى أكثر من مناسبة وأنه أشاد بالاستعمار البريطانى فى معرض حديثه عن الاستعمار الفرنسى .

وتعرض المؤلفة فى كتابها مادة جديدة تتصل بالتحليل النفسى لهذه الشخصية المضطرمة. وهذا الكتاب فى مجموعه لا يعتبر معاديا لجمال الدين، بل يعطف عليه بعض العطف ويوفر تصويرا إيجابيا لحياته ونشاطه. ورغم اصطناع جمال الدين للغموض من باب (التقية) لدى الشعية، ورغم ما تتضمنه أعماله من تناقضات فان المؤلفة لا تشك فى اخلاصة وإيمانه بقضية الإنعاش الاجتماعى والسياسى فى البلدان الشرقية، كما أنها تظهر نمو أثره فى التفكير القومى والاصلاحى إلى حد كبير منذ وفاته. فهى تصوره باعتباره شخصية لامعة ذات طاقات وطموحات لا تهدأ: فهو دائما يخطط ويصطدم ويهدد وينشر دعوته ويفخر بما أحرزه من نفوذ، وإن يكن يشكو فى نفس الوقت بما لقيه من صدود من جانب أشخاص يتمتعون بمراكز كبيرة — كما كان يتمتع فى نفس الوقت بنفوذ كبير ناتج عن شخصيته القوية وذكائه وثقافته وتأثيره فى عدد كبير من المريدين والأتباع الذين ما لبث كثيرون منهم أن انفضوا من حوله.

وتستفيض المؤلفة فى قضيتين رئيسيتين هما أصل جمال الدين وعدم تمسكه بالدين بالصورة المعروفة عنه. فالأفغانى وأشهر مريديه يذهبون إلى أنه ولد ونشأ فى أفغانستان وبالتالى فهو زعيم الأغلبية الإسلامية من أهل السنة — هذا على حين أن كثيراً من الإيرانيين قد ذهبوا فى حياة جمال الدين إلى أنه ولد ونشأ فى إيران على المذهب الشيعى. ولا يزال الخلاف حول هذه المسألة مستمراً حتى اليوم: فعلى حين أن العرب والأفغانيين يذهبون إلى كونه سنيا نجد أن الإيرانيين يبرزون مزيداً من الأدلة الجديدة على كونه إيرانيا شيعيا.

وبعد أن تستعرض المؤلفة وجهتى النظر هاتين تقطع بما لا يترك مجالا للشك بأنه شيعى إيرانى حاول جاهداً أن يخفى هذه الحقيقة حتى تتأثر مكانته لدى الأغلبية السنية. وتربط المؤلفة بين قضية أصل الأفغانى وبين قضية أخرى تتصل بما تذهب إليه من عدم حرصه على التمسك بأهداب الدين فى تفاصيله، مشيرة إلى ما صدر عنه فى حياته من أعمال وأقوال يشتم منها عدم

تمسكه بالدين إن لم يكن إلحاده ، وهي التهمة التي نفاها عنه مريدوه . وهي تستشهد على صحة رأيها بطرده من استنبول في عام ١٨٧٠ م بناء على طلب من شيخ الإسلام بعد أن ألقى خطبة رؤى أنها تنم عن الزندقة والالحاد .

وأما بروفسور إلى كدورى أستاذ العلوم السياسية بكلية الاقتصاد بجامعة لندن ورئيس تحرير مجلة Middle esstern studies — فهو يركز في عرضه لجمال الدين على الأدلة على زندقته ، مستشهدا على ذلك بالسمعة التي لاحقته طيلة حياته بهذا الصدد وبالعدد الكبير من الشهود الذين يعززون حكمه هذا. فمثلا يذهب الكاتب عباس محمود العقاد إلى أن الأفغاني قد عرف (بالزندقة) في أوساط المتدينين ويستشهد على ذلك بما رواه عنه بعض مريديه وبنوعية الشباب الذين التفوا حوله . فمنهم سليم عنحورى الذى استفاض في دراسة الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الالحاد والاعتقاد بخلود العالم — وفي مصر أصبح مركز الدائرة بالنسبة إلى المثقفين الساخطين والمتمردين على الدين الذين كان يلقنهم مبادىء فلسفية مرية وهدامة . وقد برز من هؤلاء عبدالله النديم الذى قضى سنوات ينادم أعيان الريف ويلقى عليهم النوادر على موائد شرابهم وأديب إسحاق الذى هاجم رجال الدين الكاثوليك والموارنة الذين رفضوا الصلاة على جثمانه بعد وفاته في بيروت واليهودى يعقوب صنوع الذى أبدى حماسة لتوحيد الأديان السماوية الثلاثة بالشكل الذى صوره الأفغاني والقس لويس صابونجى رجل الدين الكاثوليكي العراقي الأصل الذى كان أميل إلى الإسلام كما يشير بروفسور كدورى إلى أن رفقاء الأفغاني خلال السنوات الأخيرة التي قضاها في استنبول كانوا يضمون بابيين من الفرس عرفوا بمحاولتهم نشر الالحاد ونشاطهم في زعزعة سلطة الحكومة الفارسية . كما يشير إلى ألى القنصل البريطاني العام في مصر سجل حادثة طرد الأفغاني من مصر في عام ١٨٧٩ م ؛ مقتبسا بعض التفاصيل عن حياته بالصورة التي لاشك أنها كانت متواترة في الدوائر الرسمية — فكتب مايلي : « لقد

طرد من محفل الماسونيين الذى كان يتمتع بعضويته فى القاهرة منذ وقت قصير ، وذلك لما أعلنه من عدم إيمانه بالكائن الأعظم » .

ويجمع مؤلفا الكتابين الذين نعرض لهما على أن ما نشر باللغة العربية عن الحوار الفكرى الذى جرى بين الأفغانى ورينان على صفحات جريدة « الجورنال دى دبا » الباريسية لا يطابق الأصل الفرنسى وأن كلا من محمد عبده والأفغانى لم يبديا أى ميل إلى نشر رد الأفغانى على رينان : وهو الرد الذى لم يترجم نصه إلى اللغة العربية حتى الآن ، بل اقتبست منه بعض الفقرات التى حورت بحيث عرضت باعتبارها دفاعا عن الاسلام . وتقدم بروفسور كدى نص خطبة رينان وتعليق الأفغانى عليها مترجما إلى اللغة الإنجليزية .

أما خطبة رينان المشهورة هذه فقد ألقيت فى السوربون يوم ٢٩ مارس ١٨٨٣م، وفى معرضها أشاد المتكلم بالهيلينية باعتبارها مصدر العلم والتقدم فى أوربا وهاجم الاسلام صراحة باعتباره — فى رأيه - أداة للطغيان والاضطهاد وكبت حرية الرأى .

وقد اختار الأفغانى أن يرد علينا على هذه الخطبة وفى رده - كما هو منشور فى هذا الكتاب أمن على بعض ما ذهب إليه رينان فى أن الأديان جميعا بعيدة عن التسامح وأنها مدعاة لاختلاف البشر .

وبالإضافة إلى هذه القضايا الرئيسية المتعلقة بحياة جمال الدين تشير بروفسور كدى جوانب أخرى منها أنه أطلق على نفسه اسم الأفغانى إلا فى عام ١٨٦٩ م ، بعد طرده من أفغانستان وأنه أطلق على نفسه قبل ذلك لقب « الاستنبولى » وأنه فى فترة ثالثة من حياته أدعى الانتساب إلى آل البيت واطلق على نفسه اسم الحسينى . وهى تقطع بأنه كان شيعيا مستدلة على ذلك بتفقهه فى الدين ـ الأمر الذى كان غريبا فى أيامه على المقلدين من أهل السنة .

إن هذين البحثين اللذين عرضنا لهما يعززان ما يذهبان إليه بمختلف الأسانيد الوثائقية التى استلزمت منهما جهداً كبيراً فى التوصل إليها وتحليلها . ولا ينبغى لهذه الاضافات التى أوضحا فيها جوانب جديدة من حياة جمال

الدين وفكره والتى نقلنا جزءاً منها أن تقلل من شأنه باعتباره أحد أعلام حركة الكفاح ضد الاستعمار فى القرن الماضى ، وأحد كبار دعاة حرية الفكر فى الشرق . ولا نرجو أن يثير عرضنا هذا اعتراضا أو سخطا من البعض فالحياة البشرية من التعقيد بحيث لا نتوقع لشخص ما أن يتوافق تفكيره وسلوكه فى كل وقت مع الصورة التى تترسب فى أذهاننا عنه . بل ان الواحد منا لو تتبع اقواله على مسطح زمنى شاسع لرأى العجب العجاب : ما بين الشك واليقين والرضى والسخط وغير ذلك من الأحاسيس المتصارعة المتناقضة خاصة إذا ما علا صوته ولم يستبطن أفكاره فى مدها وجزرها قبل أن يتخذ القرار الحاسم . فالانسان لا يولد عظيما منذ اليوم الأول ، وكبار الشخصيات من أمثال جمال الدين من الطول العرض والايجابية والاضطرام النفسى وكثرة الصحبة والكلام والحساسية بحيث تعلو على بعض الهنات التى ركز عليها مؤلفا الكتابين اللذين استعرضناهما من باب ابراز ما توصلا إليه وتجسيمه بحيث يركزان الأضواء على جانب واحد من جوانب حياة جمال الدين وفكره . وهو الجانب الذى مر عليه مترجموه السابقون مرور الكرام او تجاهلوه تجاهلا تاما اما عن قصد تبريرى أو لقصور المادة التى توصلوا إليها . فالزعماء ليسوا فصيلة خاصة من بنى الإنسان ، ولكنهم من قوة البنيان النفسى وحسن الإدراك بحيث يتميزون على معاصريهم ويتقدمون الصفوف . وما أحوجنا فى نهضتنا الحديثة إلى النظرة النقدية المتسامحة التى تعرض للتاريخ فى إطار الطبيعة البشرية لا فى إطار الخوارق والمعجزات . وما أحوجنا أيضاً إلى اطراح النرجسية القومية التى ورثناها عن طول الظلم والطغيان والاستعمار بحيث لا نتوقع من العالم الخارجى سوى العدوان والتآمر سواء على كياننا أو على تراثنا القومى . ولنفتح صدرنا لكل جديد حتى ولو كان لا يتفق مع مألوفنا، فإذا لم نرض عنه فعلينا أن نثبت العكس بالتوفر على الدراسة الجادة لا بالصياح العصبي الذى لن يفيدنا فى شيء .

مؤتمرات

١ ـ عقد مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، ندوة عن « التغير الحضارى لمنطقة الشرق الأوسط فى العصر الحديث » فى الفترة من ١١ إلى ١٤ ديسمبر ١٩٧٦م ، وقد تناولت البحوث التى قدمت للندوة مختلف القضايا التى تدور حول ظاهرة التغير الحضارى فى منطقة الشرق الأوسط ، وتحديد مسارها ، ومحاولة الكشف عن طبيعة البنيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لهذه المنطقة ، وعوامل التخلف والتقدم ، ومراحل الانغلاق والانفتاح والصراع بين القوى الاجتماعيـة المحافظة ، والقوى الاجتماعية المجددة ، ومكانة أهل الفكر فى هذا الصراع ، كما تناولت مستقبل المنطقة « إزاء ما يكمن فيها من طاقات مبدعة وخلاقة انطلقت فى الماضى وأنارت الطريق لمناطق أخرى فى أنحاء متباينة من هذا العالم الذى نعيش فيه ».

وقد شارك فى الندوة نخبة من العلماء العرب والأجانب وستقوم الجامعة بطبع البحوث والمناقشات فى مجلد خاص .

٢ ـ عقدت كلية الألسن ـ جامعة عين شمس ندوة عن « الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م ١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ » فى الفترة من ١٨-٢١ ديسمبر ١٩٧٦م ، وقد تناولت أبحاث الندوة والتى شارك بها عدد من العلماء العرب والأجانب ، رفاعة رافع الطهطاوى نشأته وحياته التعليمية والعلمية وموقفه من قضايا عصره ، كما تناولت آثار رفاعة مترجمة ومؤلفة بالنقد والدراسة والتحليل ، ودوره فى إنشاء مدرسة الألسن وتطويرها خلال القرن التاسع عشر .

وستقوم الجامعة بطبع الأبحاث فى كتاب خاص .

٣ ــ عقدت كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية ندوة بعنوان «الحضارة الإسلامية» بمناسبة الذكرى السنوية الأولى، لوفاة الأستاذ الدكتور أحمد فكرى، أحد رواد علماء التاريخ الإسلامى، وقد دعى إلى الندوة عدد كبير من العلماء المصريين والعرب، وقد تضمنت الأبحاث التى قدمت إلى الندوة الحضارة العربية الإسلامية وأثرها فى أوربا، وجماليات الفن الإسلامى بين الدين والمد الحضارى، وقد اختتمت الندوة أعمالها بتوصيات متعددة، منها ضرورة مواصلة البحث والكشف عن الأصالة فى الحضارة الإسلامية، ونشر تراثها بإنشاء مركز دائم يكون مقره مدينة الإسكندرية، وتشرف عليه جامعتها، هذا بالإضافة إلى ضرورة جمع الأبحاث التى لم ينته منها الدكتور أحمد فكرى فى حياته.

وستقوم جامعة الإسكندرية بطبع الأبحاث التى ألقيت فى الندوة فى كتاب يهدى إلى ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكرى.

KING MAKES OFFERING TO HIS ANCESTORS

BY

MOHIY ELDIN IBRAHIM
Assistant Professor Helwan University –Faculty of Tcurism

We have been told that the presence of the ancestors in the Pharaonic conception was highly remarked, and that their cult was so important in every aspect of their life and belief.

Both Royl ancestors and Mythical ancestors played an important role in their daily lituigy and their festivals. This is a very interesting fact and a subject which will be discussed later in detail; but here it is noteworthy to put just an example to show how was the king, the living Horus, was so keen in paying much attention to his Royol ancestors to prove first of all that he is acting like Horus(1) when he acted to his father ; and secondly to prove his legitimacy to the throne in two ways : First by presenting offering to his Royal ancestors he is declaring that he is their successor(2). Secondly by doing so, he is showing that they "i e. the Royal ancestors" recognised and admitted him as their ligitimate heir.

Always the Pharaoh whatever he might be, a legitimate heir or usurper or foreign conqueror became the Pharaoh of Egypt, and what is interesting each one of them considered his predecessors, except some special cases such as the Hyksos and the Amarna kings, as his ancestors(3).

As a matter of fact we have many scenes in Edfu Temple dealing with the king making offering to his ancestors, offering

incense and libation to them, presenting unguent and cloth to them. There are other texts concerning the Mythical ancestors and how they played an important role in Egypt's life as well(4). All these texts will be discussed later in detail as I have mentioned before, as they throw more light upon their cult and give new evidedce about their role.

Let us now give a brief list of these secnes which will be discussed later :

(*E.* refers to Chassinant; *Le temple d'Edfou,* vol. I – XIV Cairo 1892 – 1934)

For king makes offering to his ancestors see
E. I, 479, 9 - 480,2.
E. I, 494, 8 - 17.
E. I, 526, 9—528, 1 (our present text)

For king offers incense and libation to his ancestors see
E. I, 42,4—18
F. II, 46, 6 - 47,2
E. III, 181, I2 - 182, 10
E. III, 130,13 - 131, 11
E. IV, I48, 2—I49,2
E. IV, 304, 4—305,4
E. VI, 311, 17—11

For king offers unguent and cloth to his ancestors see
E. I, 46,2 - 10
E. I, 421,7 - 422,2
E. III, 140,9 -141,8
E. III, 191,9—192,5
F. IV, 122,4 - 123,6
E. IV, 278, II—279,11

As for the Mythical ancestors see

E. I, 173,3–174,7
E. I, 382,4–15
E. II, 51, 3–52,9
E. III, 301,8–16
E. III, 323, 5—12
E. IV, 83,4-85,8
E. IV, 120, 17—103, I3
E. IV, 239,13—241, 14
E. V, 61, 17—63, 16
E. V, 160, 12—162, 6
E. VII, 118,4—119,8
E. VII, 279,16–281,2

Our scene (*E.* I, 526,9–528,1—see our pls. I—III) is in the chamber of the western stairway, on the I*st* register of the north wall. The king, Ptolemy IV, is represanted on the right of the scene, standing, facing left, in his right hand is the *hrp*-sceptre, and in his left hand he seizes the *hd*-mace and what seems to be a stick, consecrating heaps of offerings. In front of him, standing, and facing right are Horus the Behdetite, Hathor, Harsomtus then the royal ancestors of the king i.e. the gods Eurgetes (=Ptolemy III and his wife 'Arsinoe' (sic), she should be Berenice II), followed by the gods Philadelphus (=Ptolemy II and his wife Arsinoe), then the gods Soters (=Ptolemy I and his wife Berenice).

The scene is entitled in this way:

A. Title "Presenting offering to [his father] (5), that he may make a given life"

(E. I, 526,9)

B. The king "King of Upper and Lower Egypt, lord of the two lands (heir of the beneficent god) son of Re, lord of

diadems (the beloved of Isis). Long live the good God, rich in offerings, lord of provisions, ruler of danties, who provisions the offering tables of the gods and the goddenesses lord of diadems (the beloved of Isis)".

(E I, 526, 10–11)

C. Divinities

1. Horus "I give thee the offerings and the provisions that the sky gives, costly offerings which *Nwn* produces.

Words to be said by Horus the great god, lord of heaven, the [divine] (6) god, who came into being in the beginning, Re in person, and Atum in image, lord of all in his first form. I give thee everything that the sky gives and the earth creates".

(E. I. 526, 12–14)

2. Hathor "Words to be said by Hathor, mistrees of Denderah, the *M3'i*,, residing in Behdet, the *Nbty rhyt*, who rules the Two Lands, the great wife of the king of Upper and Lower Egypt, the god's mother of the bull of his mother *(k3-mwt. f)*.

(E. I, 526, 15–16)

3. Harsomtus "Words to be said by Harsomtus, the youth, residing in Behdet, the august child, son of Hathor, the divine youth, sweet of love, who provides the needs of all men.

I give thee the two portions, namely the south and the north"

(E. I, 526, 17–18)

4. The gods Euergetes (i.e. Ptolemy III and his wife)

"The two beneficent gods, lords of *Wetjeset-Hor*, of great glory in the Great-Seat, of the divine position among the gods and the goddesses, of the sacred temples in the two *itrt*".

(E I, 527, 1–2)

a. Ptolemy III (Euergetes I)

"I give thee my kingly office, [my] (7) seat, my throne, my [testament] (8) in this land.

Words to be said by the divine royal father (Ptolemy) the triumphant.

I give thee the kingship which I exercised upon earth".
(E. I, 527, 3–4)

b. Arsinoe (sic) (she shonld be Berenice II) "I shall relate thy good deeds to Horus the Beddetite, mayest thou rule the *Serekh* even as he did.

Words to be said by the god's mother (Arsinoe) (sic) the triumphant, I give thee the testament which my father has made for me (or which the father of my father has made for me)".
(E. 527, 5 - 6)

5. The gods Philadelphus (i.e Ptolemy II and his wife Arsinoe.

"The two-brother (loving) (9) gods, lords of the Throne of Re, of the great throne in *nst-Hr* (i.e. the throne of Horus), divine of image among the co-templar gods, of the sacred shrine(s) in their temples".

(E. I, 527, 7—8)

a. Ptolemy II (Philadelphus I)

"I give thee my inheritance, O son of my heir, O son of my first born son.

Words to be said by the divine king's father (Ptolemy) the triumphant.

I give thee my house, my seat, my throne".
(E. I, 527, 9 - 10)

b. Arsinoe "Words to be said by the god's mother Arsinoe) the triumphant.

I give thee the kingly office of Re, the (kingship) (10) of Atum.

(E. I, 527, II—12)

6. The gods Soters (i.e. Ptolemy I and his wife Berenice)

"The two Savior gods, lords of *Msn*, of great dignity in the Throne of the gods, of the sacrosanct image(s) among the *shmw*, pre-eminent of position (in) (11) the temples".

(E. I. 527, 13—14)

a. Ptolemy I (Soter)

I give thee the Two Lands in *3ht-nbwy* (*Akhet-Nebwy*).

O successor of the son of him I begat.

Words to be said by thê divine royal ancestor (Ptolemy) the triumphant.

I give thee the valour, the power, on the throne of Horus at the head of the living beings".

(E. I, 527, 15 - 16)

b. Berenice "Words to be said by the g d's m ther (Berenice) the triumphant.

I give thee love from all men.

(E. I, 527, 17—18)

Then the last vertical column is badly dameged but we can see only :

"King of Upper and Lower Egypt lord of the sky".

(E. I, 528, I)

To summarise the whole text we can put it in this way. The king makes offering to his ancestors and in return we find that :

1. Horus gives him a fertile land,

2. While Hathor gives him all dominion.

3. And Harsomtus gives him the united Egypt.
As for the Royal ancestors we see that:

4. (a) Ptolmy III gives him his kingship which he had exercised before.

(b) Arsinoe gives him the testament of her father.

5. (a) Ptolemy II indicating tho unbroken line of succession.

(b) Arsinoe gives him the kingly office of Re (the first god-king).

6. (a) Ptolemy I assuring the successive line, giving him the power and valour.

b) Berenice gives him love and peace from all men, "love" and "to be distinguished".

(i.e. *mr* and *tni*) were highly remarked as expressions in the selections of the new king.

Thus we see that presenting offering was not only to the principal god of the temple or other divinities, or the father and mother of the king himself, but also to the forefathers. (12) That means that the presence ef the royal ancestors showed that the king was accepted by them, and was of their essence, he was filled with their spirit and in that spirit he ruled unchallenged and unchallengeable, and directly linked to all his royal predecessors, the company of the ancestors that streched in unbroken line to the first god-king, and his position and authority were unassailabe. (13)

FOOTNOTES

1 Cf. A. M. Blackman "Priest and priesthood" in *E. R. E*, vol. 10, 294.

2. Cf. *Pap. Boulaq* 10, 10 - Spiegelberg, *Materialien*, 16-17 ; cf. W Helck, *Materialien zur Wirtschaftsgeschichte des Neuen Reiches* Teil III (*Nachr. Gottingen, Phil-hist. Kl.* 1963, Nr 2), pp. 150-151.

3. H. W. Fairman in *Myth, Ritual and Kingship* (Oxford 1958), 77 ff ; cf. Calvin W. Mc Ewan, *The oriental origin of Hellenstic Kingship* (Chicago 1934), 18—19.

4. See Fairman, *Myth, Ritual and Kingship*, 88-89

5. See pl. II, no. 1.

6. See. pl. II, no. 2.

7. See pl. III, no. 1.

8. See pl. III, no. 2.

9. Sea pl. III, no. 3.

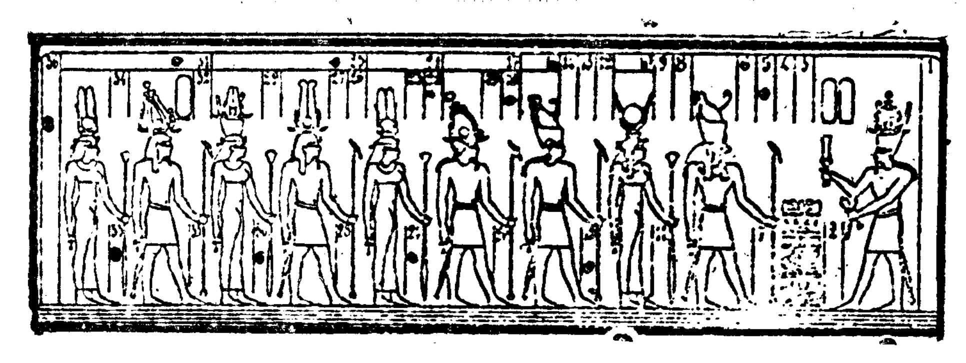
10. See pl. III, no. 4.

11. See pl. III, no. 5.

12. For this point see Fairman, *Myth, Ritual and Kingship*, 104.

13. Although the accession of Ramesses I marked the coming to the throne of a new family or dynasty unrelated to the royal family of the 18th Dynasty, in the temple of Abydos we find the celebrated List of Kings of Sethos I, son of Ramesses I, in which the king makes offering to and enumerates a long list of his royal predecossors extending backwards through Egyptian history to Menes. Although it has not been previously recognised, the Abydos King List is in reality part of the daily Ritual of the Royal Ancestors but its significance for us is that in and by it Sethos I now legitimate king, is directly linked with all the previous kings and dynasties of Egypt, each of them, however diverse their origin, forming part of the unbroken, legitimate chain of succession from Menes to Sethos himself.

The List has been often reproduced; e.g. A. Mariette, *Abydos* I, pl. 43 ; cf. Porter-Moss, *Top. Bibl.* VI, 25 (299 — 230).



(From Chassinat – E. IX, pl XXXVI a)

P. 126, 9 Title

10 The King

11

12 Divinities 1. Horus

13

14

15 2. Hathor

16

17 3. Harsomtus

18

---

1. The signs placed between the square brackets are traced in the reversed order of the rest of the inscription.

2. mtr is clear in Edfu, to be read mtr mtry (collated)

P. 259

P.287

1. 4. the gods Euergetes
2.
3. Ptolemy III Euergetes
4.
5. Arsinoe
6.
7. 5. The gods Philadelphus
8.
9. Ptolemy II Philadelphus
10.
11. Arsinoe
12.
13. 6. The gods Soters.
14.
15. Ptolemy I Soter I
16.
17. Berenice
18.
19.

1. This sign can be traced in Edfu (collated)
2. In Edfu itself we can trace this sign
3. To be read nṯrwy snwy (snnwy), the sign was forgotten by the ancient scribe
4. A scribal error for nsyt "kingship".
5. is a mistake for